بسط نظرية

(حسبنا كتاب الله)

(المقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم " انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين. ألا لله الدين الخالص. و الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى. ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون. ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار. لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء. سبحانه. هو الله الواحد القهار"

الثمار من الفروع, و الفروع من الأصل, و الأصل من البذرة. كذلك حال الناس بحسب أعمالهم, و أعمالهم بحسب أفكارهم, و أفكارهم بحسب الكتاب الذي يدرسونه و يأخذون منه. و على ذلك فأي اصلاح حقيقي يجب أن يبدأ باختيار الكتب, لأنها الجذر الباطني لكل شيء.

يختلف الناس لاختلاف المنابع التي يستقون منها. و لما كان الاختلاف و التحزب بيننا انما نشأ بسبب اختلاف الأشخاص الذين يتعلم منهم الناس و اختلاف الكتب التي يؤمنون بها تبعا لذلك, فان النظر في مسألة الامام و الكتاب هي من أهم ما يجب أن ينظر فيه كل مؤمن, و يجب أن يحدد موقفه منهما كل من يؤمن بالله و رسوله أو يرغب في فهم أمر الخالق. " و الذين يمسكون بالكتاب و أقاموا الصلوة انا لا نضيع أجر المصلحين"

أما أنا فقد نظرت و أطلت النظر و فرغت, و لهذا وضعت هذا الكتاب حتى أبين موقفي و أبينه و أدعوا اليه.

أما الكتاب فهو كتاب الله لا غير " الذي خلقني فهو يهدين" و هو الامام الوحيد. و الامام من الناس هو الذي يفهم الناس منهجه في فهم كتاب الله و يعلمهم من كتاب الله. و لا طاعة لغير الله وحده و من يامر بأمر الله. " انا أنزلنا التورية فيها هدى و نور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا"

فلا كتاب الا كتاب الله, و لا امام الا المعلم لكتاب الله.

و حالة الكمال المرغوبة هي أن يصبح كل انسان يتعلم من الله مباشرة, بلا واسطة معلم من الناس, فالقرآن امام كل الناس " و من قبله كتاب موسى اماما و رحمة". و يصبح أهل القرآن يتشاورون فيما بينهم في الأمور, و الكل يأخذ من الله و ينفق من كتابه, فيصبحوا أخيرا و بعد زمن طويل كما قال الله " اخوانا على سرر متقابلين".

فعندما تنهار كل كتب الأحزاب في نار الفضيحة و النسيان, و يعلو القرآن في حياة كل انسان, فهذا يوم البعث, هذا يوم القيامة, هذا هو الصبح الذي ينتظره الغريب "أليس الصبح بقريب"!

من العبث انتظار ثمرة ليست من نوع البذرة التي هي أصل الشجرة. فبذرة التفاح لن تخرج الا تفاح, فمن وقف أمامها ألف سنة يدعو أن تنتج برتقال فلن يفلح, بل هو من المعاندين. كذلك في أمور الفكر و الدين, كل فريق لا يستطيع أن يفهم أو يقتنع بغير ما تمليه عليه أصوله التي يؤمن بها أو غرست فيه.

تصور مثلا لو أن بوذيا جاء و قال لك " ان التناسخ حق. و اذا لم تحقق حالة الفناء التام فانك سوف تعود الى هذه الحياة و لكن بجسم آخر و قد تولد في جسم خنزير أو حجرة" فعندها ستسأله " و ما دليلك على ما تقول؟" و لنفرض أنه قال" ان كتابي المقدس يقول ذلك" ألن تستخف بكلامه و تقول " و لكني لا أؤمن بصدق كتابك هذا فكيف تحتج علي به؟" فان لم تكن له حجة من عقل مثلا, فعندها لا سبيل الى التفاهم بينكم. لماذا؟ لأن أصل فكره ليس كأصل فكرك.

و الآن تصور لو أن رجل سني قال لرجل شيعي " انه لا يوجد غير الله و كل ما عداه فهو مظاهره, و هي في حقيقتها فانية لا ثبوت لها" فقال الشيعي " و ما دليلك على ما تقول؟" فقال السني " ان القرآن يقول " كل شيء هالك الا وجهه" و لم يقل "كل شيء سيهلك" بل " هالك" أي الآن. و يقول " هو الأول و الآخر و الظهر و الباطن" فلا شيء غيره. و يقول " فأينما تولوا فثم وجه الله" فهو كل شيء" فعندها قد يقول الشيعي " صدقت" كيف يتفقون و هم من فرقتين مختلفتين؟ لأن السنه و الشيعه عموما يؤمنوا بالقرآن و العقل الذي يفهم القرآن, و لذلك اجتمعا لما ظهرت البينة.

اذن يجب قبل التحدث مع أي أحد, و قبل أن ترجوا اقناع مجتمع ما, أن تنظر في أصول العلم عند هذا الشخص أو المجتمع, و تنظر الى أصول العلم عندك, فان كان ثمة عامل مشترك فلا تتحدث الا بهذا العامل المشترك, لأن ما عدا ذلك عبث لن ينتج شيء, و العقل و الواقع يشهدان على ذلك. و ان لم يكن ثمة عامل مشترك فعندها يجب أن تعمل على خلق عامل مشترك بينكما, اما بأن تقتنع بما عنده أو تتدرج في اقناعه بما عندك,و ان حصل اقتناع ما فاذا اعمل بهذا الأمر, و الا فاعرض عنهم خير لك و لهم.

و لما نظرت في ما يسمى بالفرق الاسلامية وجدت أن أصول الفكر الديني عندهم التي يعتمدون عليها, ولو ظاهرا باللسان فقط, هي خمسة: كتاب الله و السنة و الاجماع و القياس و العقل (و العقل هنا له معنى خاص عند القائلين به, و هو ليس العقل بمعنى قوة التفكير هذه, اذ هذه بديهية في كل البشر, فالامور لا تدرك بالانف او الرجل) و عندي أن أصل هذا الدين واحد و هو كتاب الله.

و كلما تحدثنا في أمر ما, من أصغر المسائل الى أكبرها, نأتي نحن بما يقول القرآن- حسب فهمنا- فيأتي الناس بأحاديث و اجماع وما شابه ليردوا علينا. و هذا مصداق ما تقررمن قبل من أنه اذا اختلفت الأصول استحال الاجتماع. و لذلك نريد أن ننظر في السنة و الاجماع و القياس لنرى أصحيح أن القرآن لا يكفي لتبيين الأمور التي اراد الله ان يبينها لنا أم ماذا, عملا بما تقرر من قبل من أنه اذا اختلفت الأصول فيجب البحث عن عامل مشترك, و الا الاقتناع بما عند الغير أو محاولة اظهار البراهين تدريجيا لاقناعه, عن حب و اختيار, فلا اكراه و لا اجبار.

و بما أن كلامنا هو مع أناس يؤمنون بأن القرآن كلام الله رب العالمين, فالحمد لله, فهذا هو العامل المشترك بيننا كلنا.

و بما أنه و باتفاق الغالبيه العظمى لا يمكن لحديث أو لاجماع أو لقياس أن يخالف آية من كتاب الله, فهذا يزيد من قوة العامل المشترك بيننا. فبمقتضى مذاهب الناس لا يمكن لأحد أن يخالف كتاب الله. و لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق, و لو كان هذا المخلوق نبي أو ملك, و هذا مجرد افتراض "و ما كان لنبي ان يؤتيه الله الكتاب و الحكمة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله" و ظاهر للكل ان "كونوا عبادا لي" لا تعني فقط ان يسجدوا باجسامهم له و ان يرفعوا ايديهم بالدعاء له, و لكن هي من صنف ما ذكره عن الذين "اتخذوا احبارهم و رهبانهم اربابا من دون الله و المسيح بن مريم" يعني سلطة التحريم و التحليل و اصدار المعلومات التي يجب الايمان بها و ما شابه من امور. باختصار هي الاستقلال عن ما يوحيه الله لهم في الكتاب الذي ينزله. (و مع الاسف فان هذا هو

عين ما يفعله ارباب الاحزاب و الفرق المدعوة اسلامية عندما يصرون على ان للنبي سلطة اصدار اوامر و تعاليم باستقلالية عن كتاب الله بل و حاكمة على كتاب الله بل و ملغية لكتاب الله , و سنأتي على هذا لاحقا ان شاء الله).

فتسلسل الأدلة من الأقوى الى الأضعف عندهم هو القرآن ثم السنة ثم الاجماع ثم القياس. فالقياس لا يجوز أن يخالف الاجماع, و الاجماع لا يجوز أن يخالف السنة, و السنة لا يجوز أن تخالف القرآن. هذا بحسب الكلام النظري المجرد.

فاذن اذا قال الله شيء فهو الفصل في الأمر, و كل ما خالف ذلك مهما كان, و مهما أجمع عليه الناس لألف ألف قرن فهو و الباطل في منزلة واحدة. و الحق قديم لا يبطله شيء. (و اني لن اطيل بنقل رواياتهم التي تؤيد هذا فهم يقرون به, و ان وجدنا معارضة لاحقا سنذكر لهم من كتبهم و اقراراتهم ما يؤيد هذا).

فاذن القرآن هو العامل المشترك الوحيد بين كل الناس في هذه الأمة, و هو الأقوى و الأعلى. و لذلك لن نذكر حجة من غيره في هذا الكتاب, اللهم الا ما كان من باب الزام الخصم بما عنده, و لعلنا نحاول أن نستغني عن ذلك. و قولي خصم لا يعني عداوة مع شخص بعينه, انما الأفكار هي التي تخاصم بعضها البعض, فلا ندخل المشاعر أو الأجسام في هذه المعركة الفكرية. و هذا هو الجدل الراقي, قتال الأفكار حتى يتقوى الحي و يفنى الزبد الذي لا ينفع الناس. " و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون".

و بما أن المجتمع الذي أحيا فيه غالبه من الحزب المسمى نفسه بأهل السنة و الجماعة فاني أحب أن أركز على مجتمعي. و هذا مما نتعلمه من قول الأنبياء دائما " يا قوم" ليعلم الناس أنه على كل فرد أن يصلح نفسه و يهتم بقومه و مجتمعه. و آية الكسل و الدجل هي أن يركز الانسان نقده الى كل المجتمعات و الأفكار و يتغافل عن مجتمعه. لعله يخشى أن يتركوه أو يبغضوه أو حتى يؤذوه. و لكن بما أن مجتمعنا ممن يؤمنون بالله و رسوله و كتابه فلا يتصور ذلك منهم. انما تتصور العداوة بسبب العلم من أهل الجاهلية المشركين, و ننزه اخواننا عن ذلك, اذ الكلام يناقش بالكلام, و الغاية هي معرفة الخير و العمل به لا غير. و معرفة الخير تكون بالنقد لغاية العمل, لا لمجرد القول, و لذلك قال الله "الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه" فالعلم ليس غاية في نفسه في هذا المقام, اذ هو كالمال لينفق و يعمل به, و الا صرنا من الذين يكنزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها في سبيل الله, و العياذ بالله.

و سنقسم هذا الكتاب الى أربعة أبواب رئيسية: السنة, الاجماع, القياس, الفرق بين روح الكتاب و دين الأحزاب.

بسم الله مجريها و مرساها ان ربي لغفور رحيم.

(السنة)

1. (تعريف السنة)

يقولون " السنة هي قول النبي و فعله و تقريره" ثم يتوقفون, و يكون الكلام هكذا مجردا, و هذا فيه من الغموض الشيء الكثير و اخفاء لحقيقة الأمر الكاملة. لأنه لا يوجدأحد من الناس يستطيع أن يعرف ماذا قال النبي أو فعل أو قرر الا عن طريق كتب معينة, و كل كتاب كتبه شيخ معين, و هذا الشيخ هو الذي يقول أن فلان عن فلان عن فلان قال أن النبي قال أو النبي فعل أو قرر. و الفرق بين التعريف الذي يقولونه و الواقع فرق عظيم.

فالتعريف الكامل و الصحيح للسنة بحسب مذهب أهل السنة و الجماعة يجب أن يكون هكذا "السنة هي ما كتب لنا الشيوخ عن أقوال النبي و أفعاله و تقريراته" هكذا تستقيم الأمور و يزول اللبس.

لأنك لو ذهبت الى رجل سني و قلت له " ان عندي حديثا عن النبي صلى الله عليه و آله يقول أنك أنت و امامك و أصحابك كلكم من أهل الضلال و عبدة الطاغوت" فلن يصدق أن النبي الاول عليه السلام قال ذلك. لماذا ؟ لأنك رويت له حديثا من كتب الشيعة, و هو لا يصدق بالشيخ الكليني مثلا. فالعبرة بالشيخ الذي دون كتاب الحديث في المقام الأول, ثم ينظر في أمر السند و المتن لاحقا.

و هذا سبب اختلاف الناس, لأن كل مذهب يؤمن بشيخ معين أو شيوخ. و هؤلاء الشيوخ ليسوا ثقات عند أصحاب المذهب الآخر, لأسباب كثيرة ليس هنا موضع تفصيلها, و بهذا أصبح لكل مذهب شيوخ دونوا لهم كتب فيها أن النبي قال و فعل و أقر. و ما عند مذهب يختلف و يناقض ما عند مذهب آخر في أكثر و أهم الأحيان. فترى النبي يبارك صحابي هنا و يلعنه هناك! و كلا الحديثين " صحيح و رواته ثقات"!

و العجيب أن أكثر الكتب ان لم تكن كل الكتب عندما يضعون تعريفهم للسنة لا يضعون هذا الضابط الأهم. و كأنهم قد أخذوا مسألة الشيخ كاتب الأحاديث محل تسليم مطلق و كأنها مسألة لا أهمية لها. و السر لعله أنهم أدركوا أنهم لو ذكروا الضابط لانكشف الأمر و لاثار تساؤلات لا اجابة لها. و لقال الناس " و من هذا حتى نأخذ منه الدين" أو على الأقل لانفتح الباب لمثل هذا السؤال, و لا يوجد رد على هذا السؤال مطلقا, لأنه لا يوجد بشر أو حتى رب البشر الا و و قد جرحه البعض, فان كان ربنا جل جلاله لم يسلم من تجريح الناس فهل سيسلم هذا الشيخ أو ذاك. فلن يرضى أحد أن يترك كتاب الله لكتاب هذا أو ذاك.

و بسبب عدم ذكر هذا الضابط الأهم أصبحت مسألة السنة من المسائل التي لا يمكن النظر فيها. حتى أن العالم قد يبحث و يشكك في وجود الله فيقال عنه " حكيم رباني! انظر كيف وضع الأدلة على وجود الله" أما أن تثار مسألة أخذ السنة أو تركها بعمق فهذا زنديق لا محالة. لأن هذه المسألة من بديهيات الدين. و قد كان بعض ارباب هذه الاحاديث فعلا يسمي من يرفض هذه الاحاديث بانه "زنديق", بل وصل بهم الامر الى اتهام من يعرض الاحاديث على كتاب الله بانه من الزناديق و الملاحدة.

و عدد كتب الأحاديث التي كتبها المشايخ معروفة معدودة. و بما أن كتابنا هذا موجه في المقام الأول لأهل السنة و الجماعة, و بما أن كتاب البخاري هو عمدتهم و قمة الدقة و التمام عندهم, فسنضرب المثل بالبخاري, لأن الأحسن اذا ذهب ذهب الحسن معه, و اذا ثبت فنكون قد بلغنا تمام الجهد في النظر, لأن نقد الأحسن هو أحسن نقد. فسنجمع كل كتب الأحاديث تحت مظلة الشيخ البخاري, لما ذكرنا و اختصارا للكلام. فلنعتبر أن لا كتاب للأحاديث غير كتاب الشيخ البخاري الذي دونه في القرن الثالث الهجري, و الذي قيل فيه " أصح كتاب بعد كتاب الله" و الذي في أرض الواقع يعتقد الناس فيه اعتقادا عظيما حتى انك لو اسشهدت بآية من كتاب الله لشكك الناس في استشهادك (من حيث المعنى و الاستنباط و لو كان بديهيا في كثير من الاحيان) و لكن لو قلت " هذا في البخاري" فلا تجد مجادلا الا قليلا. و العيان خير برهان.

فاذا هذا هو تعريف السنة " ما كتبه الشيخ البخاري (و غيره), مدعيا أنه سمع بسلسلة من الرجال الثقات (في احسن الاحوال) الى النبي, من أن النبي قال أو فعل أو أقر أمرا, أو أن حادثة ما وقعت"

و تذكر أمرين: الأول أنك تستطيع أن تستبدل اسم البخاري بمن شئت من كتاب الأحاديث الآخرين, بقيد واحد و هو أن باقي الكتاب, في كل المذاهب حتى, لا يدعون أن كل الأحاديث صحيحة, و أن كل الرجال ثقات هكذا مطلقا. على الأقل عند عامة الناس (الذين يروج لهم مثل هذه الافكار رؤساء المذاهب و من تحتهم).

و الثاني أنه يوجد الكثير من الأحاديث في البخاري ليست مسندة الى النبي و لكن الى أحد أصحابه, و مع ذلك هي محل تسليم مطلق, خاصة عند عامة الناس الذين هم محل العبرة هنا, و ليس ما يتجادل حوله العلماء و المتفرغين مما لا يؤثر في الواقع و لا يغير مما يمر فيه الناس و يعتقدونه شيئا. فليس كل ما يعرفه العلماء يخبرون الناس به, و من هنا يدرك المستيقظ ان انتظاره العلماء , السادة و الكبراء, بان يخبروه بشئ ليصدق بوجوده او وقوعه , هذا العمل عمل غير سليم بالمرة, لان الرؤساء يفكرون بالمصالح (الخاصة ثم العامة, و اشدد على الخاصة ثم العامة) قبل ان ينطقوا بشئ, او ينشروه بين الناس. و هم يقولون امور

مثل "اننا نخاف ان نفتن الناس ان اخبرناهم بحقيقة كذا, او نخاف ان يرتد الناس ان اخبرناهم بتعليم ما كنا علمناهم اياه من قبل على انه حق ، ان هذا التعليم اكتشفنا مؤخرا بطلانه" و هذا فضلا عن نفسية الجماهير التي تحتاج الى اسلوب تعامل معين بعيد كل البعد عن اسلوب الابحاث المعرفية و العقلية التي لعلها لا تنفع الا في العزلة و الابراج العاجية و الجامعات الاكاديمية.

الآن, المقولة هي أن هذه السنة التي عرفناها هي ثاني مصدر للدين بعد القرآن. و هذا نظريا و في الكتب التي لا يفهمها الا القليل. و الأكثرية على أن القرآن و السنة في مرتبة واحدة لأن كلاهما وحي من الله, بحيث أنه لا يتصور ايمان رجل بالقرآن بدون ايمانه بالسنة. و منهم من يقول أن السنة أعلى من القرآن, لأن القرآن أحوج الى السنة من حاجة السنة للقرآن. و هذه أيضا حقيقة راسخة في القلوب و خاصة عند الذين يتصدرون لتعليم الناس. و اذا نظرنا الى مصدر عقائد الناس و أعمالهم و اهتمامهم و قصصهم و أدلتهم فسنرى أن أكثرهم يرى أن السنة أعلى من القرآن.

و بالطبع لما يقول الناس أن السنة أعلى أو مع أو أقل من القرآن فهم ينظرون الى السنة بدون ذكر ضابط الشيخ و الرواة. و لكنهم يأخذونها مسلمة على أن ما بين أيديهم هو السنة التامة الصادقة. فلو ولد الشخص في بلد يدين بالتسنن لانصرف عقله فورا اذا ذكرت السنة الى البخاري و مسلم و غيرهم, و لو في بلد يدين بالتشيع الامامي لانصرف ذهنه فورا الى الكافي و من لا يحضره الفقيه و غيرهم. و هكذا في الباقي. و لذلك عندما يتكلمون عن السنة يجعلونها في مراتب معينة.

2.(السنة أعلى من القرآن أم معه أم دونه في المرتبة؟)

يوجد أفكار في كتب الأحاديث تلغي, أو "تنسخ" كما يحب الناس أن يسموه, أفكارا في القرآن. و يوجد أحكام غير أحكام القرآن. و يوجد أحكام لم يعلمها القرآن أصلا. و هذا معروف عند كل من له أدنى اطلاع, و بديهي عند العلماء بهذا الشأن.

فمثلا, القرآن يعلم أن الوصية لا حد لها, و أما السنة فتقول الثلث. و أهل السنة يعلمون ذلك و يجعلون الحديث اما يلغي حكم الله أو يقيده. المهم أنه غير الحكم. و القرآن يحكم على الزاني أي زاني بالجلد أما الحديث فأدخل الرجم بالحجارة حتى الموت, و هذا ليس له ذكر أو حتى اشارة في القرآن كله و لا ظاهره و لا باطنه, بل ليس في القرآن رجم (هذه الكلمة بغض النظر عن معانيها المختلفة)الا شقي يريد أن يرجم ولي, فرعون يرجم موسى, أبو ابراهيم يرجم ابراهيم, و هكذا. فهذا مثال على حكم شائع في السنة غير ما في القرآن, و لم يعلمه القرآن أصلا.

و نظرة القرآن الى الوجود كله و ما فيه و محل الانسان في الشرق و نظرة السنة في الغرب. و بما أن ضرب أمثلة من هذا النوع قد يكون فيها تطويل أو تصعيب فلن أضرب الا أمثلة من الأمور البسيطة التي يفهمها عامة الناس و يتداولونها بينهم.

و بسبب أن السنة تأتي بأحكام جديدة ليس لها علاقة بالقرآن, كالرجم مثلا, و أنها تلغي أو "تنسخ" ما يحكم به القرآن(و هذا واقع بالرغم من الاختلاف الظاهري بين العلماء في هذه المسألة, و نحن نعتبر الغاء او نسخ كل فكرة تزيد على مافي القرءان او تنقص منه او تقيده او تخصصه و هذا هو عمل السنة الاساسي عندهم) و بسبب أن السنة تشرح مجمل القرآن و تفصله, و تقيد الآيات المطلقة و تخصصها, و ترفع الغموض عنه, فلذلك كله يرى بعض العلماء بحق أن " القرآن أحوج الى السنة من حاجة السنة الى القرآن" و بديهى أن الأحوج أدنى. فلذلك , السنة على التحقيق أعلى مرتبة من القرآن.

و نزيد من تأييد هذه الحقيقة. فانك لو فتحت كتب الفقه و العقائد, و سمعت الى الخطب, و اطلعت على الكتب عامة فسترى أن تسعة أعشارها أحاديث و عشرها الأخير قرآن, و هذا العشر الأخير لعل تسعة أعشاره مصحوب بأحاديث تشرحه و ليس فقط احاديث تنسب الى النبي و لكن الى من يسمون بالصحابة او اهل البيت و ما شابه.

و اذهب و اسأل أي عالم أو شبه عالم " هل نستطيع أن ندون الدين كله بدون أن نفتح المصحف, بل من كتب الأحاديث فقط؟" فان كان له اطلاع جيد فسيقول نعم. بل هذا هو الواقع فعلا. و أعيد و أكرر اذهب و افتح الكتب و اسمع الخطب و البرامج و الندوات و سترى ذلك بنفسك. و أما القرآن ففي افتتاحية الكتاب أو الخطبة و في خاتمتها أحيانا و شيء من وسطها في أحسن الأحوال. فمثلا قد ترى أن موضوع القضاء يفتتح بقوله تعالى " و اذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" و ما أشبه من الأمور العامة البديهية عند كل الناس حتى أظلمهم, أما تفاصيل المسائل فهي أحاديث و أقوال مروية عن فلان و فلان و مسلم بها. أما استنباط محض من القرآن فيندر.

و بسبب ذلك و أشباهه أصبح القرآن للجنازات و اكتساب الحسنات في مواسم غلاء أسعار الحروف القرآنية كرمضان. و الشاذ لا حكم له كما يقولون.

و أحب هنا ان انقل كلمة معبرة عن ابن حزم الظاهري- و هي كلمة لا اظن ان احد من علماء السنة ينفيها, و اني انقلها من كتاب الدكتور مصطفى السباعي-رحمه الله- عن السنة و مكانتها في التشريع الاسلامي ص189 يقول" و نسأل قائل هذا القول الفاسد (اي ان كتاب الله يكفي لتبيين امور الدين كلها): في اي قران وجد ان الظهر اربع ركعات, و ان المغرب ثلاث ركعات, و ان الركوع على صفة كذا, و السجود على صفة كذا, و صفة القراءة و السلام, و بيان ما يجتنب في الصوم, و بيان كيفية زكاة الذهب و الفضة و الغنم و الابل و البقر, و مقدار الاعداد الماخوذة منها الزكاة, و مقدار الزكاة الماخوذة, و بيان اعمال الحج من وقت الوقوف بعرفة, و صفة الصلاة بها و بمزدلفة, و رمي الجمار, و صفة الاحرام, و ما يجتنب فيه, و قطع السارق, و صفة رضاع المحرم, و ما يحرم من الماكل و صفتا الذبائح و الضحايا, و احكام الحدود, و صفة وقوع الطلاق, و احكام البيوع, و بيان الربا, و الاقضية و التداعي, و الأيمان و الاحباس, و العمري, و الصدقات, و سائر انواع الفقه, و انما في القرءان جمل لو تركنا و اياها لم ندر كيف نعمل فيها!!" مع العلم ان ابن حزم نفسه كما ينقل عنه في موضع اخر ص181 " و في القرءان مجمل كثير كالصلاة و الزكاة و الحج و غير ذلك مما لا نعلم ما الزمنا الله تعالى فيه بلفظه, لكن ببيان النبي صلى الله عليه و سلم, فاذا كان بيانه عليه السلام لذلك المجمل غير محفوظ و لا مضمون سلامته مما ليس منه, فقد بطل الانتفاع بنص القران, فبطلت اكثر الشرائع المفترضة علينا فيه, فاذا لم ندر صحيح مراد الله تعالى منه"

نقلته بطوله لان هذا النص هو خلاصة ما يقوله كل اتباع هذه الاحاديث على مختلف مذاهبهم, في القديم و الحديث. و سنأتي على كثير مما ذكر فيه لاحقا. و لكن تأمل معي في امر: في النص الثاني يقرر بأن الكلام المجمل الغير مفصل و مبين لا يمكن الانتفاع به, و في النص الاول يقرر بأن كل هذه الامور التي ذكرها مجملة في القرءان, فأنا اتساءل بالنيابة عن هؤلاء: ماذا في القرءان اذن!! كل هذه الامور و التي تساوي كل الدين عندهم غير مفصلة و مبينة في كتاب الله, كل هذه الامور, فماذا بقي اذن؟ بأي حق يقول الله –ان صدق قولهم و هو غير صادق-
"و نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ" و "تفصيلا لكل شئ" ؟ في ضوء ما يقرره هؤلاء يصبح هذا الكلام لغو- حاشا لله. فكتاب الله عندهم له وظيفة بسيطة: اولا انه "معجز" فيجب ان يدخل الناس في دين الله, ثانيا اذا دخلوا فسيعرضوا نص "اطيعوا الرسول" لهم ثم سيهجروا كتاب الله الى عالم الفرقة التي دخلوا فيها. هذه هي خلاصة وظيفة كتاب الله عندهم في الاعم الاغلب المؤثر في الواقع. و نسجل اقرارهم بان كل هذه الامور غير مذكوره بتفصيلها في كتاب الله تعالى، فان هذا الاقرار سينفعنا لاحقا ان شاء الله. فاحفظه جيدا.

فالسنة أعلى و أهم من القرآن في واقع الناس مهما قالوا بألسنتهم غير ذلك. و من الأحسن لو أقروا بألسنتهم بهذه الحقيقة الواقعة في قلوبهم و حياتهم, و لا يكونوا من الذين يقولون ما لا يفعلون فانه " كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون".

أما نظريا فترى بعض الناس يقولون أن "السنة هي المصدر الثاني", و يأتي من يقول بفكرة "عرض السنة على القرآن" و ثالث يقول " اذا لم نجد في القرآن نذهب الى السنة" و رابع يقول " أن السنة لا يمكن أن تخالف القرآن في شيء" و هذا الكلام كله كلام فارغ في الحقيقة و هم أنفسهم لا يمكن أن يعتقدوا بذلك فعلا, كما رأينا, و سنرى ان شاء الله أكثر.

فمثلا, يقولون " اذا لم نجد في القرآن نذهب الى السنة"أقول: اذا لم تجد في القرآن فيجب أن تذهب و تبكي على نفسك لأنك أعمى! فكلمة " اذا لم نجد" هل المقصود أنه " لا يوجد في القرآن" أو " نحن بحسب قوتنا لم نجد في القرآن" ؟ اذا قلت " لا يوجد في القرآن" فهذا من ثمار الكفر بالقرآن كما سنرى. و اذا قلت " بحسب قوتنا" فمعنى ذلك أنك لم تبذل كل جهدك أو لم تثق بوعد الله القائل " و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" و معلوم أن الكسل آية النفاق " و اذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى".

فهذه الفكرة " اذا لم نجد في القرآن نذهب الى السنة" بحسب حكم الله, فانها لا تصدر الا من أعمى أو منافق.

و أما فكرة " عرض السنة على القرآن" فانها حق. بل يجب عرض كل شيء على القرآن لنعرف ماذا يرى الله في هذا الشيء. و لكن هل يقوم الناس بذلك؟ و هل مذهبهم و مقتضى عقائدهم تأذن لهم بذلك؟ كم مرة رأيت أو سمعت أو قرأت حديث أو حكم أو فكرة أو عقيدة و وجدت العالم يشفع هذه الفكرة بآيات القرآن التي تبين حكم الله و نظرته لهذه الفكرة-بحسب التفصيل و التعمق القرءاني و ليس الاقتباس السطحي لايه من هنا او هناك؟ ادع هذا الجواب لك.

و لو اقتنع الناس فعلا بهذه الفكرة " عرض السنة على القرآن" و بالتالي ما دون السنة من اجماع و قياس, فالحمد لله.

3. (هل رفض السنة رفض للرسول محمد؟)

اذا قلت لأحد المؤمنين بهذه المرويات و الحكايا المسماه بالسنة " اني لا أؤمن بالسنة" سيقول لك " ألا تحب الرسول! ألا تؤمن بالرسول! لماذا لم ينزل القرآن على جبل و يأخذه الناس لوحدهم لو لم نحتاج الى الرسول؟

لماذا لم يعطي الرسول القرآن للناس و يذهب في حال سبيله؟" و أمثال هذا الكلام. و ما زال الناس على ذلك منذ قرون, و كل خلف يأخذ نفس كلام السلف.

حسنا, دعونا نضع حجة واحدة حتى لا يكرر أحد هذا الكلام بعد ذلك , و حتى يعلم أي خلط و لبس قد وقع فيه.

أقول " آتوني بسنة الرسول" هذا موجه لعلماء مذهب السنة و الجماعة, و على فرض عدم وجود غير البخاري كما ذكرنا من قبل, فانهم سيقولون لي " هذه سنة الرسول قد دونها البخاري في صحيحه".

سأقول " هل البخاري مفترض الطاعة؟" يستحيل أن يقول نعم. لأننا نعلم ما هي الطاعة اما من القرآن أو السنة حسب المذهب. و القرآن لم يذكر لا بخاري و لا غيره. و حتى السنة لم تذكر البخاري, و لنفرض جدلا أنها ذكرته فحتى في هذه الحال لن نصدقها لأننا انما عرفنا السنة من البخاري نفسه, فهو بذلك يشهد لنفسه. فاذن أنا مخير بين أخذه أو تركه بناء على معايير أخرى. فلو تركت البخاري لن يأتي الله و يقول لي " لماذا لم تؤمن به و تصدق كتابه؟ ألم آمرك بذلك؟" هذا لن يقع يقينا و بداهة. و أنا اختار رفض البخاري. و بالتالي رفض سنة الرسول التي لا نعرفها الا عن طريق هذا الشيخ. فأي بأس اذا في رفض السنة؟ و قل مثل ذلك في باقي الشيوخ العشرة أو العشرين أصحاب كتب المرويات و الحكايا.

الله و رسوله مفترض الطاعة. شيوخ الأحاديث و رواتها ليسوا كذلك. فكيف يكون الطريق الى المفترض الطاعة شخص ليس واجبا علينا طاعته؟ هذا فصل الخطاب في هذه المسألة الى الأبد.

فماذا اذا عرفت فوق ذلك أن شيخ البخاري نفسه , محمد بن يحيى الذهلي, و الذي هو أيضا شيخ لمسلم و ابن ماجة و الترمذي و النسائي و أبو داوود, و هو أيضا عدل عند المحدث أحمد بن حنبل اذ كان يقول لابنه و تلامذته أن يكتبوا الحديث عنه, فهو من أكابر العلماء بالحديث, هذا نفسه يقول عن البخاري, كما وقع في ما يسمى بفتنة نيسابور قال فيه " لا يجالس و لا يكلم, و من ذهب الى محمد بن اسماعيل (البخاري) بعد يومنا هذا فاتهموه,, فانه لا يجالسه الا من كان على نفس مذهبه" بغض النظر عن سبب قوله, و الذي حتى لو دققنا فيه فقد نجد أن الذهلي محق في حكمه بحسب أصول المذهب السني. فرجل يحكم عليه شيخه, العالم الكبير, أنه " لا يجالس و لا يكلم" و أن مجرد الذهاب اليه يوجب اتهام الشخص في دينه, فما بالك بأخذ الدين عنه. فان كان هذا هو حال أكبر المحدثين صاحب "أصح كتاب بعد كتاب الله" فما ظنك بمن دونه؟ هذا فضلا عن ان بعض علماء الرجال اتهم البخاري هذا و منهم من جعله من المدلسين (كما يذكر عن ابن حجر و ابن العجمي فضلا عن الدراسات التي تقام في هذا المجال و لست

هنا بصدد الاستقصاء اذ لا يهمني ذلك) فبغض النظر عن ما يقوله العلماء من اهل الفرق الاسلامية الاخرى عن البخاري, فان من اهل السنة و الجماعة و يحسب عليهم من يطعن في البخاري. فأي حجية و فرضية طاعة لمثل هذا او لغيره. و هذا الأمر واضح, اذ كتاب الله لم يسمي احدا , و ليس لله ولدا, فافهم.

فرفض السنة رفض للشيخ و الراوي المدعي أنه يروي السنة. و العجيب أن هؤلاء يرون الرجل المؤمن بكتاب الله, الدائم التفكر في أموره, يدعوا به و يعلم أسراره, و يرفض مقولة السنة فيحكمون عليه " هذا كافر بالرسول" و هل الذي يؤمن بكتاب الله كافر بالرسول؟ و هل جاءنا بالقرآن عفريت من الجن أم محمد رسول الله؟ و هل أصبح محمد "رسول الله" الا بالقرآن؟ فانظر كيف جعلوا الشيخ الذي يؤمنون به و الرسول في اتحاد تام حتى أن الرافض للشيخ رافض للرسول لا محالة.

فاذن كون رافض السنة رافض للرسول هو مجرد وهم استحكم في القلوب بسبب تعاقب الأجيال و كثرة السماع.

فبكل بساطة. اذا قال لك أحدهم " يجب أن تؤمن بالسنة" قل له " أين السنة؟" سيقول " في كتاب البخاري" قل "عدم ايماني بالبخاري هل يعتبره الله كفر؟" سيقول لو كان فيه ذرة علم "لا" فقل له "خذ كتابك و ابتعد عني فان كتاب الله يكفيني" فكيف يكون الطريق الى الرسول المفترض الطاعة شيخ من عامة الناس ليس مفترض الطاعة, حتى لو فعل ما فعل. فان قال أن عمودا من نور خرج من قبره فسيقول صاحب المذهب الآخر أن المهدي نفسه بشر بشيخي. و أرني بعد ذلك كيف سيحكم الله بكتابه المحكم بينهم.

فاذن مقولة السنة قائمة على شيوخ. و لا يوجد لشيخ حجة تفضله على شيخ آخر, و لا يمكن أن يدعي شيخ أنه مفترض الطاعة, و لا يمكن أن يدعي أحد أن من لا يؤمن بشيخ معين فانه كافر خارج عن الدين. فاذا تركنا هؤلاء الشيوخ فقد انهارت السنة كلها.

قد يقول السني " بل يوجد طريقة تفضل شيخ على شيخ و تجعلنا نميز الصادق منهم من الكاذب. و هي أن الصادق سيكون على مذهب الصحابة و هؤلاء كانوا على ما كان عليه الرسول" أقول, أنك لا تعرف مذهب الصحابة, و قدسية الصحابة, و ضرورة كونهم خير الناس و كونهم من المخلصين للرسول الا عن طريق الأحاديث التي كتبها لك هؤلاء الشيوخ أنفسهم! فكيف تستدل على صدقهم بشيء هم نقلوه لك, بل و

يخالفك فيه غيرك من اتباع الاحاديث ايضا كالشيعة و من المعتزلة او غيرهم؟ و القرءان لعن بعض الصحابه و بارك بعضهم، و لم يعين لا اسماء من لعن و لا اسماء من بارك فلا مجال لتحكيم القرءان هنا.

ثم ألا ترى أن من أهل المذاهب الأخرى من يروون أحاديث ضد هذه الأفكار تماما ؟ ان عمر بن الخطاب عندك هو " الفاروق, مفزع الشياطين, الراد بقوة على منكر و نكير, المحدث الملهم صاحب الموافقات القرآنية" و هو هو عند غيرك " المنافق, الغليظ القلب, كاسر ضلع الزهراء, مغتصب الحق الالهي, المعتدي على الدول, المحرف لكتاب الله, تلميذ اليهود المخلص" هذه أحاديث "صحيحة" و تلك أحاديث " صحيحة" فهل ستجعل معيار حكمك على الشيخ هو مثلا " حب الصحابة"؟ ان حبك للصحابة (هذا المصطلح الضبابي الغامض) هو نفسه مبني على مرويات هذا الشيخ لك!

لا يغرك كثر الكلام الذي أذكره. الأمر شديد البساطة و ظاهر البطلان. و لكن أزيد في التفصيل حتى أجيب عن المسألة من أكثر من زاوية حتى نعطي البحث حقه.

الاستدلال على الشيء بنفسه من صميم الجهل. كالذي يقول " يجب أن نصدق بالأحاديث" فتسأله " لماذا ؟" فيقول " لأن الرسول قال في الحديث أنه يجب أن نأخذ بالأحاديث" ! أو تسأل الرجل " من هم السلف الصالح؟" فيقول " أصحاب العقيدة الصحيحة" فتسأله "و من أين عرفت ما هي العقيدة الصحيحة؟" فيقول "لقد نقلها لنا السلف الصالح"! و هذا من المحزن حقا خاصة أنه في أمة نزل من أجلها القرآن الكريم. ان المذهب السني و السلفي قائم على هذا النوع من الاستدلال العجيب.

و قد يقول آخر " يوجد طريقة لتمييز الأحاديث الصحيحة من الخاطئة, و هو العلم العظيم الذي تفردت به الأمة الاسلامية, علم الحديث" فتعالوا نرى هذا العلم.

4. (علم الحديث)

هو مقسم الى قسمين (على العموم): علم الجرح و التعديل, و هو الذي يبحث في سند الحديث, أي الرجال الذين يروون عن بعض الى الصحابي و من ثم الى النبي. و علم المتن, و هو الذي يبحث في العلل و الاستشكالات في نص الحديث نفسه.

فعندما يقول الشيخ " حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن الصحابي أن الرسول قال كذا" هذه السلسلة هي السند , و كذا هو المتن.

و اما معايير قبول السند و المتن فيقال ان الاهتمام بالسند اكثر من المتن, و يقال عكس ذلك. و سنبحث في هذا بعد قليل.

و يحاول البعض أن يبين للناس بعد أن يعرفوا هذا الأمر أن علم الحديث يهتم بنقد المتن كما يهتم بنقد السند. و هذا مجرد وهم. وأيسر طريقة لتعرف هذا الوهم هو أن تفتح أحد الكتب التي تهتم بنقد الأحاديث و تنظر هل يحللون المتن و يعرضونه على القرآن بنفس القوة و الاهتمام الذي ينقدون به السند؟ هذا اذا كانوا يعرضون الأحاديث على القرآن أصلا. و لن تجد شيئا يذكر و اذهب و تأكد بنفسك. بل هم لا يستطيعون اصلا, اذ ماذا سيعرضون على القرءان؟ ان كان مجملا مبهما غامضا, و ان كانت اكثر الشريعة و العقيدة الى حد كبير ماخوذة من الاحاديث, فماذا سيعرضون؟ و أيسر من ذلك, كم مرة سمعت في الخطب أو قرأت في الكتب أن حديثا صحيح السند تماما رفض لأن متنه فيه خلل و يتعارض مع تعليم الله؟ هم يعلمون أنهم لو قاموا بذلك لزال الكثيرمن الأحاديث المهمة و أكثر الغير مهمة, و لذلك لن يجرؤا على نقد المتن بقوة. و لأن مذهبهم قائم على رجال و ليس على الله وحده, فالصحة معيارها حب الرجال. بالرغم من وجود حالات استثنائية هنا و هناك ترد الحديث بسبب علل في المتن, و سنأتي على ذكر اهمها. وواقعا, اتنمى ان يكون ما يروج له اصحاب هذه الاحاديث من انهم يقدمون نقد المتن على السند او يهتمون به جدا, فهذا من صلب ما نريده, فنرجوا ان نكون مخطئين و يكونوا هم على حق في دعواهم.

فتعالوا ننظر في هذين العلمين.

5.(علم السند: الجرح و التعديل)

الصحابة هم الطبقة المهمة من الرواة, اذ عنهم أخذت الروايات كلها, أو هكذا يفترض في الأحاديث الصحيحة, ثم البقية أخذوا عنهم.

أولا, عدد الصحابة يوم وفاة النبي الاول عليه السلام كان ما بين 80 و 150 ألف مسلم-حسب قولهم. فلنأخذ المتوسط و نقول كانوا 120 ألف مسلم. و عدد الصحابة الذين رويت عنهم الفتوى و الأحاديث لا يتجاوز 500 صحابي, هذا مع المبالغة الشديدة, مع العلم أن العدد المقدر الذي يذكره العلماء يهذا الشأن هو نحو 200 صحابي, و لكن لا بأس فلنبالغ حتى لا يبقى لأحد أدنى شبهة. و عدد الصحابة الذين وصلت الينا أسمائهم, حتى لو لم نعرف عنه شيء الا أنه فلان و قتل يوم كذا أو فلان و مات يوم كذا , هؤلاء لا يتجاوز عددهم 4000 صحابي. فاذن في أقصا أقصا المبالغات الكاذبة نسبة الذين رويت عنهم هذه الروايات لا يزيد عن 1% من مجموع عدد الصحابة, و هذا اذا تنزلنا و زعمنا أن عدد المسلمين كان 100 ألف, و أن عدد رواة الأحاديث كانوا 1000. و لو حسبنا بدقة لكان عدد الرواة من الصحابة أقل من عشر العشر. فلو رفض رجل هذه الزمرة كلها, و التي لا تبلغ عشر العشر, فكيف يزعم جاهل أن هذا رافض " لكل" صحابة رسول الله؟!

تصور لو أن مسجدا فيه 120 ألف مسلم. و دخلت الشرطة و اعتقلت 200 منهم. ماذا تقول لو جاء رجل و قال " ان الشرطة اعتقلت كل الذين كانوا في المسجد" ؟ لغز محير! خاصة في مثل هذه الموارد.

و أزيد فأقول: اذا علمت أنه و بحسب الأحاديث نفسها, كان النبي ينهى عن كتابة حديثه, و هذا ثابت و غير منسوخ كما سنرى لاحقا ان شاء الله, فاذا نظرنا الى أنه لا يوجد الا أقل من 1% من الصحابة هم الذين حدثوا عن النبي أو نسبوا الى النبي. فهل بعد أن نعلم بالقرآن و بالواقع أن كل نبي يأمر كان من بعده يغيرون أمره و يخالفونه, هذا ثابت حتى بالأحاديث نفسها, فهل من المبالغة أو الكفر اذا نسبنا الى هذه الزمرة الي لا تتجاوز عشر العشر أنها خالفت أمر الرسول, و 99% من الصحابة عملوا بأمر الله و رسوله و لم يحدثوا بحق او بباطل؟

فان كان أرباب الاحاديث ينسبون الكفر الى الذي يرفض سلوك عشر عشر الصحابة فيحق لنا أن ننسب الكفر الأعظم الى هؤلاء الذين يرفضون سلوك 99% من الصحابة. فمن منا تابع للسنة و من منا الخارج عليها؟ " ألا ساء ما يحكمون".

الى هنا ينتهي البحث, لأن قاعدة علم الحديث هي السند و قاعدة كل سند هم هؤلاء الرواة من الصحابة الذين لا يتجاوزون بعد الاسراف في المبالغة 1% من الصحابة, و هؤلاء فيهم مجروحين لكثير من الأسباب. لكونهم خالفوا أمر القرآن, و خالفوا أمر محمد النبي في عدم التحديث و التسبب في فرقة الأمة, و خالفوا الاتفاق الاغلبي العملي لغالبية الصحابة أنفسهم, أي ال99% الذين التزموا بأمر النبي.

و اذا أردنا زيادة الدقة في الكلام لقلنا أن حتى هذه الزمرة من الخارجين على الرسول و الصحابة, عرفنا أنهم نحو 200. و لكن اذا نظرنا الى الروايات لوجدنا أن أغلب الأحاديث مروية عن بضعة أشخاص و البقية رواياتهم قليلة نسبيا. فمثلا أبوهريرة و ابن عباس و ابن عمر و أنس و عائشة هؤلاء لهم الحظ الأعظم في الروايات. فاذا عرفنا أن أبوهريرة لم يسلم الا قبل وفاة النبي الاول بثلاثة أو أربعة أعوام, و ابن عباس كان صغيرا يوم وفاة الرسول لدرجة أن شهادته لعلها لم تكن تقبل لصغره حينها , فهؤلاء الأربعة الذين لا تكاد تسمع ثلاثة روايات الا و اثنان منها عنهم لم يروا الرسول الا بضعة سنين و في سنين الطفولة, فعندها يتملكنا العجب من هؤلاء الذين تركوا كتاب الله و تركوا 99% من صحابة رسول الله ليلحقوا بأطفال و من الله أعلم بهم! (و لا اريد ان اخوض في جرح هؤلاء بحسب ما في كتب اهل السنة و الشيعة انفسهم, و لكني اذكر لمجرد التنويه و اهل العلم بالشأن يعرفون ما أقصد).

فهذا الأسلوب من ارهاب الناس لن ينفع بعد أن يفهم الناس حقيقة الأمر. يقولون للناس أن رافض السنة رافض للصحابة. و يموهون عليهم و يصورون لهم و كأن كل الصحابة كانوا من الرواة. فماذا سيصير حالهم اذا عرف الناس الحق؟ السبب الرئيسي لوجود أحزاب و فرق في هذه الأمة هو هذه الروايات. و مشعل نار الفرقة هم هذه الزمرة التي لا تتجاوز عشر عشر الصحابة. فافعلوا ما شئتم فقد عرفتم.

و بالمناسبة, اختلف العلماء بالاحاديث في عدد الرواة من الصحابة الذي يجعل الحديث "متواترا" فمنهم من يقبل الحديث و لو رواه واحد, و منهم من يقول خمسة رواة, و منهم من يزيد, و لعل اكثر حديث وجد له رواة من الصحابة (على ما يقال) هو ما يسميه الشيعة بحديث الغدير الذي نصب فيه النبي علي بن ابي طالب خليفة للمسلمين (كما يعتقدون). فقد اطلعت على موسوعة الغدير للعلامة عبد الحسين الاميني-رحمه الله- و الذي ذكر ان عدد رواة هذا الحديث يصل الى 110 صحابي...و مع ذلك يقول بعض علماء الاحزاب الاخرى ان هذا الحديث مكذوب اختلقته الرافضة!! فحتى ضمن عالم الفرق الاسلامية, لااحد يسلم للاخر باحاديث تخالف مذهبه اللهم الا ان وجد لنفسه تاويلا يصرف الحديث عن معناه , حتى اذا كان الحديث صريح الدلالة فانهم دائما يجدون وسيلة لصرفه عن معناه و ذلك لان الاحاديث نفسها تسمح بذلك العبث لاسباب سنذكرها بعد قليل. و اريد ان اضرب مثالين على هذا الذي ذكرته نمر عليها بسرعة و بدون تعليق مطول.

يروى ان النبي دعا على معاوية بن ابي سفيان و قال "لا اشبع الله بطنه" بعد ان ناداه اكثر من مرة و كل مرة يقال للنبي ان معاوية ياكل. فدعا عليه. اختلف الناس في تفسير هذا, فمنهم من قال ان هذا دعاء و شبه لعنه انزلها النبي بمعاوية فكان ياكل سبع مرات و لا يشبع (و هذه نعمة يحسده عليها الملوك كما يقول ابن كثير المحب لمعاوية!) و منهم من ضعف الحديث, و منهم من قال انه دعاء لمعاوية! لان النبي اذا لعن احد او دعا عليه فان هذه تنقلب الى زكاة و رحمة له. فتأمل كيف ان الحديث الواحد البسيط يمكن ان يتقلب بين الصحة و الضعف, و المضمون يتقلب بين اللعنة و البركة و النقمة و الرحمة. و لو شئت ان اتي انا بمعنى اخر غير كل ما طرحه هؤلاء لفعلت و لكن اظن الفكرة وصلت. فقد نقول ان "بطنه" تعني باطنه، اي قلبه و روحه، فيكون النبي قد دعا له بان يكون نهم في باطنه اي في طلب المعارف و العلوم المعنويه ، بدل الانشغال بالنهم الجسماني الحسي. في نظري هذا من اجمل التفاسير لهذه الروايه عن نبي الرحمه !

و يروى ان النبي قال "ان الله خلق ادم على صورته" هذا الحديث الذي امن به و يؤمن بمضمونه ملايين الاسلاميين على مر العصور, تجد ان بعض الشيعة الامامية يقولون ان هذا الحديث ناقص, تكملته ان احد الصحابة سب صحابي اخر و قال له ما معناه: قبح الله صورتك او ما شابه, فقال له النبي: لا تسبه "فان الله خلق ادم على صورته". فتامل كيف ان المعنى انقلب جذريا بين الحديث الاول و الثاني, ففقي الاول يكون الضمير عائدا على الله, اي على صورة الله, و في الثاني يكون عائدا على ادم. فرق بين الارض و السماء, و هذا من اكبر عيوب هذه الاحاديث كلها.

على اية حال, فان كان الاعم الاغلب من الاحاديث الموجودة هو احاديث احاد, ثم ان كانت الاحاديث المتواترة القليلة هي التي يرويها في الحالات النادرة الشديدة الندرة جدا , يرويها 5 او 10 او 110 صحابي (ان سلمنا للأميني), و ان كان من هؤلاء القلة القليلة جدا المحاطة بما الله اعلم به انما هم اما امثال ابوهريرة (اكذب الناس عند البعض) او ابن عباس (الصغير) او ابن عمر (النسونجي صاحب اليهود عند البعض-الذي لا يفقه كيف يطلق امراته) او عائشة (التي يتهمها البعض بأفحش ما اتهم به بشر و الخارجيه التي تسببت بمقتل الوف من المسلمين بسبب عصيانها لامر النبي و لامر القرءآن كما يرى البعض) او انس (الذي يقال ان علي دعا عليه لانه كتم شهادته او انه كذاب ايضا) فحتى لو كان كل ما فات تهما باطلة عند البعض, فهي حق عند البعض الاخر, و ليس عندنا في كتاب الله دليل براءة لاحد باسمه, و لا ذم لاحد باسمه, فاذن: من هذا الذي يجرؤ على الادعاء بان رفض ما جاء به هؤلاء (هذا على فرض انه لم يكذب الرواة عليهم) هو كفر يخرج الانسان من دين الله الحق؟ و من هذا الجاهل التعيس الذي يزعم ان دين الله لم يكن ليثبت و يتبين لولا رواية او اختلاق هذه الشرذمة من البشر؟ نحن نتحدث عن موسى و عيسى و ابرهيم و محمد و جبريل و رب العرش العظيم, و هم يسعون لجر الناس الى ابن عمر و ابن عباس! "الا ساء ما يزرون".

ثانيا, هل اختيار الرواة له ميزان دقيق؟ اعلم أن الحكم على السند هو الحكم على رجاله, فمن هذا الذي سيحكم على الرجال؟ و بأي معيار سيحكم؟ فالبحث هنا عن الحاكم و عن معيار الحكم.

أما الحاكم. ان كان كلام الحاكم يؤثر في عدالة الرجل و ضعفه فمن الذي وثق هذا الحاكم نفسه؟

مثلا. البخاري يقول عن عمر أنه ثقة و عن زيد أنه ضعيف. فاذا انوجد عمر في سند و أمثال عمر فيصبح السند قويا, ثم تبعا لذلك مسلم به (ان سلم من العلل الاخرى). و اذا انوجد زيد في سند فالمتن ضعيفا تبعا لضعف السند, الا في حالات نادرة. السؤال, من حكم على البخاري أنه ثقة حتى يقبل الناس حكمه في الرجال؟ أما أن يجعل نفسه ثقة فلا يصح لأنه حتى فرعون لا شك و أنه كان يرى نفسه قطب الثقات. و أما أن يحكم عليه الرجال, كأن يحكم عليه أحمد أنه ثقة, فيعود السؤال على أحمد, من حكم عليه أنه ثقة؟ و هكذا ندور في حلقة مفرغة من الأوهام, و كما ترى فان الدور المنطقي الباطل و التسلسل الباطل لا مفر من أحدهما في هذه المسألة. اما أن نقول " أحمد عدل لأن البخاري عدله, و البخاري عدل لأن أحمد عدله" و اما نقول " البخاري عدل لأنه عدل نفسه, أو عوام الناس تثق في البخاري" فاذا فليبق البخاري عند الناس الذين عاشروه ووثقوه, فان البخاري نفسه لما ذهب الى نيسابور طردوه منها. فبلدة تراه ثقة تبارك به الأرض و بلدة تراه مبتدعا خارج عن الدين قد تلعن الأرض بسببه, فأي البلدتين حكمها صحيح؟

ثم هذا الحاكم هل سيجرح في الرجل في حال حضوره أو حال غيبته؟ ان كان في حال حضوره اذا لقامت الحروب بين الناس و أصبحت السفاهة و السب من علم الدين. هذا يقول " أنت ضعيف لا يعتد بك" و ذاك يقول " بل أنت الذي غضب الله عليك" و من زعم أن هذا من دين الله فليستعد. و اما أنه سيحكم عليه في حال غيبته, و لا أعلم ماذا بقي من الامتثال لأمر الله " و لا يغتب بعضكم بعضا" و هل بعد أن تقول عن المسلم " ضعيف, و ضاع, لا يعتد به, زنديق, فيه تشيع, مبتدع" هل بقي من الغيبة شيء؟

فاذا الحاكم نفسه لا حجة له, لأنه هو نفسه يحتاج من يوثقه. و ان كان سيحكم في حضور الرجل المجروح لقامت السفاهة, و هذا ما لم يقع غالبا, و ان كان الحكم و جرح الرجل في غيابه فقد عصي أمر الله بسبب هذا " العلم" . " و لا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى" انت لا تملك ان تزكي نفسك, فكيف يحق لك ان تزكي غيرك؟ فاقد الشئ لا يعطيه.

أما معيار الحكم. فهو قائم في اما على الذوق الشخصي للناقد و على ما يعرفه الناس عن الرجل. كمن يسكن في بلدة فالناس تعرف عنه الكثير من شؤونه, و هذا قد نسلم به, و لكن محل التساؤل هو المعيار الباطني او المذهبي. فمثلا قد يوجد رجل من الشيعة في السند فيحكم السني على الرواية بالضعف, و العكس صحيح. و لذلك أصبح لكل مذهب كتب أحاديث مختلفة, لاختلاف الرجال, هذا من أهم الأسباب. فقد تجد رجال من الخوارج في كتاب البخاري و لا تجد رجال العلويين و حتى كبارهم كالامام جعفر الصادق او آلاف غيرهم من العلويين-اللهم الا بضعه استثناءات فيها ما فيها. و لكنك لن تجد غالبا في كتاب شيعي رواية فيها خارجي و تعتبر صحيحة, بل لعلك لن تجدها أصلا. فاختلاف المذهب هو من أكبر المعايير التي تفرق بين صحة الحديث و ضعفه. "فالرافضي لا يكتب عنه و لا كرامة" كما يقال. و من هنا أصبح النبي يفعل في كتب السنة أمور و لا يفعلها بل يبالغ في انكارها في كتب الشيعة! و ترى الواقعة يقصها الكتاب السني بطريقة و عكسها تماما تكون القصة في الكتاب الشيعي, و هذه رواية صحيحة و هذه رواية صحيحة, و هذا ما لا مخرج منه. و لذلك لم يخرجوا منه بعد اربعه عشر قرنا.

و علم السند عامة يجعل اهتمام الناس ينصرف الى من قال و ليس الى ما قيل. و لذلك بعثت الجاهلية بين المؤمنين من يوم انتشار علم الحديث.

و يوشك الناس أن يجعلوا علم السند هذا من القوة و اليقين و كأن قوته كقوة روح القدس. كلما أثير موضوع الحديث قالوا " علم السند! علم السند!" ألا ترون ما فيه من ضعف و ووهن و تحيز.

البخاري عند فرقة يوشك أن يكون معصوما بل لعله صار. و عند فرقة عالم. و عند ثالثة مبتدع صاحب مقولة كفر. و عند رابعة ناصبي خارجي مهين للأنبياء و كرامتهم. و عند خامسة لا هم لهم فيه أصلا. و صاحب كل رأي من هذه الآراء رجال لهم حجتهم و مكانتهم و تقواهم و صلاحهم و صلاتهم و صيامهم وحبهم لله و رسوله. أي قوة و أي يقين هذا الذي يظنه السذج؟

ثم أين هي الصعوبة في اختراع سند صحيح؟ أي صعوبة أن يقول رجل أو يكتب " حدثنا فلان الثقة عن ثقة عن ثقة عن الصحابي الجليل عن النبي " سيقولون " ننظر هل هذا الرجل المحدث عاصر الثقة الذي يحدث عنه" حسنا, كان الثقة حيا ثم مات في زمانه, و كان من أهل بلدته, بل كان جاره, و بعد أن مات هذا العالم الجليل حدث هذا الرجل عنه أنه قال له كذا و كذا. و بالطبع هذا المحدث فاسق في الباطن يريد الشهرة و بعض من الأمورالتي لا يعلمها الا الله, و لكن في سبيل ذلك يلف العمامة و يصلي في الصفوف الأولى و يغشى عليه ثلاث مرات كل يوم من خشية الله, أي صعوبة و استحالة في ذلك؟

يحكي السيوطي في كتابه (تحذير الخواص من اكاذيب القصاص) ان احد هؤلاء الحكواتية قال" حدثنا احمد بن حنبل و يحى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق عن قتادة عن انس قال رسول الله "من قال لا اله الا الله خلق الله من كل كلمة طيرا من ذهب و ريشه من مرجان" و كان من سوء حظ هذا الحكواتي ان احمد بن حنبل و يحى بن معين كانا حاضرين في المسجد حين حكى ذلك, فنظر احمد الى يحى و قال له: أنت حدثت بهذا؟ فقال يحى: والله ما سمعت بهذا الا الساعة! فذهبا الى الحكواتي فرد عليهما: اليس في الدنيا يحى بن معين و احمد بن حنبل غيركما؟ لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل و يحى بن معين ! " (نقلته من كتاب السباعي ص104) تأمل في هذه القصة اللطيفة, ثم انظر الى "صعوبة" اختلاق الاسانيد "الصحيحة"! لولا ان ابن حنبل و ابن معين كانا في المسجد بالصدفة لعلنا كنا سنجد حديث هذا الحكواتي في "صحيح" البخاري!

و بسبب سهولة اختلاق الأحاديث أصبح في يد محدث كأحمد بن حنبل الذي هو من رجال القرن الثاني, تصور بعد مجرد مرور مئة أو مئتين سنة على ذهاب الرسول و الصحابة, أصبح عنده 1000000, مليون حديث (و يقال 750 الف) اختار من بينها 40 ألف حديث فقط . و في يد البخاري 600 ألف اختار من بينها بدون المكرر نحو 2700 حديث. ففي القرن الثاني الهجري استطاع الناس اختلاق نحو مليون حديث. تصور هذا الرقم الهائل في بضعة أعوام, و هذا ما وصل الى ابن حنبل فما ظنك بما لم يصل اليه؟ ثم يأتي من يسمعنا أنكر الأصوات و يقول " علم الحديث !علم الحديث!"

تصور لو أنك دخلت الى محل يبيع الذهب. و أرت أن تشتري مليون قطعة ذهب. فأعطاك مليون قطعة. ثم لما بدأت تفحصها ظهر لك أن 960 ألف قطعة كلها ذهب مغشوش " فالصو" . ماذا ستفعل؟ ألن تشك في باقي

الأربعين ألف؟ و ما أدراك لعل عينك زاغت هنا أو هناك من فحص مليون قطعة. فلو كان يوجد محل ذهب آخر ألن تذهب اليه؟ أروني رجل يشتري بضاعة من تاجر يغشه في 96% من البضاعة و أنا أريكم حمار في جسم بشر. (مع العلم ان هذا العدد الهائل يضم الاحاديث باسانيد مختلفة, او المكررة احيانا- و مع العلم ان هذا غير الاحاديث التي يرويها الشيعة مثلا فتأمل).

لقد وجدت العادات الجاهلية طريقها الى هذا الدين بأن نزعت ثوبها القديم و لبست ثوبا جديدا. فبعد أن كان الشعر أقدس الأمور ربطوه بالقرآن الذي هو أقدس الأمور. و بعد أن كانت العصبية ديدنهم جعلوا عصبيتهم ضد من يخالفونهم في مذاهبهم. و بعد أن كان التعصب للآباء حجتهم جعلوا علم السند حجتهم. ألا ترى أن الناس تسمع اليوم بالأمر و بدل أن تفهم تبادر الى القول الجاهلي " ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق" هل الاحتجاج بفعل السلف الصالح في أي أمر هو غير هذه النبوة التي رسمها الله في القرآن؟ و العجيب أن هؤلاء من حفظة القرآن, ألعلهم كالذين حملوا التورية ثم لم يحملوها ؟ نقول " الله أعلم بما تعملون".

يذكر الدكتور السباعي-رحمه الله- تسعة اسباب او بواعث تؤدي الى وضع الاحاديث (كما في ص106): الزنادقة, ارباب الاهواء و البدع, الشعوبيون, المتعصبون لجنس او بلد او امام, المتعصبون للمذاهب الفقهية مع جهل و قلة دين, القصاص, الزهاد و المغفلون من الصالحين, المتملقون للملوك و الطالبون الزلفى لديهم, المتطفلون على الاحاديث ممن يفاخرون بعلو الاسناد و غريب الحديث. اقول: هل يوجد راوي واحد يخلو من هذه البواعث التسعة؟ طبعا من يسميهم "اصحاب الاهواء و البدع" مثلا يشملوا كل من يعتقد "هو" و من هم على نفس مذهبه انهم اهل اهواء و بدع, و لا شك انه هو و امثاله اهل اهواء و بدع عند غيره فتأمل. و كذلك مثلا عندما يقول "المتعصبون لامام" فهو يضرب مثلا بالشيعة الذين يتعصبون لعلي و اولاده فيضعون الاحاديث في فضلهم, و الشيعة بدورهم يتهمونه هو و امثاله بانهم يتعصبون لامامهم مثل ابو بكر و عمر و يضعون الاحاديث في فضلهم. و قل مثل ذلك في كل هذه البواعث التي تدفع الراوي لاختلاق الاحاديث. و لا ننسى قصة محمد بن الحجاج النخعي الذي روى حديث "الهريسة تشد الظهر" فقيل عنه انه كذاب لانه هو نفسه كان بياع هريسة! فوضع الحديث للترويج لبضاعته! و لاشك ان كل "بياع هريسة" سواء كانت هريسة عقائدية او مذهبية او سياسية او اقتصادية سوف يجد احاديث تقول ان هريسته تشد الظهر و تضاعف الاجر! و الله من وراء القصد. فهيهات ان يخلو راوي واحد من احد هذه البواعث التسعة التي يعددها نقاد الحديث. و من هنا كل رواية يمكن ان نحكم عليها بالوضع بناء على هذه المعايير. و هذا ما هو واقع فعلا بين الفرق المختلفة. هذا يلعن هريسة ذاك, و ذاك يلعن هريسة هذا, و كل يبيع الهريسة التي يشتهيها و النبي مؤيد له بالاحاديث و "كل حزب بما لديهم فرحون".

يقال ان القرءان هو الذي جعل الصحابة عدول و يذكرون الايات التي تثني على المهاجرين و الانصار لدعم قولهم. اقول: كفوا عن اسلوب "ويل للمصلين". لقد ذكر القرءان ايضا وجود المنافقين في الصحابة, و ذكر وجود الملاعين, و ذكر وجود المحرفين, و السماعين للكذب و لقوم اخرين, و و و...الخ. حزب السنة يأخذون ايات المهاجرين و الانصار

و يعدلون كل الصحابة (الذين لا يعرفون منهم الا اقل من عشر العشر فتأمل), و حزب الشيعة عموما ياخذون الايات التي تذكر المنافقين و الملاعين و يقدحون فيهم, و القول الوسط هو وجود كلا الصنفين. فالذين يروون الحديث كيف ستعرفون يقينا و بحكم الهي انهم من هذا الصنف او هذا الصنف؟ الجواب: لا تستطيعون لان الله لم يسمي احدا منهم و نحن لا ندري بل و لا يهمنا ان ندري. و أبسط مثال هو عمر بن الخطاب: هو عند فرقة امير المؤمنين و عند اخرى امير الملاعين, و حسبنا الله و نعم الوكيل! فاذن هذه حجة كاسدة في سوق القرءان, فاذهبوا و العبوا بها بعيدا عنا من فضلكم.

أختم البحث في السند بكلمة و اسمعها جيدا. ان الذي أصبح يرغب في أن يكون انسانا عاقلا متعلما لكتاب الله لا يبالي لو كان السند " عن قارون عن هامان عن فرعون عن ابليس" أو كان " عن يوسف عن يعقوب عن اسحاق عن ابراهيم" و انما ينظر في المقولة نفسها. هل ثلاثة زائد ثلاثة تصبح خمسين لو قالها نبي ولا تكون ستة لو قالها فرعون؟ ضع ثلاثة جنب ثلاثة ثم احسب بنفسك. و ان كانت مسائل الدين ليست كمسائل الرياضيات، و لكن في المثل كفايه لمن كان له قلب او القى السمع و هو شهيد. ويكفي ما أضاع الناس في هذا الأمر من الوقت و الجهد و الذي لو كانوا بذلوه في دراسة كتاب الله لكنا في حال آخر. و انا لله و انا اليه رجعون.

6.(علم المتن)

كما رأيت أن المتن قد يقول أن الرب العزيز جعل موسى كليمه الأعلى يتعرى أمام بني اسرائيل لكي تطمئن قلوبهم أن أعضاء رسولهم التناسلية سليمة من العيوب, أو أن سليمان جامع 100 امرأة في ليلة واحد خاصة في عصر قبل اختراع الفياجرا, و على فرض أنه بدأ بعد المغرب فورا و لم يتوقف لحظة الى الفجر و كان في ليلة شتاء طويلة فانه يكون قد جلس مع كل واحدة نحو 7 دقائق, (الحديثين في البخاري) و حدث و لا حرج عن الاتيان بنظرة للحياة غريبة عن أمر الله, و أحكام تلغي أحكام القرآن, و أخرى تزيد على أمر الله, و ما أشه, و كل ذلك لا يهم طالما أن الرجال ثقات و المضمون مقبول من الحزب اولا و اخرا. كم من متن سليم المعنى رفضوه لان السند مرفوض, و كم من سند سليم عندهم رفضوه لان المتن مرفوض. ان افكار الحزب تأتي اولا, ثم كل ما عدا ذلك يأتي ثانيا. و لو شئت ان امثل لذلك لفعلت و لكن لا اريد ان اطيل فلعلي اضرب مثل او اثنين لذلك, و اهل هذه الفنون يعرفون جيدا انهم يقدمون عقائد الحزب على كل اعتبار اخر.

نذكر أمرين ننقد بهما علم المتن هذا في نفسه: مسألة السياق, و مسألة الدقة.

أما السياق. فمعلوم و بديهي أن الكلمة الواحدة باختلاف السياق الذي ترد فيه يتغير معناها. فمثلا, تصور لو أن جماعة كانوا أمام النبي, و فيهم رجل اسمه عمرو. فروي حديث يقول " عمرو خيرهم" قد يعني ذلك مدحا و قدحا في آن واحد باختلاف الجماعة, من هم؟ و ما السبب الذي جعل النبي ينطق بهذه الكلمة؟ فلو كانوا جماعة من العباد المتعلمين للقرآن لكانت هذه الكلمة مدحا عظيما لعمرو, و لكن لو كانوا جماعة من المنافقين لكانت قدحا و

مدحا في آن واحد, و لو كانوا سفاكين دماء حكم عليهم بالقتل لما عرفنا سبب جعل عمرو خيرهم. خيرهم في ماذا و لماذا؟ و هكذا لا يمكن أن تفهم أكثر المقولات ما لم يعرف السياق تماما, بل حتى بعد معرفة السياق قد تبقى الكثير من المقولات في غموض شديد, فما ظنك اذا كان السياق مختفي أصلا؟ و أكثر الأحاديث من هذا الصنف الذي لا يعرف سياقه. أو الذي يمكن أن نفرض له أكثر من سياق بدون مرجح لواحد على آخر الا ما نشتهيه. و بذلك يتغير المعنى تماما. و القرائن متوفره لكل هذه الاطر و السياقات التي تفرض على الروايه.

دعوني أضرب مثلا بحديث بسيط و مشهور و يظهر أن معناه بديهي و أريكم كيف يمكن تغيير المعنى تماما بتغيير السياق و شئ من الفذلكة. الحديث الذي يقول النبي فيه عن عمر بن الخطاب " لو سلك الشيطان واديا لسلكت الشياطين واد آخر" ينظر اليه الناس على أنه مدح و منقبة, اذ يدل على خوف الشياطين من عمر, و هذا دليل شدة ايمانه, لأن الشياطين تخشى أن توسوس له فيعمل بأحسن مما كان سيعمل به قبل الوسوسة.

و لكن اذا علمنا أنه حتى الأنبياء تتعرض لهم الشياطين كما في القرآن " ألقى الشيطان في أمنيته" و "اني مسني الشيطان بنصب و عذاب" و لو تصورنا أن السياق كان أن النبي يحذر جماعة من المقربين له من شر عمر و أنه سيتسبب في تحوير الدين عن غايته, فيكون معنى الحديث أن الشياطين اذا رأت عمر في وادي ذهبت الى وادي آخر لأن مهمة الشياطين هي اضلال الناس و عمر كفاهم في حمل عبء اضلال الناس في هذا الوادي. فاذا رأوه في مكان قالوا " الحمد لله, عمر سيضل هؤلاء, تعالوا نذهب الى مكان آخر"!

و هكذا و بكل بساطة و بمقدمات يمكن اثباتها بحجج قوية و طويلة مفصلة لو شئنا, فانا نستطيع أن نجعل الفضيلة رذيلة في نفس الشخص و من نفس الحديث. لماذا؟ لغياب السياق الكلي. و هذا ما تفعله الفرق الاسلامية فعلا في كثير من الاحيان.

و أكثر الأحاديث تستطيع أن تفرض لها سياقا, و تأتي بالحجج على هذا السياق – من خارج الحديث أيضا و ليس بالضرورة من نفس الرواية, ثم تستنبط معنى آخر تماما من الحديث. و من شاء أن يجرب فليجرب.

و أما الدقة. فان كلام العلماء عامة و الأنبياء خاصة يكون دقيقا, و أي تغيير فيه يخرجه عن معناه الذي أراده الحكيم منه. فلو كانت الأحاديث تروى بالمعنى في أكثر الأحيان, حتى بدون أن يتقصد الراوي التغيير و هذا من شؤون الذاكرة, فالدقة لا محل لها. لا تتواجد الدقة التامه الا بالكتابة. و بغياب الدقة لا يبقى يقين في المعنى المقصود من الجملة. و من هنا يروي ابن ماجة في سننه ان زيد بن ارقم كان يقال له: حدثنا, فيقول: كبرنا و نسينا و الحديث عن رسول الله شديد. و كذلك يروي البخاري في كتاب العلم عن عبد الله بن الزبير انه قال لابيه: اني لا اسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم كما يفعل فلان و فلان, فقال: اما اني لم افارقه و لكن سمعته

يقول "من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار". تأمل جيدا في مضمون هذين الحديثين. كلاهما من كبار الصحابة (بالرغم من الطعن الموجه للزبير خاصة من قبل بعض الفرق), الاول يقول انه كبير و نسي و الثاني يبين ان "من كذب علي" فهو في النار. تأمل ان كلمة "متعمدا" لم تذكر, و ان اضافة كلمة متعمدا في الحديث هذا هو من اكبر اسباب الاكثار من الرواية و الاختلاق. ما الفرق بين "من كذب علي متعمدا" و بين "من كذب علي" فقط؟ وجود كلمة متعمدا تعني ان الذي يكذب على النبي غير متعمدا فهو ليس في النار, اما رواية الزبير فتعني انه سواء كذبت عليه متعمدا او غير متعمدا فالكاذب في النار! هل تعي خطورة هذا؟ يعني من يقول "قال رسول الله" و يغير حرف واحد في النقل, فبنص حديث الزبير هو في النار, سواء كان يقصد التغيير او لم يقصده او وقع سهوا او لاي سبب. و من هنا قال زيد بن ارقم ان "الحديث عن رسول الله شديد". فمن يا ترى يتجرأ ان يزعم ان النبي قال كذا او كذا خاصة و ان الاحاديث لم تدون رسميا في عصر النبي, و انما دونت بعد نحو مئة سنة من وفاته؟ فضلا عن ان عدم العلم اليقيني بسياق الحديث التام هو اكبر تغيير و تحريف لمضمون الحديث, و هيهات ان يستطيع احد ان يدرك سياق كل حديث و كل تفاصيله الدقيقة التي ان تغير واحد منها لتغير كل معنى الحديث. فمن اين يا ترى تجرأ علماء الاحاديث و انصارها ان يجيزوا ما يسمونه "رواية بالمعنى"؟ و من اين يا ترى استطاع هؤلاء ان يجدوا الجرأة الكافية في ان ينسبوا كل هذا الكم الهائل من الاحاديث المتضاربة للنبي الاول عليه السلام؟ هذه تساؤلات اقدمها لهم ليفكروا فيها لان شهادتهم ستكتب و سيسألهم الله عنها.

و قد يقول البعض أن الحديث الصحيح يرويه رجل معروف بالحفظ و الضبط. أقول : أي ضبط و أنت لا تعرف المقولة الأصلية؟ كيف تعرف أنه نقلها " بضبط" اذا لم تكن تعرف ما هي المقولة الأصلية حتى تقارن بينها و بين المروية فتعرف هل ضبط أو لم يضبط؟ سلسلة من خمسة رواة, واحد يغير فتحة و يجعلها كسرة, و ثاني يغير "من" و يجعلها "عن", و ثالث حرف و رابع يقدم كلمة على كلمة و اذا الحديث قد فسد تماما. مع العلم أن الرواة من البشر الذين يمرون بأمور في الحياة كل يوم قد تنسيهم ماذا أكلوا على الغداء اليوم أو أمس, فأي دقة تنتظر من ناقل عن غيب الذاكرة و لم تدون روايته الا بعد قرن أو قرنين من الزمان؟ اذهب و اسأل الأب " ماذا قال لك ابنك قبل أسبوع؟" و انظر هل يستطيع أن يأتيك بالكلام كما هو. و لذلك جوزوا رواية الحديث بالمعنى.

فالسياق المنعدم و الدقة الغائبة يجعلان الرجل في حرية تامة أن يفعل ما يشاء, حتى اذا أراد تجويز سفك الدماء لاستطاع بل قد فعلوا ذلك. ولذلك نرى عشرات المذاهب في الحديث الواحد. كحديث "نزل القرآن على سبعة أحرف" يوجد في تفسيره أكثر من ثلاثين قول حتى وصل الأمر الى هذا العصر فقال عالم فيه لما سئل " ماذا صح عندك في تفسيره؟" قال " صح عندي أنه لم يصح عندي فيه شيء" ثم يأتي من يقول أن هذه الأحاديث تبين القرآن بل يزعمون ان كتاب الله مفتقر اليها. تعالى الله عما يشركون.

و أما مسألة عرض المتن على القرآن, فبالرغم من أنها ثابتة عند كل الفرق بنحو او اخر, و يأتون بحجج من القرآن و الحديث و العقل و ما أشبه, و لا يوجد من يقول أن كلام مخلوق يجوز أن يخالف كلام الخالق جل و علا, و لكن

على صعيد الواقع و مقتضى هذه المذاهب لا يوجد شيء اسمه عرض الرواية على القرآن مهما زعم الناس غير ذلك. و يظهر لي أن السبب الذي يقولون أمثال هذا الكلام هو لكي يظن أتباعهم أنهم يسيرون مع الله في كل شؤونهم. فيقول العامي " لو كان الكلام الذي يعلمونا اياه يخالف القرآن لعرف المشايخ ذلك و لصححوه و لا شك" اذهب و اسأل شيخك أن يبرهن على صحة كل تعاليمه الدينية من كتاب الله و انظر ماذا سيفعل.

فلو قال أحدهم رأيا في مسألة بناء على حديث صحيح عنده, ثم جئت أنت بآية من كتب الله تخالف هذا الحديث الشريف لرد عليك الفقيه بكل سهولة, اما أن الآية ملغية أو "منسوخة" و اما أن لها سبب نزول , أو " من أنت حتى تتكلم بالقرآن! و الصحابة أعلم به" و اجماع السلف حجة. هكذا حتى لو كانت الحجة واضحة لا يجد هو نفسه ردا عليها فسيستعمل الرد الكبير الجاهز في وقت الضيق و هو اما أن يخرجك من العقلانية أو يخرجك من الملة الاسلامية. و اذا قلت " لماذا ؟" قال " هكذا!"

فمثلا بسيطا يوضح الأمر. اذا قال أحدهم أن القرآن يجيز استعباد الناس و اتخاذ الجواري و السبي. فقلت له " ان السبي هو سبب الاستعباد, أي أسرى الحرب. الأسر سبب و الاستعباد أثر له, فان كان الله قد ألغى السبب و منع منه فكيف يكون قد أقر الأثر؟ كمن يقول : لا تأكل. ثم يقول : يجب أن تشبع" سيقول لك " و أين منع القرآن من اتخاذ الأسرى؟" ستجيب " قول الله " و ما كان لنبي أن يكون له أسرى" " هل هناك أوضح من هذا ؟ فيأتي و يرد عليك بسهولة قاطعة و يقول " هذه نزلت في معركة بدر, و هي خاصة بهذه الحالة" و هكذا و بجرة قلم ألغي حكم الله و أصبحت البلاد " الاسلامية" صاحبة أكبر أسواق بيع للعبيد و الجواري في العالم كله. سبب نزول و حديث عطلوا آية فاستعبد الناس لأربعة عشر قرنا, و اليوم نحصد نحن ما زرع الاباء بالامس.

فاذا فكرة عرض السنة على القرآن هي خيال صعب على المؤمنين بالقرآن أن لا يتخذوه تسكينا لقلوبهم التي تقول : و هل بعد كتاب الله كتاب؟ و أين كتاب الله في مذهبنا ؟ أو النداء الأعظم من العزيز الجبار " فبأي حديث بعد الله و آياته يؤمنون" .

يذكر الدكتور السباعي في ص116 من كتابه السنة انه يوجد 8 علامات مهمة تكشف الوضع في المتن اي ان متن الحديث مكذوب. تأملها جيدا فهي أغرب ما ذكره و لا ادري صراحة كيف ذكره (و هي علامات ممتازة) , و انا الخص و ما بين القوسين كلامي انا:

1 ركاكة اللفظ (لان النبي افصح العرب).

2 مخالفة لصريح القرءان بحيث لا يقبل التاويل (هذا هو ما نقوله نحن! عجيب و هل يوجد احد ممن يسمون بالقرانيين يرفض حديثا الا لانه يخالف صريح القرءان بحيث لا يقبل التأويل؟)

3مخالفة حقائق التاريخ المعروفة في عصر النبي.

4 موافقة الحديث لمذهب الراوي و هو متعصب غال في تعصبه كأن يروي رافضي حديثا في فضائل اهل البيت(لا أدري ايعقل هذا الرجل و نقاد الحديث ما يكتبون, فاذن كل من يروي حديثا يوافق مذهبه يكون ذلك طاعنا في المتن و لو كان السند سليما؟ فاذن السني البكري الذي يروي حديثا في فضائل ابو بكر نكذبه, و الفقيه الشافعي الذي يروي حديثا يوافق مذهبه نكذبه. و من يا ترى هذا الذي لا يتعصب لمذهبه و دينه حتى انه يبيح لنفسه كل شئ في سبيله؟)

5أن يتضمن الحديث أمرا من شأنه ان تتوفر الدواعي على نقله لانه وقع بمشهد عظيم ثم لا يشتهر و لا يرويه الا واحد.

6اشتمال الحديث على افراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير (لماذا يحجرون على كرم الله, ان كان حقا من النبي فهو حق) و المبالغة بالوعيد الشديد على الامر الحقير (اذن راجعوا الحديث الصحيح عندكم الذي يتوعد من تخرج منه كلمة لا يلقي لها بالا فتهوي به سبعين خريفا في نار جهنم, او الحديث الصحيح الذي يجعل من لا ينظف نفسه من البول يتعذب في القبر و ما شابه, ام ان هذه القواعد للتسلية فقط و استعراض العضلات الفكرية؟)

7 الذوق الفني , فكثيرا ما يرد علماء الحديث احاديث لمجرد سماعهم لها, لان ملكتهم الفنية لم تستسيغها و لم تقبلها (و هذا من الطف المعايير التي ذكرها و التي تبين لنا مقدار كيف ان "الملكة الفنية" هي معيار من معايير قبول و رد الاحاديث و لو كانت ما كانت, القدماء معذورون في وضع مثل هذا المعيار العجيب لعدم بلوغهم درجة عالية في العلم بالنفس الانسانية و كيفية قبولها او اشمئزازها من الامور, اما ان يذكر اهل هذا العصر مثل هذا فهو غريب.و لكن لا بأس لنتجاوز هذا)

8 فساد المعنى: ان يكون الحديث مخالفا لبديهيات العقول من غير ان يمكن تأويله, مخالفا للقواعد العامة في الحكم و الاخلاق, داعيا الى الشهوة او المفسدة, مخالفا للحس او المشاهدة, مخالفا لقواعد الطب المتفق عليها, مخالفا لما يوجبه العقل لله من تنزيه و كمال, مخالفا لقطعيات التاريخ او سنة الله في الكون و الانسان, ان يكون مشتملا على سخافات و سماجات يصان عنها العقلاء, فكل ما يرده العقل بداهة مردود, قال ابن الجوزي "كل حديث رأيته تخالفه العقول, و تناقضه الاصول, و تباينه النقول فاعلم انه موضوع" و قال الرازي "كل خبر اوهم باطلا و لم يقبل التأويل فمكذوب او نقص منه ما يزيل الوهم". (بصراحة بعد ان قرأت هذه الفقرة احترت, و صرت اضرب اخماسا بأسداس, و كنت على وشك ان اجزم ان هذا الدكتور-رحمه الله- كان فاقدا جزءا كبيرا من الوعي اثناء كتابته. أيعقل ان تكون هذه المعايير مقبولة عند اهل الاحاديث؟ اذن لماذا هذه الضجة كلما رفض احد الناس حديثا بسبب من هذه الاسباب التي ذكرها, و لو كان صحيح السند ؟ لماذا هذا التشغيب الفارغ الذي نشاهده و نسمعه هنا و هناك؟ اسألكم بالله ان جاء ابليس نفسه و عرضنا عليه حديثا خاليا من كل هذه الامور التي ذكرها الدكتور اكان يرده؟ ان المشكلة ليست في وجود هذه المعايير, فهذه المعايير كلها او اغلبها نسبية الى حد كبير, فأي عقل سنحكم حين نرفض حديثا؟ او ما هو الضابط الى الذي نزن به ما يدعو الى الشهوة مثلا؟ و هل تجدون فردا

واحدا في كل هذه الامة رفض حديثا الا بناء على هذه الامور التي يذكرها الدكتور , و هو لا يبتدعها انما هو ناقل عن العلماء بالحديث؟ فان كنتم ترضون بهذه المعايير فالحمد لله, ان كنتم ترضون بها فعلا و عملا, و ليس وضع الشعارات البراقة على اسلوب الذين يقولون ما لا يفعلون, فتأمل).

فعلم الحديث كبيت العنكبوت. و لا أهمية له في واقع دين القرآن.

7.(الأدلة القرآنية على حجية السنة)

كما عرفت فان المعنى الحقيقي للسنة هو شيوخ اختاروا رجالا بناءا على معاييرهم الخاصه و الذوقيه و هؤلاء الرجال كل واحد منهم يدعي أنه سمع من الذي قبله حتى يصل الأمر الى رجل أو امرأة من الجيل الأول, الصحابة, ظاهرا في الغالب و ضمنا احيانا (كما في الروايه المسماه بالمرسله) و هذا بدوره يحدث و ينسب الى النبي قولا أو فعلا أو تقريرا- ظاهرا او ضمنا.

فعلى ماذا يجب أن تطلب الحجة؟ يظن الناس أن الجدل هو حول وجوب طاعة رسول الله. و هذا أيضا من الخلط العجيب. فانهم لما يطالبوا بالدليل على وجوب اتباع السنة من القرآن يأتون بأدلة لاثبات وجوب طاعة الرسول. و هل القرآن جاء الا عن طريق محمد النبي؟ و هل سيؤمن بأمر القرآن و يعمل به من لا يصدق بما صدر عن النبي؟

و السر في ذلك أنهم يقطعون بأن ما كتبه الشيوخ عن الرجال الذين اصطفوهم هو كلام النبي(ضمن ما يسمونه صحيح و حسن و غير ذلك بناء على علم الحديث الرائع الذي سبق ان ذكرناه), فأخذوا هذه على أنها مقدمة مسلمة, ثم أرادوا أن يثبتوا أن كل ما يصدر عن النبي يجب اتباعه سواء كان القرآن أو غير القرآن, و من هنا تبدأ استدلالاتهم.

و ليس كل المحدثون مقبولين عندهم, و لا كل الرجال مقبولين, بالرغم من أن كل هؤلاء يعتبروا من "خير القرون" . و قد يكون رجل من التابعين و لكن لا تؤخذ روايته, و آخر من التابعين يروي مباشرة عن النبي بدون أن يذكر واسطته من الصحابة فيقبلون روايته. و هكذا يوجد تفاوت شديد بين من الذين تؤخذ عنهم الأحاديث. فالدليل المطلوب هو أن يأتوا بحجة من القرآن على أن فلان يجب أن تؤخذ روايته. و أن الله يعين رجل أو رجال يجب أن يصدقهم الناس فيما يقولون عن النبي. و ليس كما يفعل الضبابيون الذين يحشرون أدلة طاعة الرسول, فهذا أمر مفروغ منه عند كل من آمن بالقرآن. تأمل هذا جيدا فما اكثر من يلعبون و يحشدون ايات طاعة الرسول على انها هي محل النزاع, و هذا سخف منهم لا يغتفر, لانه عن عمد في اغلب الظن.

من هم الذين تقبل روايتهم عن النبي؟ هذا هو المطلوب لمن أراد أن يعرف هذه المسألة. و لا يستطيع أحد أن يأتي بدليل من كتاب الله على حجية رجاله خاصة و رد الرجال الآخرين. و لذلك لم يتطرقوا الى هذه المسألة, و لكن استعملوا فكرة " الحرب خدعة" و التفوا من وراء الجبل عن طريق التركيز على فكرة طاعة الرسول.

الشيعة يداومون على طرق هذا الباب أكثر من حزب السنة. لأن الشيعة يستندون على آل محمد حسب فهمهم في الروايات, أما السنة فيستندون في أكثر أمورهم أو كلها على هذه الفئة الصغيره من "الصحابة". و يقولون أن النبي أمر باتباع القرآن و أهل بيته, و هؤلاء يقولون أن النبي أمر باتباع القرآن و الصحابة. فالشيعة بحثوا في الأمر من جانبه الحقيقي أكثر من السنة, اذ ركزوا على من هم الذين تؤخذ عنهم الرواية و لهم الحجة في ذلك. الا أنهم في نفس المأزق من حيث اعتمادهم على الآباء و الشيوخ و الرجال المختارين من الرواة. و ظاهر ان كتاب الله لم يحدد لا علي بن ابي طالب و لا علي بن موسا الرضا عليهم السلام! و حتى "اولو القربي " او "اهل البيت" في القرءان ليس فيها تعيين لهذا او ذاك، بل ان اصول القرءان تخالف او لا اقل تعارض مبدأ القرابه الجسمانيه في اثبات مثل هذه الامور الروحيه و العلميه- و هذا بحث اخر.

لماذا لا يفهم هؤلاء أنه لا يجوز أن ينسب كلام الى رجل لم يكتب بنفسه هذا الكلام او في اضعف الايمان ان يشرف هو بنفسه على هذا التدوين. لو أراد مثلا صحابي أو امام أن ينسب له شيء لكتب بنفسه. و حيث انه لم يكتب فبأي حق تأتون أنتم و تقولون قال كذا و فعل كذا؟ انما يستعمل هؤلاء الصحابة و الأئمة كعلاّقة لملابسهم.

و كلا الفريقين يقول أن القرآن هو الأعلى. و بديهة أنه لا يجوز الاستدلال على شيء بنفسه أو أقل منه. فمن قال أن الدليل على حجية السنة هو القياس أو اجماع الأمة على وجوب الأخذ بها فانما يظهر لنا فرط سفاهته و سوء جهالته. و من قال أن الدليل على حجية السنة هو أنه يوجد أحاديث عن النبي او الصحابة او العلويين تقول بوجوب اتباع السنة فليس بأقل سفاهة من الأول.

و العجيب أن أكثر من نراهم و نسمع لهم يقولون بقول هؤلاء الجهال الذين لا يذكرون أقل و أسهل مبادىء الاستدلال. خاصة العوام منهم. فهم كرجل يسوعي يأتي لمسلم و يقول له " يجب أن تؤمن بالأناجيل التي عندنا" فيقول المسلم " ما الدليل على ذلك؟" فيقول له " لأن الأناجيل تأمر بذلك" فنرجوا من الناس أن ينزهوا أنفسهم عن أشباه هذا الاستدلال الذي يبعث الأسى في القلوب من سوء ما صارت اليه عقول بعض الناس.

فأي استدلال على السنة, أيا كان تعريفها و مهما كانت, يجب أن يكون من كتاب الله وحده. و أي استدلال غير ذلك أيا كان و أيا كان مصدره فهو ليس الا لغوا.

الآن, ما المطلوب الذي نريد أن نستدل عليه؟ اثبات حجية رجال باعيانهم من القرآن. و بعد ذلك اثبات حجية شيخ معين من القرآن. و اثبات أن كل ما يقوله النبي الاول عليه السلام يجب أخذه مهما كان موقف القرآن منه او مهما كانت ظروف قوله و تفاصيل الروايه التي تنقله. و قبل ذلك كله يجب اثبات أن كتاب الله لا يكفي في تبيين أمر دين الله كما اراده الله ان يتبين.

فاذا ثبت أن الله يقول أن كتابه لا يكفي لتبيين الدين, فبذلك يجب أن نبحث عن ما هو هذا الذي ألجأنا الله اليه لكي نعرف الدين الذي يريده هو عز اسمه. فاذا ثبت أن هذا الشيء هو سنة محمد النبي عليه السلام فيجب أن نثبت ما هو الطريق لمعرفة هذه السنة. فاذا ثبت أنه عن طريق الصحابة مثلا فيجب أن نعرف هل كل الصحابة أو بعضهم؟ و ما معيار معرفة من هو الصحابي؟ و على فرض أننا أجبنا على كل ذلك من القرآن فيجب أن نثبت من هم الرجال من التابعين و غيرهم الذين تقبل روايتهم عن الصحابة. فاذا عرفنا فيجب أن نثبت من هم الشيوخ الذين تقبل كتابتهم عن هؤلاء التابعين, و يجب أن يحدد لنا الله ذلك كله في كتابه حتى لا يبقى أي لبس لأن الله لا يريدنا أن نختلف و نتحزب بل " و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا" و اذا لم تأت كل هذه الأجوبة من الله فلا محالة سنتفرق. و هذا ما نشدد عليه. كون الله كتب كثيرا حول ضرورة "و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا" فهذا يعني ان الله قد كتب و بين كل ما من شانه ان يوصلنا الى هذه الغاية. و بدون الاجابة على التساؤلات السابقة باجابة الهية شافية فان الاعتصام و عدم التفرق مستحيل, مستحيل, مستحيل. و يكون كلام الله حينها عبثا – حاشاه.

و الآن أروني من يستطيع أن يتجرأ أن يزعم أن الله تعالى قد أجاب على سؤال واحد من هذه الأسئلة؟

هل قال الله أن كتابه لا يكفي لتبيين دينه؟ هل جعلنا الله مفتقرين الى غيره؟ هل قال أن كتابه " مجمل" أم ذكر في عشرات المواضع أنه مفصل تفصيلا؟ بل يوجد سورة كاملة سميت " فصلت" لعله لعلمه أنه سيأتي من يستعمل فكرة أن القرآن مجمل ليفرق الأمة. و بما أن كتاب الله يكفي فلا حاجة للاجابة أصلا عن باقي الأسئلة, لأنها انما تقوم اذا كان لا يكفي.

و لكن دعونا نتنزل و نذكر أن الله لم يقم وزنا لكلام محمد الا في حالة واحد لا ثاني لها, و هي اذا كان وحيا منه, أي القرآن. " قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي" محمد من حيث نفسه- اي باستقلال عن كتاب ربه- هو بشر مثلنا لا حجة لكلامه على كلامنا و لا لكلام أي رسول أو نبي, بل ان النبي الذي يحث الناس على طاعته من دون الله و كتابه فهو ملعون كذاب و كذلك الملائكة, ألم تتعلموا ذلك من كتاب الله؟ و الوحي وحي واحد, "قل انما أنذركم بالوحي" و لم يقل وحيان! و قال " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" بالقرآن فقط!

دعونا نتنزل أكثر و نذكر أن الله لم يذكر اسم صحابي (باستثناء زيد في قصه خاصه) و لا امام و لا أي شيء. و ان كان ذكر في موضع أن الصحابة أخيار فقد ذكر في موضع آخر أن منهم أشرار. و هل المنافقين من المجوس أم من الصحابة؟ و ما أدراكم أن الذي وصل اسمه اليكم من الأخيار أم من المنافقين؟ هل تستطيعوا أن تقطعوا بذلك؟ خاصة اذا علمنا من أحاديثكم نفسها أن عمر بن الخطاب كان يخشى أنه من المنافقين, و اذا علمنا أن رواة الأحاديث هم القلة القليلة و التي يغلب على الظن أن الناس كذبوا على لسانهم أو كانوا أنفسهم من المنافقين الذين فرقوا الأمة. فأيا كان الوضع, فالله لم يذكر اسم صحابي و لا أمر بأخذ شيء من أحد منهم اذ لا نعرفهم أصلا. (و اما من يدعي ان الشك في الصحابة هو شك في القرءان لانهم هم الذين نقلوه لنا, فهذا له بحث اخر سياتي قريبا).

دعونا نتنزل أكثر و أكثر و نذكر أن الله لم يذكر اسم شيخ. هل قال الله أن تصدقوا البخاري أو الكليني أو أيا واحد من هؤلاء؟ هل سمى الله أحد منهم و قال لنا أننا مفتقرين الى هؤلاء لكي نعرف دين الله؟ أي مرض في هؤلاء الذي يجعلهم لا يصدقوا أن كتاب الله نزل لتبيين دين الله؟ هل هذه من الأمور الصعبة على الفهم؟

فاذا مقولة السنة هذه لا يمكن أن تقوم على أساس القرآن مطلقا. فهي فكرة مستقلة بنفسها. فالسنة مصدر مستقل للتشريع و لا علاقة لها بالقرآن من حيث كونها في الدرجة التالية له, أو من حيث التبعية له, أو من حيث الاستناد عليه.

و الى هنا أستطيع أن أوقف الكتاب و نكون قد فرغنا بحق. و لكن بما أن هذه الفكرة مترسخة في القلوب و هي سبب مهم لبعد الناس عن كتاب الله, فتعالوا نتنزل أكثر و أكثر و ننظر في كل ما يتمسك به هؤلاء الناس في هذه المسألة.

يستدل أهل الأحاديث لحجية أحاديثهم من كتاب الله بأمرين: آيات و الاجمال. الاجمال هو أن كتاب الله مجمل غامض و فيه أحكام عامة جاءت السنة و فصلتها, فالقرأن يذكر اقامة الصلوة و لكن أين أن الظهر أربع ركعات و الفجر ركعتين؟ و هكذا. فتعالوا ننظر في الآيات واحدة واحدة ثم ننظر هل القرآن مجمل أم ماذا؟

1" و ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى"

هذه الآيات من سورة النجم تبين كيفية نزول الوحي على محمد و هي القصة التي هجرها الناس و جاؤوا بقصة الغار. و المطلوب جعلها تثبت أن كل كلمة ينطق بها محمد وحي من الله (و منهم من يجعلها تشمل حتى كل فعل ايضا, بناء على العصمة المطلقة التي ينسبونها الى النبي, و بحث العصمة له موضع اخر) و بما أن كل ما ينطق به يعتبر وحي, و الوحي كله حق, فاذن كل ما ينطق به محمد حق لاريب فيه و لا مبدل له و لا مغير, لأن هذه هي صفة الوحي الرباني " لا مبدل لكلماته" و بالتالي السنة وحي من الله. هذا هو الاستدلال الأعظم عند كل أصحاب فكرة الأحاديث أيا كان مذهبهم و حزبهم. تعالوا ننظر.

أولا, بحسب الآية و تفسير علماءهم لها, فانه يقتضي أن "كل" كلمة نطق بها محمد وحي من الله, حق تام, كل كلمة وحي, انتبه للكلام جيدا, " كل ما ينطق به وحي" أشدد على كلمة "كل". فاذن قبل أن ينطق محمد بأي شيء فان الوحي يلقى اليه. و لا شك أن محمد كان يعلم ذلك من نفسه.

حسنا, انظر الى قول الله " يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك؟" فحسب ما سبق, فان الوحي جاء الى محمد الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي, و قال له بعد حصول موقف معين مع زوجاته " قل هذا حرام علي" فقال محمد " هذا حرام علي" و بعد قليل أو كثير جاء القرآن, و الذي هو أيضا وحي من عند نفس الاله الذي أوحى قبل قليل, و قال له " لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك"! تصور حال النبي لو كان قد وقع له ذلك فعلا. و حي يقول "حرم على نفسك" لأنه لا ينطق الا بالوحي كما يقولون, و وحي آخر يقول "لم تحرم". هذا ما يسميه بعض الناس بالوقوع في حيص بيص!

و أيضا في قوله " عفا الله عنك لم أذنت لهم؟" فان موقفا معينا قد وقع, و جآء أناس الى النبي يستأذنونه في الذهاب, و بما أن كل ما ينطق به وحي (و ما يفعله ايضا عند البعض) فان الوحي ألقي اليه و قال له و لو بالمعنى "ائذن لهم" فقال النبي " اذهبوا فقد أذنت لكم" و بعد قليل يأتي وحي آخر من نفس الاله الذي أوحى قبل قليل و قال له "عفا الله عنك لم أذنت لهم" لو كان هذا قد وقع فعلا كما يلزم من هذه الفكرة لكان الرد سهلا و صادقا, لقال النبي " يا رب أنت أوحيت الي أن آذن لهم, فان كل ما أنطق به وحي, و الوحي كله حق, فاذن كل ما نطقت به وحي حق فلم تعاتبني و أنت الذي أوحيت الي؟"

و أيضا في أي حادثة يتغير فيها كلام محمد يمكن أن نقول نفس ما قلنا. و نحن نعلم جرم الذي يغير حرف من وحي الله. فتصور لو أن محمد قال لزوجته " ائتني بكوب من الماء" ثم قال " لا, ائتني بكوب من اللبن" لدل ذلك أن الوحي متردد, أو و العياذ بالله أن النبي غير في الوحي, و كيف يغير أليس كل ما ينطق به وحي مقدس, أليس هذا مقتضى كلامهم.

و قول الله " و لو تقول علينا بعض الأقاويل" هل له اي معنى اصلا لو فرض أن كل ما ينطق به محمد وحي مقدس؟ فهو أصلا لا يستطيع أن يتقول. فمعنى ذلك أن كلام الآية عبث و العياذ بالله. اذ كأن رجل يأتي و يقول " لو حمل هذا الطفل ألف كيلو من الحديد سأضربه" هذا كلام سفيه لأن الطفل لا يستطيع أصلا أن يحمل ألف كيلو من الحديد. فالامر متعلق بالاستطاعة و ليس بالاختيار. فالعصمة المطلقة هذه تنفي عن النبي اي بشرية و اي فضيلة و اي اجتهاد و أي قيمة. اصبح أشبه برجل ألي, ميكروفون الهي ان شئت. النبي مختار او مسير؟ هذا هو لب الموضوع. القرءان يقرر ان النبي بني ادم مختار, تفسيرهم لاية "و ما ينطق عن الهوى" فضلا عن مغالطاته القرءانية, فانه ينفي و يعارض ايات كثيرة و يحيل القرءان الى مسرح تمثيلي- حاشاه. نعم ان "لو" لا تقتضي ان المفروض بعدها وقع، و لكن في سياق القرءآن و ابتلاء الانسان عموما - و الانبياء خصوصا- فان فكره العصمه المطلقه او الوحيانيه المطلقه هذه تحتاج الى اعاده نظر بجديه من قبل من يعتنقها. "لو تقول علينا" لا تعني انه تقول. و لكن ان لم تكن تعني انه يستطيع ان يتقول، كما ان يونس يستطيع ان يتخلى عن التكليف الالهي له و يظن ان ربه لن يقدر عليه، فهذا امر اخر. و اما نظريه العصمه و الوحيانيه المطلقه فتعارض هذه المبادئ الاساسيه في حياه الانسان بما هو انسان.

هل يوجد أحسن من وحي الله؟ بالطبع لا يوجد. ألستم تجدون في الأحاديث التي عندكم أن النبي قال أمرا ثم جاء أحد من أصحابه فقال أحسن منه فأخذ النبي بقول الصحابي؟ فلو كان كل ما ينطق به محمد يعتبر وحي مقدس لا أحسن منه, و من أحسن من الله حديثا, لكان المفترض أن يرد الرسول على الرجل و يقول له " ما أنطق به فهو الأحسن لأنه وحي فلا تحدثني بمشورتك فعندي أحسن منها و انا انطق عن الحق تلقائيا و دائما" . و ألستم تجدون أن النبي " نطق" بأمر فظهر أنه خاطىء؟ كحادثة تأبير النخل مثلا, و كذلك في القرآن, فلو كان كل ما ينطق به وحي فهل يخطىء الوحي؟

و جعلهم كل نطق وحي دليل على أن تسعة أعشار المحدثين أو كلهم من المحرفين المغيرين لكلام الله, ألستم تروونه بالمعنى, و تبدلون الكلمات و تجوزون ذلك, و قد عرفت من قبل أن تغيير السياق أو خفاءه, أو تغيير كلمة بل حرف في بعض الأحيان يغير المعنى كله. فمن هذا الذي يتجرأ أن ينسب الى الوحي ما ليس منه ثم ينسبه له؟

فالمقصود بقوله " ان هو الا وحي يوحى" هو القرآن فقط. و الباقي استنباط و محكوم بأمور عديدة, كالظروف الزمانية و الاجتماعية و الحالات النفسية و ما أشبه, و الذي هو تحت قوله " أنا بشر مثلكم" و القرآن تحت " يوحى الي" فعلى فرض ثبوته لا أحد ملزم بالأخذ به لكونه محكوما بظروف شخصية زمانية و مكانية و اجتماعية و سياسية و اقتصادية و جوية غير التي عندنا, فما بالك و هو لا ثبوت له أصلا الا قليلا. و ما يصلح للطفل لا يصلح للشاب, و ما يصلح للشاب لا يصلح للشيخ الكبير, و كذلك القرون, ما يصلح للقرن الأول لا يصلح للعاشر و هذا لا يصلح للعشرين- و ذلك في الامور الارضية, و هنا الفرق بين القرءان السماوي و بين التطبيقات البشرية الارضية. و قد تقول: اذن القرءان ايضا لا يناسب هذا العصر؟ اقول: يوجد فرق لأن القرءان كتاب الله, و اما

تفصيل هذا الأمر فقد درسناه في كتب اخرى, فليراجعها من يشاء. او ادرس القرءان مباشرة لتعرف بنفسك و ان شئت ان تستشيرني في ما وصلت اليه فهذه كتبي بين يديك, و هذا عملا بارشاد الله "و أمرهم شورى بينهم".

2" و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا"

الرسول و الله واحد. اذ نحن لا نعرف أمر الله الا عن طريق الرسول . و لذلك قال أن من يطع الرسول فقد أطاع الله. و الادعاء أن للرسول أمر مختلف عن أمر الله هو من صور التفريق بين الله و رسله.

و لاحظ أن الله لم يقل " و ما آتاكم محمد فخذوه" و لكن "الرسول" و الرسول هو رمز على الرسالة. و الرسول لا يحكم الا كما قال الله " و أن احكم بينهم بما أنزل الله" فأصلا الرسول لا يؤتي الناس الا أمر الله الذي هو في كتابه.

فما معنى أن يجعل الله طاعتين في قوله " و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول" ؟ يقولون " أطيعوا الله" يعني القرآن و "أطيعوا الرسول" يعني السنة. فهل هذا صحيح؟

الشرك هو وجود طاعتين. فهل يأمر الله بالشرك؟ ان القرآن انما ينطق به الناس. و الناس منهم من يحرّف و منهم من يفهم و يفصل بنفس معاني كلام الله. فقوله " أطيعوا الله" يعني كتابه " و أطيعوا الرسول" أي الذي يفهم كتاب الله من كتاب الله و لا يأتي بكلام من عنده أو من كتب أخرى و يحرف بها كلام الله. فهي طاعة واحدة.

فهل الرسول كان يطيع الرسول؟ اذن الرسول لم يعمل بأمر الله القائل " و أطيعوا الرسول" ؟ لا الرسول لا يحتاج ذلك الأمر لأنه يفهم كتاب الله مباشرة من نفس الكتاب. و لكن من الناس من لا يستطيع أن يفهم كتاب الله لصغر سنه أو ضعف نظره, فيأمره الله أن يسمع من الرسول الذي يعلم القرآن بالقرآن. و هذا كقوله " انا أنزلنا التورية فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا" النبيون أنفسهم كانوا يأخذون العلم مباشرة عن كتب الله, و لكن " الذين هادوا" لضعف فيهم كانوا يأخذون عن أهل النبوة و بعد ذلك يترقوا و يصبحوا يأخذون مباشرة من كتب الله.

و هذا من قوله " و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا" لاحظ انهم يهدون "بأمرنا". لاحظ هذا جيدا. ثم لاحظ تحريف الاحزاب لهذه الاية منذ قرون.

مع العلم أن سياق هذه الاية لا علاقة له بأقوال النبي الأول عليه السلام او ما اصطلحوا عليه بالسنة. فهذه هي الاية كاملة " ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله و للرسول و لذي القربى و اليتمى و المسكين و ابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم و ما ءاتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتقوا الله ان الله شديد العقاب". فالاتيان هنا هو تقسيم الفئ, و وجه وجوب أخذ ما اتانا الرسول فيه هو لان الرسول انما قسم الفئ بحسب ما أمر الله, فهو لم يفعل أكثر من تقسيم الفئ بالطريقة التي بينها الله في الايات القرءانية الاخرى. فما علاقة هذا برواية فلان و رواية علان!؟

نعم سيقولون: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. أقول: فضلا عن ان هذه القاعدة لا يجوز أن تؤخذ على اطلاقها, فانه عندما نريد ان نقيم أصلا للدين و الفقه يجب ان يكون هذا الاصل راسخا بينا بنفسه و لا يحتمل تأويلا, و لا يكون منتزعا من بعض اية منتزعة من سياقها. أصول الفقه يجب أن تكون واضحة صريحة فصيحة مستندة على أدلة تقيم بذاتها هذه الاصول. هذا هو طريق اقامة منهج راسخ في الفقه و الاستنباط. و ليس ان تقتطع عباره من ايه ثم تخرج المقطع عن معناه في سياقه ثم تطلقه في امور لا علاقه لها به و ان كان لها علاقه فانها معارضه و مدخوله بسبب تعارضها مع المبادئ و الاصول الراسخه. و قل مثل ذلك فيمن يبتر عباره " و يتبع غير سبيل المؤمنين" ليستدل بها على ما يسمونه اجماع- و انا لله و انا اليه راجعون.

3الآية الثالثة التي نراها في كل مكان و هي من عجيب الاستنباط , و هي قوله تعالى " و أنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم"

يقولون أن " الذكر" هو السنة و الأحاديث. و " للناس" هم نحن أمة القرآن. و " ما نزل اليهم" هو القرآن. و يروون هذا عن كبار أئمتهم-رحمهم الله.

انظر ماذا يقول القرءان نفسه في تفسير هذه الآية ثم قارن هذا مع ما يكرره الناس منذ قرون بيقين تام.

هذه الآية هي من سورة النحل المباركة, آية 44, و الآية التي قبلها و هي هكذا " و ما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون. بالبينات و الزبر. و أنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم و لعلهم يتفكرون"

" الذكر" هو القرآن لقوله المشهور " انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون" . و " للناس" هم اليهود و النصارى أهل الكتاب, اذ يقول الله في نفس السورة آية 64 " و ما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه" و يقول في المائدة 15 و 19 " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثير مما كنتم تخفون من الكتاب" و " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم" . و أما قوله " و ما نزل اليهم" هو التورية و الانجيل و ما نزل اليهم من ربهم.

هل هناك أوضح من هذا ؟ و هل يحتاج الأمر الى عبقرية لفهم هذا ؟ فكيف أصبح الناس في كل مكان شيوخ و عوام يستشهدون بهذه الآية و يزعمون أن " الذكر" هو هذه الأحاديث؟ الستم تطبعون على المصاحف " انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون"؟ فكيف جعلتم " الذكر" هنا هو القرآن و هناك هو أحاديثكم؟ فان كان هذا استنباطهم فأظن أن مدى علمهم و احترامهم لجديه دراسه كتاب الله قد ظهر.

جاء في سورة آل عمران في الاية 187 "و اذ اخذ الله ميثق الذين اوتوا الكتب: لتبيننه للناس و لا تكتمونه. فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون". و في هذه الاية و غيرها تدل الايات على أن الله تعالى قد أمر اهل العلم بكتابه أن يبينوه للناس. نفس الأمر للنبي "لتبين للناس ما نزل اليهم" هو نفسه الأمر للعلماء "لتبيننه للناس". فان كان الأمر بالتبيين هو سلطة تفويضية تجعل المأمور يملك أن ينسخ و يخصص و يعمم و يفعل ما يشاء بالكتاب الالهي بحجة أن عنده سلطة تبيين قد فوضها الله اليه, فهذا يعني أن العلماء أيضا لهم نفس السلطة. و هذا لا يقول به الا من اتخذوا احبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله. و ثانيا, يقول الله "لتبيننه للناس و لا تكتمونه" و هذا مشعر بأن من أخص معاني التبيين هو عكس الكتمان, و ليس التفصيل و الشرح خاصة اذا كان النص المقصود تبيينه مفصل و مشروح من قبل صاحبه. و ثالثا, ان الله تعالى نفسه قد تولى تبيين كتابه "كذلك يبين الله لكم ءايته" و " ثم ان علينا بيانه ". و هذه الكلمة قد تكررت كثيرا في كتاب الله كما يعرف أهل العلم. فلا يوجد بحال من الاحوال أي حجة في هذه الاية لهم. و قد استعملوا هذه الاية لقرون و احتجوا بها لتأسيس مذاهب و طرق كثيرة, بالرغم من أنه لا حجة فيها كما ترى.

.....

هذه هي أدلتهم من القرآن. و كما رأيت فهي اما خروج عن سياق القرآن و مبادئه الأصلية, و اما تغيير لمعنى الآيات التي تفصلها آيات أخرى,تغيير بطريقة مخزية. " الذكر" جعلوه "الروايات و الحكايات" هل تريد أكثر من ذلك لتفهم منزلة كتاب الله عندهم.

و لا بأس ان نذكر هنا من يظهر انه أول من استنبط هذا الاستنباط العجيب, اي الامام الشافعي-رضوان الله عليه. يقول هذا الرجل المحترم في كتابه الرسالة ان قول الله عن النبي "يعلمهم الكتاب و الحكمة" ان الكتاب هو القرءان و الحكمة هي سنة النبي. و الحجة ان واو العطف للمغايرة, فهما شيئين جاء بهما النبي, الكتاب و الحكمة. فان كان الكتاب هو القرءان, فالحكمة لابد (هكذا) ان تكون هي سنة النبي. أقول: ها هو كتاب الله عندكم, اتوني بمرة

واحدة ذكرت فيها الحكمة بهذا المعنى الذي يسموه "السنة" بالتعاريف السابقة التي ناقشناها. لا يوجد. و للاجابة عن هذا الأمر الذي هو من اكبر اسس التفرقة و التحزب في هذه الامة, انصحك بفتح سورة لقمان او سورة الاسراء اية 39 و ستجد ان الله بعد ان ذكر الكثير من الاوامر و الارشادات العرفانية و الاخلاقية الراقية يقول "ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة(!) و لا تجعل مع الله الها ءاخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا" الحكمة هي كل ما يصدق عليه هذا الوصف من مضامين كتاب الله. فهما ليسا "شيئين" كما يدعي انصار هذه المرويات و الفرقة, و لعل هذا من احدى اسباب ذكر الله لعدم الشرك بعد ان ذكر الحكمة, لا ندري لعل الله اراد ان يوصل رسالة للشافعي الذي كان قد ختم القرءان على ما يقال مئات او الاف المرات, و لكن يظهر ان حاجبا ما قد منع من اختراق ضوء هذه الاية في قلبه و قلوب من يوافق على ما يدعيه. و مما يظهر لي ايضا ان الكتاب و الحكمة شئ واحد و لكن من زاويتين مختلفتين, فهو الكتاب من حيث انه مكتوب اي الظاهر الجسماني المادي, و هو الحكمة من حيث المضمون اي الباطن المعرفي الاخلاقي. فكل مضمون هذا الكتاب حكمة. "حكمة بالغة فما تغني النذر".

.....

و الحجة الثانية هي أن القرآن مجمل غير مفصل و هذه قاعدة القواعد عندهم. و يضربون مثال ذلك بالصلوة و الحج.

أولا, الصلاة و الحج بحسب ما يعرفه الناس. فلنفرض أن كلامكم صحيح و أن القرآن لم يذكر تفصيل هذه الصلاة أو الحج, فكيف صح عندكم الاستدلال على الشيء بنفسه؟ نحن انما نطلب معرفة حجية هذه الأحاديث, فاذا تبينت حجيتها جاز لنا أن نقول الصلاة فرض و كيفيتها هكذا, و الحج فرض و هو هكذا, فاذا لم نعرف حجيتها-بهذه الكيفيه التي تذكرونها- بعد, فكيف جعلتم وجود هذه الصلاة دليل على حجية أصلها؟ و هل يحتج بالفرع على الأصل؟ هل يحتج بالفرع قبل اثبات الأصل؟ عجيب حقا! و لكن هذه ليست أول مرة نرى منهم العقل فيه خلل.

ثانيا, قولهم أن " القرآن مجمل غير مفصل" و لعل هذا يكون من الأمور القليلة التي أجمعت عليها المذاهب القديمة حتى يكادوا يكونوا كلهم, من أين جئتم بهذه الفكرة؟ من أين عرفتم أن القرآن مجمل غير مفصل؟

عادة هؤلاء الناس انهم يستدلوا بوجود الفرع على ثبوت الأصل, كما رأينا في الصلاة و الحج, و عرفنا أن هذه ليست طريقة يقبلها انسان و لو كان بسيطا في العلم. و لذلك فدعونا منها. فاذا تركناها فلن نرى لهم حجة أخرى يستندون عليها الا أن القرآن مجمل.

اما أنهم عرفوا أن القرآن مجمل من استقراء القرآن نفسه و دراسته, و اما أن القرآن نفسه يقول عن نفسه أنه مجمل, و لا سبيل آخر.

أما استقراء القرآن. فان أول ما يلاحظه الدارس للقرآن أنه يبلغ نحو 6200 آية, كل آية بحر, أنه يعيد المواضيع التي يريد شرحها بأكثر من زاوية, حتى أن قصة موسى لعلها ذكرت أكثر من سبعين مرة, و نرى أن القرآن يدقق في كل شيء, حتى عدد نقباء بني اسرائيل, و اسم أبو ابراهيم, و ما الذي ستحمله امرأة أبو لهب, و كل شيء ممكن أن يتصوره عقل انسان و ما لا يمكن يوجد في القرآن. فالاجمال أبعد شيء عن القرآن.

و أما قول القرآن عن نفسه. فتعالوا ننظر هل يقول أنه مجمل أم مفصل؟ يقول الله " قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون" و "قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون" و " قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون" و " لقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم" و " كل شيء فصلناه تفصيلا" و " كذلك نفصل الآيات" و " كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون" و " كذلك نفصل الآيات و لعلهم يرجعون" و " و نفصل الآيات لقوم يعلمون" و " و كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" و " و كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون" و " الر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" و " كتاب فصلت آياته" و " تصديق الذي بين يديه و تفصيل كل شيء" و " و هو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا".

هل بعد كل هذه الآيات يقال أن القرآن مجمل؟ و الله اني بدأت أشك أن القرآن الذي عندي غير القرآن الذي عندهم, اذ كيف يتصور أن يأتي ألف ألف حافظ للقرآن و فقهاء و يقولوا كلهم أن كتاب الله مجمل غير مفصل و هذه الآيات موجودة في القرآن الذي يحفظونه عن ظهر قلب و يرددوه كل يوم؟ فاما أن كتابنا غير كتابهم أو أحدنا ينطبق عليه مثل الحمار الذي يحمل أسفارا و يعتبر غافلا جاهلا مكذبا بآيات الله. و الله يحكم بيننا.

فاذا استقراء القرآن و قوله عن نفسه هو ان القرآن ليس فقط مفصل و لكن مفصل تفصيلا. بل و تفصيل كل شئ اخر, بل هو يفسر كل شئ اخر يحصل في العوالم كلها "و لا يأتونك بمثل الا جئتك بالحق و أحسن تفسيرا".

.....

فلا حجية لهذه المرويات من كتاب الله و لا حتى مثقال ذرة. و عدم ثبوت السنة يستدعي عدم حجية الاجماع الذي هو من فروع السنة و القياس كذلك من أحد جوانبه. و بذلك نعلم أن كل من يأتي بفكرة و يدعي أنها من دين الله الذي أنزل على محمد ليس له الا كتاب الله و كفى بالله وكيلا, و الا فهو كاذب لن يجد من دون الله وليا و لا نصيرا.

.....

أثناء مطالعتي لكتاب (علم الاصول..تاريخا و تطورا) لعلي فاضل القائيني, و هو مؤلف شيعي امامي, وجدت ثلاث كلمات تستحق ان نذكرها هنا و نعلق عليها تعليقا بسيطا, و هذه الكلمات تضئ جانب مهم من مسألة السنة من وجهة نظر الشيعة الامامية, اي من حيث قيمة الروايات و الكتب التي عندهم بهذا الخصوص.

اما الاولى فقوله "الروايات المقطوع بصدورها عنهم- اي الائمة عليهم السلام- قليلة جدا "(ص23), و اما الثانية فقوله " من المعلوم أن اغلب المرويات التي بأيدينا ليس عليها شاهد من كتاب الله و لا من السنة القطعية, و الا لما احتجنا الى التمسك بالخبر" (ص 109 و هذا الكلام في سياق ذكر أدلة الشيخ المفيد على عدم حجية التعبد بخبر الواحد) , و أما الثالثة فاقراره "بصدور الاخبار التي لا شاهد لها من الكتاب و السنة, بل هي مخصصة لعموماتها و مقيدة لاطلاقاتها" (و ذكر أن التخصيص و التقييد لا يعتبر مخالفة للنص الاصلي بحسب "العرف" ص 110). فتعالوا ننظر في هذه الافكار.

اقر الشيخ هنا بأمرين, بل أرسلهما ارسال المسلمات المعروفة و المشهورة و التي لا يحتاج اثباتها الا الى ذكرها, و هما ان الروايات "المقطوع" بصدورها عن الائمة "قليلة جدا". ليس فقط قليلة, و لكن قليلة جدا. فاذن الغالبية العظمى من الروايات عندهم هي من باب الظن, سواء كان ظنا قويا – على فرض وجود مثل هذا- او ظنا ضعيفا, فالمهم انه ظن. و هذا في الغالبية العظمى من الروايات. و الاقرار الثاني هو انه "من المعلوم" فالأمر بدهي و مسلّم عند أهل العلم, "من المعلوم أن أغلب المرويات التي بأيدينا ليس عليها شاهد من كتاب الله" و هذا اقرار خطير و عجيب. فاذن لا يأتي أحد بعد ذلك و يزعم بأن روايات الائمة كلها أو معظمها عليها شواهد من كتاب الله, او انها لا تخالف كتاب الله, أو غير ذلك من دعاوى فارغة. بل ان صاحبنا لا ينكر فقط وجود شواهد, بل حتى وجود "شاهد" من كتاب الله على غالبية هذه المرويات. بل حتى لا يوجد عليها شاهد من السنة القطعية. و هنا يعلل صاحبنا تعليلا رائعا معبرا فيقول "و الا لما احتجنا الى التمسك بالخبر". فلو كان كتاب الله تعالى, و السنة القطعية, فيها كل شئ فعلا, لما احتاجوا الى ايجاد مصدر ثالث بعدهما اي اخبار الائمة الاثنا عشر. و نعم سيأتي بعض الناس و يقولوا بان الائمة قالوا ان كل شئ في كتاب الله و سنة رسوله و لكن لا تبلغه عقول الرجال. و لو كان هذا صحيحا فعلا, لما قال علماء المذهب بان اغلب المرويات ليس عليها شاهد من كتاب الله. اي لما جزموا بذلك و حكموا به. بل لقالوا "لعله يوجد عليها شاهد من كتاب الله و نحن لا نعلمه". و عندها سنقول لهم "لا تقف ما ليس لك به علم". بل انه من الطبيعي كما عرفنا من قبل, أنه لولا أن كتاب الله لم يكفي بنفسه لما أوجدوا السنة, و لولا أن السنة النبوية لم تكفيهم لما اوجدوا السنة العلوية, و لولا ان السنة العلوية لم تكفيهم لما اوجدوا الاجماع و العقل, و لولا أن الاجماع و العقل لم يكفيهم لما اوجدوا بقية مصادر الاستدلال و مناهجه. فمن لم يشبعه الله فلا أشبع الله بطنه. فما ان ترك – الشيعة و السنة و غيرهم- الاكتفاء بكتاب الله تعالى كمصدر حتى أصبحت كل المصادر الاخرى لا تشبعهم و لا تكفيهم, فكلما دخلوا في مصدر وجدوا فيه نقصا او عيبا او خللا فيسعوا الى ترقيعه باختلاق مصدر اخر, و هكذا الى بقية السلسلة. و قد عرفنا ماذا يعني اهل المرويات عندما يقولوا ان "كتاب الله فيه كل شئ" فان هذه الجملة لا تعني في واقعهم أكثر من هذا: كتاب الله أمر بطاعة الرسول, احاديث الرسول عندنا, او في حالة الشيعة: كتاب الله أمر بطاعة الرسول و الائمة من اهل بيته و أحاديث هؤلاء المعصومين عندنا. فكتاب الله ليس الا درجة يدوسون عليها و يتخطونها من أجل ان يصلوا الى مذاهبهم و افكارهم الاخرى. و حتى

اذا أرادوا أن يستدلوا على المطالب العلمية و الفقهية, فان الاصل انهم يعلمون الجواب مسبقا, و ما دخولهم الى القرءان الا من أجل ان يجدوا ما يلفقون به جوابهم المسبق و يلبسونه ثوب القرءان. و الامثلة على هذا السلوك أكثر من أن تحصى, بل هي العادة المطردة عندهم. فعلى أية حال, صاحبنا هنا يقر بان قلة قليلة من المرويات مقطوع بصدورها, و غالب المرويات ليس عليه شاهد من كتاب الله. فاذن من حيث السند, معظم المرويات ظني. و من حيث المتن, معظم المرويات ليس عليه شاهد من كتاب الله. و للدقة نقول: ليس عليه شاهد معلوم لهم من كتاب الله. فهم يظنون بان عليها شاهد من كتاب الله, بل يؤمنون ان احاديث الائمة هي من عين كلام الله, فحتى لو لم يدركوا هذا الشاهد فانهم يؤمنون و يسلمون بان كلام المعصومين لا يخالف الكتاب العزيز. فهم يظنون اذن. فظن في السند, و ظن في المتن. و أما ايات النهي عن اتباع الظن, فماذا يفعلون بها؟ كالعادة و على القاعدة, طالما انها تخالف المذهب و مقتضيات اثبات صحته فيجب ان نضرب بالايات عرض الجدار, او "نتأولها" بحسب المصطلح اللطيف. فتصبح الايات تتحدث عن المشركين و الظن في العقائد, و ليس الظن في الاحكام الشرعية, و غير ذلك من تبريرات هم يعلمون أنهم لم يسوقوها الا من أجل الضرورة المذهبية الحزبية. و لذلك اولا يقررون ان معظم الروايات ظن في ظن, ثم يوردون هذه الايات التي تنهى عن اتباع الظن, فيردونها و يلغون مضمونها. و لو كانوا فعلا على قناعة بان هذا هو مضمون الايات لوجدتهم يدرسون الايات وحدها اولا و يصلون الى نتيجة معينة ثم يذهبون الى المذهب فينظروا في اقواله. و أصلا ما الحاجة الى هذه المذاهب بهذه الطريقه المفرقه, بل انها من عين الشر, و ليست رحمة و لا يحزنون. و ليس اختلافهم من باب الاختلاف في الفروع فقط و غير ذلك من تبريرات يسوقها أربابها. اذ لا يوجد اختلاف في الفروع الا ان سبقه اختلاف في أصل من الاصول. و لا يوجد اختلاف في الاصول الا ان وجد اختلاف ما في قاعدة من قواعد المنهج. و لا يوجد اختلاف في المنهج الا ان وجد اختلاف ما في الشرعة التي استقوا منها هذا المنهج. فالفكر الديني, بل الفكر الانساني, ليس حدودا منفصلة عن بعضها, بل هي سلسلة متصلة كل سابق يؤثر في اللاحق. هذا فضلا عن أن تقسيم الدين الى اصول و فروع بالنحو المعروف هو أمر طارئ على الفكر القرءاني. و لعلنا نذكر شئ عن هذا التقسيم و جذوره و أسبابه في باب الاجماع عندما نبحث في مسألة "من هو المسلم" ان شاء الله.

و لكن هنا مسألة واجهت الفكر الشيعي الامامي, وهي ان الروايات قد استفاضت عن الائمة الطاهرين عليهم السلام في أن اي رواية تنقل عنهم يجب عرضها على كتاب الله تعالى, فما وافق كتاب الله "فنحن قلناه..و ما خالفه فلم نقله, فاضربوا به عرض الجدار, فهو زخرف..الخ". فكيف التوفيق بين هذه الروايات و حقيقة ان معظم المرويات ليس عليها شاهد من كتاب الله؟ هنا خرج الفكر الاصولي الشيعي بفكرة و خرج الفكر الاخباري الشيعي بفكرة لحل هذه المسألة. أما الفكرة الاصولية كما يعرضها صاحبنا هنا فهي ان روايات اهل البيت عليهم السلام "تخصص و تقيد" القرءان. فهي لا تعمل في مواجهة القرءان, بمعنى ان ينفي القرءان أمر ما من كل الوجوه فيأتي نص عن الأئمة فيثبت ما نفاه القرءان من بعض الوجوه او كلها, لا, و انما القرءان يعمم أمر فتأتي الرواية بتخصيصه, او يطلق أمر فتأتي الرواية بتقييده. و هذا العمل ليس مخالفة لكتاب الله بحسب ما يدعي علماء الشيعة- بل و السنة ايضا. فصاحبنا هنا يقول ان هذا العمل لا يعتبر مخالفة للكتاب العزيز. فاذا سألناه: و على أي معيار استندت لتدعي ان التخصيص و التقييد ليس مخالفة لمضمون الكتاب؟ سيقول "بحسب العرف"! عرف من؟ لا ادري. الله يجعل الامر مطلق, الله أراده مطلق, أنتم علمتم و اعترفتم بانه مطلق, و الان تأتي رواية فتقيد

هذا المطلق, فهنا يوجد احتمالين: اما ان تقييد الرواية هو تقييد حاصر, و اما تقييد من باب تعيين احد المصاديق الممكنة. فان كان تقييدا حاصرا فهو عين التحريف لكتاب الله, و هو تحريف اهل العناد الذين يحرفون من بعد ما عقلوه و هم يعلمون. لان الله اراده مطلق و انزل بيانا في ذلك, فارادة الله في اطلاقيته لا يعقب عليها احد. ف "الله يحكم لا معقب لحكمه". فكون الرواية او غير الرواية قد زعمت بان معنى الامر المطلق يرتبط "فقط" بهذا الشئ الذي عينته الرواية هو من عين التحريف اليهودي للنص الالهي. و أما لو كان تعيينا لاحد المصاديق الممكنة التي تحتملها الاية و تدخل في عمومها و اطلاقيتها بحسب شروط الاية و قرائنها, فعندها لا بأس, بل هذا من صميم العلم. اذ هذا من اللوازم الضروريه لدراسه اي عام مطلق و ضروره تطبيقه على مصداق ما.فأي الوجهين يدعي القوم؟ مثلا, الاية تقول "انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت" فمن هم أهل البيت؟ هذه الاية عامة مطلقة, و تأويل البيت و اهله في كتاب الله له بحث خاص يعرفه أهله, و لكن في أقل تقدير الاية مطلقة, الكلمة مطلقة "أهل البيت". فمن هم هؤلاء؟ هنا تأتي الروايات. فالرواية التي تقول: أهل البيت هم "فقط" خمسة, محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام. هذا التقييد غير قرءاني, و أربعة من هذه الأسماء الكريمة لم ترد في القرءان كله, فهذا مثال على التقييد الحاصر. و أما التقييد من باب تعيين أحد المصاديق الممكنة, فهذا يمكن ان يقول: ان اهل البيت هم اهل بيت الله المقربين منه, و هذا يدخل فيه كل مقرب من الله وصل الى درجة مخصوصة من الولاية و الوجاهة عند الله, و محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين من هؤلاء الذين ارتقوا هذه المنزلة و رفعهم ربهم الى هذه الدرجة, فهم أحد مصاديق هذه الاية بل و أبرز مصاديقها. فهنا كيف نحكم على هذه الروايات و هذا الاسلوب؟ أما في حالة التقييد الحاصر فقلنا انه عمل تحريفي محض, و اي رواية تأتي به فيجب ان يضرب بها عرض الجدار و هي زخرف بل و لو صح النقل عن انسان انه يقول بها فانه يجب ان ننزل من القيمة الالهية العلمية لهذا الانسان. و اما تعيين احد المصاديق او ابرزها, فالسؤال عندها يصبح هكذا: هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين. و هو ليس من الاحتجاج الرافض لدعواهم, بل انه من باب طلب التثبت في العلم في الدين, فامور الدين ليست لعبة او هينة او مجرد لهو حتى نتساهل فيها و نحكم عاطفتنا في الامور. و ان كنا لن نصل الى أمر يمكن ان نشد قلوبنا عليه بعلم و حكمة فليذهب هذا الامر الى الجحيم و لا كرامة و لا نبالي. ان تكون عندنا عقيدة دينية واحدة يقينية, خير من ان تكون عندنا سبعين عقيدة دينية ظنية. و لا نحتاج اصلا في حياتنا الى عقائد كثيرة فتكفي بضعة أمور نعلمها بيقين الى حد كبير و كفى. و مثال اخر, مسألة "أقيموا الصلوة". التقييد الحاصر يأتي فيقول : الصلاة هنا هي هذه الصلوات الخمسة المعروفة باركانها و شروطها. و التقييد بحسب المصداق الممكن يقول: هذه الصلوات الخمسة قد تكون هي احد المصاديق و لكن ليست المصداق الوحيد فيوجد أكثر من صورة للصلوة طالما انها استوفت الاركان و الامور الجوهرية التي ذكرها الله لها. و قس على ذلك.

و الان, اي نوعين من التقييد و التخصيص يعتنق أصحاب الفرق الاسلامية سنية او شيعية؟ هذا سؤال يجب أن يبينه علماء هذه المذاهب و الاحزاب بطريقة جلية و تفصيلية حتى نعلم كيف نتخذ موقفا كاملا راسخا منهم. و ليس عندي من العلم بهم و لا من السلطة الكافية لكي أعين رأيهم في هذه المسألة بتفصيل كامل, و لست مسؤولا عن ذلك أصلا, فأئمة المذهب هم أولى الناس بتبيين المذهب. على الأقل مبدئيا. و لكن ما نعلمه الان هو أن التقييد و التخصيص الحاصر لعموميات القرءان و اطلاقاته هو من عين التحريف و الكذب على الله بل و العناد اليهودي. و أما التقييد و التخصيص بحسب المصداق الممكن فلا حرج فيه بشروطه.

و لكن ما لاحظته من اطلاعي المحدود على عقائد و شرائع هذه الفرق و معاشرتي لكثير من اهلها هو أنهم يميلون أكثر الى جانب التقييد الحاصر. خاصة في الامور المهمة. و اما في باقي الامور الثانوية او التي لا تؤثر كثيرا في قواعد المذهب و أساسيات الحزب من عقيدة و شريعة, فانهم قد يميلوا الى جانب التقييد بحسب المصاديق الممكنة, ليس لشئ الا لانهم لا يبالون اصلا بهذه المسألة حيث انها لا تؤثر عليهم في كثير او قليل- حسب ما يرون طبعا. و امثلة بسيطة معروفة هي مسألة الصلوة و أهل البيت. فعند السنة و الشيعة لا يوجد الا هذه الصلوات الخمس كل حزب فرح بما عنده من مرويات تفصيلية في شأنها و ان اتفقوا في معظم أجزاء صورتها و أهم أساسياتها في الغالب. و أهل البيت عند الشيعة هم الخمسة أصحاب الكساء فقط. و "ايتاء الزكوة" عندهم هي هذه الاثنين و نصف في المائة بشروطها في المرويات و كتب التشريع او "الفقه" كما اصطلحوا على تسميته. و هكذا. ففي الأمور المهمة الميل الى التقييد الحاصر, و في الامور الثانوية لا بأس عندهم بالتعيين بحسب المصداق الممكن. فيظهر ان اليهودية متغلغلة في الفرق الاسلامية. و انا لله و انا اليه راجعون.

و أما المدرسة المسماة بالاخبارية, فهذه المدرسة الشيعية قد ألغت العمل بالكتاب و الاجماع و العقل, و بعضهم جوز العمل بالكتاب, و لكن التوجه الاصلي هو انه حتى كتاب الله لا يجوز للعلماء ان يستنبطوا منه و يعتمدوا على ما يفهمونه و يفتح لهم في نصوصه. لماذا؟ يقولون: لانه لا يستطيع أحد ان يفهم مراد كتاب الله الا أهل الله الذين خاطبهم الله بكلامه, اي الائمة العلويين المعصومين. فهم وحدهم يمكن ان يفهموا القرءان, و أما بقية المسلمين فليس لهم الا أن يأخذوا العقائد و الشرائع من مرويات أهل العصمة و الطهارة عليهم السلام, اي من الاخبار, و من هنا سموا بالاخباريين. فبالنسبة لهذه المدرسة المسألة واضحة: لا يمكن لكلام الائمة أن يخالف القرءان, لاننا نحن أصلا لا نفهم القرءان حتى نميز بيقين في كون كلام الائمة يخالف القرءان أم لا. فالاية لا يمكن أن تحكم على الرواية. و لكن الرواية تحكم على الاية. و جوابي لهؤلاء أن أقول: و كيف ستفهمون الرواية ؟! ان قلتم: الرواية بينة وواضحة و عربية فصيحة يمكن لاهل العلم أن يفهموها, فاني أقول: كتاب الله تعالى ليس بأقل فصاحة من كلام أئمتكم ..أم يا ترى عندكم راي اخر غير هذا. لا يمكن أن ترفعوا كلام بشر في وجه كلام الله الا باسقاط منزلة كلام الله و الطعن فيه. انظر في تبريرهم لحجية السنة النبوية مثلا فضلا عن السنة العلوية. يقولون: كتاب الله مجمل, غير مكتمل, مفتقر الى بيان, لا نستطيع ان نفهمه..الى اخر القائمة السوداء. فكما قلت و أكرر: لا يمكن لأحد أن يتجاوز كتاب الله و يختلق مصدر اخر ليكون حجة الا في الطعن في كتاب الله نفسه أولا. و بعد ذلك يخلو له الطريق الى حد بعيد. و جوابي الثاني: ما الفرق بينكم و بين الذين يردون على النبي و يقولون "قلوبنا غلف..لا نفقه كثيرا مما تقول..بيننا و بينك حجاب.." و بقية الايات الكريمة ذات هذا المضمون !؟ فكيف يصح احتجاج النبي بالقرءان على الكفار و المشركين و المنافقين ان كانوا "لا يستطيعون" ان يفهموه و لو اجتهدوا و رغبوا و درسوا- بصدق و اخلاص. فان كان المشرك يستطيع أن يعقل القرءان لو درسه, بغض النظر عن جحده لمضمونه بعد عقله, "و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا", و لكن الاصل انه يستطيع أن يفهمه, فما بال المسلم المؤمن المخلص الراغب المجتهد المستفتح دراسته باسم الله, السائل الله من فضله, الراغب الى الله في كشفه, ما بال هذا لا يستطيع أن يفهمه بزعمكم. نعم لعل الحق تعالى قد ختم على قلوبكم و سمعكم و جعل على ابصاركم غشاوة, و لكن كونكم عمي – بمشيئتكم و عقائدكم بالمناسبة- لا يعني ان كل مسلم أعمى. و حسبنا الله و نعم الوكيل.

.....

و يوجد كلام غريب و مليئ بالافكار المنيرة وقعت عليه حينما كنت اقرأ كتاب (مقاصد الشريعة الاسلامية) للشيخ الطاهر بن عاشور- رحمه الله. يروي عن ابن عباس- رحمه الله- (ص402) انه قال " ما رأيت خيرا من أصحاب محمد, ما سألوه الا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض, كلها في القرءان". و ظننت أن ابن عباس يقصد بقوله هذا الايات التي تبدأ بقول الله "يسئلونك" عن كذا "فقل" كذا. مثل "يسئلونك عن المحيض قل هو أذى" و نظير هذه الايات. فرجعت الى المعجم المفهرس لالفاظ القرءان الكريم للشيخ المبارك فؤاد عبد الباقي- رحمه الله و جزاه أعظم جزاء على كتابه القيّم العظيم. فعددت كل الايات التي فيها كلمة "يسئلونك" فوجدتها خمس عشرة اية, فيها ثلاث عشرة مسألة, تكررت مسألتين منهما في ايتين. و المسائل الثلاث عشرة هي عن: الأهلة, ماذا ينفقون (مرتين), القتال في الشهر الحرام, الخمر و الميسر, اليتامى, المحيض, ماذا أحل لهم من الطعام, عن قيام الساعة (مرتين) , الانفال , الروح , ذي القرنين, الجبال. هذه ثلاث عشرة مسألة كما قال ابن عباس- رحمه الله. فتيقنت أن هذا هو مقصوده.

و لكن السؤال الان هو هذا: ان كان الله يذكر المسائل التي سألها الناس للرسول, و ان كان ابن عباس يقول ان "اصحاب محمد" لم يسألوه الا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض, فما بال هذه المرويات التي تذكر الاف المسائل الموجهة من الصحابة الى النبي عليه السلام !!؟ و ان كان الله يتولى صوغ الاجابة للنبي "يسألونك...قل" فما بال هذه الروايات الكثيرة جدا التي تظهر النبي عليه السلام و كأنه مشرّع التشريعات و المجيب كما يحلو له بل و أحيانا يصورونه و كأنه يهتم بالامة أكثر من الله تعالى نفسه, كمثل الرواية التي تقول ان النبي كان يصلي الليل فصلى معه الناس و فعلوا ذلك لاكثر من يوم , و في اليوم الثالث او الرابع لم يخرج النبي للصلاة فسألوه فقال "اني خشيت أن تفرض عليكم (اي صلاة الليل) فتعجزوا عنها " و كأن الله يشرّع بدون أن يعلم مقدار قدرة الناس و عجزهم, فيضطر الله تعالى الى أن يعينه النبي عليه السلام في اتخاذ قراره, فيكفّ النبي عن الخروج الى الصلاة و كأنه نوع من الاحتجاج السلمي المسبق على تشريع متهور قد يصدر من رب العزة جل جلاله- حاشاه و حاشا نبيه. و شبيه هذه الروايات كثير. بل ان الفقهاء درجوا على تسمية النبي عليه السلام ب "الشارع" و أصبحنا نجد تعبيرات مثل "في زمان الشارع صلى الله عليه و سلم" و ما أشبه. فكيف يمكن أن يوفقوا بين تصوير القرءان للنبي عليه السلام و بين تصوير هذه المرويات له؟ القرءان يصوره كنبي الله, الروايات تصوره و كأنه وكيل الله! و هيهات أن يتم التوفيق بينهما. "قل لست عليكم بوكيل " "ان اتبع الا ما يوحى الي". و ان اعرضتم عن القرءان- و هذا ليس بجديد- فماذا ستفعلوا بكلام ابن عباس حبر الأمة و ترجمان القرءان عندكم , و هو صريح في أن عدد مسائل أصحاب محمد له ثلاث عشرة مسألة كلها في القرءان, اي كلها ذكرها القرءان؟ و اشارة ابن عباس واضحة في ان القرءان اشتمل على كل ما سأله أصحاب محمد له, و كونه يرى عظمة هؤلاء لانهم لا يكثرون من مسائلة النبي فحتى عدد مسائلهم محدود جدا, و هذا يدل على أن الاصل عندهم هو أن يدرسوا القرءان و يعرفوا الامور بأنفسهم و هذا من مقتضيات الالتزام بامر الله بتدبر القرءان و دراسته المستمرة. فالأصل أن المسلم مستقل بالله, و لذا أعطي كتاب الله لكل الناس. و أما المرويات و الدين او قل الاديان التي تفرعت عنها فانها تصور المسلم على أن الاصل فيه أن يكون بهيمة يسلّم على عمى و أن ينقاد للكبراء ايا كانوا. فالبعد بين مسلم كتاب الله و مسلم كتب

الاحزاب هو كالبعد بين المشرق و المغرب. فالقرءان يبين نمطا من تعامل النبي من حيثيته النبويه الرسوليه مع الناس. و هو نمط " يسألونك..قل ". هذا النمط مكسور و مخدوش بل هالك بالنسبه لعالم المرويات و الحكايات. ففي هذا العالم الصحابه يسألون النبي عن كل صغيره و كبيره، بل حتى في المسائل التي قد يستحي الانسان ذو الحشمه المتوسطه ان يسأل عنها استاذه او ابيه، و تاتي النساء الى النبي و يسألونه كيف ينظفوا انفسهن بعد الحيض و ما اشبه و كان الحيض تم اختراعه في زمن النبي و لم تعرف النساء كيف يتنظفن منه ، و الاف المضامين من هذا القبيل التفصيلي الاعتباطي في كثير من الاحيان، و في كل هذه المرويات نرى نمط "يسألونك..قل" غير موجود. فكيف تم انتخاب هذه المسائل الثلاثه عشر من بين الاف المسائل و الاجوبه ؟ الاظهر بلا منافس يذكر هو ان هذه المرويات اختلاق في اختلاق.

يوجد مسألة أخرى تسترعي الانتباه, و هي هذه: هل كان النبي محمد عليه السلام لا يتكلم ولا يفعل شئ في حياته اليومية؟ هل كان كل كلامه القرءان حصرا؟ الجواب البديهي هو : بالطبع لا, كان النبي و لابد يتكلم و يعيش الحياة مثل الناس في العموم بمعنى أنه يتفاعل مع كتاب الله "اتل ما اوحي اليك من كتاب ربك" و يعيش الحياة كشخص مستقل نزل عليه وحي من الله و هو أول المتفاعلين معه. فالسؤال الان: اين كلام النبي عليه السلام, اين سيرته التي عاشها, اين مواقفه التي مر بها؟ فلاشك ان كنا نستمع الى مشورة احاد المسلمين و مفكريهم في دراستهم لكتاب الله و غير ذلك , و نستعين بفكرهم لنوسع افاق فكرنا و روحنا, فمن باب أولى أن يكون النبي الاول عليه السلام الذي هو أول متفاعل مع كتاب الله و أول دارس له و هو الذي نزل على قلبه المقدس هذا القرءان, فمن باب أولى أن نهتم بكلامه و بثمار دراسته و مكاشفاته. فحتى لو كان من باب مجرد الاطلاع المحض فان الاهتمام بمعرفة كلام النبي الاول عليه السلام هو أولوية عند من يرغب في دراسة هذا القرءان. و قد ظهر لي هذا المعنى و غيره عندما كنت أتأمل في اية المزمل التي تقول "انا سنلقي عليك قولا ثقيلا" . لاحظ ان الاية تبدأ بقول الله "قم الليل الا قليلا. نصفه او انقص منه قليلا. أو زد عليه و رتل القرءان ترتيلا. انا سنلقي عليك قولا ثقيلا" فالقرءان موجود و النبي يقوم به و يرتله, فما هو القول الثقيل الذي سيلقيه الله عليه اذن؟ يقال ان هذا القول هو "القرءان" و لكن هذا تأويل غير دقيق, لان القرءان موجود و النبي يقوم به "و رتل القرءان ترتيلا". و ذكر الالقاء جاء بعده "انا سنلقي عليك قولا". و كانه نتيجه من نتائج قيامه بالقرءان و ترتيله له. فالقول الثقيل شئ غير نص القرءان. و ايضا يقال ان معنى "ثقيلا" هو انه شاق على المكلفين. و هذا ايضا كلام غير سليم, لان الله يقول " ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى" فضلا عن أن ثقل القول محصور بكلمة "سنلقي عليك" و كلمة "عليك" تدل على النبي الملقى اليه. فلا علاقة بتكليف و مكلفين في هذا المقام, فضلا عن عدم وجود مناسبة حقيقية بين هذا المعنى و ما سبق من ايات و ما بعد ذلك. و خلاصة ما تبين لي هو هذا: القول الثقيل هو معاني القرءان التي سيلقيها الله على قلب النبي. فترتيل ظاهر نص القرءان هو مقدمة لانكشاف باطن معاني القرءان. و هو ما اصطلحنا على تسميته ب "وحي التفهيم" في مقابل "وحي التنزيل" المتعلق بظاهر النص. يظن بعض الناس ان النبي كان يعلم كل ما في القرءان من معاني بمجرد تنزله عليه, لو كان هذا صحيحا فما الفائدة من أمر الله للنبي بأن يتلو الكتاب العزيز؟ فضلا عن الاستحالة أو شبه الاستحالة في أن يحيط انسان علما بكل معاني القرءان الذي لا ينفد أبدا, بل ان من تعذيب الله لعبده أن يجعله يحيط بكل علم كتابه , لانه يكون قد سلبه أكبر فرحة في هذه الحياة و التي هي دراسة كتاب الله و الترقي في معارفه و تكرار انكشاف المعاني فيه و ابداعها. ثم امره ب " قل رب زدني علما " يشير

الى هذه الاستمراريه في الازدياد من العلم. فالحاصل أن القول الثقيل هو المعاني التي فهمها النبي عليه السلام من تلاوته و دراسته لكتاب ربه.

و كتاب الله يعطي كل دارس بحسب استعداد قلبه و درجة معرفته و حاجته. و الصدقات للفقراء -لمن فهم الاشارة. فمن سوء المعرفة بالنفس و سنن الخلق أن يسعى من قلبه بسعة كأس ماء الى أن يمتلئ بالماء الموجود في قلب بسعة وادي عظيم! قلبك ليس مثل قلب النبي حتى تستطيع أن تتحمل من ثقل العلم ما تحمله النبي. و لذلك يجب الاكتفاء كأصل بالقرءان حتى تتدرج في سلّم المعرفة بطريقة مناسبة لك.

و لكن مع ذلك فان وجود كلام النبي الاول عليه السلام و سيرة حياته الارضية هو أمر مهم كما قلنا. فالسؤال الان: من أي المصادر نستقي هذا الكلام و هذه السيرة؟ نحن امام احتمالين لا ثالث لهما: اما ان نجمع كل ما بأيدي المسلمين بلا تفريق, و نجعل معيار التفرقة بين الصحيح و غيره منها هو الاشبه بالقرءان و الذي تفوح منه رائحة النبوة , أو أن نختار مصادر احدى الفرق بناء على معيار تمييز الرواة. التوجه الثاني هو توجه عامة المسلمين منذ القدم و قد رأينا ما فيه من خلل, فضلا عن أنه لا تخلو مصادر من وجود الكذب و الاختلاق و التخريف باعتراف اصحابها. و اني مع التوجه الاول. و الذي سنذكره مره اخرى لاحقا ان شاء الله. و كما قلنا ان قراءة هذه المصادر الروائية ليس أكثر من استئناس و استلهام و انتفاع عام, كما ننتفع بأي فكر اخر على العموم, الا ان مزية هذه المصادر هو أنه يوجد احتمالية انها تحتوي على كلام النبي الاول عليه السلام و مواقف من حياته المباركة.

.....

و يحق لنا ان نتساءل: ماذا حدث؟ لماذا تشوهت كلمات النبي و سيرته و أصبحت لعبة بيد كل من هب و دب, و يستطيع أن ينسب اليها كل تقي و شقي كل ما يشاء, حتى ان بعض الاشقياء كان لا يتورع في أن يختلق مائة حديث لو أعطاه الناس فلسين (على ما يقول أحد نقاد الرجال في نقده لاحد الرواة- فيما قرأت)؟

يوجد ثلاث نظريات تحاول أن تجد تفسيرا لهذه الظاهرة الخطيرة جدا- فيما اطلعت و جمعت: نظرية اهل السنة, و نظرية الشيعة, و نظرية الطاهر ابن عاشور (و هي خليط بين رأيه و كلام لابن العربي المالكي صاحب كتاب العواصم من القواصم).

أما نظرية عموم أهل السنة فهي أن النبي خشي أن يختلط القرءان بالحديث, او انه اراد كتاب الوحي أن يسخروا كل ما عندهم من مواد في كتابة القرءان فقط و الاعتناء به لندرة مواد الكتابة الصالحة في تلك الايام فتكريس الموجود للعناية بكتاب الله خير من تشتيتها بين القرءان و كلام النبي. و قد انتقد علماء من اهل السنة هذه النظرية , و قالوا باستحالة أن يوجد امكانية لاختلاط كلام الله بكلام النبي. و هو حق فكلام الله لا يشبه كلام أحد كما أن

ذات الله لا تشبه ذات أحد. و أما عن ندرة مواد الكتابة فأقول: الذي يستطيع ان يجهز جيشا من عشرة الاف مقاتل لا يصعب عليه أن يشتري ورق و اقلام! و ان قبلنا جدلا بذلك, فماذا عن ايام عمر بن الخطاب؟ لماذا لم يعتني عمر بن الخطاب بكتابة كلام النبي؟ و لا أظن نظرية ندرة الاوراق و الاقلام ستنفع هنا. فعلى العموم, هذه ليست نظرية و لكنها مجرد محاولة بائسة لتبرير ظاهرة خطيرة قد تنعكس سلبا على الكثير من الناس و الرموز.

و أما نظرية الشيعة – و كلامي عن الامامية خصوصا و لا أدري ما يقول الباقين– فهي ان اضاعة سنة النبي هي مؤامرة من قبل بعض "الصحابة" امثال عمر بن الخطاب الذي هو رأس المؤامرة على ما يبدو عندهم. و يستدلون على ذلك بشواهد كثيرة مستمدة من كتب أهل السنة أنفسهم و تواريخهم و مروياتهم. و من أراد الاستزادة في ذلك فليراجع كتب الشيعة في هذا. و أحسب أن تعليقي على نظرية ابن عاشور السني قد يغني عن هذه المراجعة.

فنظرية ابن عاشور التي ذكرها في كتابه (مقاصد الشريعة الاسلامية..ص 403) هي هذه, و سأنقل النص كما هو أولا ثم نعلق بما فيه كفاية ان شاء الله , يقول " و للحذر من أن يكثر تقوّل الناس على رسول الله صلى الله عليه و سلم, أو أن يستند كثير من المتفقهين الى تصرفات صدرت عنه في جزئيات, أو الى أقوال أثرت عنه غير مؤداة كما صدرت عنه, أو غير مبين فيها الحال الذي صدرت فيه, من أجل ذلك حكى ابن العربي في العواصم أن عمرا كان لا يمكّن الناس أن يقولوا قال رسول الله, و لا يذيعوا أحاديث النبي حتى يحتاج اليها و ان درست. و هذا لحكمة بديعة, و هي أن الله قد بينّ المحرمات و المفروضات في كتابه, و قال تعالى "لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم" ثم قال– اي ابن العربي– "و قد اتفقت الصحابة على جمع القرءان لئلا يدرس, و تركت الحديث ليجري مع النوازل, و أكثر قوم من الصحابة التحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم فزجرهم عمر" انتهى كلام ابن عاشور و ابن العربي. مع العلم أن محقق الكتاب قد ذكر ان الكلمة المذكورة في كتاب العواصم ليست " فزجرهم عمر" و لكن "فسجنهم عمر" ! و يقول ايضا ان احدى مخطوطات العواصم فيها "فشجرهم عمر" و لا ادري ما معنى "فشجرهم عمر", و الاظهر هي "فسجنهم" كما هي في العواصم. و يمكن الجمع بين المعنيين فيكون ان عمر سجن الذين يحدّثون عن النبي عليه السلام لكي يزجرهم عن هذا العمل.

تعالوا الان نحلل و نعلق على هذه القطعة العجيبة الصادرة من عالم و فقيه مسلم سنّي. و اني في حيرة من اين ابدأ , فلنبدأ من البداية. و قبل ذلك اعلم اني خصصت ابن عاشور بنظرية مفارقة لاهل السنة لان التبريرات التي ساقها لعدم الاعتناء بسنة النبي عليه السلام (و افضل ان اقول: كلام النبي و سيرته و ما شابه لاسباب كثيرة منها أنها أدق في التعبير, و منها كون كلمة السنة قد أحيطت بخبث كثير قد أذهب عنها رونقها و جمالها..و ليرضى عن مسلكنا اصحاب مقولة "لا مشاحة في الاصطلاح") هي تبريرات لم أجدها عند غيره بهذه الصوره و الجمع. فضلا عن الطعن الغريب في النبي الذي ذكره و مرّ عليه مرور الكرام, اللئام لنكون أكثر دقة. و كونه ذكر كلام ابن العربي و لم ينقضه او يعلق عليه هو قرينة قويه على قبوله به , و لذلك سننسب كل القول الذي نقلناه الى ابن عاشور نفسه. فتعالوا ننظر.

يكتب ابن عاشور انه يوجد أربعة أسباب منعت عمر بن الخطاب من الاهتمام بكلام النبي و روايته من قبل صحابة النبي انفسهم:

أولا, الحذر من أن يكثر تقول الناس على رسول الله. أقول: لاحظ ان ابن عاشور و امثاله عندما يكونوا في مقام طعن مبطن في الصحابة الذين يفترض انهم يعظمونهم بل و شبه يقدسونهم كلهم, فانه يستعمل كلمة "الناس". فعمر خشي من تقول "الناس" على رسول الله. من هم هؤلاء "الناس"؟ انهم صحابة النبي انفسهم! فان كان هؤلاء يخشى عمر أن يتقولوا على النبي- كما يقول ابن عاشور- فماذا عن الذين يأتوا بعدهم؟! فان تهاون عمر و من معه في جمع كلام النبي و هم الصحابة الذين هم الطبقة العليا و الأولى في سلسلة الرواية، فكيف يترك هذا الامر و يتهاون فيه أيا كانت الذرائع- فضلا لو كانت ذريعة رخيصة مثل هذه؟! و ظاهر أن هذا الحذر المزعوم لم يكن موفقا, فقد أكثر الناس- بمختلف طبقاتهم- في التقول على النبي عليه السلام, و السبب الرئيسي لهذا التقول هو عدم اهتمام الصحابة انفسهم بكتابة كلام النبي و حياته بطريقة منظمة موثقة يجتمعوا عليها. فاضطر الناس أن ينتظروا عهد عمر بن العزيز الأموي لكي يبدأ القيام بهذا العمل. و كلنا نعرف ماذا وقع بعد ذلك فلا نكرر.

ثانيا, ان يستند كثير من المتفقهين الى تصرفات صدرت عن النبي في جزئيات. أقول: أليس هذا ما تفعله الان الفرق الاسلامية بمختلف انواعها تقريبا؟ الشيعة و السنة مثلا, عندهم كتب المرويات التي هي حوادث جزئية, او اغلبها كلمات و أحكام صدرت في جزئيات و عليها و على استقراءها يستند الفقه و الاصول و غير ذلك من فروع شجرة المعارف الاسلامية. بل ان ابن عاشور نفسه يستشهد بكثير من امثال هذه الاحكام و الكلمات التي صدرت في جزئيات لكي يبني نظريته في مقاصد الشريعة, و هو يجعل استقراء جزئيات الشريعة من أهم الطرق لمعرفة مقاصدها الكلية. فأي مانع في ذلك! بل القرءان نفسه نحن نستقرئ احكامه في الجزئيات المختلفة و نستنبط منها و نبني عليها. فأي تبرير هذا يبرر به ابن عاشور-رحمه الله- سلوك عمر و غيره في عدم اهتمامهم بكلام النبي و سيرته؟! كلام فارغ, هم أنفسهم أول من يخالف مقتضى هذا التبرير السقيم, هم أنفسهم يأخذون بكتب المرويات الموجودة حاليا و التي هي "تصرفات صدرت عن النبي في جزئيات" او يفترض انها صدرت عن النبي عليه السلام, بمعنى ان صحت فعلا, و هم يعتقدون صحتها. فكيف يبرر المنع بتبرير هو و أمثاله منذ القدم يخالفونه! هذا ما يحدث لاصحاب النزعة التبريرية في معظم الاحيان, يقعون في مشاكل أكبر من التي ارادوا حلّها في بادئ الامر.

ثالثا, أقوال أثرت عن النبي غير مؤداة كما صدرت عنه. أقول: من هو الذي سينقل رواية عن النبي قد تكون غير ما صدرت عنه؟ ان كان يقصد الصحابة, فكيف يثق بعد ذلك برواية اناس جاؤوا بعد الصحابة بمئة سنة او يزيدون! ان كان يعتقد أن الصحابة أنفسهم الذين سمعوا من النبي باذنهم و رأوه بأعينهم و لمسوه بأيدهم, قد ينقلوا أقواله بطريقة خاطئة بدرجة أو بأخرى, فكيف يمكن الاعتماد على كل هذه المرويات الموجودة حاليا و التي هي نقل عن ثاني أو ثالث أو رابع طبقة بعد الصحابة؟! على ذلك يجب أن نطرح الثقة بكل هذه المرويات. فأنى لهم أن يجعلوها أصولا للدين و مصدرا لمعرفة عقائد و شرائع رب العالمين. و أما ان كان يقصد ان الذين يأتون بعد الصحابة هم من قد ينقلوا كلام النبي بطريقة خاطئة, فذنب من هذا؟ أليس ذنب الذين سمعوها و لم يدونوها؟ أي اليس ذنب الصحابة أنفسهم الذي انشغلوا في سفك دماء "المرتدين" و غزو البلدان و تعيين الاقرباء في مناصب الحكم و في الخروج على الامام الشرعي و جلب السبايا الحسان و تجميع الاموال حتى اصبحت تكسر بالفؤوس و غير ذلك من

أمور؟ فكيف يزعمون بعد ذلك أن "الصحابة هم الذين حفظوا لنا الدين" ان كان كلام النبي و حياته هو فعلا المصدر الثاني للدين بعد كتاب الله, و كان من الصحابة من هم أول سبب لكل فساد وقع في علم النبي المنقول الينا, فكيف تستقيم دعواهم بعد ذلك؟ فعلى كلا الوجهين لتفسير تبرير ابن عاشور يكون اللوم و الذنب و الوزر على اكتاف كل صحابي سمع من النبي و لم يكتب, او رءا النبي و لم يكتب, او هو ذنب الصحابة بمجموعهم في أنهم لم يجتمعوا و يدونوا علم النبي في صحف مرتبة و منظمة و موثوقة.

رابعا, أقوال لم يبينّ فيها الحال الذي صدرت فيه. أقول: يصلح هنا نفس ما قلناه قبل قليل. مع العلم بأنه حتى الان في ظل هذه المرويات الموجود لا يمكن ان نعرف فعلا ما هو الحال الذي صدر فيه القول النبوي. و هذا في معظم المرويات ان لم يكن كلها بدرجة أو بأخرى. و نكرر, ان وزر هذا الضلال الذي تسببه كتب المرويات بسبب عدم معرفة الحال الذي صدر فيه القول- و معلوم مدى اهمية معرفة الحال لادراك موقع الجملة من الاعراب اي معرفة معناها تمام المعرفة فتغير الحال يؤدي الى تغير معنى المقال- يحمل هذا الوزر أيضا من منع و ساهم في منع من يعلمون هذه الاقوال و احوالها من نشرها تحديثا و كتابة.

هذه هي الاسباب التي يذكرها الشيخ ابن عاشور لتبرير منع عمر بن الخطاب قوم من الصحابة التحديث عن النبي و نشر علمهم به, و هي كما رأيت, كل وحده ألعن من اختها.

ينقل الشيخ عن ابن العربي قوله "عمر كان لا يمكن الناس أن يقولوا قال رسول الله, و لا يذيعوا أحاديث النبي حتى يحتاج اليها و ان درست" . أقول: هذا اقرار من شيوخ السنة الكبار, في القديم ابن العربي و في الحديث ابن عاشور, و لذلك فضّلت ان أذكر هذا عن ذكر ما عند الشيعة في المسألة. فاقرار أهل البيت على ما في البيت هو اقرار قاطع "و شهد شاهد من أهلها". فالان ثابت عن عمر انه سبب منع "الناس" أن يقولوا قال رسول الله, مجرد قول "قال رسول الله" ممنوع, اذاعة احاديث النبي ممنوع. بل انه سجن و زجر من يفعل ذلك منهم. و هنا نلاحظ مرة اخرى استعمال كلمة "الناس" بدل من أصحاب النبي , فتأمل. و يوجد تبرير سريع ذكر في سياق كلام ابن العربي و هو ان عدم اذاعة احاديث النبي مشروط ب "عدم حاجة الناس اليها" و لكنهم اذا احتاجوا اليها فعندها كان عمر يجيز التحديث عن النبي, و تأمل خاتمة كلامه "و ان درست" يعني حتى لو انمحقت كلمات النبي من الوجود فهذا لا بأس به عندهم! فاذا لم يحتاج الناس الى كلمات النبي حتى مات من يعرفها و انمحقت بموته فلا بأس عند عمر و من شايعه في ذلك! و لا أدري لماذا لم يقول عمر أنه يخشى من ذهاب سنة النبي بموت "حفاظ السنة" كما يدّعي انه خاف من ذهاب القرءان بموت "حفاظ القرءان"؟ هذا ان صحت تلك الرواية المزعومة عن جمع القرءان و هي لا تصح. فالقرءان كان مجموعا منذ عهد النبي عليه السلام وكان مؤلفا في كتاب و منشور و ليس هنا موضع الحديث عن هذا بتفصيل. فالمهم, ان عمر يعرف ان موت الحفاظ يؤدي الى ذهاب ما حفظوه, لا اظن ان هذه الحقيقة تحتاج الى عبقرية ليدركها الانسان, فلماذا لم يبالي بذهاب السنة بموت حفاظها, فيبادر الى جمعهم و تدوين ما عندهم و توثيقه و نشره في الاقطار؟! لا تفسير الا انه لم يكن يهتم بكلام النبي ذلك الاهتمام. و هذا ليس ببدع من القول, فالرواية المشهورة برزية الخميس التي عصى فيها عمر بن الخطاب أمر النبي الحي المباشر و قال في وجه النبي

"حسبنا كتاب الله" و في رواية "ان النبي ليهجر" (الهجر هو الخرف و اللغو من القول!) . و اللطيف في الموضوع هو ان ابن عاشور يذكر بعدها ان "الحكمة البديعة" في سلوك عمر هذا- اي عدم اهتمامه بالسنة- هو "الله قد بيّن المحرمات و المفروضات في كتابه" فهذا الشبل من ذاك الاسد- هذا ان صح ضرب هذا المثل فيهم طبعا. و لا أدري كيف يستسيغ فقيه سني مالكي مثل ابن عاشور مثل هذا التبرير الارعن بالنسبة لنهجه, فهم يبنون تسعة اعشار دينهم على روايات النبي و صحابته, ثم يزعم هنا ان القرءان كافي بنفسه, و ان هذا مبرر كاف لسلوك عمر بن الخطاب. بل ان عمر بن الخطاب نفسه كان يروي احيانا عن النبي و كان يقول هو كلام من عنده, و كان يعطّل نصوصا قرءانية بذرائع مختلفة (كما فعل في سهم المؤلفة قلوبهم) و يخالف ايات قرءانية بجهل (كما في قصص تجسسه على البيوت في الليل و تسلقه جدار بيت الذين كانوا يشربون الخمر) و غير ذلك مما هو معروف عنه. فتأمل سلوك ابن عاشور هنا و تبريره الذي يظهره و كأنه واحد من جماعة "القرءانيين" الزنادقة على الاغلب عنده و عند أمثاله من الفقهاء. و هل يقول بعض هؤلاء القرءانيون غير ما يقوله هنا ابن عاشور!

طعن ابن عاشور في فكرة الرواية عن النبي بتلك المطاعن الاربعة و هي مطاعن دقيقة و واقعية, ثم ادعى ان عدم اهتمام عمر و من شايعه و رضخ لقوله انما هو "حكمة بديعة" ليس فقط "حكمة" لا, و لكنها ايضا "بديعة", أحسب ان هذا السلوك الرخيص يشبه قول ذاك الألماني النازي الاعلامي في زمن هتلر الذي قال: الكذبة الكبيرة يمكن تصديقها من قبل الجماهير أسرع من الكذبة الصغيرة. و لعلنا نستطيع هنا ان نقول: التبرير الغبي جدا و الكاذب جدا يمكن قبوله من قبل المغفلين أسرع بكثير من التبرير الغبي قليلا و الكاذب قليلا. فالحكمة "البديعة" أكبر من مجرد "الحكمة". ثم قال ان كتاب الله قد "بيّن" المحرمات و المفروضات, و انتبه ان هذا الشيخ كلامه دقيق, فكلمة "بيّن" ليس مثل كلمة "أجمل" اي جاء بالكلام مجملا يحتاج الى تبيان و تفصيل. فهو عندما يقول هنا أن القرءان "بيّن" المحرمات و المفروضات, يعني انه قد فصّلها و شرحها بتبيان كامل. و انا شخصيا مع هذا القول. و لكن منهج الشيخ نفسه و دينه بل و نظريته في المقاصد كل هذا يخالف مقتضى هذا القول. فهو لا يعتقد فعلا ان القرءان قد فصّل و شرح و بيّن كل المحرمات و المفروضات. و سيرد عليه السنيين أنفسهم قوله ذلك. فأين تحريم أكل لحوم الحمر الوحشية (على حد تعبير احد شيوخ السنة الطرفاء) في القرءان, و أين شرح الصلوات الخمسة من القرءان و غير ذلك من أمور سبق ان ذكرناها في هذه المسألة. و الشيخ ابن عاشور نفسه يؤيد قول اخوانه في الدين من السنيين. و لكنه هنا أطلق كلمة غير منضبطة و غير متناسقة مع دينه و منهجه هو نفسه, و كالعادة : فالتبرير بأي ثمن يورد المفكر المهالك. "يخربون بيوتهم بأيديهم".

و لا ينقضي العجب من الشيخ بعد قوله بتبيان كتاب الله لكل شئ و الاكتفاء به عن السنة في الاصل, اذ استشهد بقول الله تعالى " لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم". ما علاقة هذه الاية بهذا السياق؟ ما علاقة عدم الاهتمام بالسنة بعدم السؤال عن اشياء ان تبد لنا تسؤنا ؟ الجواب الوحيد لتفسير هذا الاستشهاد هو كأن الشيخ يلمح الى ان السؤال عن سنة النبي عليه السلام قد يسؤنا! لقد عصرت عقلي فلم أجد غير هذا التفسير, و تأمل بنفسك لترى ان كنت تستطيع أن تأتي بخير منه. و أريد أن أعلق هنا على كثرة استشهاد بعض الناس بهذه الاية ليعلموا أتباعهم – أنعامهم للدقة- عدم السؤال او الاقلال منه حتى مع النفس . انظروا في تكملة الاية فانها كفيلة بالرد على هذا الاستشهاد المحرف الملئ بالمكر "و ان تسألوا عنها حين ينزل القرءان تبد لكم" فالسؤال ليس ممنوع في ذاته, و لم يعيب الله السؤال أبدا ان كان بغاية المعرفة فعلا و ليس من باب المجادلة العابثة. و أعود مرة أخرى, ما علاقة استشهاد الشيخ بهذه الاية في هذا المقام؟ المشكلة هي ان الشيخ لا يمكن ان يعتبر ان السؤال عن

سنة النبي عمل سوء لانه هو نفسه يستشهد و يعمل بالمرويات التي يعتقد انها سنة النبي, و لكن مع ذلك لا يمكن تفسير استشهاده الا بذلك, فلعل المخرج هو انه الشيخ كتب شئ لغوا و عبثا او زل قلمه او لم ينتبه. او لعل دافعا لا شعوريا دفع بهذه الاية في هذا المقام. و لكن لنترك نفسية الشيخ و نيته الى ربه. فقد تبين لنا ما نحتاج الى معرفته في هذا المقام.

و اخر ما نريد ان نعلق عليه هو قول ابن عاشور عن ابن العربي "و أكثر قوم من الصحابة التحديث عن النبي فزجرهم او فسجنهم عمر". أقول: ان لم يكن هذا نصا على ان التحديث عن النبي جريمة او معصية تستحق السجن او الزجر او النفي (كما في حالة ابو هريرة الذي قال له عمر انه سيلحقه بقومه في دوس ان لم يكف الحديث عن النبي) فلا أدري ما هو هذا النص. "قوم من الصحابة" و ليس واحد او اثنان, و لكنهم قوم. و هؤلاء قد "أكثروا" فكأنهم يريدون ان يخرجوا كل ما عندهم قبل أن يتوفاهم الموت, او كانهم لا يكتمون شيئا مما يعلمون, فلماذا زجرهم او سجنهم او هددهم عمر بن الخطاب بالنفي؟ لماذا لم يجمعهم و يكتب ما عندهم, خاصة و ان " كل الصحابة قد زكاهم الله تعالى في كتابه " على ما يعتقد من يسمون أنفسهم "أهل السنة"؟ ألم يكن عمر يثق برواية الصحابة الذين شهد الله بعدالتهم و زكاهم ؟! المفترض بناء على سلوك عمر هذا و هذا النص هو أن يصبح التحديث عن النبي جريمة تعاقب عليها الشريعة, خاصة عند من يعتقدون بان عمر بن الخطاب من الخلفاء الراشدين المهديين المحدثين من قبل الله الملهمين الذين أمر النبي ان نعض عليهم بالنواجذ, و لا أدري ان كان يجب ان نصدق بهذه الاحاديث النبوية التي تعظّم عمر بن الخطاب خاصة و ان عمر نفسه كان يعتبر التحديث عن النبي جريمة تستحق السجن و الزجر و النفي!! و مع ذلك نجد ان اتباع عمر و منهج عمر أصبحوا يسمون انفسهم "اهل السنة" , سبحان الله, ألم يكن من الاولى أن يسموا أنفسهم "أهل الكتاب" بمعنى كتاب الله, فعمر نفسه كان لا يبالي في أن يعصي امر النبي الحي بحجة انه "حسبنا كتاب الله", و يؤيد ذلك سلوكه في تجريم و زجر الصحابة الذين يحدثون عن النبي عليه السلام. فقوله و فعله ضد التحديث عن النبي, و لكن يوجد روايات عن النبي تنتهي سلسلتها الى عمر بن الخطاب نفسه (يقال أن ما صح عن عمر من الاحاديث نحو 50 حديثا) فكيف نفسر هذا؟ انفصام في الشخصية, ام انه يعطي نفسه حق امتياز في التحديث دون سواه, او انه يسمح بالتحديث متى يشاء و يمنع متى يشاء, لا أدري, و لا يهمني كثيرا تفسير او تبرير ذلك. المهم انه قد حصل لنا من كل ما سبق ان عمر بن الخطاب و من شايعه هم اهم أسباب وقوع الخلط و اللبس و الكذب و الاختلاق و الاختلاف العظيم في كلام النبي و سيرة حياته الشريفة.

يمكن أن نبني على هذا الاستنتاج الكبير, ان كل راوي يعتقد بان عمر بن الخطاب من الخلفاء الراشدين المهديين الذين يجب اتباعهم و العض على سنتهم بالنواجذ, فمثل هذا الراوي من الافضل ان نضرب بروايته عرض الجدار. لانه يخالف سنة خليفته و امامه المهدي الملهم. لا أظن ان في قولنا هذا تعنت او ظلم. فلا أقل من أن نعرف عدالة الراوي في كونه يتبع تعاليم من يعتقد انه امامه المهدي الملهم الراشدي, الذي كان يزجر و يسجن من يحدث عن النبي! فالراوي الذي يعتقد بعمر بن الخطاب يجب ان نسجنه او نزجره من باب معاملته بما يفترض انه يعتقد به و انه سنة امامه. او لنكن أرحم به من سنة امامه المهدي و لنترك روايته لانه فقد الثقة في كونه يخالف من يعتقد به في سنته. مخالفة صريحة لا تأويل فيها.

و بناء على ذلك, يتم نسف روايات المذهب السني كلها. و بالتالي لا يبقى لدينا الا روايات المذهب الشيعي. و الغريب ان امام المذهب الشيعي , اي علي بن ابي طالب, كان من الذين يحدثون عن النبي في زمن عمر و غير زمن عمر و كان من المجيزين لتلك الرواية, بل ان ابناءه و خلفاءه من بعده في الامامة كانوا كلهم من رواة الحديث عن النبي و يهتمون بحفظ سنته على اكمل وجه ممكن و متيسر. بل ان أول كتاب روايات نبوية يصدر – و هو قبل موطأ مالك بن انس الذي كتبه ايام العباسيين- هو مسند زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب, امام المذهب الشيعي الزيدي. و بالرغم من بساطة هذا المسند و احتواءه على قليل مما ينفع فعلا- لا أدري بالنسبة لذوقي الخاص على الاقل- فانه يعتبر كتاب فيه كلام النبي و شئ من مواقفه. و اما الفرقة الاكثر حفظا و اهتماما بكلام النبي و حياته فهم الشيعة الامامية, و تكفي نظرة واحدة الى موسوعة بحار الانوار للمجلسي التي تقع في نحو 110 مجلد لتبين هذا , فضلا عن مجامعهم الحديثية الاخرى مثل الكافي للكليني و غيره. و هذه لا تحوي فقط احاديث عن النبي محمد عليه السلام و لكنها ايضا تحوي احاديث ائمة الامامية الاثنا عشر و فاطمة الزهراء و غير ذلك من كلمات أهل البيت العلوي.

و لكن مع ذلك, فان كتب الفرقة السنية تحوي الكثير من الاحاديث العظيمة التي تفوح منها رائحة النبوة, و يعلم العلماء العرفاء انها من كلام النبوة قطعا, فلا يجوز اطراحها بالحجة التي قلناها سابقا. فلا ازال على موقفي السابق و هو انه علينا ان نجمع كل الميراث الذي يوجد فيه شئ ينسب الى النبي عليه السلام في مجموعة واحدة. بلا اعتبار لمثل هذه المسائل الخلافيه و الاحكام على الاشخاص. نعم لعله من الافضل ان تحذف الاسماء ، و لكن ايضا لعله من الخير ان تبقى الاسماء لنرى الروايه و من نسبت عليه ، لعل في هذا ما ينفع احيانا.

.....

أحسب أنه من النافع أن ننظر في كتاب الخطيب البغدادي المسمى (تقييد العلم) و الذي بحث فيه حول مسألة كتابة الأحاديث و العلم عموما. و هل هي جائزة أم مكروهة أم محرمة أم ما حكمها بالضبط, و ما هي الروايات المنسوبة الى النبي و الصحابة و التابعين في هذه المسألة, ثم يخلص البغدادي الى نظرية تفسر التعارض بين الروايات التي تمنع كتابة الأحاديث النبوية و غيرها و بين الروايات التي تبيح ذلك بل تحض عليه. و الخطيب البغدادي عالم و مؤرخ و حافظ سنّي معروف. ففي هذه الفقرة أريد أن اناقش نظريته التي عرض لها في كتابه هذا, مع الأخذ بعين الاعتبار مقدار التوافق بين الروايات التي رواها و مع النتيجة التي وصل اليها أو ابتدعها, و لنرى أيضا ما يمكن أن يطرأ لنا من تساؤلات مهمة خلال سيرنا في عوالم هذا الكتاب. فتعالوا ننظر.

يمكن أن نقسّم الكتاب الى أربعة أقسام. (مع العلم أن البغدادي هو من أنصار نظرية ليس فقط جواز كتابة الأحاديث و العلم عموما بل انه من أنصار الادمان على الكتابة و القراءة و شراء الكتب و المحافظة عليها و العناية بها اشد عناية حتى لكأن الكتب هي أعظم مافي الحياة, و قد صدق رحمه الله. و لكن هذا لا يعني بالضرورة أن القواعد التي بنى عليها نظريته, بل مضمون نظريته نفسها, مقبول كله, كما سنرى ان شاء الله)

القسم الأول هو الروايات عن النبي و بعض الصحابة و بعض التابعين التي تنهى عن كتابة الاحاديث النبوية و العلم عموما. و القسم الثاني هو الروايات عن النبي و بعض الصحابة و بعض التابعين التي تجيز بل لعلها تحث على كتابة الأحاديث و العلم. و القسم الثالث هو نظرية البغدادي التي عن طريقها حاول التوفيق بين تعارض هذه الروايات. و القسم الرابع هو مجرد تكملة لمضمون الكتاب و هو حكم و أشعار و قصص في فضل العلم و الكتب و القراءة و نحو ذلك, و هذا القسم الأخير لا يهمنا كثيرا في هذا المقام بل الأليق به هو كتب الأدب و الحكمة عموما, و انما ذكره البغدادي من باب تأييد اهتمامه الخاص بالكتب و من باب الحث على هذا الاهتمام و تبيين شرفه و عظمته. فالذي يهمنا هنا القسم الأول و الثاني خصوصا, ثم نقد لنظرية البغدادي في ضوء مضمون روايات القسم الأول و الثاني. فنظرية البغدادي هي محاولة للجمع بين هذه الروايات أو توجيهها بحيث يزول التعارض الظاهري فيما بينها, أو هذا ما يسعى اليه البغدادي على الأقل و سنرى ان شاء الله مقدار التوفيق الذي فاز به في محاولته للتوفيق بين تعارض روايات القسم الأول و الثاني, ثم بعد ذلك سنذكر ما يفتح به علينا في هذه المسألة باذن الله تعالى. و لن أذكر كل الروايات , و من أراد أن يراجع كتاب البغدادي فليراجعه, و لكني سأذكر المهم منها و سألخص مضمون بقية الروايات بقدر المستطاع.

روايات القسم الأول التي تنهى عن الكتابة, خلاصتها هو التالي: النبي و ستة من الصحابة (أبو سعيد الخدري, عبدالله بن مسعود, أبو موسى الأشعري, أبو هريرة, عبد الله بن عباس, عبد الله بن عمر) كانوا ينهون عن كتابة أحاديث النبي عليه السلام, نهيا قوليا و فعليا و اجتماعيا مشددا. فمرة يشبهون كتابة الاحاديث بالشرك, اي جعل كتب اخرى في موازاة كتاب الله تعالى, و مرة يقولون أن كتابة كتب أخرى مع كتاب الله هو سبب ضلال الأمم من قبلنا. و لكن كلهم يأذن بالتحديث عن النبي عليه السلام. فالتحديث جائز, و الحفظ في الصدور جائز, و أما الكتابة في الصحف فهي الممنوعة في هذا القسم من الروايات. و يروى أن أبوسعيد الخدري استأذن النبي في كتابة حديثه فمنعه النبي من ذلك و لم يأذن له (و احفظ هذه النقطة جيدا) .

فمن ذلك, قول النبي عليه السلام كما يروى " لا تكتبوا عني شيئا غير القرءان ..حدثوا عنّي و لا حرج" و كذلك يروي ابوهريرة: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن نكتب الأحاديث, فقال "ما هذا الذي تكتبون؟" قلنا "أحاديث سمعناها منك" قال "أكتابا غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم الا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله" قال أبوهريرة "أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال "نعم تحدثوا عنّي و لا حرج فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".و في رواية يقول النبي معللا سبب عدم جواز كتابة حديثه "انما أنا بشر". و في رواية أخرى عن أبوهريرة أيضا, أنه بعد أن نهاهم النبي عن كتابة حديثه جمعوا الصحف التي كانوا قد كتبوها قبل اخذ الاذن منه و بنص ابوهريرة "فجمعناها في صعيد واحد فألقيناها في النار".

و قد كان بعض هؤلاء الستة من الصحابة من اذا وجد صحيفة مكتوب فيها شئ من الاحاديث عن النبي أو عنه هو شخصيا كان يأتي بالماء و يغسل الصحيفة ليمسحها. كما هي الرواية عن ابن مسعود. و كان بعضهم من يفارق من يكتب شئ في الصحف كما هي الرواية عن ابن عمر بن الخطاب. و بعضهم كان اذا وجد أحدا يكتب حديثه في مجلسه يقوم و يترك المجلس كما هي الرواية عن ابن عباس. و أما الروايات عن ابي سعيد الخدري و ابي موسى الأشعري و أبي هريرة فهي أنهم كانوا ينهون عن الكتابة بالقول, و كانوا يشبهون كتابتها بابتداع قرءان جديد!

فيقول أبوسعيد الخدري مثلا عندما استاذنه أحد أصحابه في كتابه حديثه " أتتخذونه قرانا ؟! اسمعوا كما سمعنا..احفظوا كما حفظنا..خذوا عنّا كما أخذنا عن رسول الله" و من هذا القبيل. فخلاصة رأي هؤلاء الصحابة الستة, و كذلك الروايات المنسوبة الى النبي عليه السلام, هي هذه: تحل الرواية و تحرم الكتابة.

و أما الروايات عن التابعين, فيذكر رأي نحو ثلاثة عشر تابعيا (عبيد الله بن عبد الله, ابن عمرو السلماني عبيدة, ابن عون يروي ذلك أيضا عن محمد و القاسم و اصحابهم, عمر صاحب سفيان, ابو العالية, الضحاك, ابراهيم, منصور, المغيرة, الأعمش, ابن سيرين, و ابن عون يقول: لم يكتب ابوبكر و لا عمر) و هؤلاء أيضا كانوا يكرهون الكتابة, و منهم من كان يخرق الصحيفة اذا عرضت عليه, بل منهم من كان ينهى حتى عن النظر في صحيفة او كتاب اذا عرض عليه. و لكنهم يؤيدون الرواية.

فاذن خلاصة القسم الأول هو : تجوز الرواية و لا تجوز الكتابة.

روايات القسم الثاني التي تجيز الكتابة. أما ما روي عن النبي عليه السلام منها فكلها أحاديث مضمونها واحد و هو أنه من لا يستطيع أن يحفظ الاحاديث عن النبي فان النبي أمره بأن يستعين بكتابة ما يسمعه. و كل روايات هذا الباب علّق عليها محقق كتاب البغدادي –الداني بن منير آل زهوي و هي طبعة المكتبة العصرية, بيروت- بأنها اما ساقطة من حيث الاسناد أو ضعيفة.

و في حديث سنده صحيح بحسب المحقق و هي رواية مشهورة, و هي أن عبد الله بن عمرو بن العاص استأذن النبي عليه السلام فقال له النبي " اكتب, فوالذي نفسي بيده ما خرج مني الا حق" اي حتى في حال الرضا و السخط, و هي عوارض البشرية التي على أساسها جاء نفر من قريش الى عبد الله بم عمرو بن العاص ينهونه عن كتابة أحاديث النبي عليه السلام, فلما جاء ابن عمرو الى النبي قال له النبي ما قال. و عن ابو هريرة أيضا باسناد صحيح أنه كان يقول " لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم, أكثر حديثا مني الا عبد الله بن عمرو, فانه كتب و لم أكتب ". و كان ابن عمرو يسمي صحيفته التي كان يكتب فيها احاديث النبي "الصادقة". فاذن هاتين الروايتين صحيحتين, واحدة تثبت أن صحابي استأذن النبي في كتابة حديثه فأذن له النبي, و الثانية شهادة صحابي أخر على أن الأول كان يكتب عن النبي. (و تذكر هذه النقطة جيدا).

و يروي عن ابي بكر أنه كتب فرايض الصدقة التي سنها رسول الله صلى الله عليه و سلم, كتبها لرجل. و يذكر روايتين – ضعفّهما المحقق- عن عمر بن الخطاب أنه قال "قيدوا العلم بالكتاب".

و يروي عن علي بن ابي طالب و الحسن و الحسين عليهم السلام انهم كانوا مع كتابة العلم و الاحاديث حتى لو كانوا سيكتبونه و يضعونه في بيوتهم. و يروي عن ابن عباس- باسانيد ضعفها المحقق- أنه يؤيد الكتابة. و عن ابي سعيد الخدري أنهم كانوا يكتبون التشهد الذي في الصلاة و يقول "كنا لا نكتب الا القرءان و التشهد". و عن انس بن مالك انه يؤيد الكتابة و كان يكتب في عهد النبي عليه السلام, ويروي باحاديث- ضعفها المحقق- أن أنس بن مالك كتب أحاديثا و عرضها على النبي عليه السلام. و عن أبي أمامة الباهلي انه سئل عن كتابة العلم فقال "لا بأس في ذلك". و أخيرا يروي عن جماعة من الصحابة بدون تعيين أنهم قالوا " كل ما سمعناه منه – اي النبي-

فهو عندنا في كتاب" و من هذا الكتاب كانوا يحدثون بعضهم البعض. و كذلك عن جابر بن عبد الله انه كان يؤيد الكتابة بل كان أصحابه يكتبون عنه. و كذلك عن ابي هريرة أن أصحابه كتبوا حديثه فاستأذنوه بأن يرووها عنه فأذن لهم.

و عن التابعين الكثير من الروايات مضمونها, ان الكتاب قيد العلم و مهم جدا, و ان الكتابة خير من النسيان, و أن الذي يكتب خير من الذي لا يكتب و احسن منه في رواية العلم. و ألطف و أعمق ما رأيت هو انهم سألوا قتادة عن كتابة العلم فقال لهم : و ما يمنعك أن تكتب و قد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب قال "علمها عند ربي في كتب لا يضل ربي و لا ينسى". و قد كانت هذه الاية حجة بيد انصار الكتابة فضلا عن اية الدين التي تأمر بكتابة الديون لتكون أقوم للشهادة فكتابة العلم و الحديث النبوي الذي به قيام الدين و الدنيا من باب أولى أن تكون كتابته جائزة بل مهمة. و أيضا أن عدم كتابة العلم يؤدي الى ذهاب العلم و ضياعه بذهاب العلماء (و هذا رأي مهم فتذكره).

فاذن خلاصة القسم الثاني: تجوز الرواية و الكتابة ضرورة أو شديدة الأهمية.

و أما القسم الثالث و هو رأي البغدادي الذي استنبطه من روايات متعددة فهو التالي, يقول البغدادي "فقد ثبت أن كره الكتاب من الصدر الأول انما هي, لئلا يضاهى بكتاب الله تعالى غيره او يشتغل عن القرءان بسواه, و نهي عن الكتب القديمة – ككتب الديانات السابقة على الاسلام- أن تتخذ لأنه لا يعرف حقها من باطلها و صحيحها من فاسدها مع أن القرءان كفى منها و صار مهيمنا عليها, و نهي عن كتب العلم في صدر الاسلام وجدته: لقلة الفقهاء في ذلك الوقت و المميزين بين الوحي و غيره لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهاء في الدين و لا جالسوا العلماء العارفين فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقران و يعتقدوا ما اشتملت عليه كلام الرحمن ". و يذكر أيضا حكمة أخرى و هي " نهي عن الاتكال على الكتاب لأن ذلك يؤدي الى اضطراب الحفظ حتى يكاد يبطل , و اذا عدم الكتاب قوي لذلك الحفظ الذي يصحب الانسان في كل مكان". و أيضا يذكر حكمة أخرى و هي " و كان غير واحد من المتقدمين اذا حضرته الوفاة أتلف كتبه أو أوصى باتلافها, خوفا من أن تصير الى من ليس من أهل العلم, فلا يعرف أحكامها, و يحمل جميع ما فيها على ظاهره, و ربما زاد فيها و نقص, فيكون ذلك منسوبا الى كاتبها في الأصل". و رأي أخير ينقله عن الأوزاعي يقول فيه أن العلم اذا صار في الكتب "ذهب نوره و صار الى غير أهله". هذه هي نظرية البغدادي, فخلاصتها هو هذا: عدم الكتابة كان للاحتياط في الديانة و ايثارا للسلامة.

فاذن نحن أمام ثلاثة اراء:

رأي ينسب للنبي و بعض اصحابه و التابعين يقول " تجوز الرواية و لا تجوز الكتابة"

و رأي أيضا ينسب الى النبي و بعض أصحابة و التابعين يقول " تجوز الرواية و الكتابة ضرورة أو شديدة الأهمية"

و رأي الخطيب البغدادي التوفيقي يقول و مضمون رأيه مستخلص من روايات متعددة عن النبي و بعض الصحابة و التابعين أيضا و هو " المنع عن الكتابة كان للاحتياط في الديانة و ايثارا للسلامة ".

فكما ترى, العامل المشترك بين كل هذه الاراء هو جواز رواية أحاديث النبي عليه السلام شفهيا. و أما الخلاف فهو في كتابتها في صحف, فمنهم متشدد في المنع حتى انه الحقها بالشرك بالله و الضلال, و منهم من أيدها حتى جعلها خير الأعمال, و البغدادي حيث انه يميل للرأي الثاني اضطر الى تأويل الرأي الأول بحيث يجعله مجرد احتياط في الدين من قبل بعض السلف الصالح.

فلننظر و ننقد نظرية البغدادي حسب ما نقلناها عنه في القسم الثالث. و يوجد ست نقاط تتكون منها هذه النظرية. لنذكرها واحدة واحدة و نعلق عليها بالقدر النافع.

الاولى قوله ", لئلا يضاهى بكتاب الله تعالى غيره او يشتغل عن القرءان بسواه " . أقول: ان صحت هذه الحكمة فانها باقية ما بقي الدهر. فيجب أن لا يكتب أحد اي كتاب بجانب القرءان كريم, الكتب الدينية خاصة, لانه لا محالة سينشغل الناس بها عن القرءان بدرجة أو بأخرى. بل من يتتبع مسيرة التاريخ الفكري الاسلامي, الى يومنا الحاضر, يجد أن انشغال الناس بهذه الكتب الأخرى أكثر بكثير جدا جدا جدا من انشغالهم بالقرءان الكريم. بل لا تكاد تجد مقارنة أصلا. فلو جمعت كل الجهد و الوقت الذي أنفقه الناس في كل ماعدا القرءان, ثم نظرت في الجهد و الوقت الذي أنفقوه في دراسة القرءان, فان البون شاسع جدا بينهما. و الحمد لله في أيامنا هذه بدأنا نرى عودة قوية الى كتاب الله و القيام بالابحاث فيه و تأسيس نظريات في فروع الدين المختلفة بناءا عليه- الى حد ما طبعا, فما زالت العقول محكومة بكثير من مقولات المذاهب و الفرق و لهذه الاولية غالبا, الا من رحم الله. فقول البغدادي "لئلا يضاهى بكتاب الله غيره" يصدق على كتب المرويات اكثر مما يصدق على أي شئ غيرها, بل وصل الأمر ببعضهم أن يجعل هذه الكتب "مساوية" في الحجية لكتاب الله- من الناحية العملية و النظرية احيانا- بل و جعلها مقدمة على كتاب الله عمليا. فالحكمة باقية باقية, و لا أدري كيف استساغ أن يتجاوزها و يؤسس نظريته المؤيدة بكتابة الكتب الأخرى بل الادمان على الاطلاع عليها و شرائها. هذا اولا.

و ثانيا, ان الكتب الأخرى التي نتحدث عن كتابتها و يدور عليها البحث هنا, هي ليست كتب زيد و عبيد من الناس, بل هي روايات النبي عليه السلام! و كلام النبي يفترض أنه كله حق و ما ينطق عن الهوى حسب تفسيرهم, فهي تنبع من نفس النبع الالهي العام, و هي قبس من شعاع شمس النور الرباني, و هنا أصل المسأله, فكيف جاز للبغدادي, بل للصحابة الذين نقل عنهم التخوف من كتابة أحاديث النبي عليه السلام, أن يكون الانشغال بحديث النبي عليهم السلام وسيلة للبعد عن الله تعالى و كأن كلام النبي و علمه ينبع من نبع اخر غير النبع الذي خرج منه القرءان. أليس الانشغال بكلام النبوة هو عين الانشغال بكلام الله و لكن من حيثية أخرى؟ و لمجرد التشبيه البسيط, هذا مثل أن يأتي أحد المسلمين المجتهدين فيكتب كتابا عن مسألة قرءانية, مثلا (علم الغيب..هل هو محصور بالله أم يمكن للانسان أن يطّلع عليه؟) فيجمع كل الايات القرءانية حول هذه المسألة, و يدرسها, و يحلل الموضوع و يتعمق و يجادل و ينقد, ثم يصل الى نتجية معينة أيا كانت هذه النتيجة, و الان هل قراءة كتاب هذا المسلم المجتهد تعتبر انشغالا عن القرءان؟ أم انها عين الانشغال بالقرءان لأن الرجل يبحث في القرءان و ينطلق منه

و يدرسه و انما الفرق أنه يكتب سلسلة تفكيره بطريقة منهجية و يكتب سلسلة أفكاره و تحليلاته حول المسألة؟ الجواب حتما هو الثاني. أي ان قراءة كتاب هذا الرجل هي عين الانشغال بالقرءان و لكن من حيثية أخرى. فقد تنشغل بالقرءان بعقلك أنت و مباشرة, هذه حيثية, و قد تنشغل بالقرءان عن طريق عقل غيرك فهذا أيضا انشغال به و لكن بطريقة غير مباشرة, فهذه حيثية ثانية. فالجامع المشترك بين الحيثيتين هو ان كلاهما انشغال بالقرءان و رغبة في فهم مضامينه الكريمة. فهي من باب التعاون على البر و التقوى, و الشورى, و نشر العلم و اظهار البينات و الصدقة و اطعام المساكين و فك أسر الأسرى و غير ذلك من أعمال روحية كريمة و عظيمة, و هي تمثل لبّ الدين العملي لمن يعرف حقيقة الدين و أعماله. فان كان هذا هو الحال مع مسلم مجتهد من عامة المسلمين أفلا يكون الانشغال بكلام النبي عليه السلام هكذا من باب أولى؟ فلا مجال لاختلاق هذا الخوف الذي يظهر من تتبع الروايات أن عمر بن الخطاب هو من رؤوسه بل رأسه الأول كما يظهر, كما رأينا عند الكلام عن ابن عاشور, و كما سنرى بعد قليل انشاء الله.

و ثالثا, كيف يجيزون الرواية و يمنعون الكتابة؟ اي منطق في هذا !! و ما الفرق أصلا؟ انما الكتابة رواية دقيقة. فالرواية الشفهية هي كلام وسيلة توصيله للغير ذبذات الهواء و الحبال الصوتية في الحنجرة, و الكتابة هي رواية مدونة و هي ايضا كلام ولكن الفرق أن وسيلة توصيله ورق و حبر. فأي عقل هذا أن تجيز الرواية الشفهية و تمنع الرواية المكتوبة. بل ان المكتوبة أولى بالثقة من الشفهية. كما يعلم الجميع بل و كما يشهد القرءان في مسألة كتابه الدين فقال "أقوم للشهادة". هذا أمر شديد الوضوح و لا يمكن تفسير هذا الأمر بأنهم غفلوا عن هذه الحقيقة, انهم ليسوا أغبياء لهذه الدرجة بل لا يوجد في الوجود أغبياء لهذه الدرجة. هؤلاء رجال – مثل عمر بن الخطاب- حكمة دولة و أسسوا لامبراطورية, لا يمكن أن ينسب لهم الغباء أو الغفلة عن مثل هذه الحقائق البديهية التي لا تخفى بل لا يمكن أن تخفى على أحد من صغار المفكرين. فما هو التفسير أذن؟ لندع الاجابة عن هذا التساؤل الان حتى يتبين لنا الامر بصورة أوضح, فالمسألة خطيره و وضع تفسير معين لها ليس عملا هينا و ستترتب عليه أمور كثيره. فلنتمهل و لا نستعجل.

و رابعا, ان المسلم لا يكون مسلما ان كان يضاهي أي شئ بالله تعالى, فلا ذات مثل ذاته, و لا أولوية لشئ في الحياة مقدمه عليه, و لا كتاب مثل كتابه, و نور كمثل نوره. فليس كمثله شئ جل و علا. و أحسب ان هذه الحقيقة هي أس أسس هذاالدين الكريم. و ليس الطريق الى اثبات و تثبيت هذه الحقيقة في قلوب المسلمين هو أن نمنع كتابة كلام النبي الأول عليه السلام, و لا أن نتعصب بقوة ضد كتابة العلم. فما علاقة هذا بذاك! أترى الناس اليوم – المسلمون اقصد- بالرغم من وجود ملايين الكتب المطبوعة و المنشورة و المتواجدة في معظم البيوت, هل يوجد منهم من يشك انه يوجد كتاب يضاهي كتاب الله تعالى؟! على الأقل من ناحية العقيدة لا يوجد. و ان وجد فهذا ليس بيت واحد من المسلمين. مرة أخرى لا نجد للفكرة اي أساس راسخ. و أما عن الانشغال بغير كتاب الله, المقصود بطريقة مباشرة, فالمفترض أن يمنعوا أيضا الرواية عن النبي عليه السلام لاننا اذا اعتبرنا أن كل كلام غير كلام الله هو انشغال عن كلام الله – حسب ما يدعي القوم- فاذن حتى كلام الناس اليومي يجب ان لا يجاوز الضرورة البحتة, و بالتالي كل خطب الجمعة يجب أن تقتصر على كلام الله, و يجب أن لا يتحدث أي أحد في أي موضوع ديني بغير كلام الله المحض, فحتى التعليق عليه ممنوع لانه انشغال بكلام غير كلام الله, و بالتالي ان كان النبي عليه السلام قد تكلم بكلام من عند نفسه – و هو مضمون الروايات النبوية- يجب ان نعتبر هذا سعي من النبي – حاشاه- لاشغال الناس عن كلام الله, بل يجب أن نعتبر كل الروايات المنقولة عن الصحابة و السلف الصالح و

الطالح أيضا روايات مرفوضة لا تجوز روايتها فضلا عن كتابتها و نشرها, ثم لماذا نتوقف هنا, حتى تعلّم اللغة العربية يجب أن يتم أيضا فقط بالقرءان وحده و لا يجوز الاستناد على اي شعر او نثر لفهم معاني الكلمات و بالتالي يكون كل هذا خوض في غير كتاب الله و هذا كله من الانشغال عنه. أحسب أن هذا كلام معظمه مرفوض و لا يقول به أحد من العلماء. فالطريق الى الانشغال بالقرءان هي بتخصيص وقت يومي له لتدارسه, فهذا هو الانشغال الايجابي, و ليس التعصب الأعمى ضد كل صحيفة تحوي كلاما غير القرءان مهما كان هذا الكلام. و سنرى مثال على مثل هذا التعصب الغير محمود او معقول عندما نحلل رواية عن ابن مسعود بعد قليل انشاء الله. و الانشغال بغير القرءان لا علاقة له بوجود كتب اخرى او عدم وجودها, فبكل بساطة ان كنت تريد ان تنشغل بالقرءان فقط فاذهب و انشغل به و لا تلفت الى الكتب الاخرى! فيظهر ان اعدام الكتب الاخرى هو "اكراه" للناس على الانشغال فقط بالقرءان, و كأن كتاب الله الجليل الجميل يحتاج الى مثل هذه السياسات الاكراهية الفرعونية ليجذب الناس له. و لا حول و لا قوة الا بالله.

فاذن الفكرة الأولى التي بنى عليها البغدادي نظريته التوفيقية, هي فكرة غير مقبولة بالمرة.

الثانية قوله " نهي عن الكتب القديمة – ككتب الديانات السابقة على الاسلام- أن تتخذ لأنه لا يعرف حقها من باطلها و صحيحها من فاسدها مع أن القرءان كفى منها و صار مهيمنا عليها ". أقول : هنا يقصد ما يسميه الناس كتب اليهود و النصارى, اي ما يعرف بكتب العهد القديم و الجديد, و الاهتمام أو عدم الاهتمام بهذه الكتب لا يهمنا في شئ في هذا المقام. و كونها لها علاقة بما يذكره القرءان او لا, أيضا هذا ليس له علاقة بما نريد بحثه هنا. و من شاء أن يعرف رأينا في هذا الموضوع فليرجع الى كتابي (قصص القرءان: تاريخ أم رموز؟ أساطير الأولين أم أمثال للعالمين؟).

الثالثة قوله " نهي عن كتب العلم في صدر الاسلام وجدته لقلة الفقهاء في ذلك الوقت و المميزين بين الوحي و غيره لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهاء في الدين و لا جالسوا العلماء العارفين فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقران و يعتقدوا ما اشتملت عليه كلام الرحمن " . أقول: أيضا مرة أخرى يريدون شيئا – أو يدعون أنهم يريدون شيئا- و لكن الطريق الذي يسلكونه لا علاقة له بالغاية, بل للغاية التي يريدونها طرق أخرى أحسن منها بكثير و هي أيسر و لها خط مستقيم لا عوج فيه.

أولا, ان كان في صدر الاسلام – خير القرون على الاطلاق عند القوم- يدعي أنه لم يكن يوجد الا "قلة من الفقهاء" أفلا ينسف هذا قوله بأفضلية هذه القرون و أن فيها خير من وطئ الأرض بعد الانبياء؟ هذا أدعه لأنصار هذه العقيدة ليناقشوا البغدادي فيه. و ليس فقط يوجد قلة من الفقهاء كما يقول, و لكن أيضا ان كتابة كتب العلم التي تشمل الروايات عن النبي عليه السلام و الصحابة و فقه الفقهاء و ما أشبه, يدعي أيضا أنه قلة فقط في ذلك الزمان كانوا يستطيعون أن يميزوا بين "الوحي و غيره", عجيب فعلا, أليس أولئك القوم هم اهل اللغة العربية المحضة و الفصاحة المطلقة, و اليس من الاعراب من كان اذا سمع اية من القرءان الكريم يكاد قلبه ينخلع لها لما يجد من عظمتها, و أليس القرءان لا يشبهه شئ بل حتى الاية منه معجزة كبرى لا يمكن أصلا أن تشبه شئ من

كلام البشر بل لا يستطيع الانس و الجن و ان تظاهرا على أن يأتوا بمثله أن يأتوا و لو بسورة من مثله, أين كل هذا أيها الناس؟! أفلا ينسف تبريره هذا الكثير من الافكار, بل العقائد, الموجودة عند الناس – و عنده ايضا!- منذ القدم ؟

ثانيا, يقول " لان اكثر الاعراب لم يكونوا فقهاء في الدين و لا جالسوا العلماء العارفين فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرءان و يعتقدوا ما اشتملت عليه كلام الرحمن" , و منذ متى كان الاعراب أصلا فقهاء في الدين! بل ان الفقيه في الدين لا يجوز أن يسمى اعرابي اصلا, فانما الاعرابي من لا يفقه الدين. ثم ان السلف الذين روى عنهم البغدادي كانوا لا يمنعون "الاعراب" من الحصول على الصحف, بل كانوا يمنعون العلماء أيضا أن ينظروا في الصحف أو كانوا يخرقون الصحف التي يكتبها أحد عنهم أو يعرضها عليهم كما ذكرنا قبل قليل. فلو كان ما يدعيه البغدادي صحيحا, لكان الواجب عليهم أن يسلكوا هذا الطريق: ان يكتبوا الروايات و العلم في الصحف, و لكن يستودعوها عند أناس علماء و يمنعوهم من أن ينشروها بين "الأعراب" (و كأن الأعراب كانوا من اهل القراءة و ادمان البحث عن العلم ! فتأمل) هذا أضعف الايمان. و أما أن يبدأ الأمر منذ عهد ابوبكر فيحرق السنن التي كتبها أو انه لم يكتب السنن أصلا كما يقول ابن عون, ثم الى عهد عمر الذي أحرق الصحف التي كتبت فيها السنن – كما سنروي بعد قليل انشاء الله- او يمنع بعض الصحابة حتى من مجرد التحديث عن النبي و "اشغال الناس عن القرءان بذلك" , و ما الى ذلك من سلوك , فان هذا لا علاقة به باعراب و غير أعراب. و كأن الأعراب كانو أهل قراءة و كتابة و سعي وراء العلم بنهم شديد حتى انهم ختموا القرءان و الان يريدون ان يبحثوا في صحف العلم الأخرى حتى يستزيدوا منها , ان كان يوجد فعلا "اعرابي" فعل كل ذلك, فأعتقد أن مثل هذا لن يخشى عليه بأن يلبس كلام الله تعالى بغيره, الا تعتقد ذلك أنت أيضا!؟ خاصة و هم أهل الفصاحة و أرباب اللسان. و منهم من كان يصحح قراءة بعض القراء للقرءان و هو لا يحفظ القرءان. كمثل تلك القصة التي تحكي عن اعرابي سمع قارءا يقرأ قوله تعالى " و السارق و السارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله و الله غفور رحيم" فقال الاعرابي " انها ليس و الله غفور رحيم و لكنها و الله عزيز حكيم" و كان قول الاعرابي هو الصحيح, و القارئ أخطأ في قراءته. فلما سئل الاعرابي : و هل تحفظ القرءان؟ قال ما معناه: ان نهاية الاية لا يناسب بدايتها, فان الاية تذكر انه قطع و نكل, فلا يناسبها ذكر المغفرة و الرحمة و لكن يناسبها العزة و الحكمة! و لا اريد أن أبحث في مدى صدق هذه القصة, فالعبرة منها واضحة, و هي أن بعض الاعراب كانوا ليس فقط يميزون بين القرءان و غيره, لانهم أهل اللسان الفصيح و كلام الله لا يشبهه شئ, و انما أيضا كانوا يصححون قراءة القراء للقرءان ! فمثل هؤلاء الفطاحلة أحسب انه لا يخشى عليهم من كتابة رواية النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في صحف محترمة و لتبقى في الناس يستفيد منها علماء الاسلام.

ثم فلنفترض ان بعض الاعراب و غيرهم فعلا خلطوا القرءان بغيره, فاعتقدوا ان كلاما معينا هو من كلام الله تعالى, فما المشكلة؟ الوسيلة لحل هذه المشكلة بسيطة جدا, أتعلمون ما هي؟ أنا سأقول لكم, و هي طريقة تحتاج الى عبقرية فذة أستحق عليها جائزة نوبل في السلام, الطريقة هي هذه: ان نصححهم!! نذهب و نقول لهذا الذي أخطأ " أيها الأخ المحترم, هذا الكلام ليس من كلام الله..فهذا هو كلام الله مكتوب في الصحف المطهرة, راجعها ان شئت أن تتأكد بنفسك و لترى أنها ليست من كلام الله..سلام عليك يا اخي" و أي عبقرية نحتاج لندرك مثل هذا الحل ؟! بل ان بعض الناس الى يومنا هذا يحسبون ان بعض الاحاديث النبوية هي من كلام الله, فمثلا مرة جاء احد الشباب و سألني " في اي سورة من القرءان يوجد ذكر التشهد الأول ؟" تصور هذا شاب مسلم في القرن

الخامس عشر الهجري يحسب أن التشهد المذكور في الصلاة , اي التحيات لله و الصلوات و الطيبات..الخ, يحسب أن التشهد هذا من كلام الله تعالى! بل الأدهى من ذلك, بالأمس جاءت امرأة مسلمة شابة تسكن في بلاد الحرمين التي تدرس المواد الاسلامية في خمس مواد منفصلة منذ المرحلة الابتدائية-!!- و كانت تتحدث عن فكرة ما فاستشهدت بهذا القول " من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الأيسر" و هي تحسب ان هذا القول في القرءان !! فقلت لها "هذا ليس من كلام الله" فقالت بشدة و اصرار "لا ! هو في القرءان و لكني لا أذكر في أي سورة" ! فقلت لها " والله ليست في القرءان, ان شئت فاذهبي و ابحثي في كل القرءان و لن تجديها, و لاختصار الوقت افتحي المنقب القرءاني في الانترنت و اكتبي هذه الجملة و لن تجدي اي اجابة " و انتهى الجدال و عرفت ان هذه الجملة لم تكن من كلام الله. بهذه البساطة. فهل نذهب و نحرق كل الكتب لأن حوادث مثل هذه تحدث؟ انها ليست نهاية العالم, ما المشكلة أن يخطئ الناس فنصححهم. بل ان شئ من هذا القبيل وقع أيضا بالنسبة الى الاحاديث النبوية, فيوجد كثير من الامثال و الكلمات التي يحسبها الناس احاديث نبوية و لكنها في الواقع تكون كلمة لصحابي او لاحد العلماء, و لكن عوام الناس يحسبونها من كلام النبي, فماذا فعل علماء الروايات النبوية الشريفة؟ هل احرقوا و خرقوا كل كتب العلماء و الفقهاء؟ لا, بكل بساطة صنّفوا كتبا مخصوصة لهذه المسألة, فجمعوا ما يتداوله الناس من هذه الكلمات و نسبوا كل قول الى قائله, و انتهى الأمر. بل اني شخصيا في مبتدأ أمري كنت أحسب ان مقولة " لحوم العلماء مسمومة " من كلام النبي عليه السلام, حتى تبين لي أنها مقولة للمؤرخ ابن عساكر. فاذن المسألة لا تحتاج كل التهويل الذي رأيناه في الروايات التي تنهى عن كتابة حديث النبي عليه السلام او العلم عموما. فليس فقط "الاعراب" بمعنى بدو ذلك الزمان هم من يحتاجوا الى تثقيف ديني, بل كلنا نحتاج ذلك. و الوسيلة الافضل لذلك هي زيادة نشر الكتب الموثقة النافعة , و ليس خرقها و حرقها بمختلف الذرائع التي كل واحدة أوهى من اختها كما ترى.

فاذن, هذه الفكرة أيضا لا قيمة حقيقية لها بعد التأمل فيها, و لا علاقة محترمة لها بالغاية التي يدعون أنهم يرغبون في الوصول اليها.

الرابعة هي قوله "" نهي عن الاتكال على الكتاب لأن ذلك يؤدي الى اضطراب الحفظ حتى يكاد يبطل, و اذا عدم الكتاب قوي لذلك الحفظ الذي يصحب الانسان في كل مكان" أقول: فلماذا لا نحرق كتاب الله أيضا حتى لا يتكل الناس على الكتاب المدون فيضيع الحفظ! هذه واحدة.

و ثانيا, البغدادي نفسه يروي عن علماء ندموا في اخر حياتهم لانهم لم يكتبوا, لانهم نسوا كثير من العلم الذي كانوا يحفظونه. و هذا أيضا المفترض انه من الحقائق البديهية التي لا تحتاج الى عبقرية. بل ان الله تعالى نفسه يقول "علمها عند ربي في كتب, لا يضل ربي و لا ينسى " و كما رأينا فقد احتج بهذه الاية غير واحد من السلف. و هل يوجد حفظ أقوى من الحفظ في كتاب يمكن أن ترجع له حيث شئت. بل حتى بعد ان كتبت الكتب الكثيرة, فان هذا لم يمنع العلماء على مر العصور ان يحفظوا المتون العلمية, بل لعله قوّى حفظهم لانهم كلما نسوا رجعوا الى الكتاب المدون فراجعوا حفظهم فازدادوا وثوقا الى وثوقهم. و لماذا نذهب بعيدا, القرءان الكريم نفسه و هو اكثر الكتب حفظا في الصدور لعلنا لا نغالي اذا قلنا "على مستوى العالم كله" فلا يوجد كتاب على وجه الارض محفوظا في صدور الناس حرفا بحرف , بل تشكيلة الحرف ايضا, مثل هذا القرءان العظيم, بل لا يدانيه كتاب اخر

على الاطلاق في هذا المجال. و مع ذلك فان القرءان كان مكتوبا منذ نزل, و لم يؤدي هذا الى "الاتكال على الكتاب و اضطراب الحفظ حتى يكاد يبطل" أو أنه "اذا عدم الكتاب قوي لذلك الحفظ" و لا أدري من أين جاء بهذه المعلومة, منذ متى وجدت علاقة بين انعدام الكتب في الخارج و بين تقوية الحفظ الذي هو شأن عقلي باطني؟! و ان قلت مبررا له: ان عدم وجود الكتب في الخارج يؤدي الى زيادة حرص الرجل على الحفظ, لقلت ردا على ذلك: الخوف من ضياع المحفوظ كفيل بحد ذاته لملئ نفس الانسان بالقلق و الاضطراب, و أيضا الذي يريد أن يحفظ سيحفظ و لو وجد بجانبه ألف نسخة من الكتاب الذي يريد أن يحفظه, فكان وسيلة "اعدام الكتاب حتى يقوى الحفظ" هي من باب وضع الانسان على المحك و على حافه الهاوية حتى نجعله يجمع عقله و تركيزه! هي سياسة ضعيفة و لا تفلح الا قليلا, و لا يضطر اليها من يهتم بالعلم , و ان وجد اصلا سببا او دافعا قويا للحفظ فانه لا حاجة الى خلق دافع عنيف و سخيف مثل "اعدام الكتب لتقوية الحفظ".

فاذن, مرة أخرى لا علاقة بين ما يبرر به النهي عن كتابة الاحاديث و العلم و بين هذه التبريرات الغير مقبولة بالمرة, و احسبه هو نفسه لو تامل قليلا و لم يهتم فقط بالتبرير لوجد رأيا و نظرية خير من التي وضعها. مع العلم أن عدد لا بأس به من العلماء في يومنا هذا لا يزال يعتقد بهذه التبريرات التي وضعها البغدادي و لذلك أسهب الى حد ما في تاملها و سبر غورها. و أما لو كانت نظرية مغمورة لا يعتقد بها أحد لما احتاج الأمر الى كل هذا, و ان كان العلم للعلم قيمة بحد ذاته. على كل حال, حتى هذه الفكرة الرابعة التي وضعها البغدادي غير مقبوله كما ترى.

الخامسة و الأخيرة هي قول الأوزاعي أن العلم اذا صار في الكتب- و لم يتلقى من افواه الرجال- "ذهب نوره و صار الى غير أهله" و التي يقول فيها البغدادي "و كان غير واحد من المتقدمين اذا حضرته الوفاة أتلف كتبه أو أوصى باتلافها, خوفا من أن تصير الى من ليس من أهل العلم, فلا يعرف أحكامها, و يحمل جميع ما فيها على ظاهره, و ربما زاد فيها و نقص, فيكون ذلك منسوبا الى كاتبها في الأصل".

أقول: القرءان أصبح في كتاب, فهل ذهب نوره و صار الى غير أهله؟! فلماذا لا نخرقه و نحرقه أيضا حتى يكون أخذ القرءان فقط من افواه الرجال حتى يبقى نوره و لا يصير الا لاهله, كما يقولون. ان هؤلاء يريدون أن يؤسسوا كهنوتا بحيث يكون الدين و العلم محتكرا من قبل قلة فقط تعطيه لمن تشاء, و أما وضعه في كتب و نشرها بين الناس فانها خطيره على المحتكرين و من يرغبون في خلق طبقة خاصة متميزة لأنفسهم و لاتباعهم, و كما يروون عن النبي "لا يحتكر الا خاطئ" و محتكر العلم أسوأ من محتكر الخبز و الملح ان كانوا يفقهون.

و فقط من باب المقارنة النافعة مع اهل الديانات الاخرى, تأمل في ما حدث لوليام تيندال و جون ويكليف. وليام تيندال كان أول من ترجم الكتاب "المقدس" (كتاب الدين العبراني و الصليبي المسمى عند الاسلاميين باليهود و النصارى) الى اللغة الانجليزية من أصول يونانية و عبرية, و جون ويكليف كان أول من ترجم هذا الكتاب المقدس الى اللغة الانجليزية من الترجمة اللاتينية. و اللغة الانجليزية هي لغة عامة الشعب. و أما اليونانية و العبرية و اللاتينية فهي لغة القلة المتعلمة, اي لغة طبقة العلماء من الشعب. و أما جماهير الشعب فكان لا يفقه الا الانجليزية. و الان, ماذا نتوقع أن يحدث لرجلين ساهموا بنشر كتاب الرب في وسط الشعب؟ المتوقع بالنسبة لاهل الفكر الانساني و الرؤى الجميلة لمجتمع راقي متعلم و حر و روحاني يتصل بالرب مباشرة بكتابه و يكون ارا ءه

بنفسه و لا يكون بهيمة تساق الى حيث لا تدري, المتوقع ان من يقوم بترجمة كتاب الرب الى لغة عوام الناس أن ينال أكبر الجوائز و أعظم التقدير, لانه ساهم بنشر الكتاب و نشر العلم و تنوير الشعب, أليس كذلك؟ العجيب في الامر, و المتوقع من طبقة الكهنوت, هو أن يعاقبوا شر عقاب. فأما ويليام فشنق و حرق حيا (لانه ترجم الكتاب المقدس فهو مهرطق), و أما جون ويكليف فصلب و حرق ميتا (ايضا لانه ترجم الكتاب المقدس بالاضافة الى امور اخرى) . و تبارك الرب في علاه !

لماذا ؟ لأن نشر الكتاب بين الناس يعني زوال طبقة الكهنوت, أو على الاقل اضعافها. فالسؤال الان: لطالما وجد كتاب الله, القرءان الكريم اقصد فقد رجعنا الى الكلام عن قومنا, لطالما وجد القرءان مكتوبا و بين يدي الشعب المسلم, و كل من يريد أن ياخذه و يستنسخه كان يستطيع و كل من يريد أن يحفظه كان سيجد من يحفظه اياه. فكيف نشأت عندنا طبقة خاصة تسمى "علماء الدين" ؟ أليس المفترض في مثل هذه الحالة أن يكون كل مسلم هو رجل دين ؟ هذا تساؤل يستحق البحث في ضوء ما ذكرنا. المهم في هذا المقام هو أن نعرف أن المحاولة القديمة التي أطفأ الله نارها , اي محاولة عدم تدوين العلم حتى يكون محتكرا و لا يؤخذ الا من أفواه الرجال هي محاولة ساقطة أخزاها الله في مهدها و لله الحمد و الشكر لكل من ساهم في ذلك و كان يدا لله ضد هذه المحاولة. و من اهم الأسس التي كانت ترتكز عليها هذه المحاولة هي أن لا يكتب العلم و يبقى مخزونا مكنوزا في صدور بعض الناس يعطونه لمن يشاؤون و يمنعونه عمن يشاؤون. و أكبر و أقوى الأدلة أن النبي الأول عليه السلام كان ضد كل كهنوت من أي نوع هو أنه كتب القرءان و نشره بين الناس, مؤمنهم و كافرهم. و كل من رغب في الحصول عليه كان يستطيع ذلك. فالنبي اول عدو للمحتكرين من كل نوع. و لوكان هدفه التسلط و الحكم لاحتكر العلم و لما نشر الكتاب بأي حال من الاحوال حتى يبقى الناس أسرى له, لكن حاشاه من ذلك و ربه يقول له "و ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض" و قد فسر الله لنا سر اتخاذ الاسرى من كل نوع, بقوله في تكملة هذه الاية المباركة "تريدون عرض الدنيا" فالاحتكار بوابة التفاخر الذي هو من أصنام الدنيا, و لكن لله غاية اخرى من دينه و هو "و الله يريد الاخرة" ولا يوجد اخرة بدون نشر القرءان و دراسته من قبل كل مسلم باستقلال , و بالتعاون مع غيره من المسلمين كما هو مقتضى التوحيد بشروطه الثلاثة و قد بينا ذلك في كتب أخرى فلا نعيد.

و أما الخوف من سوء فهمها, فهو طبيعي جدا و قد يقع في كل نص مكتوب, بداية من كتاب الله تعالى نزولا الى لوائح المرور في القانون الوضعي. و هذا لا يقتضي اي حرق و خرق. و الله تعالى يعلم نية و قصد الكاتب فحتى لو أساء الناس فهم كلامه فان الله تعالى لن يحاسبه الا بقصده و دافعه و ليس بغير ذلك من أمور لا دخل له بها فان الله لا يكلف نفسا الا وسعها. و ليس من وسع الانسان أن يضمن حسن فهم كل القراء لكتابه, و لو كان هذا الامتياز لاحد لكان لكتاب الله تعالى و هو غير متوفر فيه كما هو معروف و مشاهد. و العلاج الوحيد للخوف من سوء فهم الناس ليس حرق الكتب و انما زيادة عدد الكتب و زيادة الشرح و التبيين و التفصيل و التوضيح و ذكر التحريفات و المقاصد المغلوطة التي يمكن ان يقع فيها القارئ و ذكر الاجابة عنها و هكذا. كما هو واقع فعلا و كما يفعل الكثير من الكتاب و كثير من المدافعين عن كتّاب معينين حينما يؤلفون كتب خاصة لتوضيح مقاصد الكاتب الفلاني و الرد على سوء الفهم الذي وقع فيه الناس بالنسبة لكتابه. فعلى مستوى العالم نجد هذا السلوك, و هو ايضا من الامور التي يفترض ان تكون مفهومة للعالم بل المفكر المتوسط ايضا. و لا حاجة لكل التهويل الذي رأيناه في الروايات التي تنهى عن كتابة العلم و الكلام النبوي الكريم.

اذن فهذه الفكرة ايضا غير مقبولة بالمرة. و الحمد لله أنه وقانا شرها.

فالحاصل أن نظرية البغدادي التي لخصناها بكلمة " المنع عن الكتابة كان للاحتياط في الديانة و ايثارا للسلامة " لا أساس سليم لها و هي مجرد محاولة غير موفقة لتبرير ظاهرة منع تدوين حديث النبي عليه السلام من قبل بعض الصحابة و من شايعهم من التابعين لهم في القرن. و كما رأينا فان كل عذر يأتي به أوهى من الاخر, و معرفة وهن هذه الاعذار لا يحتاج الى كثير من العلم او التفكير, بل الملاحظة المتأملة بشئ من التوفيق الالهي تكشف عن ذلك. بل و كثير منها من شدة ضعفه لا نستطيع ان نفسّر وروده للغفلة او ضعف الفكر و ما أشبه من تبريرات. المهم أن نظرية البغدادي لا قيمة لها في هذا المجال. فلنرجع الى الوقائع لنرى ما هو السبب الحقيقي و التفسير الأنسب لظاهرة المنع هذه.

الرأي الذي نريد أن نناقشه الان هو الذي يجيز الرواية و يمنع الكتابة. يوجد مجموعة من الروايات عن ابن مسعود, و روايات عن عمر بن الخطاب ستقربنا الى الواقع ان شاء الله . و هذه الروايات مذكورة في كتاب البغدادي نفسه الذي نحن بصدده الان. سنبدأ بذكر روايات ابن مسعود ثم عمر لنرى أين نصل.

رأي ابن مسعود و تفسيرنا له:

برواية اسنادها حسن حسب المحقق, عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: جاء علقمة بكتاب من مكة أو اليمن, صحيفة فيها أحاديث في أهل بيت النبي صلى الله عليه و سلم, فاستأذنا على عبد الله- ابن مسعود- فدخلنا عليه, قال : فدفعنا اليه الصحيفة, قال: فدعا- اي ابن مسعود- الجارية ثم دعا بطست فيه ماء, فقلنا له "يا ابا عبد الرحمن انظر فيها فان فيها أحاديث حسانا" قال : فجعل يميثها فيها – اي يغسل الصحيفة في طست الماء ليمحو الكلام المكتوب فيها- و يقول "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرءان" القلوب أوعية فأشغلوها بالقران و لا تشغلوها بما سواه.

و برواية اسناده فيه ضعف و لكنه حسن حسب المحقق, عن عبد الرحمن بن الاسود عن أبيه قال: جاء رجل من أهل الشام الى عبد الله بن مسعود و معه صحيفة فيها كلام من كلام أبي الدرداء و قصص من قصصه, فقال "يا أبا عبد الرحمن! ألا تنظر ما في هذه الصحيفة من كلام أخيك أبي الدرداء؟" فأخذ الصحيفة, فجعل يقرأ ما فيها و ينظر, حتى أتى منزله فقال "أيتها الجارية ائتني بالاجانة مملوءة ماء" فجاءت بها, فجعل يدلكها و يقول "الر تلك ءايت الكتب المبين انا انزلنه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص" أقصصا أحسن من قصص الله تريدون؟ أو حديثا أحسن من حديث الله تريدون !

و برواية اسنادها صحيح حسب المحقق, عن سليم بن أسود قال: كنت أنا و عبد الله بن مرداس, فرأينا صحيفة فيها قصص و قران, مع رجل من النخع, قال : فواعدنا المسجد, قال, فقال عبد الله بن مرداس "اشتري صحفا بدرهم",

انا لقعود في المسجد ننتظر صاحبنا, اذا رجل فقال "أجيبوا عبد الله يدعوكم" قال:فتقوضت الحلقة, فانتهينا الى عبد الله بن مسعود, فاذا الصحيفة في يده, فقال " ان أحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه و سلم, و ان أحسن الحديث كتاب الله, و ان شر الأمور محدثاتها, و انكم تحدثون, و يحدث لكم فاذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدي الأول, فانما أهلك أهل الكتابين قبلكم مثل هذه الصحيفة و أشباهها, توارثوها قرنا بعد قرن, حتى جعلوا كتاب الله خلف ظهورهم, كأنهم لا يعلمون, فأنشد الله رجلا علم مكان صحيفة الا أتاني, فوالله لو علمتها بدير هند لانتقلت اليها "

و برواية أخرج نحوها الدارمي في سننه كما يقول المحقق و هي مقبوله كما يظهر عنده فهو لم يعلق عليها بأكثر من ذلك, عن أشعث بن سليم عن أبيه قال: كنت أجالس أناسا في المسجد, فأتيتهم ذات يوم, فاذا عندهم صحيفة يقرأونها, فيها ذكر و حمد و ثناء على الله. فأعجبتني, فقلت لصاحبها: أعطينها فأنسخها. قال "فاني وعدت بها رجلا فأعدّ صحفك فاذا فرغ منها دفعتها اليك, فأعددت صحفي, فدخلت المسجد ذات يوم, فاذا غلام يتخطى الخلق, يقول: أجيبوا داعي عبد الله بين مسعود في داره, فانطلق الناس فذهبت معهم, فاذا تلك الصحيفة بيده, و قال – اي ابن مسعود- " ألا ان ما في هذه الصحيفة فتنة و ضلالة و بدعة, و انما هلك من كان قبلكم من أهل الكتب باتباعهم الكتب, و تركهم كتاب الله. و اني أحرج على رجل يعلم منها شيئا الا دلني عليه, فوالذي نفس عبد الله بيده, لو أعلم منها صحيفة بدير هند لأتيتها و لو مشيا على رجل فدعا بماء فغسل تلك الصحيفة.

و أخيرا برواية اسنادها صحيح حسب المحقق, عن ابراهيم التيمي قال: بلغ ابن مسعود أن عند ناس كتابا فلم يزل بهم حتى أتوه به, فلما أتوه به محاه, ثم قال "انما هلك أهل الكتاب قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم و أساقفتهم و تركوا كتاب ربهم " أو قال – ابن مسعود "تركوا التوراة و الانجيل حتى درسا, و ذهب ما فيهما من الفرائض و الأحكام".

حسنا, هذه هي أقوال هذا الرجل الصحابي, ابن مسعود, ماذا يمكن ان نستنبط أو نؤلف منها لكي ندرك رأيه بشمولية؟

أولا, لاحظ ان ابن مسعود نفسه كان يتكلم و يفتي و يحدث الناس "بكلام غير كلام الله" اللهم الا ان كان ابن مسعود يعتقد أن كلامه هو كلام الله! و لا أظن أن هذا ممكن. فها هو الرجل يحدث الناس, فلماذا سمح للناس بأن ينشغلوا بكلامه و حديثه و ارائه و فتاواه و فلسفته في هذه الامور؟ لماذا لم يقل للناس- حتى يكون فعله مناسب و مطابق لقوله- "ايها الناس لا تسمعوا لكلامي حتى لا تضلوا كما ضلت الامم من قبلكم بالانشغال بكلام علمائهم و اساقفتهم, و لكن انشغلوا بكلام الله فهو أحسن الحديث و خير الهدي و اياكم و البدع" ان قال ذلك فعندها نعم, يمكن أن نأخذ رأيه في المنع من الكتابة على محمل الجد. و أما أن يقول شيئا و يفعل شيئا أخر تماما, بل يفعل عين ما ينهى عنه, فعندها تفسير رأيه و المذهب الذي ذهب اليه لا يمكن ان نقبل أن يكون مجرد "تقوى الله و الخوف على الامة من الفتنة" و ما أشبه. فهو يقول شيئا و يفعل شيئا اخر. و في نهاية التحليل هو يؤيد أن يتكلم الانسان و يحدث عن النبي و عن نفسه و اجتهاده ايضا, و لكنه يمنع كتابة ذلك, و قد فرغنا من بيان ضعف بل وهن هذا التوجه الذي لا منطق فيه و لا أساس له.

ثانيا, لاحظ الصحف التي غسلها ابن مسعود و رفضها بكل شدة حتى انه مستعد أن يسافر الى الهند مشيا على الاقدام من أجل ان يتلفها – و العياذ بالله من هذا المشوار الطويل. الروايات الخمسة فيها ذكر خمسة أمور, صحيفة فيها أحاديث في أهل بيت النبي عليهم السلام, و صحيفة فيها كلام صحابي جليل و قصص من قصصه اي ابي الدرداء, و صحيفة فيها قصص و قرءان عموما, و صحيفة فيها ذكر و ثناء و حمد لله تعالى!!, و الخامسة لم يعينوا ما هو مضمون الكتاب و لكنه كتاب. و كل هذا رفضه ابن مسعود. هل فهمت ماذا قصدت حين قلت "تعصب اعمى" . فحتى الصحيفة التي ليس فيها الا ذكر و ثناء و حمد لله تعالى فانه لم يقبلها بل رفضها بشدة و قال عن الصحيفة التي فيها ذكر و ثناء و حمد لله تعال- تأمل- قال ابن مسعود عنها " ان ما في هذه الصحيفة فتنة و ضلالة و بدعة "! الله أكبر, كل هذا في صحيفة فيها ذكر الله تعالى و حمده و الثناء عليه. فتنة و ضلالة و بدعة أيضا. بل حتى قصص ابو الدرداء و كلامه و هو صحابي جليل اليس كذلك, ايضا كتابة هذا يعتبر فتنة و ضلالة و بدعة. فهل ترى ايها القارئ العاقل, ان رجل يقول مثل هذه الاقوال و يرى هذه الاراء, هل يمكن ان يأتي رجل مثل البغدادي أو غيره و يبرروا رأيه بحيث يصبح مجرد احتياط و تخوف يمكن حله او تبريره بعذر او عذرين؟! ان الرجل يرى ان صحيفة ليس فيها الا ذكر الله و حمده على انها صحيفة بدعة و ضلالة و فتنة و سيذهب الى الهند مشيا على الاقدام ليتلفها, هل يمكن اختلاق عذر لمثل هذا الرأي ليتحول بطريقة سحرية الى مؤيد للكتابة أو راض بها ؟! و تأمل مثلا في الصحيفة التي فيها احاديث من النبي عليه السلام – هذا المفترض عند اطلاق لفظ الاحاديث- و يذكر فيها اهل بيته, لماذا مسحها و ما علاقة هذا بان قصص القرءان أحسن القصص ليتلو تلك الايات و هو يمحو هذه الاحاديث؟

التفسير الوحيد الذي أراها ممكنا في ضوء ما سبق هو التالي : ابن مسعود أراد أن يكون مرجعا وحيدا لاتباعه, فلذلك منع الكتب. و ما خوف الفتنة و الضلالة و ما أشبه الا غطاء شرعي لارادته في احتكار المرجعية لنفسه. لو صدق في نيته بانه يريد أن ينشغل الناس بكلام الله فقط, لكان هو أول الصامتين. و و من هنا نعرف ان كلامه عن خوف الفتنة و الضلالة كان مجرد غطاء شرعي, و يا كثره الاغطية الشرعية في تاريخنا و حاضرنا .و الله المستعان.

رأي عمر بن الخطاب و تفسيرنا له:

يوجد اكثر من رواية تتحدث عن نفس الواقعة و لذلك سأجمع فيما بينهم لتكون الصورة شاملة, و هي رواية صحيحة كما يقول المحقق و الواقعة مشهورة بين العلماء و لا تحتاج الى بحث في صحتها.

خلاصتها هو التالي: ان عمر بن الخطاب أراد ان يكتب سنة النبي عليه السلام, فاستشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم, في رواية "فأشاروا عليه أن يكتبها" و في رواية "فأشار عليه عامتهم بذلك", فلبث عمر شهرا يستخير الله و في رواية "فمكث عمر شهرا يستخير الله في ذلك شاكا فيه" , ثم أصبح يوما و قد عزم له و في رواية "عزم الله له", فقال " اني أردت ان أكتب السنن, و اني ذكرت قوما كانوا قبلكم قد كتبوا كتبا فأكبوا عليها و تركوا كتاب الله تعالى و اني و الله لا ألبس كتاب الله بشئ أبدا " و بروايات اخرى لها نفس المضمون العام مع اختلاف طفيف في ترتيب الكلمات و النتيجة واحدة, فترك عمر كتابة السنة.

في رواية أخرى لم يعلق عليها المحقق, (و يظهر أنها ضعيفة من حيث ان القاسم بن محمد لم يسمع عن عمر بن الخطاب كما يقول اهل هذا العلم, و لا أرى محالا في أن يكون القاسم قد روى القصة التي اشتهرت عن عمر بدون

حاجة الى أن يذكر وسيطا معينا كما أننا قد نحكي قصة وقعت من قبل ان نولد حدثنا بها عشرة أشخاص من الكبار الذين حضروها فلا نذكر وسيطا معينا لهذا السبب) و هي عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب, فاستنكرها و كرهها, و قال "أيها الناس, انه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب, فأحبها الى الله أعدلها و أقومها, فلا يبقين أحد عنده كتابا الا أتاني به, فأرى فيه رأيي" قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها و يقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف, فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار, ثم قال "أمنية كأمنية أو مثناة كمثناة أهل الكتاب في رواية لم يذكرها البغدادي". (و مبحث حرق الكتب في تاريخنا هذا يحتاج الى جهد خاص يا ليت لو ياتي من يقوم به و يتتبع لنا اول حادثه حرق كتب. و الاظهر ان ابوبكر او عمر هو الذي بدأ و سن هذه السنه).

هذه هي أهم ما في هذا الباب عن عمر بن الخطاب. فلنتأملها و نرى ما فيها.

أولا, من الروايتين, يمكن ان عرف أن رأي "عامة"اصحاب النبي عليه السلام قد اشاروا على عمر بكتابة السنن, و في الرواية الاخرى يقول "فأشاروا عليه ان يكتبها" اي كلهم اشاروا عليه بذلك. فاذن اما الأغلبية اشاروا عليه ان يكتب السنن او كل اصحاب النبي عليه السلام. فماذا يحتاج عمر بعد ذلك؟ أم يا ترى ان غالبية أو كل اصحاب النبي عليه السلام لم يدركوا "الحكمة البديعة" التي بحسب الظاهر أسس عمر امتناعه عن كتابة سنة النبي بسببها؟ فهذا طعن في غالبية اصحاب النبي , و ليس اي صحابي و انما هم كبار الصحابة الذين يستشيرهم "الخليفة". أكل هؤلاء العلماء من الصحابة أشاروا بمشورة باطلة حتى يعرض عمر عن مشورتهم أول الأمر ثم "يستخير" شهرا ثم أخيرا يمتنع عن انفاذ مشورتهم بتلك الحجة التي عرفنا مافيها من وهن بما فيه الكفاية فلا نعيد؟ ان ما فعله عمر هنا هو نسف لكل نظام الشورى الالهي. و هو تأسيس رائع لاستبداد الحاكم برأيه بالرغم من شورى كبار العلماء المسلمين عليه بغير ذلك- و شورى في امر الدين خصوصا. و ليس فقط أي علماء و انما علماء الصحابة الكبار هم الذين اعرض عمر عن مشورتهم. فليأخذ المؤرخون للفكر الاستبدادي الاسلامي و الأغطية الشرعية التي أعطيت له هذه النقطة في الحسبان. فان مثل هذه الروايات هي التي سمحت لعلماء المستبدين أن يقولوا "ان رأي الشورى ليس ملزما للحاكم" و معلوم للمتأمل أن هذه المقولة هي من أسس تدمير الحكم الشوري الجماعي و تأسيس شرعي للطغيان و الاستبداد في تاريخنا الأسود من هذه الناحية. و الحمد لله أن جزء لا بأس به من الناس بدأو ينفضوا غبار هذه الاغطية البائسة عن عقولهم و ارواحهم.

و لتعرف ما قيمة او منزلة الصحابة الذين كان يستشيريم "الخليفة الراشد" أنقل لك قول أبو الأعلى المودودي-رحمه الله- من كتابه (الخلافة و الملك) يكتب المودودي ص108 " كان تسيير الحكومة بالشورى قاعدة هامة من القواعد الأساسية للدولة الاسلامية, و ما كانت تؤخذ المشورة الا ممن تثق الأمة في علمهم و تقواهم و أمانتهم و سداد رأيهم, أما من كان الخلفاء الراشدون يستشيرونهم اثناء حكوماتهم فكانوا أفضل الناس في الأمة يفقهون دينهم و يشيرون,في حرية تامة و شجاعة كاملة, بما يمليه عليهم علمهم و ضميرهم و ايمانهم, و كان الناس جميعا على يقين من أنهم لن يسحبوا الحكومة الى طريق ضال او يقودها الى متاهات مسدودة, فكان كل فرد في الأمة يعترف بهم -أي بأهل الشورى هؤلاء- يعترف بهم أهل الحل و العقد في البلاد "

و الان في ضوء هذا البيان عن منزلة و قيمة أهل الشورى من الصحابة الكرام, اقرأ مضمون الرواية مرة أخرى: أراد عمر كتابة سنة النبي عليه السلام, فاستشار أصحاب النبي عليه السلام, فأشاروا عليه بكتابتها, فامتنع عمر عن الكتابة شهرا شاكا في مشورتهم, و يظهر انه كان يستخير ربه في ذلك, ثم في آخر الأمر قرر برأيه المنفرد أن لا يكتبها.

اقول: فعلا خلافة راشدة جدا.

ثانيا, ان كان يجوز لعمر أن يشك في مشورة كبار علماء الصحابة, و يرد على مشورتهم بهذا التعليل البارد الذي لا يساوي شيئا كما رأينا, أفلا يحق للناس اليوم أيضا أن يشكوا في كل اراء الصحابة المنفردين برأيهم بل و لم لا نشك أيضا في كل مروياتهم. فلو كانوا أهلا للثقة العمياء التي يوليهم اياها المسلمون, و ان كانوا العدول الذين زكاهم الله من فوق سبع سماوات, و رفع النبي قيمتهم الى السماء, فما بال عمر لم يبالي برأيهم, فشك في مشورتهم أولا ثم رفضها أخيرا ؟!

ثالثا, لاحظ أن رواية تقول ان عمر هو الذي عزم على ان لا يكتب السنن, و رواية اخرى تقول "فعزم الله له", فهذه الثانية تريد أن تظهر و كأن الله أيضا موافق لما فعله عمر من ترك كتابة السنة. و لم لا, فانه محدّث عند القوم, فقد يكون الله حدّثه و أخبره بأن يترك كتابة سنة النبي عليه السلام بدل ان يشرف على كتابتها مع حفظتها من الصحابة الكبار الحاضرين, و يترك الأمة تضطر و تختلف و تملأ السنة بالوضع و الكذب حتى ان معظمها أصبح ملتبسا و أضاع العلماء في ذلك عشرات الالاف من الايام و الجهد في التدقيق و التنقيب و مع ذلك لم يتم انجاز العمل لاستحالته في الغالب أصلا, نعم لعل الله حدث عمر بذلك فألهمه و عزم له أن يترك كتابة السنة. لا أدري هل نقول انا لله و انا اليه راجعون, أم نقول "لماذا يا رب حدثته بذلك؟!" و من يتأمل جيدا, سيعرف أن كلامنا هذا تهكمي , و ان الله لم يحدث عمر و لم يعزم له في شئ من ذلك. فان يد الله مع الجماعة كما يقولون, و الله أمر بالشوري كما يعلمون, و شورى كبار الصحابة كانت في كتابة السنة و عمر خالفها و استبد برأيه فوقع ما وقع و لا يزال يقع.

رابعا, في الرواية الثانية, و بما أن علم الحديث يقول انها رواية ضعيفة لانها منقطعة فلن نعول عليها كثيرا حتى يصح الاحتجاج. مع العلم بأن وجود كتب فيها احاديث النبي بين الصحابة هو أمر متحقق منذ عهد النبي الأول عليه السلام (ووجود روايات تنسب الى النبي انه نهى عنها فيها خلل كبير جدا من اكثر من ناحيه، لا اقل من ناحيتين: الاولى انه لو كان يوجد فعلا نقل عن النبي بهذا المضمون لاحتج به عمر او غيره من انصار عدم الكتابه، و هذا ما لم يحدث، تامل هذا جيدا ، بل لعرفه كبار الصحابه و عامتهم و لما اختلفوا في ذلك مع عمر و حزبه بل لما اشاروا عليه بما يخالف مضمونها ، و لا يوجد روايه تقول ان احدا من الطرفين احتج او عارض مثل هذا النقل عن النبي مما يدل على اختلاقه اللاحق، يدل كقرينه قويه. و يدعم هذه القرينه ان مضامين هذه النقول متطابقه مع الحجج التي اتخذها انصار عدم الكتابه ! فالاظهر ان انصار عدم الكتابه اختلقوها و نسبوها الى النبي ليدعموا مطالبهم) , فقد نقلنا من قبل في القسم الذي ذكرنا فيه الروايات التي تؤيد كتابة الاحاديث عن جمع من الصحابة أنهم كانوا لا يتحدثون فيما بينهم الا بما هو مكتوب عندهم. و غير ذلك من روايات في هذا الشأن و منها صحيفة ابن عمرو بن العاص الصادقة و غير ذلك فراجعه ان شئت. فهذا الجزء من الرواية سليم بقرائن من روايات صحيحة أخرى. و لكن ما يلفت الانتباه في القصة هو أن عمر "مكر" بالصحابة ليأتوه بالكتب ثم حرقها. و هي احاديث ليس فيها الا كلام

النبي عليه السلام, فمرة أخرى, عمر كان يرى ان كلام النبي عليه السلام قد "يلبس" القرءان به, و معلوم أن كلمة "يلبس" مثقلة بالدلالة السلبية في ثقافتنا, كما يقول القرءان " لا تلبسوا الحق بالباطل" , فعندما يقول عمر أنه لن يكتب سنة النبي عليه السلام و يبرر ذلك بقوله " و اني والله لا ألبس كتاب الله بشئ أبدا" ما هذا! كلام النبي هو تلبيس على كلام ربه و العياذ بالله. هذا مضمون كلامه, بل هو ظاهر خطابه و تبريره. و لا يمكن تبرير فعل عمر و قوله بانه "خشي على الناس من الاحاديث المكذوبة على النبي" فهذا عذر أقبح من ذنب, و هو ليس عذر أصلا. فعمر نفسه لم يقل هذا, فمن أنتم حتى تزعموا أن هذه كانت نيته؟! هو نفسه لم يقل ذلك, و قد برر رأيه بنفسه, فلماذا لا تكتفوا بما قاله. أنا أقول لكم لماذا لا تستطيعوا ان تكتفوا بما برر عمر رأيه: لانكم تعلمون أنه تبرير ساقط و فيه فضيحة و مصيبة. فلذلك تجد أنهم يبررون رأيه بأمور لا علاقة لها بكلامه. و كانهم يعرفون رأيه أكثر منه. و مما لا ينقضي منه العجب أن عمر الذي كان بنفسه يقول "كل أحد افقه من عمر" و جاءته مرة امراة و صححت رأيه في تحديد مهور النساء بالرغم من ان نص القرءان واضح بهذا الخصوص, أو كقصته التي ذكرها مسلم في صحيحه عن الرجل الذي لم يجد ماءا فقال له عمر "قد سقط عنك الصلاة" بالرغم من أن نص القرءان واضح بشأن التيمم, فعمر الذي كانت تعيه مثل هذه المسائل التي نصها واضح و صريح في ظاهر القرءان, امتنع عن كتابة سنة النبي عليه السلام لانه لم يرد "ان يلبس القرءان بشئ" و بعد ان اشار عليه كل او معظم صحابه النبي بكتابتها و هم الفقهاء و اهل العلم و الرشد ! فعلا يظهر أن اهتمامه شديد بالقرءان لدرجة أن مسألة التيمم لم يذكرها, و لكنه من فقهه الشديد رأى أن عدم كتابة سنة النبي, بالرغم من مشورة كبار الصحابة عليه بكتابتها, هو أمر ممتاز و موفق و مسدد من قبل الله ايضا حسب قول البعض.

ففي ضوء ما سبق كله يظهر لي التالي : عمر أراد ان ينسف سنة النبي من الوجود, و لكن تدريجيا. و الامتناع عن كتابتها كان الخطوة الكبرى في مشروع النسف هذا. و انه لم يستشير الصحابة الا على أمل أن يوافقوه في رأيه في عدم كتابة السنة, و لكنهم لما خيبوا ظنه و اشاروا عليه بكتابتها فعل ما فعل من "استخارة" و التي أحسب انه لم يستخير و لا شئ و لكنه أظهر ذلك حتى يدخل الله تعالى معه في رأيه و كانه قد سدده لذلك الرأي (و عباده العارف سريه). و كان منع عمر لبعض الصحابة من التحديث هو من الخطوات في مشروع نسف سنة النبي هذا. و بسبب عدم كتابتهم لها نجح جزء كبير من مشروعه و هو ايقاع الاضطراب في السنة الى أمد طويل, حتى انه باستطاعة اي شخص أن يبرر عدم حاجته او التفاته الى السنة بسبب ما فيها من اضطراب, و من يفعل ذلك له الحق الى حد بعيد. ثم بعد ان أحكم عمر رأيه, خرجت تلك المرويات التي تنسب الى النبي أنه نهى عن كتابة سنته, و لذلك ستلاحظ ان تلك المرويات تحوي نفس الحجج التي استند اليها عمر في رأيه, كفكرة أن وجود كتب مع كتاب الله سيضل الأمة كما ضلّت الأمم السابقة, حتى لو كانت هذه الكتب تحوي كلام نبي الله! فلنتنزل كثيرا و نقول ان النبي الأول عليه السلام هو مجرد رجل من عموم المسلمين, و هو فقيه من عموم فقهاء الاسلام, درس كتاب الله و كوّن اراء حوله, مع كل هذا التنزل هل يمكن ان نعتبر ان كلامه سيضل الناس عن سواء السبيل؟! كتاب الله بيننا نستطيع أن نقوّم ارائه بناء عليه. و ما خالف كتاب الله ضربنا به عرض الحائط, و لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. هذا ان تنزلنا الى اسفل سافلين و رأينا النبي بهذه الصورة, فما بالك و النبي هو النبي الاول عليه السلام, فكيف يكون كلامه سبب للتلبيس و يوصف بكلمة "الالباس" المقرونة بالباس الحق بالباطل, او على الاقل باضلال الناس أو امكانية اضلالهم.و هذه امور أولية في هذا الدين الكريم, و يمكن أن نعذر عمر-رحمه الله- في عدم العلم

بها فان كان لم يعلم أن على الذي لا يجد ماءا ان يتيمم فقد يعذره شيعته في عدم علمه بحقيقة مقام النبي الأكرم عليه السلام أو شئ من ذلك المقام العالي.

و كما أن عمر رأى رأيا فاختلق له شيعته أحاديث نسبوها الى النبي تؤيد هذا الرأي, كما هو تفسيرنا هنا, فان هذا ليس بشئ جديد فقد وجدنا نفس الشئ عندما منع عمر من نكاح المتعة لسبب رأه هو ثم جاءت الاحاديث تترى تنسب الى النبي عليه السلام انه هو الذي نهى عن المتعة (و هذه المسألة مذكورة في كتابي عن الدعاره المنظمه فليراجعه من يحب الاستزادة). على أية حال, فان كل التبريرات التي ساقها البغدادي و من شابه رأيه و هم كثير, لا قيمة لها في ضوء روايات الناهين عن الكتابة أنفسهم ، عمر و ابن مسعود هم أبرز اثنين في هذا المقام كما رأينا. فلا يوجد ذكر للاعراب, و لا للخوف من ضعف الحفظ, و لا لان العلم اذا صار في الكتب يمكن ان يساء فهمه أن يذهب نوره. اللهم الا فكرة ان يضاهى غير القرءان به او ينشغل الناس بتلك الكتب بدل القرءان و قد علمت سخافة هذه الفكرة و كونها مجرد غطاء شرعي – رقيق جدا و شفاف بالمناسبة بحيث يمكن ان ترى الحقيقة التي يحاول أن يخفيها بمجرد النظر اليه. نعم ان الانشغال بها عن القرءآن يكون- كما وقع فعلا- ليس بسبب محض وجودها و لكن باسباب اخرى من قبيل اعطائها قيمه اعلى من القرءآن. فيوجد فرق بين ان يكون المرض في نفس الشئ او يكون في نظره معينه الى الشئ. فلو قال عمر مثلا " احذروا ان تعطوا قيمه اكبر للسنه علي القران " او ما شابه، لكان في الامر حكمه فعلا، و مع الاسف هذا ما وقع كما راينا. و لكن ان تنسف السنه ثم يقال ان هذا بسبب الرغبه في حفظ القران، فان الواقع خالف هذا الراي، بل كان عدم حفظ السنه و كتابتها باشراف من شاهدها و سمعها، هو من اهم اسباب انشغال العلماء الانشغال العظيم جدا الذي لا يتصور عظمه عن القران الكريم و دراسته. فانظر في كل مره يراد الاستدلال بروايه في باب من ابواب العلم او الحكم تجد المطولات فوق المطولات و الابحاث فوق الابحاث فقط للحكم على المرويات قبل ان يبدأ في الحكم و الفتوى و نحو ذلك. نسف السنه لم ينسفها و لكنه نسف وقت و جهد كبير كان من الافضل لو انفق في دراسه القرءآن.

لا يحق لرجل يعتقد بأن عمر بن الخطاب و من شايعه بأنه من الخلفاء الراشدين المهديين أن يزعم بأنه من "أهل السنة". فان امامه و خليفته الراشد هو من أكبر من سبب ضياع السنة و اختلاف الناس فيها. و لذلك لن نسمي من يلقبون أنفسهم ب "أهل السنة" على أنهم أهل السنة. من الان فصاعدا يمكن تسميتهم بالعمريين ان شئت. و لعلهم سيفتخروا بهذا الاسم. فليفتخروا و يفرحوا. و لكن لن ينالوا شرف الانتساب الى سنة النبي عليه السلام , و من وافق على جرم فقد شارك فيه. "و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

.....

فالحاصل من كل هذا البحث في السنة هو أن الأصل المطلق هو القرءان, و هو التفصيل و هو كل شئ. و من اكتفى بالقرءان وحده على الاطلاق و لم يسمع حتى باي روايه او حكايه من غيره، فهو على الخير المحض و العلم الكامل من حيث الامكان و القوه.

و لكن ما ينسب الى النبي عليه السلام من مرويات او لغيره يمكن ان ينظر فيه من يريد الاطلاع العام و التوسع الفكري و الاستلهام العام, و يعرض ما وجده على مبادئ القرءان و تفاصيله ثم يرى. و ليس هذا بمنهج جديد

نبتدعه, فهو قديم قدم الدين نفسه. و كل رجائي أن أكون قد وفقت لنصرة هذا المنهج و لو باعادة تثبيت لبنة واحده في بناءه الراسخ. و الحمد لله.

.....

و اما بالنسبه لمن يرى هذه المرويات كحجه قائمه بذاتها او لها علو او اولويه على القرءان سواء من حيث الاجمال او التفصيل، من حيث اثبات المبادئ او تعيين المصاديق، فاننا و بنفس هذه الروايات، كالتي نقلناها عن عمر و ابن مسعود- رحمهما الله- يمكن ان نحكم عليه بانه ضال و مبتدع و مشرك و صاحب فتنه و يريد قرءانا احسن من قرءان الله، و يريد قصصا خير من قصص الله، و يريد حديثا افضل من حديث الله، و انه يتبع سنه من ضل من قبلنا من الامم باشغال القلوب بكلام غير كلام الله، و بالانكباب على كتب العلماء و الاساقفه و الاعراض عن كتاب الله ، و ما سوى ذلك من عناوين نقلناها و علقنا عليها. فالقرءاني المحض يجد حجه له في القرءان ذاته و يجد له حجه في الروايات التي يراد صرفه بها عن قرءانيته المحضه و في وهن المبادئ التي يقوم عليها هذا التوجه كما راينا او لا اقل انها مبادئ غير قاطعه و لا حتى راجحه، و في اسوأ الاحوال و التنزلات فانها و المذهب القرءاني المحض لهما نفس الدرجه من الحجيه، و بالتالي لا يحق لاحد ان يلوم او ينتقص من اهل القرءآن المحض. و تعليقنا على هذه الروايات و النقول يمكن ان يرد بنفس الحجج التي اثبتنا بها ترجحيه المذهب القرءآني المحض او شئ من هذا القبيل. فلا قطع تام في كلا التوجهين ، الا ان الذي يلزم القرءان وحده قد ثبت علوه و فضله في القرءآن و في بعض الروايات كذلك، و ليس فوق هذا علو. و اما الذي يشرك مع كتاب الله غيره في الحجيه و التفاصيل الدينيه قد ثبت نقصه و تسفله في القرءان و في بعض الروايات كذلك. و هذا اكمل ما استطيع في هذا المقام ان افصل فيه هذه المساله. و هذا ما ارى، فانظر ماذا ترى.

هذا ما ظهر لي في هذه المسألة , او غصت له, و ارجو ان اكون قد وفّقت في تبيين هذه المسألة المهمة و الاصولية. و "الله يقول الحق و هو يهدي السبيل".

.....

(الاجماع)

1.(ما هو الاجماع؟)

ان علماء اصول الفقه لم يجمعوا على تعريف الاجماع! و هذا أكبر دليل على أنه باطل.

يقول البعض أنه " اتفاق جميع المجتهدين": فمن يا ترى سيحدد من هو المجتهد و من لا يعتبر مجتهد؟ ان كان الذي سيحدد المجتهد هو نفسه قد حدد باستعمال الاجتهاد فمن الذي قال أن هذا نفسه يعتبر مجتهد حتى يقبل "اجتهاده في تحديد من هو المجتهد"؟! ثم منذ متى أجمع كل المفكرين-من عند اخرهم- على شيء؟

و قال آخرون " هم أهل الحل و العقد" فمن الذي سيحدد من هم أهل الحل و العقد؟ و أصلا من أين جاؤوا بهذا المصطلح؟ اذ هو يقينا ليس من القرآن و لا حتى من الروايات المنسوبه للنبي, فمن أين؟ يظهر أنهم أخذوه عن الدين اليسوعي المعروف بالمسيحية. فقد جاء في انجيل متى 16-19 قول يسوع لتلميذه بطرس " أنت بطرس و على هذه الصخرة أبني كنيستي, و أبواب الجحيم لن تقوى عليها. و أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات, و كل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات"

فكلمة الربط و الحل, و الربط من نفس معنى عقد, فتصبح الكلمة " العقد و الحل" أو كما استعملها هؤلاء " الحل و العقد" و لعل ابدال محل الكلمتين بعكس انجيل متى هو لكي لا يظهر الاقتباس, اذ التسلسل المنطقي الصحيح هو كما في كلام يسوع و هو أن تقدم العقد على الحل, لأن عقد الشيء قبل حله بداهة. و هذا مجرد رأي في أصل هذا المصطلح الذي لم يحدد الناس من أين جاء- حسب اطلاعي المحدود.

و من مهازل الناس قولهم أن " أهل الحل و العقد" هم الذين يعينون الحاكم, بالرغم من أن الواقع هو أن الحاكم هو الذي يعين أهل الحل و العقد المرضي عنهم, فهل تتوقع أن يختاروا غيره!

و قال آخرون أن الاجماع هو " اتفاق كل الأمة الاسلامية" و المقصود بالأمة الاسلامية كل فرق الاسلاميين سنة و شيعة و غيرهم. و هذا ما لم يقع أبدا, و لن يقع أبدا, و لا يمكن معرفة اذا وقع أصلا. و من هنا قال أحمد بن حنبل " من ادعى الاجماع فقد كذب" اذ ما أدراك أن الناس أجمعوا ؟ فلا يكفي أن هؤلاء هجروا القرآن و لكن حتى أحاديثهم و كلام أئمتهم اذا خالف هواهم و طموحاتهم و مصالحهم تركوه.

و قال آخرون أن الاجماع هو " اتفاق الأكثرية" . اني لم أسمع يوما أو أقرأ أن هذه الأمة تتخذ قراراتها عن طريق الديموقراطية و الانتخابات حتى يعرفوا ما هو رأي الأكثرية (هذا على فرض ان الديموقراطية اصلا تظهر حقيقة رأي الاكثرية) ما أدراكم أن الأكثرية قالت كذا ؟ هل جمعتم كل الناس و عددتموهم ثم أخذتم آرائهم ووجدتم أن الأكثرية " أجمعت" على الأمر ؟ هل فعل الفقهاء او الحكام ذلك يوما ؟

ثم يقول الله " أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعم بل هم أضل سبيلا" و " ان تتبع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله" و ابرهيم وحده كان أمة. فلا محل لهذا الاجماع في أمة القرآن كحجه مستقله بل حاكمه كما يريد البعض.

فاذن نخلص الى عدم وجود اجماع على تعريف الاجماع, و الى عدم وجود اجماع على تفصيلات تعريف الاجماع أيا كان, و الى عدم تحقق الاجماع بأي صورة من صوره, و الى عدم امكان تحقق الاجماع أصلا عند الاستقلال بالرأي. و الجنس البشري لم يجمع بعد هل هم بشر أم حيوانات أم آلهة أم أشباه آلهة أم لا شيء أم كل شيء. و أي اجماع هذا و من آيات الله الاختلاف؟ و أي اجماع هذا بين أمة أن تقول رأيك الصريح قد يعرضك للتكفير و السجن و الاضطهاد و القتل و اللعن على المنابر و التفريق بينك و بين زوجك؟ و أي اجماع هذا و المجتهد قد يقول رأي اليوم فيأتي الغد و يتعلم شيء جديد فيغير فتواه العقائدية او الفقهية؟

2.(ما معنى انكار الاجماع؟)

فكيف تتفق هذه الأمة اذا لم يكن الاجماع حجة؟ الجواب قوله تعالى " و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا" فبكتاب الله وحده. و فيه يجب أن يجتهد المجتهدون, ثم يتجادلون فيما بينهم و حتى مع عامة الناس, اذ لا يوجد في أمة القرآن عوام, فكما أن القرآن في يد كل مؤمن فكذلك يجب أن يدرسه كل مؤمن. ثم يبحثون عن الرأي الأقوى الأحسن من القرآن. و اذا تجنبنا الأحاديث و قال فلان و روي عن فلان, و تركنا أجمع الناس و " و انا وجدنا آبائنا" و نظر كل المجتهدون- اي المسلمون بمختلف درجاتهم الروحيه و العقليه و النفسيه- الى القرآن و هو وحدة واحدة متكاملة فلا يمكن الا أن يكون الكل على صواب كأحسن مافي الامكان الانساني- و الخطأ الغير مقبول باي اعتبار سيظهر عند النقد كما تظهر قيمه الذهب عند وضعه في النار.

و لا يقال ان الاختلاف واقع في القرءان. اولا لان الله كتب "ان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد" و كثير من الايات الربانية تصب في هذا المعنى. و ثانيا, لا تنظر الى واقع الذين يسمون انفسهم بالفرق الاسلامية وتقول ان الاختلاف واقع بينهم في القرءان, لان هؤلاء لا يتعاطون مع كتاب الله كوحدة واحدة متكاملة, و لكن لكل منهم احاديثه و مروياته و ائمته الذين يعلو قولهم على قول الله عز وجل, و ان زعموا بألسنتهم انهم مجرد تبع لكتاب الله. بالاضافة الى السبب الاكبر للاختلاف في الكتاب و هو الذي بينه الحق تعالى عندما كتب " و ما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم" تأمل جيدا هذا التعليل الالهي للاختلاف, تأمل "بغيا بينهم". هم يتقصدون مخالفة البعض, احيانا عملا بالمبدأ السياسي الخبيث القائل "فرق تسد", و احيانا عملا بالمبدأ الاجتماعي الأخبث القائل "خالف تعرف". ايا كان فان كتاب الله لا يتحمل مسؤولية تناطح و تضارب هؤلاء. و قد تقول: الم تكتب قبل قليل ان من ايات الله الاختلاف, فها انت هنا تدعي ان الاجماع ممكن, فما الجواب؟ اقول: الاجماع ممكن في كتاب الله فقط, و الاختلاف بين الدارسين له لن يكون الا اختلاف درجات و تلون, و ليس اختلاف تحزب و سفك دماء و لعن كل أمة لاختها. نعم سيكون اختلاف بين حملة القرءان و لكن هو الاختلاف الذي ذكره الله في المثل الذي كتبه في سورة الرعد "انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها" فكل انسان يحمل من القرءان بحسب سعة و عمق واديه, و هذا طبيعي و معروف على مستوى البشر كلهم. و ايضا "الم تر أن الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها". ففرق كبير بن "الاجتماع" القرءاني, و بين "الاجماع" الاسلامي. فرق شاسع.

و من زاوية اخرى, فان "الاجماع" عند الاحزاب هو سلاح في وجه كل فكرة جديدة. هذا هو عمله الحقيقي بغض النظر عن البهرجة التي يضعونها حوله. و اريد ان انقل ما ذكره امام الحرمين الجويني, عالم الاصول المشهور, في كتابه البرهان لانه يلخص مسألة الاجماع هذه بطريقة ممتازة و يكشف عن سرها (و لعله من حيث لم يشعر). اولا هو اسقط الاستدلال "الساقط" باية " و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين" التي استدل بها الشافعي لاثبات حجية الاجماع مدعيا ان "و اتبع غير سبيل المؤمنين" تعني الاجماع, و لعلني سأذكر شئ عن هذا لاحقا, و لكن يكفي ان الامام الجويني -الشافعي بالمناسبة!- اسقط هذا الاستدلال. و جعل للاجماع صورتين:

الأولى ان يكون علماء العصر على اختلاف عقائدهم متفقين على حكم مظنون "فاذا الفيناهم قاطعين بالحكم لا يرجّعون فيه رأيا و لا يرددون قولا, فنعلم قطعا أنهم اسندوا الحكم الى شئ سمعي قطعي عندهم, و لا يبعد سقوط النقل فيه". أقول: لاحظ اولا انه يتحدث في عوالم الخيال المجرد, فمنذ متى رأينا "علماء العصر" (الذين لا يستطيع احد ان يحدد من هم اصلا, و من يدخل و من لا يدخل فيهم) متفقين على شئ, لا اقول قطعي او ظني, بل اي شئ على الاطلاق؟. و لاحظ ثانيا انه يقول "فنعلم قطعا انهم اسندوا الحكم الى شئ سمعي قطعي عندهم" تأمل في كلمة "عندهم". هو يتحدث عنهم و كأنهم كائنات فضائية لا نستطيع ان نتواصل معهم (اين كان هؤلاء). لماذا هذا التكهن بوجود دليل "عندهم"؟ ما الحاجة اليه؟ ان كان عندهم فليخرجوه لنا و الا فليبقوه "عندهم". كتب الله "قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا, ان تتبعون الا الظن, و ان أنتم الا تخرصون" صدق الله العظيم. فعلينا ان لا

نتشبه بامم السوء حتى لا ينطبق علينا ما ينطبق عليهم- و ان اختلفنا عنهم من حيثيات اخرى بالطبع، فكما ذكرنا و نعيد: لا يقرن بالمسلم غيره و لا يطابقه ابدا.

و الصورة الثانية للاستدلال العجيب على حجية الاجماع هو اعجب من الاول, يقول صاحبنا " هي اذا اجمعوا على حكم مظنون, و أسندوه الى الظن, فهذا أيضا حجة قاطعة, و الدليل كونه حجة أنا وجدنا العصر الماضية, و الامم المنقرضة, متفقة على تبكيت من يخالف اجماع العلماء علماء الدهر. فلم يزالوا ينسبون المخالف الى المروق و المحادة و العقوق و لا يعدون ذلك أمرا هينا...فليكن الاجماع على تبكيت المخالف و تعنيفه مستند قاطع شرعي" أقول: كلما ازدادت سخافة الفكرة صعب الرد عليها. أيها الرجل-رحمك الله, ما شأنك؟ أهذا استدلال عاقل من امة نزل فيها القرءان؟ منذ متى كانت "العصر الماضية, و الامم المنقرضة" حجة علينا في شئ؟ ثم ان هذه الامم التي يتكهن بوجودها و عن اعمالها, كانت هي نفس الامم- او كان منها- التي عذبت الرسل بحجة مخالفة الاجماع, و نسبوهم الى المروق و المحادة و العقوق, ها هو القرءان امامكم, انظروا فيه, هل تجدون الامم المنقرضة و امثالهم يردون على الرسل الا بحجة الاجماع هذه. فرعون يتهم موسى بالعقوق و يذكره "ألم نربك فينا وليدا و لبثت فينا من عمرك سنين", الملأ لا يزالوا يرددون "لتعودن في ملتنا او لنخرجنكم من قريتنا", و نبأ ابرهيم ليس عنكم ببعيد. نعم ان الاقوام الطاغية لا تستيغ الخروج على قيمها "المجمع عليها" , و طبعا الاجماع هو اجماع السادة و الكبراء, و اما العامة من الشعب فيجب ان نبكتهم و نخوفهم و نرهبهم حتى يوافقوا على هذا الاجماع المزعوم. و قد اعترف او لنقل زل قلم الجويني في نفس باب الاجماع من كتابه البرهان, عندما وصف المخالف للاجماع بأنه "عاقا خارقا حجاب الهيبة". هذه الكلمة من جوامع الكلم فعلا, هذه هي خلاصة كل فلسفة الاجماع عند الاحزاب. هي خلق حجاب من الهيبة لا يجرؤ أحد على مخالفته. هي هيبة مصطنعة كاذبة, سحر ان شئت. و طبعا ان من يخالف هذا الاجماع المزعوم (الذي ليس له وجود اصلا) سيقول له الناس كما يذكر الجويني نفسه و يفعل الناس فعلا, سيقولون للمخالفين "ما ذكرتموه لو كان له وجها معتبرا لما أغفله العلماء المفتون". و هذه مصيبة المصائب عند المجتمعات القائمة على هذا الفكر. فهم يتوهمون ان العلماء المفتون ينظرون في النصوص الالهية نظرة ملائكية مجردة عن كل وازع نفسي و اقتصادي و سياسي و اجتماعي, و ان كل العلماء المفتون (الذين لا أحد يعرف من هم, و من الذي اعطاهم سلطة احتكار هذه المناصب) ينظرون في كل الوجوه و يختارون احبها الى الله و رسوله. و هذه نظرة ساذجة تناسب ان نقولها للاطفال حتى نحثهم على الاخلاص و الاجتهاد. أما الحياة الواقعية فان كل من له اطلاع و معايشة لهذه الاجواء يدرك ان الأمر غير ذلك تماما في كثير من الاحوال، خصوصا اذا كان "اهل الاجماع" هم ممن لهم السلطه و القدره الكافيه لتبكيت المخالف الخارق لحجاب هيبتهم ، اي اذا كانوا يملكون شئ من سلطان الدوله، فعندها هيهات ان تكون للتعاليم الدينيه بل و اي تعاليم هذه الطهاره و النقاوه او هذه القوه و الادله الكافيه لدعم ما تقوله.

هذه هي وسيلة الجويني في مسألة الاجماع. فهو أولا ينكر أن يكون للاجماع اي مستند من العقل او القرءان او ما يسمونه بالسنة, يكتب الجويني "العقول لا تدل على ثبوت الاجماع" و "ليس في السمعيات (يعني النصوص من قرءان وسنة) قاطع دال على الاجماع الواجب الاتباع" و ينكر ايضا ان يكون للقياس مدخل في اثبات حجية الاجماع, يكتب "محاولة اثبات الاجماع بطريقة القياس, وهذا ما لا سبيل اليه. فان الأقيسة المظنونة لا مساغ لها

في القطعيات". فاذن لا العقول, و لا القرءان و لا السنة و لا القياس يمكن ان يثبتوا حجية هذا الاجماع. و قد يقول قائل: يوجد علماء اصول عندنا غير الجويني اثبتوا حجية الاجماع. أقول لهم: يا عزيزي , فان الجويني اذن قد خرق "الاجماع"!! و هذا عين ما نريد اثباته. و الجويني من اكبر علماء الاصول الدينية و الفقهية, و ليس هو بشخص صغير مجهول عندكم. فهو من ائمة هذا الشأن, و هذا هو قوله في المسألة.

و انه من تجربة الناس و قصص القرآن أن الرأي الأحسن لا يكون الا عند القلة , و التي غالبا ما تكون مستضعفة. و الدرس من هذا هو أن لا نبالي بالكثرة و السواد. و لا نبالي بالذي أظهر الرأي هل هو صبي في السابعة أم عامل نظافة في السبعين. المهم ما قيل و ليس من قال و لا كم الذين قالوا. و عندما أعجبتنا كثرتنا هزمنا كما لا يخفى. و هذا ليس نفيا قاطعا لكل قيمه لراي الجمهور، و لكن لراي الجمهور في شروط معينه. و سنذكر شئ من ذلك لاحقا ان شاء الله تعالى. و المهم الان ان نذكر بان راي "الجمهور" ليس راي "الكل". فالجمهور يتضمن وجود قله مخالفه. هذا حين يكون الجمهور جمهورا فعلا.

و الفرق بين أمتنا القائمة على كتاب الله و غيرها هو في أسلوب الدعوة الى الاجتهادات. و هو أن يكون همّ دارسو القرءان هو اظهار ما في القرآن. أما لو أراد عالم أن يجتهد برأيه الشخصي فلا بأس و لكن لا تنسب نفسك الى القرآن و تقول أن هذا هو ما يريده الله في كتابه, قل أنه رأيك الشخصي و أظهر براهينك وحسبك ذلك.

ثم القاعدة في الاجتماع البشري كما هي سنة الله في الخلق هي اتباع ما يرضاه الأكثرية. و قانون الأكثرية لا علاقة له بكون ما يعملونه هو ارادة الله أم ارادة الشيطان, سواء في هذه الأمة أو غيرها. و الخلط بين قاعدة الدعوة بالقرآن و قانون الأكثرية هو خلط يجب ازالته لأنه من أكبر مشاكل هذه الأمة. لأن منهم من يظن أن كل أكثرية فهي مع الله, (او يد الله مع الجماعة كما يقولون) و ذلك لاستنادهم على أحاديث لا يقرها قرآن و لا تاريخ و حتى أحاديث أخرى عندهم و لا عمل الصالحين من هذه الأمة و سلفها عندهم.

فانكار الاجماع معناه هو أنه حتى لو اتفقت الأكثرية على فكرة فليس معنى هذا الاتفاق أن ما حكموا به هو حكم الله في المسألة. فلو جاء بعدهم من عنده غير ما عندهم لا يقال له "فاسق" أو " جاهل زنديق" أو " ستموت ميتة جاهلية" و ما أشبه. لأنه لو كان ذلك كذلك لكان هارون زنديق مخالف لاجماع عباد العجل (و هم من القلة التي ءامنت لموسى و خرجوا معه!) قبول الأكثرية لحكم في أمور المعيشة الاجتماعية يعني وجوب العمل به-ان كان قبول فعلي و ليس طغياني, و أما في أمور العلم و القلب فلا اجماع ولا شيء يجبر شخص على الأخذ به "انلزمكموها و أنتم لها كرهون". و كونه حكم الله أم لا يرجع الى الأدلة التي استندوا عليها أثناء تفكيرهم في المسألة و الغاية من عملهم ما هي و لمن, و هذه مسألة أخرى تماما.و بما أن الاجماع الوحيد الممكن هو اتفاق الأكثرية من أمة القرآن, فلنسم هذا بالاجماع من اللآن فصاعدا. و نقول أن الاجماع حجة في وجوب العمل ان تعلق بشؤون المعيشة

الظاهرية, وأما شؤون المعرفة فلا تخضع للاجماع و انما للبرهان من كتاب الله و العقل. فلا يوجد في الدين اجماع بالمعنى الذي يقول به الاحزاب ايا كانوا.

.....

و لعله من الخير لو نقلنا بعض ما يقر به الامام الجويني في كتابه البرهان. فهو يكتب في مبحث القياس بعض الكلمات المهمة جدا عن الاجماع و عن ما يسمى بالسنة. و ساذكرها تباعا و نعلق عليها بقدر ما تستحق, و احسب ان اغلبها يكفي ذكره عن شرحه:

يكتب "متمسكنا هو اجماع اصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم, و من بعدهم من ائمة التابعين" (و اني فعلا لا اعلم كيف يستسيغ هذا الامام ان يذكر كلمة مثل هذه, و ما ادراك من اجمع و من لم يجمع؟ ثم حتى هؤلاء الجماعة الصغيرة التي وصلكم شئ من اخبارهم او ما لفقه البعض عليهم, فانهم كثيرا ما كانوا يختلفون بل و يلعن بعضهم بعضا و يستهزئ بعضهم ببعض,و قد كانت تصل ببعضهم ان يدعو الاخر الى المباهلة! من اجل مسألة بسيطة فرعية من مسائل الميراث, كقصة ابن عباس المشهوره في العول. تأمل هؤلاء الذين يريدون ان يباهلوا بعضهم بعضا و انزال لعنة الله على بعض من اجل خلاف في مسألة فرعية بسيطة هامشية مثل العول في الميراث! فليكف البعض عن الزعم المستمر بانه يعرف ما اجمع عليه الصحابة او ما اختلفوا فيه, فانه لم يصلنا من حياتهم و افكارهم الا قلة قليلة جدا, و ها هو الامام الجويني نفسه يقر بذلك يكتب "و الايات و الاخبار المشتملة على الاحكام نصا ظاهرا, بالاضافة الى الاقضية و الفتاوى كغرفة من بحر لا ينزف" فلم يصلنا من اقضية و فتاوى الصحابة الا كغرفة من بحر و هذا بديهي و معروف عند كل العلماء بهذا الشأن, بل و غير العلماء, اذ يكفي ان عدد الصحابة كان فوق المئة الف, و لم يصل الينا الا ما ذكره اقل من عشر عشر هؤلاء كما كتبنا من قبل) .

ثم اي صحابة بالضبط تريد ان تتبع؟ ان الصحابة –الفئة القليلة التي يمطرنا انصارهم باسمائهم ليل نهار– كانوا يفعلون امورا متناقضة لا يمكن الجمع بينها. فمثلا, منهم من يحرم نكاح المتعة و منهم من يبيحها, فاي "صحابة" من هؤلاء تريد ان تهتدي به؟ منهم من كان من اصحاب الكنز و الملايين و منهم من كان يرى انه على المسلم ان لا يبات الا و عنده قوت يومه و حسبه ذلك و منهم بين هذا و ذاك, فاي صحابة تريد ان تتبع من هؤلاء؟ منهم من كان يرى حرمة الخروج على المسمى بامير المؤمنين وولي الامر و منهم من كان يخرج و لا يبالي (مقتل عثمان ومعركة الجمل الشهيرة كمثال) فاي هؤلاء الصحابة تريد ان تتبع؟ كان بعض الصحابة يرد العمل بالرأي و بعضهم يجيزه , و بعضهم يؤيده بشروط. بعضهم كان يرى وجوب لزوم الجماعة مهما كلف الامر و بعضهم (كسعد ابن عبادة) لم يكن يرى ذلك بل انه غضب على ابوبكر و عمر و لم يصلي معهم الجماعة و لم يحج معهم و هكذا الى ان "قتله الجن" في ليلة ليلاء! و هكذا قل ما تشاء, و ستجد ان بعض "الصحابة" كان يفعله, او على الاقل لن تعدم مستند لنفسك.

و يذكر الجويني عن النظّام المعتزلي رأيا في الاجماع, و هو كان من منكري الاجماع, يقول النظام "ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم, دعوا الناس الى اتباع الاجماع, و راموا ان يتخذوا رؤوسا, فقرروا الاجماع و اسندوا اليه ما يرون, و اخذوا يحكمون مسترسلين فيما لا نهاية له, و اصول الشريعة مضبوطة" (طبعا هذا كلام خطير و مهم. فالنظام كان يرى ان الذين اخترعوا الاجماع من الصحابة كان هدفهم هو ان يتخذهم الناس رؤوسا, اي ان

يحملوا الناس على اتباعهم و جعلهم ائمة لا يجوز رد قولهم, و تحت مظلة الاجماع راحوا يصولوا و يجولوا في ابتكار الاحكام كما يشاؤون. و الان, ماذا سيفعل الامام الجويني و امثاله مع مثل هذا الرأي الخطير لهذا المعتزلي العتيد؟ هل سيناقش رأيه؟ هل سيجابه الحجة بالحجة؟ لا. بل كل ما فعله الجويني انه قال: مستند وجوب العمل بالقياس (هو) الاجماع. و ما ذكره النظّام كفر, و زندقة, و محاولة لاستئصال قاعدة الشرع, و ان قوله هذيان! و حجة الجويني هي هذه, يقول انه ان صح كلام النظام: فبمن يوثق؟ و الى قول من يرجع؟. اهذه حجة من هذا الامام الاصولي؟ هو يرد كلام النظام لا لشئ الا لانه يريد ان يخلق طبقة من البشر "الصحابة" و يجعل هؤلاء هم المرجع للاسلامين و هم من يثق بهم, فاذا كانوا كما قال النظام, فقد زالت مرجعيتهم و زالت الثقة بهم. هل لاحظت هذا الاسلوب؟ انه يتخذ من ما يريده وسيلة لاثبات عقائده. يعني هو ينظر في ما يطمح اليه, و هو خلق طبقة بشرية كمرجعية دينية مطلقة, ثم يذهب الى كل من يكشف عن خبث هؤلاء او على الاقل ان يطعن فيهم, فيقوم بتكفيره و زندقته و نسبته الى الرغبة في تدمير الدين و الهذيان. و لاشك انه كان يريد ان يدمر الدين, دين الجويني و امثاله. فمن هذه الزاوية كلام الجويني سليم. على اية حال, فان هذا هو ما اسميه بالمنطق المنتكس على رأسه. هو لا يغربل التاريخ ليعرف حقيقته ثم يبني عليه- هذا على فرض الحاجة الى ذلك اصلا- و لكن هو يثبت ما يريد هكذا بكلمات في الهواء, ثم يطعن في كل من يأتي بضد ما يريد).

يذكر الجويني ايضا ان الصحابة و ائمة التابعين (؟) في فتاواهم و اقضيتهم كانت "تسعة اعشارها صادرة عن الرأي المحض و الاستنباط, و لا تعلق لها بالنصوص و الظواهر" (اذن عندما يأتي احد من المفكرين و ينسب الى هؤلاء الصحابة و ائمة التابعين انهم لم يكن يبالون بالنص الالهي في تسعة اعشار فتاواهم و اقضيتهم, فنرجو ان لا ينعق عليه احد من انصار هؤلاء, فها هو اقرار من امام من اكبر ائمة هذا الشأن يقر بذلك).

.....

و احب هنا ان اذكر بعض من الاقتباسات من الدكتور عبدالكريم زيدان من كتابه الوجيز, في فصل الاجماع منه. و لنعلق عليها بقدر الحاجة.

يذكر الدكتور ان "مخالفة الواحد تضر فلا ينعقد معها الاجماع, و هذا على رأي جمهور الاصوليين" و ايضا "الكثرة ليست دليلا قاطعا على الصواب, فقد يكون معها الخطأ و يكون الصواب مع القلة. نعم قد يستأنس برأي الاكثرين فيؤخذ باعتباره رأيا اجتهاديا اولى بالقبول اذا لم يتبين لنا رجحان دليل المخالف" (فهذا اقرار اولا بأن مخالفة الواحد تمنع من اعتبار الاجماع. بل ان الواحد من "احاد المسلمين" يمكن ان يخالف رأي عالم كبير من العلماء و مع ذلك يعتبر رأيه. كما وقع في القصة المشهورة عن المرأة التي خالفت عمر بن الخطاب و الدكتور ينقل القصة و يسمي هذه المرأة الصحابية انها من "احاد المسلمين". و حتى الاية التي يستشهدون بها لاثبات هذا الاجماع "و يتبع غير سبيل المؤمين" فانه حتى لو سلمنا جدلا بانها تثبت ما يريدون, فان نص الاية صريح في ان السبيل هو سبييل "المؤمين" كل المؤمنين, و ليس من يسمونهم بأهل الحل و العقد و ما اشبه من انظمة طارئة على دين الله و اشبه بالكهنوت و التنظيمات الطغيانية. فأي مؤمن يمكن ان يستشهد باية من كتاب الله في مواجهة اكبر جمع من العلماء و مع ذلك يجب ان يؤخذ قوله بعين الاعتبار, ان كانوا مؤمنين فعلا. و ثانيا, هاهو يقر بان

الكثرة لا تدل على الصحة, و ارجوا من الناس ان يفهموا هذا جيدا و يكفوا ان يردوا على المخالفين لهم باقوال مثل: يعني كل هؤلاء خطا و أنتم على حق! نعم يا سيد يا محترم, قد يكون الكثرة على باطل و القلة على حق, و ها هو شاهد من انفسكم على ذلك, فضلا على شواهد كتاب الله و الواقع المشاهدة و غير ذلك. و اي حرج و تسعه اعشار اقضيه و فتاوى الصحابه و اظمه التابعين كما يقول الجويني ناتجه عن الراي المحض و الاستنباط و لا تعلق لها بالنصوص و الظواهر و الراي و الاستنباط قد يخطئ و قد يزل لسبب خارجي و قد تنتهي مدته لزوال ظروف نشاته. و النتيجة من هذين الامرين: انه لا اجماع الا بموافقة جميع المؤمنين. و اما عن تعريف المؤمنين فلا يمكن ان يكون الا انهم الذين يأخذون بكتاب الله وحده, هذا ان اردنا التعريف من كتاب الله نفسه. و اما غير ذلك, فانما هم فرق من الاحزاب لا محالة, كما عرفنا و فصلنا في مواضع كثيرة).

يذكر الدكتور "و يحرم على المجتهد السكوت اذا كان الرأي الذي قيل باطلا, لا سيما و ان الظن بالمجتهدين انهم لا يحجمون عن ابداء رأيهم اظهارا للحق, و ان لقوا من جراء ذلك العنت و الضيق, و هذا الظن يقوي فينا الاعتقاد ان سكوتهم محمول على الرضا و الموافقة, لا على الانكار و المخالفة" (هذا النص المقتبس هو خلاصة مشكلة من اكبر المشاكل في كل العالم عامة, و العالم العربي و الاسلامي خاصة. بدل ان "تظن" ان المجتهد انسان خارق للعادة, و انه محكوم بغرائز و مشاعر و اجهزة نفسية تخالف ما عليه الناس عامة, فان الواجب على الناس كان من المفترض ان يكون هو ان يقروا بينهم قانونا يسمح بحرية التعبير المطلقة و تجريم كل اعتداء و لو بغمز او لمز بسبب الاراء التي يصرح بها الناس في حياتهم. لو فعلوا هذا لما اضطروا ان يقولوا ما قاله الدكتور هنا من الظن الواهي السخيف الغير مسؤول. المجتهد انسان مثله مثل باقي الناس, يخاف كما يخافون, و محكوم بغريزة الجماهير في الاعم الاغلب من احواله. ان كان موسى نفسه يخاف و لطالما يكرر لربه "اخاف ان يقتلون" فمن هذا الذي لن يخاف او يتردد في الغالب. فضلا عن ان القرءان نفسه شرع التقية, و اهل الاطلاع يعرفون ان العلماء يمارسونها بدرجة او بأخرى. و كل من يمارس التفكير الحر عن الانماط السائده و المفروضه على العوام بسبب الطغاه السياسيين و الثقافيين فانه مضطر الى التقية بدرجة او باخرى, عاجلا ام اجلا. و لن يعدم المفكر ان يجد له اسباب تبرر له تقيته و كتمه و توريته. فبدل ان تلقوا بالمسؤولية على المجتهد و ان تلزموه بالتصريح بكل ما يعرف, كان من الاولى ان تلقوا بالمسؤولية على الملاعين الذين يسببون للمجتهد "العنت و الضيق". و ها هي التقية واضحة في نص الدكتور نفسه! فهو و امثاله يعرفون ان مصدر العنت و الضيق هم اصحاب السلطة و القهر في الغالب الاعم, فبدل ان يلقي عليهم المسؤولية كما كان المفترض, فانه مارس التقية و القاها على المجتهد المسكين. فبدل ان ينزل اهل التسلط و القهر من عوالي طغيانهم راح يحاول ان يرفع المجتهد الانسان الى عوالي القدسية و التضحية اللامتناهية. ثم لنفترض ان المجتهد على استعداد ان يضحي بنفسه من اجل مسألة كبيرة, فهل هو على استعداد ان يضحي بنفسه او ينقص قيمتها لمخالفة الاخرين في كل مسألة ايا كانت؟ المسائل الصغيرة او العادية التي يدعى انها من المجمع عليها, و تعود الناس على صحتها, هل سيأتي و يضحي براحته و نعيمه من اجل ان يخالف فيها و يظهر حقيقة ما عنده؟ اهل الفكر يعرفون جيدا ما أعني فلا حاجة للاجابة).

يذكر الدكتور امر غريب, فهو يذكر اولا ادلة الذين منعوا من مجرد امكانية وقوع الاجماع, ثم رد عليهم برد غريب فعلا. هذا هو نص ما يقوله المانعون يقول " 1 معرفة المجتهدين بأعيانهم متعذرة او مستحيلة, اذ لا ضابط للتمييز بين المجتهد من غير المجتهد. 2 و حتى اذا عرف شخص بالاجتهاد في بلده فقد ينازعه اخرون من أهل بلده او غيرهم في اهليته للاجتهاد. 3 و حتى اذا عرفوا دون منازعة لهم في أهليتهم للاجتهاد, فمن العسير جدا جمعهم و عرض المسألة عليهم لتفرقهم في البلاد و الامصار. 4 و حتى اذا اريد عرض المسألة عليهم و هم في أماكنهم, فمن الصعب جدا ابلاغها لكل واحد و معرفة رأيه على وجه موثوق و التيقن من بقائه على رأيه الى وقت أخذ جميع الاراء. 5 و يضاف الى ذلك كله ان الاجماع لابد له من سند, فان كان قطعيا فالناس يعرفونه و لا يغفلون عنه في العادة, لان من شأن القطعي ان يعرف و يشاع فلا حاجة للاجماع, و ان كان الدليل ظنيا فيستحيل في العادة الاتفاق عليه, لاختلاف المجتهدين في أفكارهم و قرائحهم في الاستنباط." (هذا من اروع و اقوى ما يمكن ان يكتب في هذا الامر, فكيف يرد الدكتور الفاضل على هذه الحجج المتينة الواقعية الراسخة؟) يقول الدكتور بعدها "و احتج الجمهور: بأن ما قاله المانعون مجرد تشكيك بأمر ممكن الوقوع, فلا يلتفت اليه" (!! هكذا بجرة قلم, "لا يلتفت اليه" و انتهى الامر! الله اكبر على الحجة البالغة) ثم يقول الدكتور ما هو اشد غرابة و سفاهة من حجته البالغة هذه, يكتب بعدها " و دليل امكان وقوعه: انه وقع فعلا, وقع في عصر الصحابة و نقلت لنا اجماعات كثيرة" (!! عدنا الى الحديث عن الصحابة و اجماعاتهم , و لا حول و لا قوة الا بالله.) و لترى كيف يفعل الله في من يلقي الكلام بدون مسؤولية, تأمل ما يقول الدكتور نفسه في الصفحة المقابلة للصفحة التي كتب فيها عن امكانية وقوع الاجماع و وقوعه في عصر الصحابة, يكتب " اما بعد عصر الصحابة فمن العسير جدا التسليم بانعقاد الاجماع. 1 لتفرق الفقهاء في البلاد النائية و أمصار المسلمين العديدة. 2 و كثرة عددهم. 3 و اختلاف مشاربهم. 4 و عدم اخذ الاجتهاد بأسلوب الشورى كما كان الحال في العهد الاول. و أقصى ما يمكن ان يقال : ان احكاما اجتهادية في بعض المسائل وجدت و اشتهرت, و لم يعرف لها مخالف, و لكن عدم معرفة المخالف- و الحال كما وصفنا- لا يدل على عدم وجود مخالف, و بالتالي لا نستطيع ان نعتبره اجماعا, بل و لا اجماعا سكوتيا" (لعل عقلك اضطرب من كلام الدكتور, لا تظن بنفسك الا الخير, فمن الطبيعي ان يضطرب مع كلام متضارب مثل هذا. أولا لاحظ انه اقر بالعسر الشديد في امكانية انعقاد الاجماع بعد عصر الصحابة, ثم انتهى به الامر في نهاية الفقرة ان انكر امكانية انعقاده اصلا, بل و لا حتى امكانية اعتباره اجماع سكوتي, فتأمل في هذه الفقرة التي تبدأ بالوهم و تنتهي بالانكار, و مع ذلك الدكتور لا يزال من المؤيدين للاجماع كحجة شرعية! و ثانيا, لاحظ انه اخذ تقريبا بنفس حجج المانعون لامكانية وقوع الاجماع, و الذين قال ان حججهم "لا يلتفت اليها" لا بأس فالحق يجذب حتى من ينكره عاجلا ام اجلا. ثالثا, يصر هؤلاء على ان العصر المسمى بعصر الصحابة هو عصر ذهبي بل الماسي خارق للعادة من كل النواحي, بل حتى لو كانت مروياتهم نفسها عن هذا العصر و ما يعرفونه عنه يخالف ما يعتقدونه. الجميل انه انتهى به الامر الى انكار امكانية وقوع الاجماع – لا الصريح و لا السكوتي- بعد عصر صحابته. و اما نحن فننكر – على اسس قوية جدا لا يمكن دفعها بحال من الاحوال- وقوع هذا الاجماع حتى في عصر الصحابة. نحن لا يهمنا هذا اصلا, و لكن ان شئنا ان نذكر رأينا فهو اننا ننكر ذلك و قد فصلنا اسباب انكارنا كثيرا في هذا الكتاب فلا نعيدها هنا).

و أخر اقتباس من الدكتور زيدان هو رأيه في أهمية ايجاد مجمع فقهي , يكتب ان الاجماع لا يمكن ان يتم في العصر الحاضر الا عن طريق "ايجاد مجمع فقهي يضم جميع الفقهاء في العالم الاسلامي, و يكون لهذا المجمع مكان معين... فاذا..اتفقت اراء اعضاء المجمع على حكم كان حكما مجمعا عليه, و كان هذا الاجماع قريبا من الاجماع المنصوص عليه عند الاصوليين, ووجب العمل بموجبه" (مبروك على العالم الاسلامي هذا الاقتراح, فقد اصبح عندنا لو تم فاتيكان او سنهدرين كما عند الاديان الاخرى. و ثانيا, لاحظ انه مع كل هذا لم يقل ان اتفاق اعضاء المجمع يساوي الاجماع عند الاصوليين, لا, و لكن "قريبا" منه. ثم من هنا قفز الدكتور قفزة عجيبة تحتاج الى مرونة عالية, فقال بعدها "ووجب العمل بموجبه"! يعني حتى لو لم يتم الاجماع الذي ذكره الاصوليون, و الذي لا يمكن ان يتم اصلا, و لكن حتى لو سلمنا تنزلا و جدلا بانه ممكن الوقوع و انه هو الذي اراده الله لان يكون حجة شرعية, فان الدكتور يقول انه حتى لو لم يتم, بل تم شئ "قريبا" منه, فانه مع ذلك يكون واجب العمل بموجبه. فالذين يحبون هذه القفزات البهلوانية في الاستنباط يمكنهم ان يستمتعوا بمثل هذه الاصول الممتعة, و اما من يريدون شئ من الجدية في دينهم و اصولهم فأحسب انهم سيعرضون عن هذا القفز. و ثالثا, ان فكرة المجمع هذه فكرة جميلة بالفعل, و لكن خارج اطار الاجماع الاصولي, بل مجرد وسيلة للدراسة الجماعية لا اكثر. لان اي شئ غير هذا فانه سيصبح كهنوت رسمي. و دين الله لا يعرف الكهنوت. و أحسب اني قرأت يوما رواية ينسبونها الى مقام النبوة تقول "لا كنيسة في الاسلام" و ظاهر ان القصد لا يمكن ان يكون: لا تسمحوا ببناء الكنائس , او ما شابه, لان هذا الحق مكفول لاهل الديانات الاخرى في دين الله. فالمعنى المحترم الممكن لهذه المقولة هو انه: لا نظام كنسي في الاسلام. او ما يسمى بالكهنوت, فلا رجال دين, ولا عوام في دين الله. المؤمن يدرس كتاب الله كما يأكل و يشرب, بل اهم مما يأكل و يشرب, بل انه لا يأكل و يشرب الا ليدرس كتاب الله. هذا ان اردتم الايمان الحقيقي. اما اللعب و اللهو و الخوف الطفولي الذي يسميه البعض ايمان, فهذا لا شأن لنا به, و الى الله مرجعنا جميعا فيحكم بيننا بالحق و هو خير الحاكمين)

.....

للشيخ المرحوم الطاهر بن عاشور – صاحب تفسير التحرير و التنوير الموسوعي – قول مهم في مسألة الاجماع, و قد ذكره في كتابه "مقاصد الشريعة الاسلامية" (ص 312) و هو قول صادر من فقيه متبحر له وزنه في عالم الفقه و الأصول و التفسير و الدين بصورة عامة, و يكفي موسوعته التفسيرية و نظريته في مقاصد الشريعة لتدل على مكانته في العلم الشرعي. و سيكون هذا اخر اقتباس نختم به بحث الاجماع. و كالعادة سأنقله كله ثم نعلق على قدر الحاجة, و الحق يقال فان قوله واضح و لا أحسب أنه يحتاج الى تعليق و انما مجرد اشارة الى مواضع الاستشهاد منه للتنبيه.

يقول الشيخ ابن عاشور "و نحن اذا افتقدنا اجماع سلف الأمة من عصر الصحابة فمن تبعهم, نجدهم ما اعتمدوا في أكثر اجماعهم – فيما عدا المعلوم من الدين بالضرورة- الا الاستناد الى المصالح المرسلة العامة أو الغالبة, بحسب اجتهادهم الذي صيّر تواطؤهم عليه أدلة ظنية قريبة من القطع, و قلّما كان مستندهم في اجماعهم دليلا من القرءان أو السنة. و لأجل ذلك عدّ الاجماع دليلا ثالثا لأنه لا يدرى مستنده, و لو انحصر مستنده في دليل الكتاب و السنة لكان ملحقا بالكتاب و السنة و لم يكن قسيما لهما" ثم يضرب امثله على أمثال هذا الامور التي لا يوجد

شاهد في الشريعة – اي الكتاب و السنة عندهم- لاعتبارها, و هي ما يسمونه مصلحة مرسلة, و من أمثله ذلك عنده جمع القرءان في مصحف واحد, و جلد شارب الخمر الجسمانية ثمانين جلدة و غير ذلك.

ماذا يمكن أن نستخلص من كلام الشيخ ابن عاشور هنا ؟

أولا, أن أكثر اجماع الصحابة مبني على اجتهادهم الشخصي. و بالطبع لا يمكن ان نسمي "المعلوم من الدين بالضرورة" أنه مجمع عليه او يقع تحت بند الاجماع, لانه لا يوجد معلوم من الدين بالضرورة الا لو كان نصا صريحا قاطعا من كتاب الله- على الاقل عند المخلصين لكتاب الله حصرا. و أصلا كل ما يدخلونه تحت المعلوم من الدين بالضرورة انما هو امور يفترض انها جاءت في كتاب الله بنص فصل صريح أو في سنة النبي عليه السلام عندهم. فالحاصل أن الاجماع انما هو اجتهاد بعض الصحابة او مجرد رأيهم. و أقول "بعض" الصحابة, لانه كما عرفنا و كررنا: نحن لا نعلم ماذا قال "كل" الصحابة. و لا ينسب الى ساكت أو مجهول قول, و لا مجال للتكهن و التخرص في أمور الدين عامة فضلا عن ما يسمى بأصول الدين. فعندما يقال أن الاجماع دليل مستقل او شبه مستقل في الشرع, فهو يوازي قولنا "اجتهاد بعض الصحابة دليل مستقل او شبه مستقل في الشرع". و لذلك مثلا, لم يأخذ الشيعة الامامية بمبدأ الاجماع هذا الا ان كان الامام المعصوم داخلا في المجمعين, فيعتبر الاجماع لانه كاشف عن رأي الامام المعصوم و ليس لانه اجماع بحد ذاته. فكلمة " الاجماع" هي كلمة ضبابية مضللة غامضة, تخفي أكثر مما تكشف. و تجريدها الطاغي يخفي حقيقة الاشخاص الذين يختبؤون ورائها. فالاجماع وسيلة ارهاب, أكثر من كونه مبدأ فقه. و على كل حال نحن لسنا ملزمين برأي أي صحابي او غير صحابي من بعدهم, بل ان الصحابة انفسهم – القليل الذين نعرفهم او نظن أننا نعرفهم- لم يكن يرون أن بعضهم حجة على البعض الاخر. بل كانوا يتناظرون و يستسخف بعضهم رأي بعض و ينقد بعضهم رأي بعض, بل كانوا أحيانا يكفر بعضهم البعض و يلعن بعضهم البعض و يقتل بعضهم البعض, و يكذب بعضهم او لا يثق تمام الثقة برواية البعض عن النبي – كما حصل في قصة ابو موسى الاشعري و عمر بن الخطاب في الاستئذان, و كما حصل في رواية فاطمة بنت قيس و عمر بن الخطاب و غير ذلك مما هو معروف عند العلماء بهذه الامور. فان كان الاجماع هو رأي بعض الصحابة, و كان رأي بعض الصحابة بل كلهم غير ملزم بذاته فالنتيجة أن حجية الاجماع تسقط بسقوط حجية الشخصيات الحقيقية التي تقف و تختبئ وراءه. فلماذا لم يقولوا ان أدلة الشرع هي "القرءان و السنة و رأي الصحابة في المصالح المرسلة " لا أدري صراحة ما السر, هذا على فرض أنه يوجد سر, و الحقيقة أنه لا سر و لا يحزنون انما هو تعمية و تجريد , و ادخال "الرهبة" في صدور الناس كما قال امام الحرمين الجويني- رحمه الله.

ثانيا, كون الاجماع دليلا ثالثا يكشف عن حقيقته و هي انه دليل مستقل كما قال الشيخ ابن عاشور (و نفس الامر في السنه فتامل). فهو يقول "فلو انحصر مستند – الاجماع- في دليل الكتاب و السنة لكان ملحقا بالكتاب و السنة, و لم يكن قسيما لهما" و هذا يرد على من يقولون أن الاجماع دائما له مستند من الكتاب و السنة و لكنه "مخفي" او "لم يبينه الذين اجمعوا" و ما أشبه من اختلاقات و تبريرات عقيمة هدفها مجرد قطع الخصومة و انهاء المجادلة و لو على حساب الدين و المعرفة و التصريح بالجهالة. و أما العلاّمة ابن عاشور- رحمه

الله- فقد كان يملك من العلم بالشريعة و أصولها و يملك من الجرأة ما جعله يصرّح بما أخفاه من قبل و يخفيه الكثير اليوم. صرّح بأنه انما عدّ الاجماع دليلا ثالثا لانه "لا يدرى مستنده". بالرغم من أنه استثنى و قال "قلّما كان مستندهم – اي الصحابة- في اجماعهم دليلا من الكتاب و السنة " و هذا الاستثناء لا قيمة له أبدا, لأن الذي يثبته الوحي الالهي هو حجة بذاته و لا يحتاج الى اجماع أحد ليتم الاعتراف به شرعا. و ان كان الاجماع كما يقول الشيخ "لا يدرى مستنده" فأولا هذا اقرار بأنهم يتبعونه على عمى, و ليس في دين الله الا "على بصيرة أنا و من اتبعني". و ثانيا فيه تكهن بأنهم اعتمدوا على المصالح المرسلة , و هم لا يعرفون يقينا ما هو تفصيل المصالح التي كان يهدف اليها عمر بن الخطاب مثلا او غيره. و ليس كل ما يصرّح به الحاكم يكون هو فعلا ما يبطنه, بل ليس كل ما يصرح به أي انسان يكون هو فعلا ما يبطنه, و ليس كل ما في باطن عقل الانسان يتم التصريح به. و هذا لا علاقة له بالنفاق دائما, لا, و لكنه من الطبيعة الانسانية, و أيضا للسياسة فيه مدخل كبير. و العجيب أنه يوجد من المدارس الفقهية من ينكرون حجية المصالح المرسلة أصلا! فكيف يكون الاجماع مبني على المصالح المرسلة, و يتم اعتبار الاجماع دليلا شرعيا مقدسا, و مع ذلك يوجد من الاسلاميين السنيين من ينكر حجية المصالح المرسلة بل و قد يتم اعتبارها – بحق- تشريعا بالهوى. و هل المناهج الطغيانية مبنية على غير فكره المصالح المرسلة هذه! و اما ما يقوله بعض الاصوليين عن ضوابط المصلحة المرسلة الشرعية, فالحاصل من دراستها و من دراسة اختها التي هي فكره سد الذرائع فان الحاصل أنهما وسيلة لجعل الحرام حلالا, و قلب الحلال حراما باسم الله و المصلحة العامة. يقول الدكتور عبد الكريم زيدان في خاتمة مبحث سد الذرائع "و لهذا نرى من أخذ بمبدأ المصلحة- أي المرسلة- و حمل لواءه, و هم المالكية و من تابعهم أخذوا أيضا بالذرائع – أي مبدأ سد الذرائع- فقالوا بسدّها اذا أدت الى مفسدة, و بفتحها اذا أدت الى مصلحة راجحة, و لو كانت الوسيلة بذاتها محرمة. و لذلك أجازوا للدولة الاسلامية أن تدفع مالا لدولة العدو اتقاء لشرها اذا كانت الدولة الاسلامية ضعيفة. و قالوا بجواز دفع المال على سبيل الرشوة اذا تعينت طريقا لدفع ظلم أو معصية, ضررها أشد من ضرر دفع المال" فاذن الوسيلة المحرمة يجوز أن تنقلب لتصبح مباحة باسم المصلحة, و الوسيلة المباحة يجوز أن تنقلب لتصبح حلالا باسم سد الذرائع. و كل ما يقال بعد هذا هو مجرد ثرثرة لا أكثر. لانه ما ان ينفتح مثل هذا الباب حتى تنقلب الشريعة الربانيه الى مجرد خادم ذليل لكل من يملك أسباب القوة المالية و الوحشية – و هو ما حدث و لا يزال.

فالاجماع هذا يستند الى طبقتين: الطبقة الاولى هي مبدأ "اتباع رأي بعض الصحابة" , و المبدأ الثاني "التشريع باسم المصلحة المرسلة هو تشريع باسم الله". فان كان الاجماع كالمبنى, فانه على شفا جرف هار, بل هو منهار تماما عند أولي الايدي و الأبصار.

و اللطيف في الموضوع أنه من علماء الاصول السنيين أنفسهم من لم يأخذ بحجية المصالح المرسلة, و منهم من لم يأخذ بحجية قول الصحابة فيما يكون بالرأي و الاجتهاد. و منهم من انتهى الى القول بأن قول الصحابي المبني على الرأي و الاجتهاد ليس بحجة و لكنهم يميلون الى الاخذ به حيث لا يوجد دليل من الكتاب و السنة و الاجماع- كالدكتور زيدان مثلا. و أما ما حصل عليه الاتفاق من بين الصحابة فيعتبر اجماعا يجب الاخذ به! و ان لم يعلم مخالف من الصحابة فيعتبر اجماع سكوتي و هو حجة عند بعض العلماء الاصوليين دون البعض الاخر. و قد

اختلقوا فكرة الاجماع السكوتي هذه ليرقّعوا بها الخرق الواسع جدا, اي كون الغالبية العظمى من الصحابة لا تعلم اقوالهم في هذه المسائل التي يدعي أرباب هذه الشريعة أنها مسائل مجمع عليها.

و قول الصحابي فيما لا يدرك بالرأي و الاجتهاد يقولون أنه حجة شرعية لانه "محمول" على السماع من النبي. مرة أخرى تكهن و تخرص. الصحابي نفسه لم يروي قوله عن النبي, و لم يقل أن النبي قال لي كذا, و لكنه اطلق القول, فجاء أرباب هذه الشريعة و جعلوا قول الصحابي "محمولا" اي هم سيعتبرونه و كأن الصحابي سمعه من النبي, و هذا مبني طبعا على نظريتهم المتهالكة في أن كل الصحابة مقدسين أو شبه مقدسين, و بالتالي كيف سيبررون كلام صحابي لا يدرك بالرأي و الاجتهاد و الصحابي نفسه لم ينسب القول الى النبي؟ الجواب: يوجد ثلاثة احتمالات, اما أن الصحابي اجتهد اجتهادا عميقا لا يدرك سره و لا يستطيع أحد أن يفهمه و لذلك لم يشرح من أين استنبط قوله العميق هذا و هذا تبرير غبي و يدل على أن من يسمون بالتابعين ليسوا بالعظمة التي يصورون بها بل و أيضا هو تبرير متهالك لانه لا يفسر كل الاقوال التي اطلقها بعض الصحابة فيما لا يدرك بالراي و الاجتهاد حسب قول ارباب الاصول كمثل قول ابن مسعود "أقل الحيض ثلاثة أيام" لا أدري صراحة أين هو السر المكنون و الجوهر المصون الذي بناء عليه استنبط ابن مسعود هذا القول و لم يحسن أن يشرح مصدره أو أن ينسبه الى النبي. فهذا الاحتمال ساقط. الاحتمال الثاني أن الصحابي سمع القول من النبي و لكنه كتم هذا و أراد أن ينسب لنفسه شرف نسبة هذا القول اليه, فهو من باب المفاخرة و استعمال النفوذ و كتم العلم , و لا أحسب أنهم يقبلون هذا التبرير. و الاحتمال الثالث و الاخير أن الصحابي اختلق القول من عنده و أخرجه "من كيسه" الخاص, و لذلك لم يشرحه و لم ينسبه الى النبي, و اعتمد على نفوذه المعنوي وسط اتباعه و تلاميذه في كونه "صحابي" و لذلك لم يحتاج الى التبرير, و هذا أيضا ينقض نظرية القدسية المطلقة للصحابة كلهم. فالاحتمالات الثلاثة أسوأ من بعضها البعض, و ليختاروا أحبها لهم. و لعل كل احتمال يفسر بعض ما يطلقه بعض الصحابة من أقوال. الا أنه لا يجوز أن يحمل قول الصحابي على أنه رواية عن النبي, لأن الصحابي نفسه لم يدعي ذلك! فمن أنتم حتى تقولوه ما لم يقل!؟ ان كان ما ينسبه الصحابي الى النبي فاننا نشكك فيه احيانا و ننقده, فما بالك بما لا ينسبه! فالحاصل أن قول الصحابي الذي يظهر أنه لا يدرك بالرأي و الاجتهاد انما هو رأي منه لم يرغب في شرح كيفية استنباطه للناس, أو هو رغبة في المفاخرة و سرقة الفكرة النبوية و نسبتها الى النفس, أو هو اختلاق و كذب محض. فان كان الاحتمال الأول فهو ليس بحجة على أحد لأن الفكرة بدون برهانها لا قيمة لها و من عرف برهانها فليخرجه لنا. و ان كان الاحتمال الثاني أو الثالث فيجب ذم هذا الصحابي و رفضه فضلا عن عدم قبول قوله و رده. فاذن أنّى لهم أن يجعلوا هذا الامر أصلا و حجة في دين الله تعالى "ما لكم كيف تحكمون".

فالاجماع في نهاية التحليل يرجع الى تقديس رأي بعض الناس, و تقديس نظرة بعض الناس للمصالح و معيارها و تفصيلاتها عندهم. و كل هذا لا يمكن أن يجعل أصلا للدين. فان كانت له أي قيمة فهي قيمة فرعية و ليست أصلية. فالواجب أن يتم الحاقها بفروع الدين و مسائله و لا مدخل لها في الاصول. (على فرض قبول هذه القسمه).

و شئ طبيعي و متوقع أن يختبئ هؤلاء البعض وراء القناع الرهيب المسمى "اجماع" حتى لا يظهروا بمظهر الرأي و اتباع المصلحة, اذ لو كشفوا الغطاء و أبرزوا الوجوه لقال لهم الناس "شاهت الوجوه! فكما أن لكم رأيا كذلك نحن لنا رأي, و كما أن لكم نظرية في مقاصد الشريعة و ترتيب المصالح و تطبيقاتها فكذلك نحن عندنا نظريتنا , فأي

حجة لكم علينا غير مقارنة ما عندنا بما عندكم" , و للتخلص من مثل هذا الاعتراض القوي جدا , يسبغون قناع "الاجماع حجة شرعية من لا يتبعها فهو يتبع غير سبيل المؤمنين و حسبه جهنم و ساءت مصيرا" و عندها سترى الأغلبية كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة...مع الأخذ بعين الاعتبار الفرق الكبير جدا بين النبي القسورة و بين الدجال القسورة, و ذلك ذكرى لأولي الالباب.

.....

3.(من هو المسلم؟)

يقال ان المعتبر في الاجماع هو "اجماع الأمة" لحديث ينسب الى النبي عليه السلام يقول فيه "لا تجتمع امتي على خطأ" و نحو ذلك. فنتساءل الان: و من هم الذين تنطبق عليهم و تصدق فيهم كلمة "امتي", أي أمة محمد؟ هذا من أعقد – بل لعله أعقد و أصعب سؤال طرح و لا يزال يطرح في تاريخنا كله. بالرغم من أن معظم الاجوبة التي قدمت و اشتهرت لا تفصل في النزاع. و غير قائمه على أسس راسخة. فتعالوا ننظر.

يوجد ثلاث طرق أساسية يمكن أن نسلكها لاستكشاف ماهية "الأمة" او "المسلمون" : اما أن نبحث في أركان الاسلام فاذا حددنا اركان الاسلام و أركان الكفر فيكون كل من يلزم أركان الاسلام و يجتنب أركان الكفر داخل تحت كلمة "المسلمون". و اما أن نبحث في الكتب التي تتحدث عن الفرق "الاسلامية" فنعتبر ان كل هذه الفرق داخلة تحت كلمة "المسلمون" من باب ان المؤلف لولا اعتقاده بانهم من هذه الأمة الاسلامية لما ذكرهم في كتابه هذا. و أخيرا أن ننظر في كتاب الله تعالى لنرى تعريفه للاسلام فيكون هذا هو المعيار " ختامها مسك".

و بالرغم من أن هذا البحث يمكن أن نستطرد فيه استطرادا يجعل المسألة جديرة بأن تكون موضوعا لكتاب كامل, و لكنني سأذكر هنا أطراف الاجابة التي لعلها تحيط بها بالقدر اللازم ان شاء الله. و من أراد أن يتوسع فسيعرف كيف ينطلق طالما أننا حددنا طرق البحث الممكنة للاجابة عن هذا التساؤل المهم و المحوري. و بما أن هذا الكتاب مخصص لمناقشة اراء الاحزاب او الفرق التي تؤمن باصول غير محض كتاب الله تعالى, فاني لن أدرس المسألة من كتاب الله تعالى في هذا الكتاب, و لكن نحيل في ذلك الى كتبنا الاخرى. و لن يخلو البحث من ذكر لما أراه في الامر بالضرورة. اذ لا تحليل و جدال الا من زاوية اعتقاد المحلل المجادل. فكوني أنقد ما قدمه المفكر الاخر يعني أنني أصرح بفكري الشخصي من وراء حجاب. فهو تصريح و لكنه غير فصيح. و للافصاح كتب أخرى.

أما طريق النظر في أركان الاسلام. فان الحزب السني يجعلها خمسة: الشهادتين و الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج. و الحزب الشيعي يجعلها أيضا خمسة و هي: ولاية أهل البيت, و الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج, و عندهم أن الولاية هذه هي أفضل و أعظم الاركان. و اما الاباضية فلهم رأي ثالث في الاركان, و لهم تفصيل مغاير لتفصيل بعض اركان الحزب الشيعي مثلا, فالامامة عند الشيعة الامامية مثلا هي في اثنا عشر من ذرية علي و فاطمة عليهما السلام من صلب الحسين, و اما الامامة عند الاباضية فليست أمرا يورث و ليست حكرا على أسرة او قبيلة معينة. و هكذا تختلف الفرق في أركان الاسلام سواء من ناحية الاركان او من ناحية مضمون الاركان. و حيث ان

زوال ركن يهدم البيت كله, فمثلا الحزب السني لا يمكن أن يقبل ان الذي يشهد الشهادتين و يصلي و يزكي و يصوم و لكنه لا يعتقد بالحج, مثل هذا لا يمكن أن يعتبروه مسلما . و كذلك الشيعة الامامية لا يمكن أن تعتبر من ينكر ولاية الائمة الاثنا عشر على أنه مسلم او لا اقل مسلم كامل. (و ما يخرج به بعض علماء الشيعة الامامية و يزعمون بانهم يقبلون باسلام الكافر بالولاية انما هو شئ غريب, فهم لعلهم ياخذون جزء من رواية من هنا او مقطع من هناك, و يتركون تراث المرويات و التاريخ الفكري الشيعي في معظمه الذي لا يعترف باسلام المنكر للولاية, لان الولاية بحسب نص الائمة لم يرخص الله فيها لاحد و لكنه رخص في بقية الاركان الاربعة, و غير ذلك من نصوص تصرح بان الشيعة الاماميه هم الفرقة الناجية الوحيدة و ان الذي ياتي يوم القيامة بدون ولاية علي و اله فانه ليس له عند الله اعتبار يذكر, و الى ما هنالك من نصوص. فلتكن عند الانسان الجرأة ان يصرح بحقيقة معتقده و لا يكن ساعيا للترويج لمذهبه المتعصب بادعاء انه منفتح و متسامح) . فزوال ركن يعني عدم اعتبار بقية الاركان. فالكافر بركن كافر بالدين كله. فلا أحد من هذه الفرق يقبل بأن يأخذ أحد بعض الاركان – الاركان التي تحددها فرقته طبعا– و يرفض البعض الاخر. بل انه لو اخذها كلها و انكر واحدا منها فانهم يعتبرونه كافرا. و حتى أقطع الكلام و المعارضة التي قد تنشأ بسبب هذا الكلام أقول لكل الفرق الموجودة حاليا– شيعة و سنة و اباضية و غيرهم: هل تقبلون اسلام من يصلي و يصوم و يزكي بل يزهد بماله كله, و يشهد الشهادتين, و يؤمن بالقرءان و الله و الملائكة و الكتب و كل شئ, و يعبد الله باحسان و يفني نفسه في ذات الله, و لكنه مع كل هذا ينكر الحج الظاهري الذي تعتقدونه بل يرى أن هذه الكعبة ما هي الا صنم من الاصنام؟ احسب أن الاجابة معروفة مسبقا . و بالتالي نخلص الى نتيجة مهمة: كل فرقة ترى أن كل الفرق الاخرى كافرة. و أنها هي وحدها الفرقة الناجية. و هذا ليس استنتاجا جديدا أو قولا متبدعا, بل هو أمر مشهور يعتقده العوام من كل فرقة قبل السادة و الكبراء و الاحبار و الرهبان. فتعبير "الفرقة الناجية" هو مصطلح شائع خاصة عندما يتحدث اهل كل فرقة مع اخوانهم و من شاكلهم. و يعرف هذا جيدا من يقرأ كتب كل فرقة و التي يفترض أنه لا يطلع عليها في الغالب الا أبناء الفرقة و الطائفة فقط. فعندها تستطيع ان ترى فعلا ماذا ترى كل فرقة في الفرق الأخرى. و بالتالي, عندما يقال أن الاجماع حجة, و الاجماع هو "اجماع المسلمين" او "اجماع الأمة" فماذا يعني هذا في ضوء ما سبق؟ أي اعتبار للأمة و المسلمين في ظل عقيدة "الفرقة الناجية"؟ فان كانت بقية الفرق هالكة, او على الاقل مبتدعة زائغة ضالة, فاي قيمة لرأيهم حتى يحسبوا ضمن الاجماع أو يعتد بخلافهم فيه؟ بل اننا نرى في ضمن الفرقة الواحدة أنه اذا خرج أحد على "الاجماع" المزعوم في مسألة, فانه و على القاعدة و كالعادة, فورا تراهم يقولون "و شذّ من لا يعتد برأيه" او "و زعم بعض التائهين عن الصراط المغرورين" او "و خالف في ذلك بعض الجهلة" و الى غير ذلك من كلمات في هذا المضمون. و قد ضربنا مثالا رائعا على هذا الاسلوب عندما ذكرنا مخالفة ابن تيمية–رحمه الله– "للاجماع" الذي سبقه في مسألة زيارة قبر النبي عليه السلام. ففورا – بحق بالنسبة لمبغضي ابن تيمية الذين يرونه منافق زنديق أموي و بباطل بالنسبة لمن يرونه شيخ الاسلام– أخرجه ابن حجر الهيثمي من الملة و العقل و المعرفة حتى لكأنك تشعر بان ابن تيمية كان بقّالا لا يحسن القراءة و الكتابة بعد أن تقرأ الطعن الذي طعنه به الهيثمي. و لنضرب مثلا اخر – و يا كثر الامثال في هذا المجال– في مسألة وقوع النسخ في القرءان, يقول الغزّالي في المستصفى انه يوجد دليل من الاجماع و النص على وقوع النسخ (و لاحظ تقديم الاجماع على النص) "أما الاجماع: فاتفاق الأمة قاطبة, على ان شريعة محمد صلى الله عليه و سلم نسخت شرع من قبله, اما بالكلية و اما فيما يخالفها فيه, و هذا متفق عليه, فمنكر هذا خارق للاجماع. " و لا اريد ان افتح باب النسخ و رد هذا الكلام, و لكن محل الشاهد هو ان الغزالي يقول انه يوجد اجماع على ذلك, و انه "اتفاق الامة قاطبة" و "متفق عليه", انظر ثلاث كلمات عامة مطلقة لكي

يثبت دعواه. حسنا, الى هنا الامر جيد. ثم ماذا؟ ماذا سيفعل مع أمثال أبو مسلم الاصبهاني الذي أنكر النسخ مثلا؟ نعم, هنا سياتي و على القاعدة و كالعادة, و يقول بعد النص الذي نقلناه عنه "و قد ذهب شذوذ من المسلمين الى انكار النسخ. و هم مسبوقون بهذا الاجماع. فهذا الاجماع حجة عليهم". فكل ما عليهم أن يزعموا أن الأمر مجمع عليه, ثم يحقّروا كل عالم مسلم – و حرمة المسلم أعظم عند الله من كل شئ كما هو عندهم فضلا عن المسلم العالم- فيحقروهم و يعتبروهم "شذوذ" و "من لا يعتد به" و غير ذلك, و بهذا تسلم لهم دعوى الاجماع. و حتى شيخ مثل ابن تيمية, و هو شيخ طريف خاصة في ما يتعلق بالاجماع, فهذا الشيخ-عسى الله أن يرحمه و يرحمنا من اتباعه- هذا الشيخ كلما اراد أن يستدل على اي شئ تقريبا عنده كلمة "أجمعت الامة" و "اجمع السلف الصالح" و "اجمع العلماء" و "اجمع جماهير العلماء" الى ما هنالك, هذه الكلمات أخف على لسانه و قلمه من الهواء- و سرى هذا الداء العضال في اتباعه الى يومنا هذا مع الاسف. فان كان هذا هو الحال في ضمن الفرقة الواحدة أحيانا, و المخالف من نفس الفرقة قد يعتبر في الغالب "من شذوذ" المسلمين, فهل تتوقع أن يعطى الاعتبار للروافض الخبيثين لعنهم الله أو الخوارج المارقين قبحهم الله او النواصب الضالين لعنهم الله ؟! هيهات. بل اننا نرى مثلا في ضمن الشيعة الامامية أن من ينتمي الى مدرسة العرفان و التصوف يعتبر مارقا عند المسلم الشيعي الامامي الذي لا ينتمي الى مدرسة العرفان و التصوف, بل ليس فقط مارقا بل انه قد يكفره رأسا. و قل مثل ذلك في البقية.

و على ذلك, عندما يقال "اجماع الامة", اذا نظرنا من حيث اركان الاسلام فانه لا سبيل الى جعل المسلم الا في ضمن الحزب و الفرقة التي ينتمي اليها. بل حتى الفرقة قد تكون مقسمة الى طوائف, و كل طائفة قد لا تعتد بمخالفة الطوائف الاخرى. طبعا مع العلم ان كل هذه الفرق و الطوائف تدعي انها مع القرءان و السنة و السلف الصالح, و تبرأ الى الله من المخالفين للقرءان و السنة و السلف الصالح! و حيث انه لا "معصوم" او نبي بيننا لكي يفصل بين أهل الحق و الباطل, و كل هؤلاء يعتمدون على قراءتهم للنصوص الدينية و مناهجهم الفكرية و الاصولية في هذا الامر تختلف لاسباب عديدة, فان الحاصل هو ان كل فرقة و طائفة لها الحق- من حيث المبدأ- أن تدعي أنها تمثل الاسلام. و هذا الحق حق على الشيوع. بمعنى ان كل فرقة تملك ان تدعيه و لا حجة فاصلة مطلقة بين فرقة و اخرى. اللهم الا الاقتناع و الذوق و العوامل اللاشعورية. فكل فترة نسمع عن سنة يتشيعون, و شيعة يتسننون, و اهل اسلام يلحدون, و اهل الحاد يسلمون, و هكذا الى بقية القائمة و القائمة الفرعية التي تحويها كل فرقة, فمثلا الوهابي يصبح صوفي, و الصوفي يصبح وهابي, و الوهابي الذي أصبح صوفي ينقلب معتزلي, ثم المعتزلي يصبح صوفي نقدشبندي و النقشبندي يصبح مولولي. و هكذا. و كل هؤلاء يدعون أنهم "وصلوا" الى "الحقيقة " و الحمد لله، بعد طول بحث عنها و بتوفيق الله تعالى و هدايته!

فاما أن نعتبر كل هذه الفرق داخله تحت بند "أمة محمد", و هذا فيه ما فيه, فضلا عن أن معظم الفرق لن ترضى بهذا. و ان رضوا به فانما يرضونه لاسباب سياسية اجتماعية مصلحية, فهم يرون "اهل الاسلام" ضعاف بسبب تقسيمهم و تفرقهم, فيرغبون في توحيدهم لهذا السبب. و هنا ينشأ "الاسلام اليهودي" بحسب تسميتي. يهودي بمعنى انهم يتبعون المصلحة السياسية و المالية و يجوزون في سبيل ذلك ان يخرقوا حتى اعتقاداتهم الشخصية او

لوازم عقائدهم. فالدين عند هذا النوع من الاسلام- و هو نوع بدأ يشتهر بالمناسبة- هو شئ مائع ضبابي يدور مع المصلحة الظاهرية المؤقته حيثما دارت. و لكن اذا محصت احد هؤلاء فانك ستجده على حقيقته. أذكر مرة ان أحد هؤلاء- و هو من الدعاة المشهورين ب "التسامح و الرغبة في توحيد المسلمين"- و لكن هذا الداعية سني يميل الى التصوف. فسألته: انت لا تفرق بين السني و الشيعي و لكن المهم عندك هو الاسلام ،صحيح؟ قال : نعم ! هذه الفروقات يجب ان تزول, الله سمانا مسلمين و كفى. فقلت له: ممتاز سدد الله خطاك, فهل تسمح للداعية الشيعي الامامي ان يدعو الى عقائده في مجلسك و مسجدك بكل حريه و ان يقول كل ما يريد قوله؟ فسكت قليلا و تردد ثم قال: لا باس. فقلت له, و كنا على وشك الذهاب الى مجلس في بيته يحضره اصحابه و افراد من أسرته و بعض الدعاة و المفكرين الذين هم على شاكلته, فقلت له: اذن أنا أعرف بعض العقائد التي يعتقدها كثير من الشيعة و أريد أن أذكرها في مجلسك, فطالما انه كله اسلام لا فرق, فهل تأذن لي من فضلك؟ فسكت و بدأ ينظر في الارض لانه يعلم ما أعني, ثم قال بصوت متردد : و لكن أخشى أن تغضب الناس! ثم رأى انه من الافضل ان لا أتكلم في هذه المواضيع "الحساسة". و هكذا بقيت دعوى توحيد الفرق الاسلامية المزعومة هذه مجرد تنازلات يقدمها كل فريق للاخر و يداهن في دينه و يدعو الى امور ضبابية, و غبية بالمناسبة. فانهم لا يتجرأون على الخوض في أصول دينهم فعلا. فيوجد عندهم سياسة الخطوط الحمراء. فنعم يمكن أن يقبلوا بالنقاش و حوار الاديان و التقريب بين المذاهب الى اخر اساليب السياسة و الاعيبها التي جروا اليها الشيوخ المتسيسين. فلا هم اهل دين حقيقي و لا هم أهل سياسة حقيقية. و حتى اذا افترضنا جدلا بان كل ما يسمى بالفرق الاسلامية دخل تحت بند "أمة محمد", و رضي الناس كلهم بذلك, و هو فرض محال مطلقا سواء من الناحية النظرية الفلسفية او من الناحية العملية التطبيقية, و لكن لنفرض المحال حتى لا يبقى لاحد ذرة شك, فلنفرض ان هذا وقع, و الان اصبح كل التراث "الاسلامي" بكل فرقه و طوائفه و احزابه و علماءه على مر العصور, و كل ما وصلنا من اراء في مختلف المجالات الدينية سواء في العقائد او الشرائع, كلها الان وضعناها على طاولة البحث. و بدأنا بالعمل. بدأنا نضع مسألة مسألة من المسائل الدينية, و تحت كل مسألة نكتب كل رأي ذكره أحد من "المسلمين" من أقدم المصادر الى أحدثها في يومنا هذا, و جمعنا كل الاراء فلم نغادر صغيرة و لا كبيرة الا و ذكرناها, فمثلا تحت مسألة (طبيعه الله) سنذكر كل الاراء الموجودة بداية من الطرف اليميني الاقصا الذي الحق الله تعالى بالعدم, مرورا بوحدة الوجود المطلقة, و انتهاءا الى الطرف اليساري الاقصا الذي جعل الله ذلك الشاب الامرد الجسماني الذي يضع رجل على رجل و يتمشى في جنة الفردوس ! الى ان ننتهي باماطة الاذى عن الطريق هل هو فرض عيني ام كفائي ام مستحب ام واجب ام غير ذلك من تفصيلات وقعت او يمكن ان تقع. ثم نبحث في مناهج الفقه التشريعي, فتحت مسألة (ما هي مصادر الدين الاسلامي من حيث الكتب؟) نبدأ بالطرف الاقصا اليميني الذي يرى الوجود هو كتاب الله الوحيد , مرورا بالراي الذي يرى هذا القرءان العربي هو المصدر الوحيد, و انتهاءا بالذي يرى ان كل كتاب صدر من مفكر مسلم يستحق أن يدلي بدلوه في المسائل الدينية كلها بل و غير المسلم ايضا. و هكذا نذكر كل الاراء التي وجدت و مازالت تتولد و يمكن ان تتولد لاحقا, و بعد كل هذا العمل المضني الجبار أسألكم بالله: هل ستوجد مسألة واحدة على الاطلاق قد "أجمعت الامة" عليها بكل تفاصيلها ؟ لا وحق الله هذا لم يقع و لن يقع بل و لا يمكن أن يقع. اذ لكل مسلم الحق في الادلاء بدلوه من حيث الاصل. و لا سلطان على المسلم الا لله, و كل مسلم له الحق ان تكون له علاقته الخاصة بالله. و ليس لاحد أن يزعم ان له الحق دون الاخرين. ايا كانت مبرراته في هذا الحق. وهذا من حيث الاصل و المبدأ. فاجماع الامة هو أمر لم يقع و هو تخريف لا معنى له. فان اعتبرنا "أجمعت الأمة" تساوي "أجمع علماء الفرقة", او تساوي "أجمع كل من ينتسب الى الاسلام" , فان الكلمة و الدعوى لا معنى راسخ لها, بل و لا معنى تافه أيضا.

فهذا الطريق لا فائدة فيه, فلنسلك الطريق الثاني الذي هو البحث في الكتب التي تذكر الفرق الاسلامية. و سنكتفي بالكتب القديمة بالرغم من نشوء فرق و طوائف كثيرة بعد ذلك, فسنكتفي هنا بالنظر في كتاب (مقالات الاسلاميين و اختلاف المصلين) لابي الحسن الاشعري- رحمه الله. و كتاب (الفرق بين الفرق) لعبد القاهر البغدادي-رحمه الله.

أما كتاب الاشعري. فنكتفي بثلاثة اقتباسات: الاول قوله في مقدمة كتابه " اختلف الناس بعد نبيهم صلى الله عليه و سلم في أشياء كثيرة, ضلل بعضهم بعضا, و برئ بعضهم من بعض, فصاروا فرقا متباينين, و أحزابا مشتتين, الا أن الاسلام يجمعهم و يشتمل عليهم". و الثانية قوله " اختلف المسلمون عشرة أصناف: الشيع, و الخوارج, و المرجئة, و المعتزلة, و الجهمية, و الضرارية, و الحسينية, و البكرية, و العامة, و اصحاب الحديث, و الكلابية" ثم يفصل. و يذكر ايضا ان "أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين- بعد نبيهم صلى الله عليه و سلم- اختلافهم في الامامة" ثم يفرع اختلافات الامة اللاحقة بناء على الاختلافات التي وقعت في عهد ابوبكر و عثمان و علي.

و هنا يلفت نظرنا أمور. اذا اخذنا بظاهر قول الشيخ الاشعري هنا, فانه يظهر ان اصل الخلافات بين المسلمين هي خلافات "سياسية" بالمعنى المعاصر. اي ان اصلها هو مسالة الحكم, اي الامامة في بعدها الاجتماعي الظاهري الحكومي. و بدأ هذا في انقسام الصحابة الى ثلاثة احزاب كبرى في بادئ الامر, حزب الانصار و حزب المهاجرين, و حزب الهاشميين. ثم تنازل من تنازل, و اتقى من اتقى, و حدث ما يعرفه دارسوا التاريخ مما لا يهمنا هنا. و لكن ما يهمنا هو ارجاع اصل الخلافات كلها الى الخلاف على الحكم السياسي(اي ما هي الشروط الواجب توفرها في الحاكم السياسي- و ليس اسم هذا ذاك الحاكم كما يتوهم من ينظر الى السطوح و يعتقد ان المساله هي خلاف في شخص ابوبكر او علي و ما شابه. المساله اكبر من ذلك). فكأن الاختلاف في العقائد و الشرائع ما هوالا صدى للاختلاف في السياسة. فهل فعلا هذا هو الحال؟ هل كل اهتمامهم كان التربع على الكرسي, فشقوا الأمة الى أحزاب و فرق تضلل بعضها بعضا, و يبرأ بعضها من بعض؟ الظاهر هو هذا. و لي هنا تعليق واحد و ننتقل الى المسألة الاخرى: هل مثل هؤلاء يصح ان يسموا ب "خير القرون"؟ ان كانوا هم خير القرون, فلا جرم أن التقاتل على السياسة و الشهرة و الدنيا أصبح رمزا للفخر و دليلا على العظمة بين عامة الأمة. فانما يستمد الناس قيمهم من الناس الذين يعظمونهم. قل لي من تعظّم أقل لك من أنت و ما هو مصيرك.

ملاحظتي الثانية هي أن الاشعري كتب ان هذه الفرق و الاحزاب ضللت بعضها بعضا, و برئ بعضها من بعض, و نزيده فنقول انهم كفروا بعضهم بعضا و لعن بعضهم بعضا و قتل بعضهم بعضا, و اتخذ بعضهم سب الاخر على المنابر سنة دينية, و مع ذلك يقول الاشعري "الا أن الاسلام يجمعهم و يشتمل عليهم" ! أي اسلام بالضبط؟ لو تقرأ بعض مقالات هذه الفرق "الاسلامية" فانك ستصاب بالدهشة, و بالاعجاب احيانا لمدى سعة خيال و جرأة و توليد الافكار العجيب في ذلك الزمن. و عقائد هذه الفرق فيها من الامور ما لا يمكن لاحد من الناس في يومنا هذا ان يجرؤ أن يشير الى مثله في العلن. و قد كانت اراؤهم هذه صريحة ومعلنة و معروفة, و من هنا جاء كتاب (مقالات

الاسلاميين) و هو من الكتب التي اؤلفت في نحو القرون الثلاثة الاولى بعد الهجرة. ففعلا لا ادري عن اي اسلام يتحدث هذا الشيخ رحمه الله. فما هو العامل المشترك بين كل هذه الفرق حتى يقال ان "الاسلام يجمعهم و يشملهم"؟ بداية من عقيدتهم في الله, الى النبوة الى الاخرة الى الشريعة كلها فيها اراء تتباين من الضد الى الضد. و من الاراء اللطيفة التي وقعت عيني عليها و انا أكتب الان رأي يقول ان الميتة و الدم و لحم الخنزير ليسوا طعاما و انما هي رموز على اسماء أشخاص معينين حرم الله سبحانه علينا ان نتولاهم و نتبعهم , و اما الميتة و الدم و لحم الخنزير المتعارف عليهم بين الناس, اي هذه الحيوانات الجسمانية المعروفة, فهذه كلها حلال, فان الله أكرم من ان يحرم علينا أكل ما نتقوى به ! و قس على ذلك بقية الشريعة! و أما في باب العقيدة فوقعت على رأي أيضا طريف يقول صاحبه أن قائدهم و صاحبهم و اسمه المغيرة, هو نبي, و انه يعلم اسم الله الاكبر, و ان معبودهم – اي الله تعالى- رجل من نور على رأسه تاج و له من الاعضاء و الخلق مثل ما للرجل, و له جوف و قلب تنبع منه الحكمة! فان كان مثل هؤلاء يسعهم الاسلام و يشملهم, فيا لسعة الاسلام و انفتاحه !! يستطيع دعاة الاسلام المنفتح ان يستغلوا مقولة الاشعري هذه, و كونه جعل كل الفرق و الاحزاب المختلفة يدخلون تحت الاسلام و يشملهم الاسلام, ان يستغلوا هذا استغلالا لا بأس به.

فالأشعري أكد أن كل هذه الفرق تحت الاسلام بثلاثة أدلة موجودة في كتابه: اولا عنوان الكتاب نفسه (اختلاف الاسلاميين) و هذا واضح. و ثانيا في قوله "الاسلام يجمعهم و يشتمل عليهم" بعد ذكره لافتراقهم و اختلافهم و تضليل بعضهم لبعض. و ثالثا قوله "اختلف المسلمون" قبل تعداده للفرق العشرة التي ذكرها, فهو سماهم "مسلمون" ثم عددّهم بالتعداد الاجمالي الذي نقلناه. (مع ملاحظة انه لم يعتبر "أهل السنة و الجماعة" من الفرق! فلعله يراها الاسلام الصحيح الذي اختلف عنه و افترق عنه بقية الاسلامين الزائغين عن الحق. و لنغض الطرف عن هذا التعصب الفارغ و نكمل). فاذن الاشعري بهذه الادلة الثلاثة, و التي يكفي واحد منها لاثبات المطلوب, قد أقر بان كل هذه الفرق التي سيذكرها تدخل تحت بند "الاسلاميين". بالرغم من أن بعضهم كما رأينا يجعل الله رجل في السماء, و ينكر الشريعة الظاهرية كلها. و لا ادري كما قلت ما هو تعليل هذا بالنسبة له. و لا ادري اي اسلام هذا الذي يجمعهم. و بعض هذه الفرق التي يذكرها لها راي عجيب, تقول ان علي بن ابي طالب هو الله, و يكذبون النبي محمد و يشتمونه, و يقولون ان : علي ارسل محمد ليبين للناس امر علي فزاغ محمد عن هذا الامر العلوي و ادعى الامر لنفسه. و يوجد الكثير من امثال هذه الاراء في ثنايا كتابه هذا. و ان كان الذي يقول بان علي هو الله و يشتم محمد و يرميه بخيانة الامانة الالهية (او العلوية في هذه الحالة) ان كان مثل هذا معدود في الاسلاميين, فنرجو ان يبين لنا الاشعري من هو الغير معدود في الاسلاميين الذين "يجمعهم الاسلام و يشملهم". فمعياره في " أسلمة " الانسان غير واضح بتاتا. بل اني لم أجد انه حدد مثل هذا المعيار في كتابه كله. فكان المفترض أن يبدأ كتابه بتحدد المعيار الذي على اساسه سيعتبر الشخص او الفرقة ضمن الاسلام, و يثبت حجية اختياره لهذا المعيار بالذات أيا كان مضمونه, ثم يبدأ في تعداد الفرق. و لكن الشيخ الاشعري لم يفعل هذا, و انما بدأ فورا بعد الحمد و الصلاة على النبي, بذكر ان الامة اختلفت, ثم يبدأ في تبيان أصل هذا الاختلاف في عصر الصحابة, ثم يبدأ في تعداد الفرق تفصيليا. فاستشفاف المعيار الذي اتخذه الاشعري يحتاج الى قراءة دقيقة لكتابه كله, ثم استشعار العامل المشترك بين كل هذه الفرق بلا استثناء, ثم اعتبار هذا العامل هو معيار الأسلمة عند الأشعري. و اني صراحة لا أملك الرغبة للقيام بمثل هذا العمل. و لكن الحدس يخبرني بان الاشعري يعتبر كل من استعمل لفظة اسلامية فهو من الاسلاميين. فمن تحدث بلغة الاسلام, و استعمل "الله..القرءان..محمد..علي..الخ" مهما كان

اعتقاده في مضمون هذه الالفاظ, فانه يعتبر اسلاميا. فمن يستعمل مفردات اسلامية فهو اسلامي.ثم بعد ذلك ليعتقد ما يشاء في مضمون هذه الالفاظ. فالمعيار صوري اذن. صوري لا جوهري. و فعلا, فالعامل المشترك الوحيد بين كل هذه الفرق و المقالات هو هذه المفردات الاسلامية الموجودة في القرءان و تاريخ الاسلام. فيمكن أن نوجز مبدأ الاشعري بهذا البيان "من استعمل كلماتنا فهو منّا". و هو مبدأ يثير الاعجاب حقا. و يحوي دلالات كثيرة تحتاج الى تعمق اكثر. و لكن لننظر في كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي لنرى ما قوله في هذه المسألة.

البغدادي أكثر جرأة و صفاقة من صاحبه الأشعري. فالبغدادي يبدأ كتابه فورا بالتصريح بانه هو و فرقته من أهل السنة عموما هم الفرقة الناجية و ان كل الفرق الاخرى في الهاوية و النار الحامية.

و يذكر البغدادي ان الافتراق المذموم انما هو الافتراق في مسائل العقيدة, و اما اختلاف الفقهاء في الفروع الفقهية فليس اختلافا مذموما. و هذا الرأي الأبله يعتقده الكثير من الناس بالرغم من انه غير مبرر بالمرة بل و سخيف و يناقض وقائع التاريخ البعيدة و القريبة. فان السبب الذي يبرر اختلاف الناس في الفروع الفقهية هو نفس السبب الذي يجعلهم يفترقون في الاصول العقدية الايمانية. بل ان الاختلاف في العقائد مبرر أكثر من الافتراق بسبب الاختلاف في الفروع العملية. فما السبب في الاختلاف في الفروع؟ الاصل انه خفاء معنى النص او وجود النص نفسه. و هذا يؤدي الى كل الاختلافات الاخرى سواء كانت من حيث المنهج المتبع او الاراء الاخرى. فالمشكلة في اساسها مشكلة النصوص. و هذه المشكلة هي عينها المشكلة في الاختلاف في اصول العقيدة. و لا يوجد سبب واحد محترم يتفهم و يبرر الاختلاف في الاحكام الشرعية و لا يبرر الاختلاف في الاصول الايمانية. كل ما يذكر هناك يذكر هنا. هذا أولا. و ثانيا, انهم يصورون لعوام الناس بان الاختلاف بين المذهب الحنفي و الشافعي والحنبلي و المالكي هو اختلاف تنوع و رحمة و أنه لا يمكن ان يسبب افتراقا مذموما في الامة و لا يسبب عداوة و بغضاء بين اصحاب المذاهب. و هذا أبعد ما يكون عن الصواب و المنطق. و من له اطلاع على بعض المجازر التي كانت تقع أحيانا بين أتباع هذه المذاهب المختلفة لعرف سخافة هذا الادعاء الذي يروجون له اليوم. بل منذ عهد ليس ببعيد كانت الصلاة في مسجد مكة الحرام مقسمة الى المذاهب الاربعة, بحسب اوجه هذه الكعبة الاربعة, فامام الحنفية يصلي في جهة و امام الحنابلة يصلي في جهة اخرى, هكذا أخبرني بعض أهل مكة من الكبراء.و أحسب ان هذه الظاهرة كانت معروفة و ليست بالامر الخافي. بل حتى اذا دخلنا في تفاصيل الاختلافات الفقهية سنجد انه لا يمكن بحال اعتبار صحتها جميعا او انها مقبولة على حد سواء او انها لا تسبب شحناء و عداوة بين اتباعها, فانظر مثلا في مسألة تزويج المراة الثيب لنفسها. فعند الاحناف يجوز لها أن تزوج نفسها بدون ولي, فهي ولية نفسها, اي هي الولي, فالزواج يتم بولي و لكنه هو هي. و أما عند الحنابلة مثلا فالتي تزوج نفسها بنفسها تعتبر عاهرة ! و هذا عندهم بنص من النبي ! حكى لي دكتور في الجامعة أن شيخا حنبليا في عصرنا هذا سافر مع أحد الأثرياء الى المغرب العربي, و كانت الرحلة في طائرة هذا الثري الخاصة, و المراة المضيفة التي تعمل في الطائرة كانت امراة شديدة الجمال, حتى ان الشيخ الحنبلي بدأ يفقد اعصابه من شدة هيجانه , فبعد أن فقد قدرته على الصبر أمسك بيد المراة (العاهرة بالمناسبة) و قال للمراة " زوجيني نفسك !" فصاحبنا انقلب حنفيا من أجل ان يستطيع أن ينطح هذه المراة بدون ولي. على اية حال, بسبب هذه الخلافات في شروط الزواج مثلا, فان مسألة (هل يجوز للحنفي ان يتزوج شافعية..او هل يجوز للشافعي ان يتزوج حنفية..الخ) كانت من المسائل المطروحة للبحث الفقهي في دائرة المذهب. و تصور أن امراة مسلمة سنية حنفية تتزوج بحسب مذهبها فتزوج نفسها لرجل مسلم ايا كان مذهبه, فيكون هذا الزواج بالنسبة للمسلم السني الحنبلي زواجا باطلا و المراة في حكم العاهرة لانها زوجت نفسها بنفسها.

ثم بعد هذا لا ياتي مغفل و يقول بان الاختلاف في الفروع الفقهية هو مسألة هينة دائما و هي "رحمة" للامة و ما أشبه. و ثالثا القرءان لم يفرق بين اصول و فروع, و انما هذا التقسيم (العلماني!) جاء لاحقا و هو تقسيم طارئ على الدين. بل ان جذوره ترجع الى رجال السياسة الذين كانوا افسق خلق الله من حيث العمل, فاذا حاكمهم الناس بحسب اعمالهم لهلكوا و لكفروهم, فاختلقوا هذا التقسيم, و اصبح الدين قائم على من "يعتقد" بامور معينة, طبعا لا سبيل الى شق قلب الرجل و معرفة ما فيه فكل ما يقول انه يؤمن به فلا مجال لرده, و أما الاعمال فمسألة اخرى. و هذا غيض من فيض. فاذن, دعوى بان الافتراق المذموم هو الاختلاف في الاصول, دعوى باطلة جذرا و اصلا و صورة. فجذرها غير قرءاني, و اصلها مشترك بين الاصول و الفروع و صورتها مرفوضة حتى بالنسبة لمن يعتقد بها ان انصف من نفسه قليلا و نظر. (و ليس الخلاف المحتد في نكاح المتعه او صوره الدوله الاسلاميه او ما شابه عنكم ببعيد - و هي كلها مسائل "فرعيه" فتامل).

و أخيرا يذكر البغدادي رأيه تفصيليا في من يحق له أن ينسب الى الاسلام , و هو تفصيل غريب لا نعرف عليه دليلا من قرءان او سنة او غير ذلك, و لكن لا بأس فقد تعودنا ان كل عالم يختلق الدين الذي يريده ثم يقول انه عين الاسلام الذي لا يختلف عليه العقلاء. يقول البغدادي و الرأي طويل نسبيا و لكنه مهم و هو في صلب المسألة, يكتب البغدادي:

" أمة الاسلام تجمع المقرين بحدوث العالم و توحيد صانعه و قدمه و صفاته و عدله و حكمته و نفي التشبيه عنه, و بنبوة محمد صلى الله عليه و سلم و رسالته الى الكافة و بتأبيد شريعته و بان كل ما جاء به حق, و بأن القران منبع أحكام الشريعة, و أن الكعبة هي القبلة التي تجب الصلاة اليها. فكل من أقر بذلك كله و لم يشبه ببدعة تؤدي الى الكفر فهو السني الموحد.

و ان ضم الى الاقوال بما ذكرناه بدعة شنعاء نظر:

فان كان على بدعة الباطنية أو البيانية أو المغيرية أو الخطابية الذين يعتقدون الهية الأئمة أو الهية بعض الأئمة أو كان على مذهب الحلول او على بعض مذاهب أهل التناسخ أو على مذهب الميمونية من الخوارج الذين أباحوا نكاح بنات البنات و بنات البنين أو على مذهب اليزيدية من الاباضية في قولها بان شريعة الاسلام تنسخ في اخر الزمان أو أباح ما نص القران على تحريمه أو حرم ما أباحه القران نصا لا يحتمل التأويل, فليس هو من أمة الاسلام و لا كرامة.

و ان كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة او الخوارج أو الرافضة الامامية او الزيدية أو من بدع النجارية أو الجهمية أو الضرارية أو المجسمة, فهو مع الأمة في بعض الأحكام: و هو جواز دفنه في مقابر المسلمين,و في أن لا يمنع حظه من الفئ و الغنيمة ان غزا مع المسلمين و في أن لا يمنع من الصلاة في المساجد. و ليس من الأمة في أحكام سواها: و ذلك أنه لا تجوز الصلاة عليه و لا خلفه, و لا تحل ذبيحته و لا نكاحه لامراة سنية و لا يحل للسني أن يتزوج منهم اذا كانت على اعتقادهم "

أقول: فاذن للاسلام عند البغدادي أربعة أركان عامة, التوحيد بشروطه, و النبوة بشروطه, و القران بشروطه, و الكعبة بشروطه. و كلمة "بشروطه" يعني بحسب ما يراه البغدادي هو الحق في مضمون هذه الكلمات. اذ معظم الفرق عامة ان لم يكن كلها تستعمل هذه الكلمات و لكنهم يختلفون في مضمونها كما ذكرنا من قبل. و هنا أتعجب من أن البغدادي لم يذكر شئ عن يوم القيامة و الاخرة, و لم يذكر شئ عن الصحابة و ابوبكر و عمر و افضلية العشرة و عدم جواز الطعن في الصحابة جملة و تفصيلا و لم يذكر شيئا عن صحيح البخاري و مسلم و بقية العقائد التي تنسب الى "اهل السنة و الجماعة". فالاسلام يكفي فيه بحسب هذا النص أربعة امور: التوحيد و النبوة و الكتاب و الكعبة. بالتفصيلات التي ذكرها طبعا.

و يوجد ملاحظات على الفرق التي شاء البغدادي- سبحانه و تعالى !- أن يخرجها من الاسلام و لا كرامة. فمثلا فرقة الميمونية من الخوارج يظهر انه أخرجها من جنته لانهم "اباحوا نكاح بنات البنات و بنات البنين" و هذا رأي فقهي فرعي فلماذا أخرجهم من الاسلام كله و لا كرامة؟ ويظهر انهم استحلوا نكاح بنات البنات و بنات البنين بسبب نظرة خاصة لاية محرمات النكاح في سورة النساء. فقول الله "و بناتكم" هل يشمل بنات البنات أم لا؟ يوجد رأي يقول انه يشملها و يظهر ان هذه الفرقة لم ترى ذلك. و يوجد نظير هذه المسألة في الميراث. فالاية تقول "اباءكم...ابناءكم" فهل ابن الابن يدخل في الميراث و هل اب الاب يدخل في الميراث؟ فكان زيد بن ثابت يرى بان ابن الابن يدخل و لكن اب الاب لا يدخل, و نقل عن ابن عباس انه قال ما معناه : الا يتقي الله زيد بن ثابت, يلحق ابن الابن بالابن و لا يلحق اب الاب بالاب. بل انه كان واثقا لدرجة انه كان يريد ان يباهل من يخالفه في اجتهاده هذا عند الكعبة فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين. فكون كلمة "الاب" تشمل اب الاب, توازي كون كلمة "بنت" تشمل بنت البنت, فاصل المسألة واحد. و يظهر ان هذه الفرقة المسماة بالميمونية رأت انها لا تشمل كما راى زيد بن ثابت ان "الاب" لا تشمل اب الاب. و مهما يكن, فهل يجوز اخراج فرقة كاملة من الاسلام بسبب خلاف فقهي مثل هذا. يجيب عن هذا من يفرقون بين الاصول و الفروع. مع ملاحظه ان البغدادي جل و علا قد ادخل "المجسمه" في نطاق اسلامه. فان كان الذين يجسمون الله تعالى من الاسلام او لهم بعض احكام المسلمين، و لكن الذين يرون نكاح بنات البنات خارجه، فاي عقل ينتج مثل هذه التفريقات لا ادري.

و مثلا فرقة المغيرية, نرى البغدادي هنا اخرجها من الاسلام مطلقا, و اما الاشعري فانه اعتبرها احد فرق الاسلاميين و ذكرها تحت فرق الشيعة التي اعتبرها من "المسلمون". فيظهر ان سعة رحمة الاشعري أوسع من رحمة البغدادي.

و قول اليزيدية من الاباضية بان "شريعة الاسلام تنسخ في اخر الزمان" هل تستحق فرقة كاملة بان تخرج من الاسلام و تعامل كالكفار تماما, بسبب رأي مثل هذا ؟ و كان اخر الزمان غدا فيجب ان نمحق هذه الفرقة من الوجود قبل ان ياتي الغد و يصدق الناس بهذه العقيدة الكافرة فيختل نظام اخر الزمان! اي عزيزي لو صح ما يقال في اخر الزمان فلا يزيدية و لا أبو اليزيدية يستطيع أن يؤثر في الوجود. و كان المهدي و عيسى المسيح سيواجهوا المشكلات بسبب هذه العقيدة اليزيدية. ثم أيا كان, فقد يكون لهم تبريرهم و تأويلهم لهذه العقيدة, فكيف جاز ان يكفرهم مطلقا و لا كرامة.

ثم ننتقل الى الفرق المبتدعة و ليس الكافرة. و هذا يسبب اشكال كبير لبعض الفرق خاصة السلفية الوهابية اليوم الذين يكفرون الرافضة تكفيرا ليس بعده تكفير فضلا عن الفرق الاخرى. فالبغدادي يعد الرافضة الامامية (الشيعة الامامية) من المبتدعة. فهم "مع الأمة" من جانب و ليسوا معهم من جانب اخر. اي انهم "نصف مسلمون" ان صح

التعبير. و كيف صح له هذا التقسيم لا ندري. يروي عن علي بن ابي طالب انه حكم بهذا الحكم مع الخوارج. فقاس عليه حكم بقية الفرق المبتدعة كالمعتزلة و الشيعة. و من عجائب الزمان أن يحكم على شيعة علي بحكم أصدره علي في حق اعداء علي. ثم نرى التعصب الارعن للبغدادي الذي يحكم بسببه و يقول " لا تحل ذبيحته و لا نكاحه لامراة سنية و لا يحل للسني ان يتزوج منهم اذا كانت على اعتقادهم". اي ان المسلم المعتزلي و الشيعي الامامي و الزيدي مثلا, هؤلاء لا يحل للمسلم السني ان ياكل ذبيحتهم و يتزوج امراة منهم. القرءان -حسب تفاسير اهل السنة و سلوكهم على مر العصور- يبيح للمسلم ان ياكل من ذبيحة اليهودي و النصراني, و يتزوج امراة يهودية و نصرانية, فأي تعصب أعمى هذا يجعل الشيخ السني يفتي بانه لا تجوز ذبيحة الشيعي و المعتزلي و التزوج منهم. ايكون اليهودي أقرب الى السني من الشيعي ! فعلا قد يكونوا كذلك. و اللبيب بالاشارة يفهم. فتزوج اليهودية العنصرية التي تكفر بمحمد و رب محمد و قران محمد و كعبة محمد و دين محمد اصلا و فصلا و جملة و تفصيلا, هذه يجوز نكاحها للسني و يجوز اكل ذبيحتها, و أما المراة الشيعية المسلمة لله و المؤمنة برسول الله و المسلمة لكتاب الله المتدبرة في امر الله الساعية في مرضاة الله فهذه لا يجوز للسني التقي أن يتزوجها بحسب البغدادي, و لا يجوز أكل ذبائحهم. و مثلا, هو يحرم الصلاة خلف الشيعي و المعتزلي و الزيدي, و لكن مع ذلك فانه - بحكم كونه سنيا- يأمر بالصلاة خلف الامام الفاجر الظالم. فالعالم الشيعي الرباني العادل الزاهد لا تجوز الصلاة خلفه , و لكن الطاغوت الأموي الذي يصلي الفجر أربع ركعات و هو سكران ثم يلتفت و يقترح على الناس "هل أزيدكم؟!" هذا تجوز الصلاة خلفه لانه لم يظهر كفرا بواح! و لا أريد أن أكثر من مناقشة هذا التافه البغدادي الأخرق الذي يزعم بانه يشرع للاسلام و المسلمين و انه يحدد معيار معرفة من ينضوي تحت مظلة الاسلام و من يخرج منها.

و حتى اذا نظرنا في الامور الاربعة التي جعلها معيارا لمعرفة المسلم من دونه, فبأي حق أدخل الايمان بالكعبة و التوجه اليها في الصلاة , و أخرج الكثير من الامور و الافعال الجوهرية في القرءان , كالقيام بالقسط في المجتمع, فان الظلم هو الكفر عند الله, فبأي حق يجعل الصلاة للكعبة معيارا للاسلام و لا يجعل العدل الاجتماعي معيارا له. و حتى اذا أتينا الى تفاصيل الامور الاربعة فانك ستجدها امور تحتاج الى اجتهاد في التفكر و التعمق في النصوص, و هذا في الغالب الاعم يسبب اختلافا بنحو من الانحاء, خاصة بسبب دخول عقائد خارجة عن القرءان و الاعتماد على نصوص غير القرءان في فهم النص القرءاني. فهل اختيار البغدادي هنا الا تعسف و تحكم و تشهي. فمعيار الأسلمة عند البغدادي يمكن تلخيصه في هذا البيان "من انضم لمذهبي و لم يخالف ما أشتهي فهو اسلامي".

فاذن, نخلص من هذه الجولة مع الأشعري و البغدادي الى نتيجة و هي ان معيار الأسلمة ليس قاطعا و مستندا الى أمر راسخ. فالأشعري يبني على أساس أن "من استعمل كلماتنا فهو منّا", و البغدادي يبني على أساس "من انضم لمذهبي و لم يخالف ما أشتهي فهو اسلامي". و الظاهر أن هذين المبدأين هما اللذان يحكمان العالم الاسلامي عموما منذ القدم الى يومنا هذا. فالناس اما في طرف مبدأ الاشعري, او في الطرف المقابل عند مبدأ البغدادي. او متوسطين بين هذا و ذاك مع ميل الى احدهما بحسب المزاج و الظروف. الحق انه يوجد مبدأ ثالث يقول "مذهبي هو الاسلام و ما عداه فهو شيطان". و هذا هو الرأي العملي لعموم الناس بل حتى لخواصهم و لكن الخواص يحسنوا المراوغة و التساهل أحيانا لسبب او لاخر و لمصلحة او لاخرى.

فنحن بين ثلاثة مبادئ تتصارع حول تعريف الاسلام:

الاول "من استعمل كلماتنا فهو منّا "

الثاني " من انضم لمذهبي و لم يخالف ما اشتهي فهو اسلامي"

الثالث " مذهبي هو الاسلام و ما عداه فهو شيطان".

أما الاول فيجعل الاسلام عدما. و اما الثاني فيجعل الاسلام عبثا. و اما الثالث فيجعل الاسلام طاغوتا. فاختاروا احبها اليكم. و الاجماع لا يمكن تصوره الا في الحالة الثانية و الثالثة, لانه في هذه الحالة لن يلتفتوا الى أي مخالف لهم اصلا, فسيكون اجماعهم المزعوم هو من باب خنق اصوات المعارضة. فهو توهم الاجماع و ليس اجماع. و العامل المشترك بين هذه المبادئ الثلاثة و أصحابها أنهم لم يعتمدوا على تعريف الاسلام كما جاء في القرءان, بل لم يلتفتوا الى قول القرءان في الأمر. فهم لم يجمعوا كل الايات التي تذكر الاسلام في كتاب الله ثم يجتهدوا في دراستها ثم يخرجوا بأسس الاسلام و ملامحه كما كتبها رب الاسلام. مثل هذا السعي الجاد غير موجود. و انما الموجود هو اقتباس لاية من هنا و اية من هناك احيانا, و حتى فهم هذه الاية يكون محشوا بالمسبقات المذهبية الحزبية الفكرية و المنهجية, هذا ان وجد التفات اصلا. و اما الدراسة الجدية الشاملة المتعمقة الغير متحيزة مطلقا, و اشدد على مطلقا, و اقصد بعدم التحيز ان لا يبالي باي نتيجة سيخرج لانه لا ينتمي الى فرقة من هذه الفرق "الاسلامية" اصلا. لا تنتمي الى اي فرقة, افهم اللغة العربية, قل بسم الله, ثم ادخل القرءان و ادرسه, ثم أرنا النتيجة التي ستخرج بها. مثل هذا السعي لم يحصل من قبل. و لا يمكن أن يقع من قبل شخص ينتمي الى احدى هذه الفرق الاسلامية. بعض المنتمون لهذه الفرق يزعم بانه سيقوم ب "دراسة موضوعية" لمسألة من المسائل من كتاب الله. و هذا فعلا شئ مضحك بل مؤسف. بل من المحزن أن يكون بين بني الانسان من يخدع نفسه بهذه الطريقة و هو يظن أنه على الصراط المستقيم الذي لا يختلف عليه العلماء. يستحيل- ضع سبعين الف خط أحمر تحت كلمة"يستحيل" ان يقوم بدراسة موضوعية للقرءان من ينتمي الى اي فرقة اسلامية من هذه الفرق. بل و ان كان ينتمي الى اي فرقة غير اسلامية ايضا. اذ الفرقة عقائدها جاهزة. و انتمائك يعني انك قبلت هذه العقائد. و بالتالي فانك لن تستطيع أن ترى القرءان, قد ترغب في ذلك و تكون فعلا صاحب نية مخلصة, و لكنك لن تستطيع. و من هنا قول الله تعالى " الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري و كانوا لا يستطيعون سمعا" لاحظ أن الغطاء يأتي اولا, ثم تنعدم الاستطاعة على السمع. و ليس ينعدم السمع, او تنعدم الرغبة في السمع. بل نفس الاستطاعة على السمع تنعدم. و هذا حال صاحب العقيدة و الفرقة الجاهزة.

يوجد من يقول " الاسلام الصحيح ما كان عليه الرسول و الصحابة" و يظن هذا الصبي ان مثل هذا الكلام له وزن عند اهل الفكر و العلم. يا عزيزي: انت لم تعرف ان هذا هو الاسلام "الصحيح" الا بسبب انتمائك الى فرقة علمتك ان هذا هو معيار الاسلام الصحيح. هل تفهم هذا أم أنك من ياجوج و مأجوج الذين لا يكادون يفقهون قولا.

و يقول البعض الاخر "من أنكر معلوما من الدين بالضرورة خرج من الاسلام" و يظهر أن هذا الصبي صديق الصبي الاول. فيا عزيزي, يا حبيبي, أنت تنتمي الى فرقة تقول بان شيئا ما او امر ما هو من المعلوم من الدين بالضرورة و لكن هذا الامر ليس معلوما من الدين بالضرورة بل و غير معلوم من الدين أصلا بل مرفوض في الدين عند فرقة أخرى. ألا تستيقظوا و تكفوا عن اطلاق مثل هذه الافكار الطفولية. و العجيب ان كثير من "العلماء و الدعاة" يعتقدون فعلا بهاتين المقولتين. فهم يصولون و يجولون بفكرة عدم مخالفة الصحابة و بالمعلوم من الدين بالضرورة. و المضحك أن الصحابة نفسهم قد لعن بعضهم بعضا و كفر بعضهم بعضا و قتل بعضهم بعضا و اختلفوا اختلافا عظيما و منهم من ارتد على أدباره القهقرى, فلا ندري بماذا يهذي هؤلاء. و أما المعلوم من الدين بالضرورة, فيكاد هؤلاء يلحقون اي شئ بهذا الامر. فكلما أعيتهم الحجة في شئ استعملوا احد الاجوبة الثلاثة الجاهزة عندهم تحت الطلب: اجمعت الامة, هذا ما كان عليه الصحابة, و هذا معلوم من الدين بالضرورة. و لا ندري عن اي دين يتحدث هؤلاء و عن اي ضرورة. فهل دين الشيعة الامامية الذين يرون الولاية من المعلوم من الدين بالضرورة و ان ابوبكر غاصب لحق علي ايضا من المعلوم من الدين بالضرورة, أم يا ترى دين المجسمة الذين يرون الله شئ كالرجل يجلس على سطح بناية العالم فوق الطابق السابع للعمارة الكونيه, و يرون كون الله محدودا و جسما معلوم من الدين بالضرورة. ام ماذا بالضبط. أها نعم, كل ما يقوله مذهبنا فهو من المعلوم من الدين بالضرورة. نعم نعم, هذا هو المعيار. سامحونا فقد نسينا أنكم من هذا الصنف من البشر.

على اية حال, فلا طائل وراء هذا الطريق الثاني أيضا كما رأينا. فلا تعريف المسلم بالنظر الى اركان الاسلام, و لا بالنظر في كتب الفرق الاسلامية, يمكن ان ينتجا أي أمر له قيمة و رسوخ. و في ظل وجود هذه الفرق و المذاهب فانه لا فائدة أصلا من ذكر تعريف القرءان الكريم للمسلم . فحتى لو عرفوه فانهم لن يستطيعوا ان يعملوا بمقتضاه. لانه كالعادة, القرءان ينسف الجبال نسفا. و هؤلاء لن يرضوا بنسف جبالهم. و هذه الفقرة رد من زاوية أخرى على الهذر المسمى "اجماع".

و وجدت محاولة جميلة في تعريف المسلم في كتاب "بداية المجتهد" للفيلسوف القاضي ابن رشد- رحمه الله.و ان كانت محاولة غير مباشرة, و لكن أحسب أن لها مدخلا في هذا الموضع. و ذلك من باب:التعريف بالنقيض. بمعنى, أنه اذا عرفنا من هو المرتد عن الاسلام, او ما هي الامور التي تنفي اعتبار الشخص كمسلم, فاننا اذا عكسنا هذه الأمور سنعرف المسلم. و يوجد باب اخر و هو: النظر فيمن تقام فيه احكام المسلمين. فمثلا الصلاة على الميت, فمن المعروف كمبدأ ان الصلاة على الميت شرعت من حيث الأصل على الميت ان كان مسلما. و بالتالي, اذا نظرنا في كتب فقه المذاهب في هذه المسألة بالتحديد فاننا يمكن أن نستنبط من هذا من هو المسلم في نظر الفقيه الشرعي عن طريق رأيه الذي كتبه او نقل عنه في هذه المسألة. و من هذا الباب أريد أن ننظر في ما كتبه ابن رشد- رحمه الله- لنرى رأيه .

كتب ابن رشد " و أجمع أهل العلم على اجازة الصلاة على كل من قال لا اله الا الله. و في ذلك أثر أنه قال عليه الصلاة و السلام: صلوا على من قال لا اله الا الله. و سواء كان من اهل الكبائر أو من أهل البدع.

الا أن مالكا كره لأهل الفضل الصلاة على أهل البدع, و لم يرى أن يصلي الامام على من قتله حدا.

و اختلفوا فيمن قتل نفسه : فرأى قوم أنه لا يصلى عليه, و أجاز آخرون الصلاة عليه.

و من العلماء من لم يجز الصلاة على أهل الكبائر , و لا على أهل البغي و البدع ".

أقول: ابن رشد يرى الرأي الأول الذي استشهد له بقول "و أجمع أهل العلم ". و بالرغم من أن الاثر الذي ذكره يقول الشيخ عبد الرزاق مهدي محقق الكتاب أنه " له طرق لكنها واهية, لا تقوم بها حجة " مع العلم أن الشيخ مهدي- بارك الله فيه-يظهر انه ممن ينتمي الى طائفة مشهورة بحب اخراج الناس من الاسلام و لهم شروط دقيقة جدا في اعتبار الشخص مسلما فالشيعة مثلا ليسوا حسب ما فهمت من بعض تعليقاته العنيفة, من الاسلام في شئ, او لعله يرى ذلك في طوائف كبيرة منهم. فمن المتوقع أن يعتبر هذا الأثر مما لا تقع به الحجة و لعل له تأويلا ما لو صح و عليه قيود. و لكننا لسنا هنا في مجال ذكر الشيخ مهدي(و أرجوا ان أكون مخطأ في فهمي لكلامه و مذهبه, و أستغفر الله و أرجو عفو الشيخ ان كنت قد أخطأت), و انما نحن مع القاضي العالم ابن رشد, فلنرجع. فرأي ابن رشد باختصار هو: تجوز الصلاة على كل من قال لا اله الا الله, على الاطلاق. سواء كان من أهل الكبائر, او من أهل البدع. اي بغض النظر عن عمله او اعتقاده. اذ الكبائر من شؤون العمل و الشريعه الفعليه، و البدع من شان الفكر و المسائل العقديه النظريه. فعندما يقول ان كل من يقول لا اله الا الله مسلم بغض النظر عن الكبائر و البدع يعني ان لكلمه لا اله الا الله قيمه ذاتيه لا تتاثر بالاعراض العقليه او الجسمانيه. و قيمتها الذاتيه هي التي تسبغ الاسلام على الشخص و تعصمه من الاخراج منه و من احكامه. ثم يذكر تفصيل موجز لسبب الاختلاف في هذه المسائل التي ذكرها. فلنذكر كل واحدة و نرى.

أما عن " السبب في اختلافهم في الصلاة. أما في أهل البدع : فلاختلافهم في تكفيرهم ببدعهم. فمن كفرهم بالتأويل البعيد: لم يجز الصلاة عليهم. و من لم يكفرهم- اذ كان الكفر عنده انما هو في تكذيب الرسول, لا تأويل أقواله عليه الصلاة و السلام- قال : الصلاة عليهم جائزة. و انما أجمع العلماء على ترك الصلاة على المنافقين مع تلفظهم بالشهادة لقوله تعالى (و لا تصل على أحد منهم مات أبدا و لا تقم على قبره). و أما اختلافهم في أهل الكبائر: فليس يمكن أن يكون له سبب الا من جهة اختلافهم في القول بالتكفير بالذنوب, لكن ليس هذا مذهب أهل السنة, فلذلك ليس ينبغي أن يمنع الفقهاء الصلاة على أهل الكبائر ".

أقول: يوجد اذن مذهب واسع في التكفير و مذهب ضيق. المذهب الواسع هو الذي يكفّر بالتأويل, أي اذا تأول مسلم معنى شئ ورد في كتاب الله او كلام نبيه عليه السلام, فصرفه الى معنى غير ما صرفه اليه غيره لسبب او لاخر, فان الذي يختلف مع صاحب المذهب الواسع في التكفير يدخل هؤلاء في دائرة الكفر مهما فعلوا بعد ذلك من أعمال الاسلام و الاحسان و لو قرأوا القرءان و بنوا المساجد و أقاموا العدل و القسط و صلوا و صاموا و حجوا و زكوا, فطالما أنهم تأولوا شيئا ب "تأويل بعيد" أي بعيد عن المعنى المعتاد و المفهوم السطحي للكلام عند أهل مرتبة معينة- متدنية على الاغلب- من أهل العلم. و بمثل أصحاب هذا المذهب يكفّر المسلمون بعضهم بعضا, و على الاغلب لا تخلوا فرقة من وجود طائفة من ارباب هذا المذهب بينهم. فهؤلاء هم الذين يكفرون من يفهم دين الله بغير ما فهموه هم. و لكن يوجد مذهب ثاني, و هو الذي قال عنه ابن رشد " الكفر عنده انما هو في تكذيب الرسول ". أي

الذي لا يعتبر سيدنا محمد رسولا من الله أصلا, لا جملة و لا تفصيلا. أو الذي يكّذب تماما بشئ ما من أمر الله و رسوله مع اقراره بان هذا الشئ من الله و رسوله و هو يرفضه بدون أي تأويل لهذا الرفض, فكمثل بسيط: من يعتقد ان النبي نهى عن التصوير, ثم يرفض العمل بمقتضى هذا النهي, فاذا سألناه: لماذا ؟ قال: لان النبي انما نهى عن التصوير في ذلك الزمن لان القوم كانوا حديثوا عهد بجاهلية و عبادة الاوثان و الصور فكان منعه لهم انما هو بسبب ظرفي و لعلة السجود للصور و اتخاذها كالهة او وسيلة لالهة, و اليوم نحن و لله الحمد مسلمون لا نعبد و لا نسجد الا لله تعالى و لا نعتقد بشئ من عقائد أهل الاوثان, فالظروف تغيرت و العلة زالت, و لذلك أنا لا أعمل بمقتضى هذا النهي من نبي الله عليه السلام. فهل مثل هذا يعتبر كافر مكذب بالنبي ؟! هل يستوي هذا مع من يقول: انا أرفض هذا النهي لانه نهي غبي لا معنى له ! حاشا لله. و الذين لا يفرقون بين الاثنين, هم من أرباب التكفير الواسع دائما, هم أنصار تحجير رحمة الله في زمان ما. فلسان حالهم لسان حال الاعرابي "اللهم ارحمني و محمدا و لا ترحم معنا أحدا ". و لكن أرباب المذهب الضيق جدا في التكفير هم من يقومون بكل ما بوسعهم لاعتبار الناس داخل دائرة الاسلام و رحمة الله الخاصة التي تنزلت على النبي عليه السلام و أمته بوراثة منه. فهؤلاء لا يعتبرون الكافر الا من "يكذب الرسول". تكذيبا محضا و باعراض تام. يعني مثل ابولهب و قارون و هامان أو كالملاحدة مثلا. و بديهي انه لا يوجد أحد ممن ينتمي الى حزب من الاحزاب الاسلامية يمكن ان يقرن بهؤلاء اذا نظرنا بجدية و بدون استعمال المجاز اللغوي و المبالغات في التعبير, أو قد يشبه بهم أحد من حيثية من حيثياتهم العملية او العقلية و لكن ليس من كل الحيثيات. فمثلا, يوجد فرق "اسلامية" تبرر كل طغيان يقع على المسلمين, و توجب عليهم القبول به و اعتبار الطاغية أمير المؤمنين و خليفة رب العالمين. فمثل هذه الفرقة لاشك أنها تشبه سحرة فرعون و جنوده الذين يعبدون الناس له و لطغيانه. فهذا التشبيه من حيثية لا يعني التشبيه من كل الحيثيات. اذ لو نظرنا الى هذه الفرقة فسنجد أن الكثير منهم ان لم يكن غالبيتهم ان لم يكن كلهم يعتقدون فعلا أن الله تعالى و رسوله عليه السلام قد أمروا بهذا القبول للطغيان و هذا الصبر عليه. و لهم في ذلك ايات و روايات و اثار و حجج عقلية و مصلحية. و هم في حياتهم الخاصة قد يكونوا ممن يجاهد فعلا لكسب مرضاة الله تعالى و التقرب اليه, و يرجون الاخرة, و يقومون الليل و يبكون بين يدي الله تعالى, و يحبون رسوله و يحبون كتابه العظيم, و يجاهدون قدر استطاعتهم لتطبيق ما يرون انه شريعة الله العادلة التي ترضي الله و تجلب الخير للناس و تدفع المفسدة عنهم, و يكونوا فعلا يعتقدون بكل ذلك من صميم قلوبهم و يكرسون له حياتهم, بل و يتعرضون للاضطهاد و التعذيب احيانا بسبب ذلك فيصبروا عليه من أجل رضا الله و رسوله, فمثل هؤلاء لا يمكن لمن له عقل و حس من عدل أن يقرنهم بفرعون و هامان و جنودهما الذين يعتبرون موسى مجرد ساحر مجنون افترى على الله كذبا من أجل أن ينال الكبرياء في الارض ! حاشا لله. أي علم و ايمان عندنا ان قمنا بمقارنة اخواننا في الدين بمثل هؤلاء, مهما اختلفنا معهم في بعض الأمور الكبيرة و الصغيرة. فتأمل هذا الفرق فانه عزيز.

و لذلك اتخذ ابن رشد الموقف الأوسع- اي الاوسع في قبول الناس في دائرة الاسلام- على ما يبدو منه هنا. و هكذا ينبغي أن يسير العلماء من المحققين عباد الرحمه الواسعه اي عباد الرحمن.

و لكن هنا مسألة : قد يقول الانسان "لا اله الا الله" و لكنه يكذب بهذا الرسول أي سيدنا محمد عليه السلام. فمن حيث العقل و الديانة هذا الأمر واقع. أما من حيث العقل فالأمر واضح اذ العلم بأن الخالق المطلق و المبدأ الأعلى واحد أحد هو مما تسالم عليه الكثير جدا من الناس على اختلاف أديانهم و طرقهم و مذاهبهم الفكرية و الروحية. و لكن ليس بالضرورة أن من يؤمن بالواحد المتعالي أن يؤمن بان فلان من الناس هو رسوله, بل ليس من الضروري أن

يؤمن بأن لله رسل أصلا- حسب ما يرون. و بالتالي هو يقول بلسان الحال: لا اله الا الله بل و بلسان المقال أحيانا مع الاخذ بعين الاعتبار اختلاف الألسنة طبعا. و لكنه يكذب بهذا الرسول او ذاك أو ينكر الرسالة أصلا. و يكون له في هذا الانكار الخاص او العام "تأويل" معين. فهو ليس عن هوى و لا عن تكذيب محض, بل هو مؤمن كل الايمان بانه اتبع الحق و سار على ما يرضي الله تعالى في انكاره الخاص او العام – اي انكاره لرسول مخصوص او لأصل الرسالة عموما. فمن أمثلة من يؤمن بلا اله الا الله و ينكر رسالة نبينا محمد أتباع الديانة اليهودية العبرانيه اذ أول وصاياهم "الرب الهك اله واحد", و من أمثلة من يؤمن بلا اله الا الله و ينكر كل الرسل المذهب المعروف بالربوبية, اي يؤمنون بالرب الواحد و لكن لا يؤمنون برسالة كما تقول الديانات اليهودية و اليسوعية و الاسلامية المحمدية. فقول ابن رشد " و أجمع أكثر أهل العلم على اجازة الصلاة على كل من قال لا اله الا الله, و في ذلك أثر انه قال عليه الصلاة و السلام: صلوا على من قال لا اله الا الله" مع النظر الى الاية القرءانية التي هي الأصل الأكبر في تعريف المسلم "ألا نعبد الا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون ". فالنفي الثلاثي- لا نعبد و لا نشرك و لا يتخذ- هو التوحيد في أعلى صوره. و هذه الاية تعرف المسلم بانه الموحد على هذا النحو. فلا يوجد فيها رسل و لا ملائكة و لا كتب و لا شئ من هذا القبيل. و انما هو العلم بالوحدة العليا للذات المطلقة سبحانه و تعالى. و بلسان الاسلام هي: قول لا اله الا الله. و في القرءان ايضا "انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون " و بالتالي من يقولون لا اله الا الله و يعلمونها فعلا و يتوجهون الى الواحد الاعلى سبحانه "بلى من أسلم وجهه لله و هو محسن" و لكنه لم يثبت عندهم ببرهان كاف وجود رسالة من نوع خاص او رسل على ما يقول بعض اهل الديانات. فهؤلاء ممن يقول "لا اله الا الله" و لكنهم ممن يكذبون الرسل. فأين موقع هؤلاء في ضوء عبارة ابن رشد , بل في ضوء القرءان أولا ؟ هذا مبحث مهم ينبغي اكماله. و لكن فيما يتعلق بهذا الكتاب, فاننا نختار فهم ما كتبه ابن رشد على انه يقصد من قال لا اله الا الله محمد رسول الله و يتأول ما يأتي به الرسول و لا يكذب به. و بالتالي يكون هذا هو تعريف المسلم عنده:

من قال لا اله الا الله محمد رسول الله, و يتأول كل ما يثبت عنده أنه جاء من الرسول.

فالقيد الأول "يتأول" هو ضد ان يكذب او يعرض عنه كما ذكرنا من قبل.

و القيد الثاني " ما يثبت عنده " هو ضد ما لم يثبت, فقد لا يرى المسلم ان النص الكذائي من عند الرسول, و تكون له حجة في ذلك و ليس انكار محض. و اما قوة هذه الحجة من ضعفها فلا يؤثر على اعتباره متأولا مصدقا اذ في هذا تختلف المناهج كما يختلف منهج الراوي الفلاني عن الراوي العلاني.

و أما ما ذكره ابن رشد عن عدم الصلاة على المنافقين باعتبار الاية الكريمة. فانه ليس لأحد اليوم أن يعين ان هذا منافق و هذا غير منافق بنحو الجزم و الفتوى. فلا مجال أصلا للعمل بمقتضى حكم "عدم الصلاة على المنافقين" . و ان فتح الباب لكل عالم او مفكر او شخص ان يحكم بالنفاق على من تبدر منه أعمال يراها هو تطبيقا لايات النفاق في القران او السنة ثم يحكم بانه منافق, فان هذا الباب سوف يلتهم كل الأمة فلا يبقى فيها أحد يصلي على أحد. اللهم الا الأعرابي صاحب "اللهم ارحمني و محمدا و لا ترحم معنا أحدا" فلعله في نهاية المطاف سيصلي على نفسه ثم ينتحر.

و أما ما ذكره من السبب في اختلافهم في الصلاة على أهل الكبائر, و علله بأنه من جهة اختلافهم في القول "بالتكفير بالذنوب" , ثم أنكر أن يكون مسلك التكفير بالذنوب من "مذهب أهل السنة" , ثم أفتى بأن لا يمنع الفقهاء الصلاة على أهل الكبائر. فهو يبين مذهبه في ذلك. فأهل الكبائر عنده من المسلمين أيضا.

أما العلة التي جعلت مالك بن أنس- رحمه الله- يكره صلاة أهل الفضل على أهل البدع, فيكتب ابن رشد "فذلك لمكان الزجر و العقوبة لهم". يظهر انه يقصد زجر الناس الأحياء عن التشبه بهم, و عقوبة الأموات المبتدعة من بركة صلاة أهل الفضل عليهم. و لكن الغريب في هذا التعليل هو كونه غير مفهوم او فيه نظر و ان كان له وجه في الحقيقه, بمعنى أن المبتدع أي الذي له مذهب غير مذهب مالك ابن انس مثلا في امور العلم او الحكم, سوف لن يبالي بعدم صلاة مالك عليه أصلا, فأي عقوبة اذن. و اذا اعتنق احد من المسلمين مذهب "بدعة" فان عدم صلاة مالك على أشباهه سوف لن تزجره لانه هو نفسه سيرى مالك مبتدعا لانه لا يعتقد ما يعتقد به هو . و لكن على أية حال هكذا علل ابن رشد. و أما العلة التي جعلت مالك لا يرى صلاة الامام – يقصد الحاكم او الوالي- على من قتله حدا , فهو بسبب رواية عن النبي فيها أنه لم يصل على ماعز- الذي يروى انه حكم برجمه بعد ان اعترف بالزنا. يروى أن النبي لم يصلي عليه و لكنه لم ينه من الصلاة عليه.أقول: فهو استنباط من مالك و تعميم لمضمون الرواية , و على فرض صحتها فلعله لم يصل عليه لسبب اخر, خصوصا و انهم يروون روايات ان النبي قام على قبر رأس النفاق فلم لا يصلي على صحابي مسلم مؤمن اعترف طائعا غير مكره بالزنا و طلب التطهير من ذنبه ؟ هذا يحتاج الى نظر.

أما علة اختلاف الفقهاء في الصلاة على من قتل نفسه, أي انتحر, فيروون في ذلك أثر أن النبي عليه السلام أبى أن يصلي على رجل قتل نفسه, فمن صحح هذا الاثر لم يصلي , و من لم يصححه أجاز الصلاة حتى على من ينتحر. ثم يكتب ابن رشد " و من لم يصححه- أي الأثر المروي- رأى أن حكمه حكم المسلمين, و ان كان من أهل النار كما ورد به الأثر, لكن ليس هو من المخلدين لكونه من أهل الايمان, و قد قال عليه الصلاة و السلام حكاية عن ربه: أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من الايمان " فالمنتحر المؤمن له حكم المسلمين و يعتبر من المؤمنين بالرغم من انتحاره. و هذا هو المذهب الذي يضيق في التكفير. و كما ذكرت و أعيد: كيف يصححون روايات أن النبي صلى على رأس النفاق الذي كان يحاربه و يستهزئ به و يسخر منه و يحرض عليه, و يرون أن رحمة النبي وسعت هذا , بالرغم من أن الله أخبره انه و لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر لهم فقال النبي كما يروون أنه سيستغفر أكثر من سبعين مرة, فكيف اتفق لهم و اتسق عندهم أن تسع رحمة النبي رأس النفاق و لا تسع مؤمنا اعترف بذنبه فرجم, و لا تسع مسلما قتل نفسه لانه لعله شعر بالتعاسة و القرف من هذه الدنيا ؟ فليتأمل هذا الموضع.

فاذن, ما نفهمه من مذهب ابن رشد هو التالي : من قال لا اله الا الله محمد رسول الله و تأول ما ثبت عنده أنه جاء من الرسول, يعتبر مسلما من أمة محمد, و لو قتل حدا, و لو قتل نفسه, و لو كان من أهل الكبائر, و لو كان من أهل البدع.

و الحق : ان هذا أوسع مذهب وقعت عليه عند القوم.

و بالتالي, الاجماع يجب أن يشمل كل هؤلاء حتى يكون "اجماع أمة محمد" حقا.

6. (الاجماع في مستصفى الامام الغزّالي)

كتاب المستصفى من علم الأصول للامام أبي حامد الغزّالي -رضوان الله عليه- هو من أهم كتب علم أصول الفقه على الاطلاق. و قد ألفّه الامام الغزّالي قبل وفاته بسنوات معدودة, أي بعد أن أنهى رحلته الفكرية و الصوفية و استقرت ارائه و رسخت نظرياته. و بعد أن درست رأي الغزالي في الاجماع من كتابه هذا رأيت أنه من المناسب و لزيادة الفائدة و التوسع في البحث أن ندرج فصلا خاصا لمناقشة هذه المسألة.

و مجمل القول في رأي الغزالي في المستصفى في مسألة الاجماع هو هذا: هو رأي متناقض متضارب يقوم على أسس ضعيفة. تناقضه كامن في ذاته, اي ان الغزالي يؤسس لفكرة في موضع من كتابه ثم ينسفها في موضع اخر, او ينسف مبدأ في موضع ثم يقيم أصلا على هذا المبدأ الذي نسفه قبل قليل, أو انه يترك مسائل هامة جدا و محورية بدون أن يتعرض لها بالبحث المعمق السليم بل يرسل الكلام على عواهنه و كأن المسألة مسلمة لاشية فيها. و وصفه للاجماع كأصل من أصول الشريعة هو أخطر وصف أطلعت عليه على الاطلاق, بل انه وصف أحسب أنه لو صدر من رجل يكرهه الغزالي و اراد الغزالي أن ينتقده و يفضحه فأظن أنه كان سيكفره بسببه فورا (الغزالي القديم طبعا فالغزالي بعد التصوف ارحم). و من العجب أن ينجرف الامام رضوان الله عليه وراء مثل هذه السقطات الغير مبررة بالمرة. و لكن ما دفعه على الاغلب هو عصبيته المذهبية و تأييد لمصالح سياسية لانه لا يمكن ان نبرر "غباء" بعض كلامته و كفريتها الصريحة الا بمثل هذا التبرير و هذا التعليل. فان عقل الغزالي أكبر من أن يقع في مثل هذه الامور. هذه النتيجة التي ظهرت لي بعد دراسة رأيه بالتفصيل و كلمة كلمة بل حرفا حرفا. و الان تعالوا ننظر في تفصيل هذا الاجمال.

1 تعريف الاجماع. كتب الامام رضوان الله عليه " اتفاق أمة محمد صلى الله عليه و سلم خاصة على أمر من الأمور الدينية " و في موضع اخر " اتفاق فتاوى الأمة في المسألة, في لحظة واحدة, انقرض العصر أو لم ينقرض, أفتوا عن اجتهاد أو عن نص, مهما كانت الفتوى نطقا صريحا".

قبل أن نبدأ في التحليل و المقارنة بين اقواله في مواضع مختلفة و استنطاق كلامه و نقده, يجب ان نذكّر بأمر هام جدا و هو هذا: معظم ان لم يكن كل مسائل الاجماع هي أمور مختلف عليها . و هذا ما نجده مثلا في المستصفى, فبالرغم من أنه لم يسهب فيه اسهابا طويلا, و لم يذكر كل الاقوال في المسائل و تفصيلها و ادلتها و مناقشتها, فانه مع ذلك عادة ما يبدأ في ذكر الاراء المختلفة في المسألة التي سيتعرض لها. و في معظم الاحيان ان لم يكن

كلها تجد أن في المسألة خلاف. و أحيانا يكون خلافا من النوع "السبرماركت" اي ان توجد كل الاحتمالات الممكنة عقلا و تجد أنه قد ذهب علماء الاصول الى كل هذه الاحتمالات, اي عالم يذهب و يعتقد بالاحتمال الاول, و اخر بالاحتمال الثاني و هكذا. و هذه نقطة مهمة جدا, فان كان الاختلاف واقعا في كل مسائل الاجماع, فأي اجماع هذا . و بعض الاختلافات تصل الى مسائل جوهرية محورية, بحيث ان اتباع رأي منها ينسف "الاجماع" الذي يعتقد به المذهب الاخر و لهذا عواقب خطيرة. كمثل مسألة هل يعتبر اجماع غير الصحابة. فان رأيا يقول :لا. و رأي اخر يقول :نعم. فاذا اتبعنا الرأي الاول هذا يعني عدم اعتبار أي اجماع يقع بعد عصر الصحابة, مما يعني عدم وجود "الاجماع" كأصل بعد ذلك, اي لا يحق لعصر غير عصر الصحابة أن يستدل على صحة رأي و وجوب اتباعه بالاجماع. و لكن اذا اتبعنا الراي القائل بأنه يعتبر اجماع ما بعد عصر الصحابة فان المسألة تختلف كليا. و من لوازم هذا الاختلاف مثلا هو أنه اذا قام "اجماع" على مسألة بعد عصر الصحابة, و لنقل في سنة 600 من الهجرة, فانه بالنسبة للذين يقولون بحجية الاجماع بعد الصحابة, هذه المسألة تصبح حجة مقطوع بها, معصومة عن الخطأ, لا يجوز لاحد مخالفتها, و من يخالفها يعتبر عاصيا فاسقا بل قد يعتبر كافرا (و سنرى لماذا بعد قليل ان شاء الله). فاذا جاء أحد اتباع الرأي الاول الذي يقول بعدم اعتبار أي اجماع يقع بعد عصر الصحابة, فان علماء هذا المذهب سيجتهدون في تلك المسألة المعروضة, و قد يفتون فيها برأي يخالف "الاجماع" الذي قام من قبلهم. و هذا يعني أن يصبح علماء هذا المذهب عصاة فاسقين مخالفين لاجماع الامة و غير ذلك من عناوين سيئة فضلا عن عدم اعتبار اجتهادهم في الاوساط التي ترى الراي الثاني, لان المسألة أصبحت محاطة بسياج التقديس اي بسور "الاجماع" المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. و غير ذلك من عواقب و لوازم. فالاختلافات الموجودة في تفصيل مسألة الاجماع, بداية من تعريفه و نهاية في أدق تفاصيله, يعني في الواقع كلمة واحدة: لا اجماع على ماهية الاجماع. و ما أوهن مبدأ ينسف نفسه بنفسه. و هذا قبل ان ننتقل الى تطبيق هذا المبدأ على الحوادث الجزئية. فتأمل.

فلنرجع الى الغزالي. فلنبدأ بالقيد الأول و هو "اتفاق أمة محمد". و قد فصّلنا مسألة من هو المسلم فلا نعيد. و لكن نحن الان نبحث في رأي الغزالي نفسه و من كتابه هذا. فلا ينبغي لنا أن نحتج عليه بكلام من خارج كتابه في بداية البحث. بل لندرك ثم نستدرك. اي لندرك كل ما عنده في هذه المسألة ثم لنرى بعد ذلك رأينا. فالتساؤل الان الذي نوجهه للامام –قدس الله سره : من هم أمة محمد هؤلاء الذين معرفتهم شرط أساسي لقيام الاجماع اذ هم أهل الاجماع كما تذكر ؟ ياتي الجواب في أكثر من موضع, يقول في موضع "انما أمة محمد من آمن بمحمد – صلى الله عليه و سلم– ظاهرا, اذ لا وقوف على الباطن". و لكن بعد هذه الفقرة يذكر أمرا يستبطن تعريفا للمؤمن بمحمد و هو يشبه الاقرار الضمني اذ يقول "الكفّار لا يقومون بنشر أعلام النبوة, بل يجتهدون في طمسها". و في موضع ثالث يقول "المجمعون و هم أمة محمد صلى الله عليه و سلم, و ظاهر هذا يتناول كل مسلم. لكن لكل ظاهر طرفان واضحان في النفي و الاثبات, و أوساط متشابهة: أما الواضح في الاثبات فهو كل مجتهد مقبول الفتوى فهو من أهل الحل و العقد قطعا و لابد من موافقته في الاجماع. و أما الواضح في النفي فالاطفال و المجانين و الاجنة, فانهم و ان كانوا من الأمة فنعلم أنه عليه الصلاة و السلام ما أراد بقوله "لا تجتمع أمتي على الخطأ" الا من يتصور منه الوفاق و الخلاف في المسألة بعد فهمها, فلا يدخل فيه من لا يفهمها. و بين الدرجتين: العوام المكلفون, و المتكلمون, و الفقيه الذي ليس بأصولي, و الأصولي الذي ليس بفقيه, و المجتهد الفاسق, و المبتدع, و الناشئ من

التابعين مثلا اذا قارب رتبة الاجتهاد في عصر الصحابة". ثم يفصّل بعد ذلك في هذا الصنف الاخير اي الذين هم بين الدرجتين, و سنأتي عليهم فردا فردا ان شاء الله بعد قليل.

هذا هو تعريف الغزالي لأمة محمد. و الان, أول ما يسترعي النظر هو انه لم يحدد مذهبا او فرقة معينة من الفرق الاسلامية. فهو لم يقل مثلا أن أهل الاجماع هم من الاشاعرة او من السنة دون الشيعة و غير ذلك. و هذا يعني أحد أمرين: اما أنه يرى خروج الفرق الاسلامية الاخرى من دائرة الاعتبار هو أمر بديهي و مسلم و لا يحتاج الى ذكر أصلا, و اما انه يرى أنه لا اعتبار للمذهب او الفرقة في هذا الأمر. بعبارة اخرى, عدم ذكره لقيد الفرقة يدل اما على أنه ينفي انتساب اي فرقة اصلا لامة محمد غير فرقته هو, أو انه يعتبر كل الفرق التي تؤمن بمحمد ظاهرا مشمولة بكلمة "اتفاق أمة محمد". فأي الاحتمالين هو رأي الغزالي؟ الأرجح باطلاق هو أنه يرى الرأي الأول. اي ان الشيعة مثلا لا يعتبروا من أمة محمد أصلا. و الدليل على هذا أنه لا يعرف لا هو و لا غيره من عموم علماء السنة ما هي اراء الشيعة تفصيلا في الأمور الدينية. و لا يعتبرونها حجة لو ذكروها. و انما يذكروها من باب الرد و الدحض او الذم و التعريض بالسوء و القدح. فلم نجد مرة واحدة أن فقيه سني ذكر مسألة معينة ثم أراد أن يحتج عليها باجماع الامة و لكنه يمتنع لان عالما شيعيا لم يوافق على هذا الرأي في هذه المسألة. فهل تجد مثلا و لو مرة واحدة في كل هذه الملايين من المسائل الفقهية ان فقيها سنيا قال: و قد اتفق علماء أهل السنة على الرأي الفلاني و لكن لا يمكن أن نعتبر هذا الاتفاق على انه اجماع للأمة لان الفقيه الشيعي الامامي فلان بن فلان قد خالف هذا الرأي في كتابه الفلاني. هل تجد هذا و لو مرة واحدة ؟ بالطبع لا.(و يا ليت لو وجد و اكون مخطئا حتى يعتبر هذا كسابقه جيده لهذا المسلك) بل ان علماء أهل السنة عموما لا اطلاع لهم على تفاصيل فقه الشيعة, و هذا على العكس من عدد لا باس به من فقهاء الشيعة الامامية خصوصا الذين يمكن أن نقول أنهم يعرفون المذاهب السنية اكثر من معظم علماء أهل السنة أنفسهم فضلا عن عوامهم. و الغزالي ليس بدعا من هؤلاء. فهو أيضا لا يقيم وزنا للشيعة مثلا, و غيرهم من المذاهب "الضالة و الكافرة" عموما. و ان كان يذكر رأي المعتزلة مثلا هنا و هناك, فانما هو استشهاد للرد عليهم و ليس لاعتبار حجية رأيهم في الأمور. فلا وزن لرأي الفرق المخالفة بالنسبة لأهل السنة الذين منهم الغزالي. و أحسب أن هذا من الأمور المعروفة التي يعايشها الناس الى يومنا هذا, و لكن خفّت حدتها قليلا عند قلة قليلية جدا جدا جدا من الناس. و حتى هؤلاء القلة لا يملكون الجرأة للسير وراء "انفتاحهم" الى حد كبير.

و يوجد كتاب للغزالي اسمه فصل التفرقة بين الاسلام و الزندقة, و قد لخص الغزالي هذا الفيصل في المستصفى فقال أنه يوجد ثلاثة معايير تفرق بين المسلم و الزنديق و هي " الاول: ما يكون نفس اعتقاده كفرا, كانكار الصانع و صفاته و جحد النبوة. الثاني: ما يمنعه اعتقاده من الاعتراف بالصانع و صفاته و تصديق رسله و يلزمه ذلك من حيث التناقض. الثالث: ما ورد التوقيف بأنه لا يصدر الا من كافر, كعبادة النيران و السجود للصنم و جحد سورة من القران و تكذيب بعض الرسل و استحلال الزنا و الخمر و ترك الصلاة, و بالجملة انكار ما عرف بالتواتر و الضرورة من الشريعة". طبعا كونه يقول ان من شأن الزنادقة أن ينكروا صفات الله, فان هذا علي الارجح يدخل المعتزلة فورا تحت هذا البند, و من ورائهم الشيعة الى حد كبير ان لم يكن كليا. و عندما يقول ان من شان الزنادقة

أن ينكروا المعلوم من الدين و الشريعة بالضرورة, فان هذا باب واسع جدا يمكن أن يدخل فيه كل من نحب أن ندخله فيه. فما على العالم الا أن يصمم ما يشبه الحجة الارسطيه البسيطه و هي مكونة من مقدمتين و نتيجة: كذا من المعلوم من الدين بالضرورة, كل من يجحد معلوما من الدين بالضرورة فهو زنديق, فلان يجحد هذا الكذا فهو زنديق. و بالمناسبة هذه الحجة هي التي استعملها الفقهاء و عوام الناس قديما, و هي أيضا التي يستعملونها اليوم كلما أحبوا. فما عليك الا أن تضع ما تحب تحت بند "المعلوم من الدين بالضرورة" ثم تزندق و تكفر كل من يجحده. و لا يوجد قيود على ما يمكن أن تضع تحت هذا البند الأرعن. بداية من أتفه المسائل حتى أكبرها. فقد تقول "حجاب المراة المسلمة من المعلوم من الدين بالضرورة, من ينكر معلوما من الدين بالضرورة فهو زنديق كافر, فلان ينكر فرضية الحجاب على المراة المسلمة, فاذن فلان زنديق كافر" . و بالتالي, اذا سألنا الغزالي: ما حكم من يقدح في بعض الصحابة كأبي بكر و عمر مثلا؟ فجواب الغزالي و غيره من أهل السنة عموما واضح, ففي المستصفى يقول عن الصحابة "و الذي عليه سلف الامة و جماهير الخلف أن عدالتهم معلومة بتعديل الله عزو جل لهم و ثنائه عليهم في كتابه" و معلوم أن تكذيب قول الله و رسوله كفر, فاذن كل من يطعن في الصحابة, لا أقل كل من يطعن في "كبار الصحابة" فهو كافر زنديق. و هذا قول الشيعة الامامية خصوصا كما هو مشهور و قول غيرهم أيضا. فالنتيجة أن الشيعة كفار زنادقة, و المعتزلة كفار زنادقة, و قل مثل ذلك في البقية.

فاذن عدم ذكر الغزالي لقيد الفرقة, اي لم يقل "ما اتفقت عليه امة محمد من أهل السنة و الجماعة" انما هو لانه يرى أن "أمة محمد" تساوي "أهل السنة و الجماعة" أي يوجد تطابق مطلق بين الكلمتين, فقد نقول أنهما مترادفتين . فلا حاجة لذكر القيد أصلا. و هنا يرد سؤال للغزالي: يا امام, و لكنك قلت في موضع أخر ان "الكفّار لا يقومون بنشر أعلام النبوة, بل يجتهدون في طمسها". فان كان الشيعة مثلا كفار, و ليسوا من امة محمد, فما بالهم ينشرون أعلام النبوة و يجتهدون في نشرها, و يؤسسون العلوم الاسلامية و ينافحون عنها, و يهذبونها و يتبحرون في درسها, و يصلون و يصومون و يحجون و يقراون القران و يشهدون بان لا اله الا الله و ان محمدا رسول الله, و غير ذلك من مظاهر الاسلام؟, فكيف يجوز اطلاق لفظ الكفر عليهم و هم ممن يقومون بنشر اعلام النبوة و يجتدون في نشرها, و أنت قلت "الكفّار لا يقومون بنشر أعلام النبوة, بل يجتهدون في طمسها" ؟ فاذا أخذنا كلمة الغزالي هذه, و التي اطلقها عفوا في معرض حجاج و تساؤل, و الزمناه بمضمونها كما فعلنا فباذا سيجيب؟ يوجد احتمالين: اما ان يجد لنفسه مخرجا ما و يعتبر ان الشيعة و غيرهم من الفرق الاسلامية عموما- التي تنشر اعلام النبوة و تجتهد في نشرها -هم من أمة محمد, و بالتالي يلزمه أن يعتبر أقوالهم في المسائل كلها حتى يقوم الاجماع فيكون خلافهم في اي مسألة سالبا للاجماع عنها, فان أخذ بهذا الاحتمال يكون قد نسف الاجماع - المنسوف أصلا و فصا !- من زاوية اخرى. و ان لم يأخذ به, فهو اما الاحتمال الثاني و هو أن يسحب كلمته هذه "الكفّار لا يقومون بنشر أعلام النبوة, بل يجتهدون في طمسها" و يعتبرها لغوا او كبوة. و حيث ان صاحبنا ولى الى ربه منذ نحو ألف سنة, فاننا لن نجد سبيلا الى معرفة رأيه نصا في هذا الأمر. و لكن علينا أن نأخذ بنصوصه كما هي, فتكون النتيجة هي : وجود تناقض حاد في تعريف الغزالي للمسلم و من يدخل في أمة محمد. فمن ناحية هو كل من يؤمن بمحمد ظاهرا و ينشر أعلام النبوة و يجتهد في نشرها, و من ناحية هو الذي يتفق معه في ارا ءه المذهبية الطائفية في العقائد و الشرائع عموما على السواء. فتعريفه الأول يدخل تحته كل من ينتسب الى

الاسلام ظاهرا, فيدخل الشيعة بفرقهم الثلاثة الكبرى امامية و زيدية و اسماعيلية و يدخل المعتزلة الى اخر القائمة. و لكن تعريفه الثاني يقتصر على المسلم السني الاشعري و لا ندري ان كان يرى أن يضع قيدا اخر و هو "الشافعي" . لان الغزالي كان شافعيا. طبعا كونه يرى ان من يعتقد بحلية الخمر و الزنا, و هي امور شرعية, من الامور التي تزندق و تكفر المسلم, فان هذا يمكن أن ينجر و ينسحب على كل من يخالفنا في المسائل الشرعية, و لا شك أن معظم أو كل المسائل الشرعية الكبرى خصوصا تعتبر من "المعلومة من الدين بالضرورة" بالنسبة للمذهب القائل بها. فمثلا الزواج بغير ولي, في المذهب الحنبلي يعتبر من المعلوم من الدين بالضرورة لان من تزوجت بغير ولي فهي بغي . اذ في هذا نص صحيح عندهم عن النبي. و لكن عند المذهب الحنفي المراة ولية نفسها, بشروط المسألة كما يفصلونها. فتحليل الحنفية لتزويج المراة نفسها ألا يمكن أن يعتبره الحنبلي "انكار للمعلوم من الدين بالضرورة" ؟ لاشك أنه لو شاء لاعتبر ذلك. و قل مثل ذلك في باقي المسائل. فكما قلنا من قبل: ان معيار المعلوم من الدين بالضرورة فضفاض جدا و يمكن أن يسع أي شئ. و الوسيله الوحيده لضبطه هو ان يتم ارجاعه الى مبدأ الاجماع. اي ان ما اجمعت عليه الامه هومن المعلوم من الدين بالضروره. و قد علمت الان ما مدى انضباط مبدأ الاجماع هذا !

و يوجد له قول اخر يسلط مزيدا من الضوء على هذا الامر, يقول " و المبتدع ثقة يقبل قوله فانه ليس يدري أنه فاسق. أما اذا كفر ببدعته فعند ذلك لا يعتبر خلافه, و ان كان يصلي الى القبلة و يعتقد نفسه مسلما, لان الامة ليست عبارة عن المصلين الى القبلة, بل عن المؤمنين, و هو كافر, و ان كان لا يدري أنه كافر" أحسب أن هذا النص يحسم المسألة. فصاحبنا هنا يخرج من يصلون الى القبلة و يعتقدون أنفسهم مسلمين و لكنه يكفرهم بسبب بدعتهم و لا يعتد بخلافهم, اي ان الاجماع يقع حتى لو خالف هؤلاء. و لا حاجة الى القول ان هذا يشمل كل الفرق الاسلامية غير طائفة الغزالي و من لف لفه. (يظهر ان التصوف لم يفعل فعله كله فيه رحمه الله - حتى ان الذي يقوم بكل اعمال الاسلام و يعتقد انه مسلم ، و يحيا على انه مسلم منتمي الى امه محمد ، و لكنه صاحب بدعه عند الغزالي فهو كافر. و كما اكرر دائما : التصوف ليس وصفه سحريه لعلاج كل الناس، و انما قيمه التصوف في قيمه المتصوف و عرفانه).

فالحاصل: عرف الغزالي أمة محمد بتعريفين: أحدهما واسع جدا يدخل كل من ينتسب الى محمد ظاهرا فيه, و الثاني ضيق جدا يكاد يخرج كل من يخالف طائفة الغزالي و رأيه منه. و هذا تناقض حاد جدا و خرق واسع جدا. و هذه المسألة هي من أهم المسائل في مسألة الاجماع, و هكذا نرى رأيه فيها متناقضا متضاربا و ضبابي و فضفاض.

و أما اذا نظرنا في تفاصيل من يعتبر الغزالي أنهم داخلون في أهل الاجماع قطعا و الذين في أمر دخولهم نظر, فسنرى المسألة بوضوح أكثر. فتعالوا ننظر.

أولا, العوام المكلفون. يبدأ بالقول "يتصور دخول العوام في الاجماع". ثم يقول " العامي ليس أهلا لطلب الصواب, اذ ليس له آلة هذا الشأن, فهو كالصبي و المجنون في نقصان الآلة, و لا يفهم من عصمة الأمة الا عصمة من يتصور منه الاصابة لأهليته". ثم يقول بان الاجماع ينعقد مع مخالفة العوام لان " العامي يعصي بمخالفته العلماء و يحرم ذلك عليه. ثم يختم بقوله "و هذا لا يدل على انعقاد الاجماع دونهم, فانه يجوز أن يعصي لمخالفته, و الحجة في الاجماع, فاذا امتنع بمعصية او بما ليس بمعصية, فلا حجة". مع العلم أنه وضع قاعدة تقول " كل مجمع عليه من المجتهدين فهو مجمع عليه من جهة العوام, و به يتم اجماع الأمة". و يسمي هذا الاجماع "اجماع الأمة قاطبة".

ما معنى هذا الكلام؟ معناه هو التالي: ان وافق العوام على ما أجمع عليه العلماء فانهم قد أطاعوا أمر الله و هذا يسمى "اجماع الأمة قاطبة". و ان خالف العوام ما أجمع عليه العلماء فهم عصاة يرتكبون عمل محرم و تردد الغزالي فمرة يشير الى أن الاجماع منعقد و يسميه "اجماع الأمة" و في خاتمة المبحث يقول " و لكن يمتنع وجود الاجماع لمخالفته- اي العامي- و الحجة في الاجماع, فاذا امتنع بمعصية أو بما ليس بمعصية-فلا حجة". اي أن الاجماع لم يقم بمخالفة هؤلاء العوام.

فما الفرق بين "اجماع الامة" و "اجماع الامة قاطبة" و أي الاجماعين هو الذي يدعي علماء هذه الأصول انه حجة الهية على المسلمين؟ لا جواب طبعا. فكأن لفظ "الأمة" يشمل العلماء فقط. و لفظ "الأمة قاطبة" يشمل العلماء و العوام. و على ذلك, عندما يقول "اجماع الامة" فان كلمة أمة كلمة مضللة, تخفي وراءها قلة قليلة من الناس هم الفقهاء أهل الحل و العقد. فلماذا لم يستعملوا كلمة "اجماع اهل الحل و العقد" مثلا فيكون تعبيرهم أدق و أصدق؟ الجواب: لان كلمة "أمة" فيها هيبة. هيبتها أكبر بكثير من مجرد ذكر قلة من الناس. و قد عرفت من الجويني أن الهيبة هي أساس وجود هذا الشئ الذي يسمى اجماع الأمة.

فعندما ينفي الغزالي قيام الاجماع بمخالفة العوام, اي الاجماعين يقصد؟ الظاهر أنه يقصد "اجماع الامة قاطبة". و أما "اجماع الامة" فقائم. و قد صرح بهذا عندما عرض مسألة و اجاب عليها, و المسألة هي هذه "فان قيل: فلو خالف عامي في واقعة أجمع عليها الخواص من اهل العصر, فهل ينعقد الاجماع دونه؟ و ان كان ينعقد فكيف خرج العامي من الأمة؟ و ان ينعقد فكيف يعتد بقول العامي؟

قلنا: قد اختلف الناس فيه. فقال قوم: لا ينعقد, لأنه من الأمة, فلا بد من تسليمه بالجملة او بالتفصيل. و قال آخرون, و هو الأصح: انه ينعقد" فهنا تصريح بأنه ممن يرى انعقاد الاجماع حتى لو خالف العوام. و لاحظ أنه يوجد خلاف في هذه المسألة الجوهرية أيضا. و تأمل في لوازم اعتبار صحة الرأي الاول الذي يرى انه لابد من موافقة كل عامي من المسلمين حتى يقوم الاجماع, و الا فلا اجماع. و بالتالي لا يترتب أي شئ من آثار الاجماع كما يراها بعض علماء الاصول.

و أما الاستدلال على الرأي الذي ذهب اليه, فينبغي لنا أن نذكره هنا لان فيه ما فيه, و قد ذكر حجتين الأولى ذكرناها و هي ان العامي كالصبي و المجنون من حيث انه لا يملك آلة التفكير في هذه المسائل فينبغي عليه ان يكلها الى أهلها من الخواص. و الثانية هي هذه, " و الثاني: و هو الاقوى: أن العصر الأول من الصحابة قد أجمعوا على

انه لا عبرة بالعوام في هذا الباب, أعني خواص الصحابة و عوامهم, و لان العامي اذا قال قولا علم أنه يقوله عن جهل, و أنه ليس يدري ما يقول, و أنه ليس أهلا للوفاق و الخلاف فيه. و عن هذا لا يتصور صدور هذا من عامي عاقل, لان العاقل يفوض ما لا يدري الى من يدري. فهذه صورة فرضت لا وقوع لها اصلا" . أقول: لاحظ هذا التناقض الغريب, مرة يجعل العوام صبيان مجانين لا عقل لهم و هم جهل في جهل و لا يدري ما يقول, ثم يقول "لا يتصور صدور هذا من عامي عاقل, لان العاقل يفوض ما لا يدري الى من يدري" كيف تطالب العوام الجهلة المجانين –في تصورك- ان يتصرفوا كالعقلاء و يفوضوا ما لا يدرون الى الذين يدرون ؟ فعندما تريد أن تسقط قيمتهم و تخرجهم من الاعتبار تجعلهم كالصبيان و المجانين, و عندما تريد أن يطيعوك تجعلهم عقلاء اصحاب حكمة و رزانة.

و ثانيا, لاحظ انه يوجد في الصحابة "عوام" ! فهو يقول "خواص الصحابة و عوامهم". و يقول أن "العصر الاول من الصحابة قد أجمعوا على انه لا عبرة بالعوام في هذا الباب" هذا نص يحوي اكثر من مغالطة مزعجة. فهو يقر بوجود "عوام" في عصر الصحابة, مما يعني أنه يوجد صحابة كالصبيان و المجانين الذين يقولون ما لا يفقهون و ليسوا أهلا للوفاق و الخلاف أصلا. فليسجل هذا الاقرار على الغزالي. ثم يقول ان "العصر الاول من الصحابة قد أجمعوا على انه لا عبرة بالعوام" فمن هم هؤلاء الذين أجمعوا ؟ لاحظ ان كلمة "العصر الاول من الصحابة قد اجمعوا" كلمة عامة جدا, و توحي بان كل الصحابة قد اجمعوا, و لكن الواقع لا يمكن الا أن يكون أن بعض الصحابة قد أجمعوا على اخراج البعض الاخر من هذا الباب و عدم الالتفات الى مخالفتهم ووفاقهم لانهم عوام كالصبيان و المجانين. و ليست هذه أول مرة نرى هؤلاء الناس يستعملون كلمة "الصحابة" استعمالا ضبابيا ماكرا.
ثم نتساءل: من هم "خواص" الصحابة و من هم عوامهم؟ و ان كان "كل" الصحابة عدول بتعديل الله لهم كما يذكر الغزالي و من لف لفه, فبأي حجة يصبح قسم منهم "خواص" و قسم منهم "عوام" كالصبيان و المجانين الذين لا يلتفت اليهم؟ و من الذي قام بهذا التقسيم؟ و باي حجة قام به؟ ثم عندما قال النبي- كما يروون- "لا تجتمع امتي على ضلالة" كيف يمكن أن يفرق بين هؤلاء الخواص و العوام؟ و من الذي سيفرق؟ و من الذي سيحدد من هو العالم المجتهد و لا يوجد كهنوت احتكاري في الاسلام؟ و هذه كلها أسئلة لا جواب عليها طبعا. و أقصا ما عندهم فيها هو رجم بالغيب. فينظروا الى بعض هؤلاء الصحابة الذين رويت عنهم بعض المرويات و الفتاوى فيدخلونهم تحت "الخواص" و الصحابة الذين لم يصل الينا من علمهم شئ يعتبرونهم من "العوام". و طبعا أبو هريرة سيعتبر من "الخواص", و أكثر من تسعين ألف صحابي لا نعرف عنهم شيئا قد يعتبروا من "العوام" !

و ثالثا, هذا قيد اخر يمكن أن يخرجوا بسببه كل من يتهمونه بالجهل حتى لو كان مسلما سنيا يتوافق معهم في الكثير من اصول عقائدهم و شرائعهم. فكل ما عليهم هو أن يرموا العالم بانه جاهل لا يفقه من الشريعة شئ, حتى لا يعتدوا بخلافه في الاجماع, ثم يحفظوا حياة "الاجماع" الذي خلقوه بايديهم, او اختلقوه للدقة. كما رأينا مثلا في ابن تيمية و ابن حجر الهيثمي. و لهذا أمثلة كثيرة جدا يعرفها أهلها. فلاحظ كيف ان معيار "أمة محمد" الذين هم أهل الاجماع, هو معيار يتقلص و يتقلص و يتقلص حتى يكاد أن لا يسع الا الفقيه الفرد لوحده . فأولا قالوا ان الاجماع يختص بامة محمد- فاجماع اليهود و النصاري و غيرهم لا حجة فيه. ثم اختصوا أهل السنة و الجماعة من أمة محمد و لم يعتبروا الفرق الاسلامية الاخرى. ثم اختصوا الاشاعرة من أهل السنة دون المعتزلة و المجسمة مثلا. ثم وضعوا قيدا أخر فضفاض جدا و هو "العلم و الاجتهاد". و هكذا كل من لا يعجبهم من الفقهاء

المنافسين لهم يمكن ان يدرجوه تحت بند الجهلة فينجوا اجماعهم من الاختراق المحتمل, و لله الامر من قبل و من بعد.

و في مسألة اجماع الأكثرية, يقول " الاجماع من الأكثر ليس بحجة مع مخالفة الأقل" و يذكر انه يوجد خلاف في المسألة أيضا, اذ قال قوم أنه حجة و قال قوم ان عدد الاقل اذا بلغ عدد التواتر اندفع الاجماع و ان نقص فلا يندفع. فيرد الغزالي هذين القولين و يقول "و المعتمد عندنا أن العصمة انما تثبت للأمة بكليتها, و ليس هذا اجماع الجميع, بل هو مختلف فيه". و هذا رأي يتضارب مع كل التخصيصات التي ذكرها في مسألة من هم أهل الاجماع. فهنا يثبت أن العصمة ثابتة للأمة "بكليتها" و ليس للأكثرية, بل كل الأمة. و الا فلا اجماع. و لكن في مواضع أخرى خصص الأمة تخصيصات كثيرة كما ذكرنا, حتى انه يكاد يجعل نفسه هو فقط رب الاجماع يدخل من يشاء في رحمته و الظالمين لهم طرد أليم. فكيف يمكن الجمع بين هذا و ذاك. كيف يمكن أن تجمع بين رأي يقول: يجب أن تجتمع الأمة "بكليتها" ليقوم الاجماع, و يشدد على هذا, ثم في موضع اخر يخصص و يخصص و يخصص في ماهية الامة التي يعتبر رأيها و موافقتها حتى لا يبقي الا القلة القليلة جدا. و هذا تضارب شنيع اخر في المستصفى.

و في مسألة اجماع أهل المدينة يكتب " قال مالك –اي الامام مالك بن انس : الحجة في اجماع أهل المدينة فقط, و قال قوم: المعتبر اجماع أهل الحرمين مكة و المدينة و المصرين الكوفة و البصرة" ثم يرد على هذين الرأيين. و يصف كلام الامام مالك بن أنس باوصاف قوية , منها أنه كلام لا وجه له و فاسد و تحكم و فيه تكلّف. على اية حال, ما ينبغي أن نلاحظه هنا هو وقوع اختلاف مرة أخرى في مسألة جوهرية من مسائل الاجماع. فهذا مالك بن انس يحصر قيام الاجماع بأهل المدينة, و غيره يحصره في أهل بضعة بلدان و هكذا. ثم ياتي الغزالي فينسف كل هذا و يخرج برأي ثالث. و كل حزب بما لديهم فرحون.

و يذكر الغزالي شبهة و يرد عليها – تأملها " الشبهة الثانية: أن مخالفة الواحد شذوذ عن الجماعة, و هو منهي عنه, فقد ورد ذم الشاذ, و انه كالشاذ من الغنم عن القطيع (اهذا مثل يضرب للمسلمين ! فتامل). قلنا: الشاذ عبارة عن الخارج عن الجماعة بعد الدخول فيها, و من دخل في الاجماع لا يقبل خلافه بعده, و هو الشذوذ. أما الذي لم يدخل أصلا فلا يسمى شاذا". أقول: الحمد لله أنهم ضربوا المثل لانفسهم أنهم كالغنم في القطيع ! و هذا أحسن مثل لمن يتبعون مبدأ الاجماع هذا. و الحمد لله انه أجراه على لسانهم, فاننا لو ضربناه لهم لقالوا أننا متحيزين و ننطلق من دوافع رفضنا لهذا المبدأ. و لكن كون أتباع هذا المبدأ ضربوا المثل لانفسهم فهو من باب و شهد شاهد من أهلها. فالحمد لله. ثم لاحظ أن الشاذ هو من دخل و خرج, فحتى لو سلمنا مبدئيا بتعريف الغزالي هذا للشذوذ, فان هذا يعني أن كل مسلم لا يدخل في اجماع معين لا يعتبر شاذا الا اذا دخل و خرج, فاذا لم يدخل أصلا فهو ليس بشاذ. و هذا رد على من يرمي المسلم بالشذوذ عن اجماع معين فقط لانه لم يسلم به كتسليم البهائم لراعي القطيع. "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعم بل هم أضل سبيلا".

فلنكتفي بهذا القدر فيما يخص أهل الاجماع. و لنتساءل: ما هي الحجج التي يقوم عليها الاجماع؟

أما الاحتجاج بكتاب الله فينكره الغزالي. و يذكر نحو سبع ايات يستدل بها البعض لاثبات حجية الاجماع من كتاب الله تعالى, و يرد عليهم و يرفض هذا الاحتجاج و لا يرى في الايات نصا على المطلوب. فيقول بعد ذكر الايات "فهذه كلها ظواهر لا تنص على الغرض. بل لا تدل أيضا دلالة ظواهر". ثم يذكر الاية التي طالما ذكرها أرباب الاحزاب لدعم حجية اجماعهم هذا من كتاب الله تعالى و يرد عليها, لننظر في ما كتبه الغزالي بامعان " و أقواها قوله تعالى "و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى و نصله جهنم و ساءت مصيرا" فاذن ذلك يوجب اتباع سبيل المؤمنين. و هذا ما تمسك به الشافعي. و قد اطنبنا في كتاب تهذيب الاصول في توجيه الأسئلة على الاية و دفعها. و الذي نراه أن الاية ليست نصا في الغرض, بل الظاهر أن المراد بها أن من يقاتل الرسول و يشاقه و يتبع غير سبيل المؤمنين في مشايعته و نصرته و دفع الاعداء عنه "نوله ما تولى" فكأنه لم يكتف بترك المشاقة حتى تنضم اليه متابعة سبيل المؤمنين في نصرته و الذب عنه و الانقياد له فيما يأمر و ينهى. و هذا هو الظاهر السابق الى الفهم. فان لم يكن ظاهرا فهو محتمل". فاذن هذه الاية التي أراد الشافعي أولا و من شايعه و قال بقوله ثانيا, أن يتمسكوا بها و يلووا عنقها لدعم مبدأ لا علاقة له بها, قد رد الاستدلال بها عليهم الامام الغزالي الشافعي المذهب. فالحاصل, انه لا حجة من كتاب الله لدعم مبدأ الاجماع هذا بالنسبة للغزالي.

و أما حجة العقل, ففي موضع يقول "اتفاق العقلاء..لم تكن فيه حجة...فالتئام الاتفاق من هذه الاسباب لا يدل على كونه ضروريا, بل لا يدل على كونه حجة لولا منع السمع عن تجويز الخطأ على كافة هذه الأمة خاصة, اذ لا يبعد اجتماع الكافة على الخطأ عن تقليد و عن شبهة " و قد ذكر هذا في معرض مناقشته لمسألة حسن الافعال و قبحها. فهو هنا يقر بأن العقل يجوز امكان "اجتماع الكافة على الخطأ عن تقليد و عن شبهة" كمثل اتفاق اليهود على عقائدهم و لكن اجماعهم على هذه العقائد لا يعطيها حجية- كما يقول. فمن أين جاءت هذه الخاصة لهذه الأمة في أن يكون اجماعها حجة؟ يقول "لا يدل على كونه حجة لولا منع السمع". اي الدليل السمعي, اي النص عن الرسول, هو الذي منع. و لكن عقلا لا يوجد مانع من ان يجتمع كافة الناس على خطأ عن تقليد او عن شبهة. و هذا يعني ان دليل العقل ضد فكرة الاجماع بل ينسفها من أساسها. بل ان شواهد الأمم الاخرى و الاديان الاخرى "المجمعة" على عقائدها, و لا أقل أنها مجمعة على اعتبار الاسلام دين باطل، هذا الاجماع لا قيمة له, لان اجماعهم لم يعطى العصمة الالهية بدليل السمع عن الرسول الالهي- كما يقول. فالقدر المتيقن من كلام الغزالي هنا- و هو كلام قوي: العقل ضد فكرة الاجماع. و لكن من ناحية أخرى و في لا اقل من موضعين يقول بعكس هذا, فمرة يقول "الأدلة الثلاثة على كون الاجماع حجة, أعني الكتاب و السنة و العقل" و في موضع اخر " و كونه حجة انما يعلم بكتاب أو سنة متواترة أو عقل". و في ثالث "و قد طمعوا في التلقي من الكتاب و السنة و العقل. و أقواها السنة". فهنا يثبت أن للعقل مدخلا في اثبات حجية الاجماع , بالرغم من أنه أنكره في موضع سابق. و هذا تناقض غريب أيضا لا أدري كيف يمكن أن يقع فيه مثل هذا الرجل المفكر.

و اما السنة, فهي دليلهم الوحيد, فالغزالي يقول ان دليل السنة "أقواها" اي اقوى دليل من بين الثلاثة الكتاب و السنة و العقل. و الواقع أنه الدليل "الوحيد" و ليس أقواها . لان كلمة "أقواها" تستبطن وجود أدلة أخرى قوية معتبرة او على الاقل معتبرة. و الواقع أن دليل الكتاب ممتنع, و دليل العقل مردود, و قد رد الغزالي نفسه دليل الكتاب و دليل العقل كما رأينا قبل قليل, فكيف جاز له أن يعبر عن السنة بانه أقوى الادلة الثلاثة و الحق ان الكتاب و العقل ليسوا في عداد الادلة المعتبرة أصلا. مع ملاحظة أنه حتى الذين يستدلون بكتاب الله تعالى- بطريقتهم الاثمة في الاستدلال و هي البحث عن اية تدعم فكرة مسبقة قد قطعوا بصحتها من قبل حتى أن يفتحوا القرءان- حتى هؤلاء لم يستطيعوا أن يثبتوا جزئيات و تفاصيل مسألة الاجماع من كتاب الله. فقد اكتفوا باستدلال عام لا يسمن و لا يغني من جوع في الأمر الذي يريدون أن يستدلوا عليه, ثم تفصيل المسألة كالعادة يختلقونه اختلاقا و يفتي كل منهم بما شاء باسم الله و الرسول.

يذكر روايات تدل على الاجماع مثل "لا تجتمع أمتي على ضلالة". و ما أشبه. و خلاصة رأيه هو هذا القول " استدللنا على الاجماع بالخبر, و على صحة الخبر بخلو الأعصار عن المدافعة و المخالفة له. مع أن العادة تقتضي انكار اثبات أصل قاطع يحكم به على القواطع بخبر غير معلوم الصحة, فعلمنا بالعادة كون الخبر مقطوعا به".(و من قال ان الاعصار خلت عن المدافعه و قد تم انتقاد فكره الاجماع منذ القدم- كالنظام و الظاهريه كابن حزم و من يسمون بالخوارج و الشيعه ؟! نعم لان الغزالي لا يعتبر اصحاب الفرق الاخرى ممن له وزن في الاعتبار فاعتراضهم و مدافعتهم كعدمها). فالعادة تثبت ان الخبر صحيح. و الخبر يثبت أن الاجماع صحيح. فمن هي او ما هي هذه العادة؟

يقول "المحتجين بهذه الاخبار- اي الروايات التي تدل على حجية الاجماع- أثبتوا بها أصلا مقطوعا به و هو الاجماع الذي يحكم به على كتاب الله تعالى و على السنة المتواترة. و يستحيل في العادة التسليم لخبر يرفع به الكتاب المقطوع, الا اذا استند الى مستند مقطوع به" أعد قراءة هذا النص من فضلك حتى تعلم مقدار الكفر و العياذ بالله الذي يشتمل عليه.

فهو هنا يثبت أن الاجماع أعلى من كتاب الله و السنة المتواترة. "الاجماع الذي يحكم به على كتاب الله". فالاجماع يحكم على كتاب الله. و ثانيا, يثبت أن هؤلاء القوم- من الصحابة و من بعدهم- قد رفعوا كتاب الله اي ازالوا و لم يعملوا ببعض ما فيه بسبب الاجماع هذا. "و يستحيل في العادة التسليم لخبر يرفع به الكتاب المقطوع". و هذا اقرار بأمرين: انه يمكن رفع الكتاب اي عدم العمل به بحجة الاجماع على ذلك, و ثانيا أن هذه الاخبار و المرويات التي تثبت الاجماع قد أدت الى رفع كتاب الله تعالى. فالاجماع أعلى من كتاب الله و السنة المتواترة. و الخبر أعلى من كتاب الله. و العادة أعلى من الاجماع اذ بها تم اثباته. و أما ماهي هذه العادة فسنرى بعد قليل ان شاء الله. و لكن من هنا يمكن أن نرى أصول الفقه الحقيقية لهذا الحزب السني, و هي هذه: العادة ثم الاجماع ثم السنة ثم كتاب الله. و أما الترتيب الذي يذكرونه فانما هو نفاق في نفاق لخداع عوام المسلمين لا غير.

كتاب الله لا قيمة فعلية له عند هؤلاء. فان كانوا يستبيحون رفعه و ابطال العمل به بحفنة من المرويات التي لم يثبت تواتر احادها, و انما أثبتوا تواترها بالجملة, كما يقول الغزالي "بل يجوز الكذب على كل واحد منها لو جردنا النظر اليه... و لكن ينتفي الاحتمال عن مجموعها". فهذا طريقه الاول لاثبات حجية هذه المرويات. و طريقه الثاني هو طريق العادة الذي ذكرناه قبل قليل. هنا اقرار منهم بأنهم قد رفعوا كتاب الله و اجازوا ابطال العمل به لو جاء اجماع يثبت ذلك. و لزيادة أثبات ان أصل الاجماع أعظم عندهم من كتاب الله تعالى, تعالوا نرى ماذا يصف الغزالي الاجماع و نقارنه بوصفهم لكتاب الله.

لقد جمعت معظم ما قاله الغزالي في وصف الاجماع في مواضع متفرقة من المستصفى و هذا هو: أعظم أصول الدين, يلزم فيه التضليل و التبديع لمن أخطأ في نفيه أو اثباته, لا يحتمل النسخ و السهو, يرفع به كتاب الله و السنة المتواترة, يحكم به على كتاب الله و السنة المتواترة عن نبيه, لا يحق لاحد أن يخالفه و يجب على الكل اتباعه.

و الان قارن بعض هذه الاوصاف مع كتاب الله و النبي. فكتاب الله عندهم يجوز ان يتم نسخه, و النسخ ليس الا ابطال الاية, و الاجماع لا نسخ فيه. و النبي عندهم يجوز عليه السهو و لكن الاجماع لا سهو فيه. كتاب الله لا يحكم على الاجماع و لكن الاجماع يحكم على كتاب الله. و غير ذلك من أوصاف تقديسية تنزيهية لهذا الاصل المختلق التافه المحشو بالسياسة و الكذب من أوله الى اخره.

و لا تنسى أن كل ما يتم اسباغه على "الاجماع" انما هو في الحقيقية يتم اسباغه على "أهل الاجماع" الذين هم بعض الفقهاء و اصحاب السلطة. لانه لا يوجد شئ مخلوق اسمه "اجماع" انما هم مجموعة من البشر تقوم بفعل او تنشر قول يصبغ بصبغة "اجماع" فتعطى له كل امتيازات و تقديسات و تسبيحات الاجماع. فلا تغفل عن هذه الحقيقة. فهؤلاء القوم عندهم مكر شديد. يظهروا و كأن هدفهم الوحيد ان يعرفوا قول الله و الرسول, و لكن الواقع أنهم يعطون امتيازات لانفسهم من وراء حجاب. حجاب الله و الرسول. و ما الله تعالى الا قناع يلبسونه ليتقوا به الناس, و الحق أنه لا يوجد وراء هذا القناع الا وجوه الغزالي و الفلاني و العلاني و ما أشبه. فعندما يقال أنه يجوز أن يرفع كتاب الله بالاجماع, فهذا يعني أنه يجوز للفقهاء أن يرفعوا كتاب الله بالاجماع. عندما يقال أن الاجماع معصوم, فهذا يعني أن الفقهاء معصومين. فليس الاجماع الا اختراع لأصل في الدين يعلو على كل اصول الدين عند المسلمين الحقيقين اي اتباع كتاب الله تعالى. و قد اضل هؤلاء الفقهاء المسلمين و استضعفوهم, و جعلوهم بمثابة الصبيان و المجانين و البلهاء الذين يقولون ما لا يفقهون, و اعطوا أنفسهم كل السلطة و كل القوة و كل العصمة من وراء حجاب بل من وراء حجب كثيرة.

و الان, ما هي هذه "العادة" التي عن طريقها أسس الغزالي حجية الاجماع؟ هنا أيضا سنرى تناقضا قبيحا لم أرى أقبح منه الى الان في المستصفى و غيره. فهو من ناحية يقول أن العادة توجب أن ينكر الناس على من يرفعون

كتاب الله بخبر الا لو كان هذا الخبر قاطعا. فقط. هذه هي حجته. طبعا أول من ينطبق عليهم هذا الكلام هم أهل عصر الصحابة. فبعض الصحابة (و سنرى من هم بعد قليل ان شاء الله) كانوا يحتجون بهذه المرويات التي تؤيد البقاء في جماعة الغنم و عدم الخروج عليها. و كانوا يرفعون كتاب الله و السنة المتواترة, بل و يردون اجتهادات بعض الصحابة و يهددون من يخالف "الجماعة" و يخرج عليها, فالغزالي يقول انه يستحيل في "العادة" ان لا ينكر بقية الصحابة على هؤلاء في فعلهم. و الغزالي يقدر و يتكهن بناءا على ذلك أن الصحابة عموما كانوا يعلمون أن هذه الاخبار و المرويات صحيحة مقطوع بها, و الا لما جاز رفع المقطوع به- من الكتاب و السنة المتواترة- الا لو كانت هذه الاخبار مقطوع بها. هذا من ناحية. و من ناحية اخرى, في مسألة الاجماع السكوتي يقول "اذا افتى بعض الصحابة بفتوى, و سكت الاخرون, لم ينعقد الاجماع. و لا ينسب الى ساكت قول" هذا هو رأيه في المسألة. و هو رأي رائع ينقض الاجماع من اساسه, اذ لم يصلنا ما قاله كل الصحابة في المسائل فلا يحق لاحد أن يقول "أجمع الصحابة" لانه لا ينسب الى ساكت قول. ثم يذكر اراء أخرى في المسألة, فالاختلاف موجود كما تعودنا, ثم يبرهن على صحة رأيه بأن الصحابي قد يسكت من غير اضمار الرضا, اذ بعض علماء الاصول قالوا ان الصحابي اذا سكت فان سكوته يعبر عن رضاه بمضمون الفتوى التي سمعها او الامر الذي يدور حوله, و الغزالي يرد على هذا الرأي, و يذكر سبعة أسباب يمكن أن يسكت الصحابي بسببها من غير أن يكون مضمرا للرضا و يعدد السبعة و هي "الأول: أن يكون في باطنه مانع من اظهار القول, و نحن لا نطلع عليه, و قد تظر قرائن السخط عليه مع سكوته. الثاني: أن يسكت لأنه يراه قولا سائغا لمن أداه اليه اجتهاده, و ان لم يكن هو موافقا عليه بل كان يعتقد خطأه. الثالث: أن يعتقد أن كل مجتهد مصيب فلا يرى الانكار في المجتهدات أصلا و لا يرى الجواب الا فرض كفاية فاذا كفاه من هو مصيب سكت و ان خالف اجتهاده. الرابع: أن يسكت و هو منكر, لكن ينتظر فرصة الانكار, و لا يرى البدار مصلحة, لعارض من العوارض ينتظر زواله, ثم يموت قبل زوال ذلك العارض او يشتغل عنه. الخامس: أن يعلم أنه لو أنكر لم يلتفت اليه, و ناله ذل و هوان, كما قال ابن عباس في سكوته عن انكار العول في حياة عمر "كان رجلا مهيبا فهبته". السادس: أن يسكت لأنه متوقف في المسألة, لأنه بعد في مهلة النظر. السابع: أن يسكت لظنه أن غيره قد كفاه الانكار, و أغناه عن الاظهار, ثم يكون قد غلط فيه, فترك الانكار عن توهم, اذ رأى الانكار فرض كفاية, و ظن أنه قد كفي و هو مخطئ في وهمه. فان قيل: لو كان فيه خلاف لظهر؟ قلنا: لو كان فيه وفاق لظهر. "

كلام جميل جدا. و أسباب مقنعة حقا. فاذن سكوت بعض الصحابة و غيرهم قد يكون سكوتا و لكن من غير اضمار الرضا. بل قد يكون سكوتا عن رفض. بل قد يكون سكوتا عن مهابة ! فها هو ابن عباس يسكت عن انكار العول لانه كان يهاب عمر بن الخطاب و قد اعترف بذلك بنفسه . و معلوم أن في عهد عمر كان أكثر من واحد من الصحابة لا يفعلون أمور بسبب "هيبته".

فاذن, من ناحية يقول الغزالي أن "العادة" تحكم بانه لو كان يوجد خلاف ضد هذه الاخبار و ممارسات اهل السلطة الخواص من الصحابة لظهر هذا الخلاف و لأنكر الناس عليهم- و بالتالي يثبت صحه هذه الاخبار التي يزعم انها تثبت الاجماع الذي يقولون به. و من ناحية يثبت أن السكوت قد يكون عن رفض و تحين فرصة مناسبة للانكار و قد يكون عن تقية و رغبة في عدم التعرض للذل و الهوان من قبل أهل السلطة أو التسلط و السيطرة. فكيف يمكن

الجمع بين هذا و ذاك. ان كان انكار مسألة في الميراث – العول- جعلت ابن عباس يهاب عمر فلا ينكر عليه, فما بالك بانكار مسألة أكبر من هذه بألف مرة !! فخلاصة حجة الغزالي في "العادة" هي أنه لو وجد خلاف لظهر. و يا سبحان الله, الغزالي نفسه ذكر اعتراضا على رأيه في الاجماع السكوتي فقال " فان قيل: لو كان فيه خلاف لظهر؟ قلنا: لو كان فيه وفاق لظهر" و لا نحتاج للرد على الغزالي في "العادة" هذه الا بأن نقول له ما قاله هو نفسه "لو كان فيه وفاق لظهر". بل و أكثر من ذلك, ما أدرانا ان كان فيه وفاق أم لا؟ اذ الغزالي لا يعتد الا بفتوى الصحابي المصرح بها, و لا ينسب الى ساكت قول. فكيف يصح اثبات هذه العادة المزعومة في عصر يخاف فيه الصحابي ان ينكر مسألة من مسائل الميراث خوفا من صاحب السلطة! و من جاء بعده ان لم يكونوا شرا منه او أكثر "هيبة" منه, فهم مثله و ليسوا باقل بطشا و سفكا للدماء بل هم فوقه بمراحل لا تحصى. بل من جاء بعده كان قتل المسلم المخالف لهم أهون عليهم من عفطة عنز. فهذه العادة التي يتخيلها الغزالي لا وجود لها. و سكوت الناس في زمن عن معارضة مسألة ما لا يعني أنهم مضمرون للموافقة. و حسبنا في اثبات ذلك ان نذكر الاسباب السبعة التي ذكرها الغزالي نفسه. فقد نقض نفسه بنفسه.

بل و نزيد على ذلك, بان نذكر رايا له ذكره في باب الاستحسان, يقول تعليقا على رواية "ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن" يقول " لا يخلو أن يريد به جميع المسلمين أو آحادهم. فان أراد الجميع فهو صحيح, اذ الأمة لا تجتمع على حسن شئ الا عن دليل. و الاجماع حجة, و هو مراد الخبر. و ان آراد الاحاد لزم استحسان العوام" و هنا نتساءل: ما هو هذا "الدليل" الذي اجتمعت الامة على تحسين شئ بسببه؟ فهو يرى أن هذه الرواية هي مجرد صورة اخرى من صور الاجماع. و الاجماع عنده أعلى من الكتاب و السنة بل هو دليل مستقل بذاته, له كل صفات الله و الرسول من الاطلاق و العصمة و القداسة و فروض الطاعة بل انه أعلى من كتاب الله و السنة المتواترة كما كتب هو نفسه. فان كان اجتماع الأمة لا يكون الا عن دليل, فما هو هذا الدليل؟ ان قال: لعل لأهل الاجماع دليل لا نعرفه نحن, فأرد عليه بكلامه نفسه, فقد ذكر في باب حجية قول الصحابي أن الصحابة "انما عملوا بالخبر المصرح بروايته, دون الموهوم المقدر الذي لا يعرف لفظه و مورده". فلتتبعوا الصحابة اذن و لا تعملوا بدليل الا ان تم التصريح به, دون "الموهوم المقدر" و هو التكهن الذي يقوم به بعض الناس عندما يقولوا: لعل لهم دليلا لا نعرفه قطعوا بسببه. و هذا هو ردنا على الغزالي أيضا عندما يدعي أن أهل عصر الصحابة كانوا يملكون حجة معينة جعلتهم يثقون بصحة هذه المرويات التي رواها رجال السلطة في وجوب اتباع الاجماع و ان خالف ما خالف. فهذا تكهن من الغزالي. تقدير موهوم. لم يبيجه له الا رغبته في اقامة أصل الاجماع لحاجة في نفسه, و الا قطعه بعدالة كل الصحابة بلا تمييز خاصة "الكبار" منهم كعمر بن الخطاب مثلا.

و في مسألة هل يجوز أن ينعقد الاجماع عن اجتهاد و قياس, يقول الغزالي نعم يجوز ذلك. و هذا يعني أن أهل الاجماع, خواص اهل السلطة و الحول و الطول, اذا اجتهدوا و ابتدعوا رأيا, ثم "أجمعوا" عليه لانهم أهل الحل و العقد, فان هذا الرأي يصبح اجماعا مقدسا بالصفة التي علمتها. هل فهمت الان لماذا يريدون اثبات هذا الاجماع.

و في مسألة هل يقع الاجماع بعد عصر الصحابة, يقول الغزالي نعم يقع, بخلاف الظاهرية. و هذا يعني, ان هذا الاجماع المتعالي المقدس يمكن أن يقع في كل عصر. و لهذا السبب يأتي كل صاحب سلطة, و يجمع حوله العلماء و الفقهاء, و يكونوا كلهم "أهل الحل و العقد" طبعا بعد أن يزندقوا من يزندقوا, و يكفروا من يكفروا, و يجهلوا من يجهلوا, فتخلوا لهم الساحة. عندها يصبح الاجماع بأيديهم, وكلما أرادوا أن يحكموا بحكم و يجعلوه محصنا فكل ما عليهم هو أن يسبغوا عليه كلمة "اجماع الامة" و بطريقة سحرية يصبح هذا الحكم أعلى من كتاب الله و السنة المتواترة و لا تجوز مخالفته و يجب على الكل طاعته و هو اجماع معصوم مثل عصمة النبي. طبعا في معظم الحالات لا يحتاج هؤلاء الى اللجوء الى الاجماع مباشرة لدعم افكارهم و احكامهم, فان في سبرماركت شريعتهم سعة و لله الحمد لكي يختلقوا ما يشاؤون باسم الله. و ما ذلك على الله بعزيز...أقصد و ما ذلك على فقهاء السلطة بعزيز !

و في مسألة ان اختلفت الأمة على قولين هل يجوز احداث مذهب ثالث, يبرر الغزالي رأيا للشافعي بقوله " الصحابة بجملتهم لم يخوضوا في المسألة, و انما نقل فيها مذهب بعضهم, فلو خاضوا فيها بجملتهم, و استقر رأي جميعهم على مذهبين: لم يجز احداث مذهب ثالث. و دليله أنه يوجب نسبة الأمة الى تضييع الحق, اذ لابد للمذهب الثالث من دليل, و لابد من نسبة الأمة الى تضييعه و الغفلة عنه و ذلك محال".

أقول: و في نصه هذا أمرين ينبغي أن نتنبه لهما. الأول هو أن الاجماع لا يعتبر قائما الا ان خاض جميع المؤهلين للاجماع في المسألة و اتفقت كلمتهم على رأي معين فيها. فلما لم يخض كل الصحابة في مسألة, بل خاض فيها بعضهم فقط, لم يعتبر الغزالي أن الاجماع قائم. و على ذلك, يجب أن تدرج تحت كل مسألة يقال أنه قد وقع عليها اجماع الأمة, يجب ان تدرج كل أسماء المؤهلين للاجماع و رأي كل واحد فيهم بفتوى صريحة صحيحة. و دون ذلك خرط القتاد كما يقال. بل و قبل ذلك, يجب أن نبحث في مسألة من هم أهل الاجماع, و قد عرفنا مقدار الاختلاف الشديد الذي لا يمكن حله في ضوء المذاهب الموجودة, فلا نعيد. فكلام الغزالي هنا, اي اشتراطه أن يخوض كل أهل الاجماع في المسألة حتى يعتبر الاجماع قائم فيها, أقول أن قوله هذا هو نسف من زاوية جديدة لكل مبدأ الاجماع. فيا تعسا لهذا المبدأ المنسوف من كل جهاته.

و الامر الثاني, هو جزمه بان هذه الامة لا يمكن أن تضيع الحق مطلقا. بغض النظر عن أي اعتبار اخر, فان هذا القول على اطلاقه يعتبر أشد نوع من التعصب الاعمى الجاهلي للطائفة. و هل كان أهل الجاهلية يحاربون الرسل الا بحجة مثل هذه الحجة تماما ! "ما سمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق". بل و زيادة على هذا فان الغزالي و أشباهه يعتبرون اجتهاد أهل الاجماع هؤلاء- أيا كانو!- معصوم عصمة مطلقة, يقول "أما اجتهاد الأمة المعصومة فلا يحتمل الخطأ, كاجتهاد رسول الله صلى الله عليه و سلم و قياسه, فانه لا يجوز خلافه, لثبوت عصمته, فكذا عصمة الأمة من غير فرق". فالأمة- الذين هم أهل الحل و العقد المزعومين هؤلاء- هم كالرسول تماما من غير فرق. و أحسب أن أهل الجاهلية أنفسهم لم يكونوا متعصبين لاباءهم بنفس هذا القدر, فهؤلاء قد حكموا و جزموا و قضي الأمر. فلو بعث الله فيهم رسولا جديدا و جاء بكل ايات السماء و الارض فانهم سيقتلوه بحجة أنه "خالف اجماع الأمة و نسب الامة الى تضييع الحق" ! و هل قتل الرسل الا بمثل هذه الحجج..هل ذبح الاولياء الا بمثل هذه الحجج..هل سجن و سفك دم القائمين بالقسط من الناس الا بمثل هذه الدعاوى. ثم ان المفترض أن هذه الأمه –

بحسب مروياتهم- ستسير وراء اليهود و النصارى حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه, فمن أين استساغوا التفريق بين هذه الامة و بين اليهود و النصارى في الأمور الكبيرة فضلا عن الأمور الصغيرة "حذو القذة بالقذة و حذو النعل بالنعل حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه". فهذا التعالي على اليهود و النصارى, و الادعاء أن لهذه الامة ميزات خرافية معصومة ما أنزل الله بها من سلطان, كيف استطاعوا أن يقبلوا مثل هذه المزاعم . اللهم انه التعصب الأعمى و الكبرياء الأرعن. فلم لا نقبل الأمور التي تجعلنا نتعالى على الاخرين, بحق او غير حق!

انظر للمسألة من حيث شئت لن تجد الا تخريف في تخريف, و هذر في هذر, و هجر في هجر, و خرص في خرص. و انا لله و انا اليه راجعون.

و لنختم هذا الفصل بالبحث في مسألتين: ما هو موضوع الاجماع؟ و من هو أول من بدأ بفكرة الاجماع كما يصورها هؤلاء الفقهاء؟

أما عن موضوع الاجماع. أي ما هي المسائل التي يمكن أن تعطى قدسية الاجماع و هيبته. يكتب الغزالي تفسيره لرواية لا تجتمع أمتي على خطأ "ما لم يعصم عنه الآحاد من سهو و خطأ و كذب و تعصم عنه الأمة تنزيلا لجميع الأمة منزلة النبي صلى الله عليه و سلم في العصمة عن الخطأ في الدين. أما في غير الدين: من انشاء حرب و صلح و عمارة بلد, فالعموم يقتضي العصمة للأمة عنه أيضا, و لكن ذلك مشكوك فيه, و أمر الدين مقطوع بوجوب العصمة فيه, كما في حق النبي صلى الله عليه و سلم, فانه اخطأ في تأبير النخل ثم قال: انتم أعرف بأمر دنياكم و أنا أعرف بأمر دينكم". ثم بعد هذه الفقرة يرد على اشكال أورده و يجيب عنه اجابة تجزم بأن الأمة معصومة "مطلقا, و به تثبت فضيلة الأمة و شرفها. فأما العصمة عن البعض دون البعض, فان هذا يثبت لكل كافر, فضلا عن المسلم, اذ ما من شخص يخطئ في كل شئ, بل كل انسان يعصم عن الخطأ في بعض الأشياء".

أقول: لاحظ أنه في هذا النص يفرق بين الأمر الديني و الأمر الدنيوي. و يفصل بينهما فصلا واضحا. فيوجد أمور "الدين" و يوجد أمور "الدنيا". فأما في أمور الدين, فالنبي فيها معصوم و بالتالي الأمة معصومة مثله تماما. و أما في أمور الدنيا, فالنبي قد يخطئ و بالتالي الأمة قد تخطئ أيضا مثله. المفترض أن الغزالي و من شابهه يجب أن يجزموا بهذا, أي ان يحصروا عصمة الأمة في اجماعها في أمور الدين فقط, لان النبي عليه السلام عندهم يخطئ في أمور الدنيا. و لكن نراه يقول أن عصمة الأمة في أمور الدنيا ثابتة بمقتضى عموم النص "لا تجتمع أمتي على ضلالة ..خطأ". ثم يشكك في هذا, فيقول "و لكن ذلك مشكوك فيه." و سبب الشك على ما يظهر هو كون النبي عليه السلام عندهم يخطئ في أمور الدنيا. و بغض النظر عن الرد على عقيدتهم في أن النبي عليه السلام يخطئ في أمور الدنيا, كما في قصة تأبير النخل المشهورة مثلا, فلسنا هنا في مقام الرد, و لكن كتعليق بسيط: ألست يا غزالي تقول ما معناه أن العامي العاقل يجب عليه أن يفوض ما لا يعلمه الى من يعلمه و لا يحشر أنفه في

أمور لا يفقهها؟ فاذن, فلنتفرض أن النبي عليه السلام- حاشاه- عامي من العوام, أليس من المفترض أنه لن يتدخل في مسألة تأبير النخل طالما أنه لم يفقه فيها, و يكون عاقلا لا يفتي في أي أمر بغير علم..أم يا ترى أن العامي العاقل اعقل من النبي عليه السلام؟ على كل حال, كما قلت لسنا هنا في صدد هذا الأمر. و لكن ما يهمنا هو تردد الغزالي في اثبات عصمة الأمة في أمور الدنيا أصلا, لان هذه مسألة خطيرة جدا فوق ما تتصور. لأنه على فرض ثبوت عصمة الأمة في أمور الدنيا- و العياذ بالله- فان هذا يعطي "أهل الحل و العقد..الخواص..فقهاء السلطة" الحق الشرعي في أن يحكموا في أي مسألة دنيوية ثم يختموا عليها بختم "أجمعت الأمة" و بالتالي يصبح حكمهم هذا معصوما مقدسا يعلو و لا يعلى عليه. و هذا بعض اثار هذا الرأي الخطير. فما هو رأي الغزالي في هذه المسألة؟ نراه يقدم رجل و يؤخر اخرى و لا يجزم جزما تاما في أول الأمر. فبمقتضى عموم النص يحكم بأن اجماع الأمة معصوم مقدس في أمور الدنيا أيضا, و بمقتضى خطأ النبي في أمور الدنيا ينفي عن اجماع الأمة هذا التقديس. و لكن في الفقرة الثانية يظهر أنه يجزم بالرأي الأول. أي أن مقتضى النص و فضيلة الأمة و شرفها لا تثبت الا اذا كانت العصمة مطلقة أي في الدين و الدنيا. اذ حتى الكافر قد يكون معصوما في بعض الامور, فأي فضيلة للأمة اذن ..لا , لا, يجب أن تكون هذه الأمة معصومة بالعصمة المطلقة في كل الأمور. فيظهر أن الغزالي رجّح جانب عموم النص, على جانب خطأ النبي في أمور الدنيا. و هنا يظهر شاهد اخر على أن الغزالي و من شابهه يرون اجماع الأمة أعلى حتى من النبي الذي يفترض ان عصمة الأمة امتداد له, فاذا بنا نراه يجعل الأمة أعلى من النبي نفسه, فالنبي يخطئ في أمور الدنيا, و لكن الأمة- حتى يثبت شرفها و فضلها- ينبغي أن تكون معصومة بالعصمة المطلقة. و هذا يعني أن شرف النبي و فضيلته لم تقتضي أن يكون معصوما في أمور الدنيا أيضا, و حيث ان العصمة المطلقة دليل على الشرف المطلق, و هي القاعدة التي على أساسها بنى الغزالي وجوب اعتبار الامة معصومة مطلقا, فاذن النتيجة أن النبي عليه السلام لم يكن في قمة الشرف و الفضيلة من هذه الحيثية. اذ النبي يجوز عليه الخطأ و الضلال في أمور الدنيا- كحادثة تأبير النخل مثلا- و لكن الأمة لا يجوز عليها الخطأ و الضلال حتى في أمور الدنيا. فالأمة أصبحت أعلى من النبي الذي يفترض أنها تمثله. و هذا يظهر أن النبي لم يكن الا درجة يصعد عليها هؤلاء البشر من أجل أن يؤسسوا لأصلهم الطغياني الملقب ب "اجماع الأمة". و هو ليس الا الدكتاتوريه و الشموليه المعروفه، اللهم باسماء و تبريرات مختلفه.

ما هي أمور الدنيا التي يفترض الغزالي أن الامة معصومة فيها؟ يضرب ثلاثة أمثلة: انشاء حرب و صلح و عمارة بلد. أقول: من الذين بيدهم انشاء الحرب و الصلح و عمارة البلاد؟ أليسوا رجال الحكم و السياسة. هذا بديهي و معروف. و الان, ما معنى ان يكون الحكم مختوما بختم الاجماع؟ يعني كما عرفنا و كررنا كثيرا, حسب ما يقوله الغزالي و غيره, أن الحكم و الأمر معصوم واجب الطاعة لا تجوز مخالفته و هو حجة الهية على البشر و لا ينسخ و لا سهو فيه, يرفع به الكتاب و السنة و المتواترة, و غير ذلك. فاذن, عندما يحكم رجال السياسة في أمر حرب و صلح و عمارة بلد و ما شابه ذلك, و يتم الباس هذا الأمر الحكومي السياسي ثوب الاجماع المقدس المهيب, أليس ظاهرا حتى للأعمى أن الغزالي هنا أسس تقديس السلطة و اسباغ أعلى الصفات الالهية و النبوية عليها. أليس ظاهرا لماذا يلفون و يدورون من أجل اثبات هذا الأصل. اذ من هم أهل الاجماع في أمور الدنيا و الحكومة هذه كالحرب و الصلح؟ ليسوا الا رجال الحكومة و السلطة أيا كانوا. و طبعا اذا رجعنا الى نظرية هؤلاء الفقهاء في أولي الأمر – و الحق أنهم اللصوص المتغلبة كما يقول الزمخشري عن بعضهم- فانهم يرون أن الذي يصل الى

السلطة بالعنف و سفك الدماء و التغلب و القهر فانه من أولي الأمر الذين افترض الله طاعتهم. و لا يجوز الخروج عليهم حتى لو فسقوا و فجروا و نهبوا البلاد و العباد. هذه هي نظرية الحزب الذي يلقب نفسه بأهل السنة و الجماعة. و على ذلك, عندما يصدر هؤلاء اللصوص المتغلبة أمرا في أمور الدنيا, كالدخول في حرب مثلا و غزو بلاد الاخرين, و هم اهل الاجماع في هذه المسألة طبعا, و عندما نرى فقيها أصوليا يشرعن لقدسية و عصمة هذه الأوامر, فهل من الشطط أن نحكم على هذا الفقيه الاصولي بأنه ليس الا صبي من صبيان السلطة المتسلطة؟ هل هذا من الامور المبالغ فيها التي لا تعقل؟ و لكن لعلك تقول أن الغزالي كتب المستصفى في نهاية حياته, بعد ان تصوف و عرف الله و زهد في الدنيا, فكيف تزعم بأنه يشرعن للسلطة و تقديسها؟ الجواب أيها القارئ العزيز اللبيب: أولا لست أنا من "يزعم" ان الغزالي يشرعن لقدسية السلطة المتسلطة, هو نفسه من يقول ذلك بفصيح العبارة. فان كان اجماع الأمة ساريا حتى في أمور الدنيا و ضرب امثلة كلها أعمال حكومية سلطوية خصوصا, و كان الاجماع مقدسا كما يقول هو نفسه, فأين زعمي في المسألة ؟ الرجل يصرح بذلك. و ثانيا, الغزالي نفسه يحكي عن نفسه – قبل أن يسلك الطريق الصوفي- أنه كان من فقهاء السلطة و الدنيا. و من درس حياة الغزالي و سيرته رأى ذلك بوضوح. و فقهه كان بالتالي سلطويا بحتا. ثم بعد ذلك سلك طريق التصوف كما يقول, و اعتزل الناس نحو عشر سنوات, ثم رجع الى بلده و عاد الى التصنيف و التدريس الى حد ما. و لكن عقلية الغزالي الفقهية و الاصولية بعد تصوفه هي نفسها عقليته قبل تصوفه او لم تزل كذلك في اسسها كما يظهر في المستصفى, ففي فترة عزلته لم يدرس فقها و لا أصولا و انما دخل خلوة و رياضة روحية, و بالتالي لن يكون قد اكتسب علما فقهيا اصوليا جديدا في هذه الفترة, و حتى ان افترضنا انه اكتسب شيئا أو "فتح له" بشئ, الا أن الظاهر أن معظم حصيلته الفكرية في أصول الفقه مثلا هي هي التي كانت عنده قبل تصوفه. و بالتالي من المعقول جدا- خاصا في ضوء دراسة المستصفى- أن أفكاره من حيث أصول الشريعة بقيت على حالها الذي كانت عليه قبل تصوفه. أي بقي أصوليا يشرعن للسلطة و التسلط. و هذا من أكبر الشواهد أن الطريق الصوفي و الرياضة الروحية قد لا تغير كل حياة الانسان بل تؤثر في جوانب دون جوانب. و في كتاب الغزالي (فضائح الباطنية) الذي ألفه للرد على الشيعة الاسماعيلية و اثبات أحقية الحاكم الملقب بالمستظهر بالله العباسي بالخلافة الاسلامية, يظهر بوضوح كون الغزالي احد جنود الحكومة المخلصين, و في الكتاب يقول "دعوة العباسية- مد الله دولتهم اراغاما لانوف اعدائهم". و لست هنا بصدد تفصيل حياة الغزالي و الاستشهاد على نظريتي فيها, و حسبنا ما ذكرنا, و حسبنا ما يؤصل له الرجل في كتابه الذي كتبه في نهاية عمره الارضي.

ينبغي أن نلاحظ هذا الفصل بين الديني و الدنيوي. فان كان الديني هو المقدس الالهي, و الدنيوي هو الموكول الى البشر و اجتهادهم, فاني بصراحة لا أعرف أي معنى للعلمانية في أرقى صورها الا هذا. أي ان يعطى ما لله لله و ما لقيصر لقيصر كما هي العبارة اليسوعية المشهورة (و التي ارى انها فسرت بتفسير مغاير لما اراده الرجل يسوع من قولها). و بالرغم من أن الفقهاء لن يرضوا بأن تخلو ساحة "الدنيا" بالكلية من حضورهم, لاسباب يعلمها الراسخون في العلم و المصالح!, فان ادعاءهم اللاحق بأن الفقه الاسلامي يجب أن يدخل في كل صغيرة و كبيرة من كل شؤون الحياة, هو ليس الا تناقض اخر من سلسلة المتناقضات الطويلة التي طولها سبعون ذراعا أو يزيدون. فان كان الدنيوي غير مقدس و يجوز حتى على النبي الأكرم عليه و آله الصلاة و السلام أن يخطئ فيه, فأي شأن للدين اذن في أمور الدنيا؟ فليس للدين الا الصوم و الصلاة و شئ من الحيض و النفاس, و كفى. ما علاقة الدين المقدس

بالدنيا المدنسة. طيعا يمكن أن يتخذ هذا الفصل - و قد اتخذ فعلا- كنقطة انطلاق لتأسيس علمانية اسلامية من الطراز الرفيع. و هذا قد وقع فعلا. منذ القدم. فأصبح الدين للفقهاء, و الدنيا للسلاطين, و في يد الفقهاء سلاح اجماع الامة المقطوع به, و في يد السلاطين سلاح اجماع الامة "المشكوك فيه..المقطوع به!". فكأن الفقهاء تعمدوا جعل قدسية أحكام أهل السياسة مترددة بين "مشكوك فيه" و بين "مقطوع به" حتى يبقوا أهل التسلط في علاقة حسنة معهم. فكأن الفقهاء يقولون بذلك لأهل السلطة: اذا لم تقربونا منكم و تبقوا على سلطاننا عند العوام فاننا سنفتي بأن "الراجح أن اجماع الأمة مقتصر على شؤون الدين, و أما شؤون الدنيا فلا" و هذا سيسحب البساط من تحت أرجلكم و لن تبقى لاحكامكم و قيمكم تلك الميزات العظيمة التي يسبغها اجماع أهل الحل و العقد و ما أشبه. فان رضي الفقهاء عن المتسلطين قالوا أن اجماع الامة بمقتضى عموم النص يشمل أمور الدنيا أيضا, و ان غضبوا عليهم فانهم يستطيعوا أن يقولوا ان اجماع الأمة مقتصر على أمر الدين لان النبي عليه السلام أخطأ في أمور الدنيا و ليست عصمة اجماع الامة الا امتداد لعصمة النبي, فان كان النبي يخطئ في الدنيا فكذلك اجماع الامة قد يخطئ في الدنيا أيضا. و بصراحة, هذا من ابداع علماء الاصول و الفقه. ابداع رائع و سياسة متينة. و "الفقهاء فراعنه الاولياء و دجاجله عباد الله الصالحين" كما كتب الشيخ الاكبر ابن عربي في الفتوحات المكيه.

فاذن, اجماع الامة هذا, ما هو موضوعه و من هم أهله؟ وضع الغزالي قاعدة مهمة تقول "كل فريق كالعامي بالاضافة الى ما لم يحصل علمه و ان حصل علما اخر". أي ان الفقيه يعتبر عامي بالنسبة لعلم النحو و الكلام, و النحوي يعتبر عامي بالنسبة لعلم الفقه و الاصول, و هكذا. و هذه حقيقة عموما لا ريب فيها. فكل عالم يعتبر من "الخواص" في علمه الذي تخصص فيه, و يعتبر من "العوام" بالنسبة للعلوم الاخرى التي لم يسبر أغوارها. و بما أن أهل الاجماع هم الخواص, و ليس للعوام تأثير في ذلك, و هذه أيضا قاعدة فصلها الغزالي و ذكرناها من قبل فلا نعيد. فاذن النتيجة هي هذه: كل فرع في الحياة و العلوم له خواص هم أهل الاجماع, و بقية الناس بالنسبة لهم عوام لا تأثير لهم.

و بما أن الاجماع يمكن أن يكون في أمور الدين و في أمور الدنيا أيضا. فاذن كل أهل تخصص في علم من علوم الدين يعتبروا هم أهل الاجماع, و كذلك أهل فروع الدنيا. هل ترى ماذا يترتب على هذا؟ يلزم من هذا أن علماء الكلام في عصر من العصور, اذا اجمعوا على حكم مسألة معينة - فلنتفرض ان هذا وقع جدلا و لنفترض ان كل علماء الكلام بلا استثناء قد اجتمعوا في محل واحد و أفصح كل منهم عن رأيه في المسألة و و اتفقت كلمتهم كلهم على حكم معين او قول معين- فهذا يعني أن "اجماع الأمة" قد تحقق في هذه المسألة بهذا القول. و بالتالي يصبح حكمهم مقدسا مهيبا به كل خصائص الاجماع الذي لا يجوز نسخه و لا خرقه. فاذا هلك كل هؤلاء و رجعوا الى ربهم, و جاء بعد بضعة عصور علماء كلام و بحثوا و محصوا و دققوا, ثم اجتمعوا كلهم عن اخرهم في موضع واحد, و نظروا في نفس تلك المسألة "المجمع عليها" و اتفقت كلمتهم على رأي اخر, و اجمعوا على ذلك, فان هذا يعني أن كل هؤلاء العلماء عصاة فسقة قد خالفوا اجماع الأمة ! و قل مثل ذلك في كل فروع الدين و الدنيا. و ظاهر أن هذا سخف في سخف. فضلا عن عدم وقوعه من قبل- بالرغم من أن كل فرقة و طائفة ستدعي لبعض أصولها و أحكامها هذه القدسية- فان هذا يؤدي الى جمود الأمة و صنع أصنام ما أنزل الله بها من سلطان, اللهم

الا دعاوى يطلقها كل حفنة من العلماء يجتمعون في عصر من العصور, و يزعمون أنهم أهل الحل و العقد في شأن من الشؤون, و بالتالي يكون لهم امتيازات الاجماع. و هذا من أكبر أسباب تخلف و جمود معظم الناس في هذه الأمة الاسلامية. فسلاح الاجماع و هيبته الوهمية تحوم حولهم في كل صغيرة و كبيرة. و كلما تحرك مسلم في ناحية من نواحي الفكر الاسلامي فيجب عليه أن يتقي شر الاجماع و سطوته. و بالطبع كل فرقة عندها "اجماعات" الى ما شاء الله, و كل حزب بما لديهم فرحون.

و أما في أمور الدنيا, فأهل الحل و العقد مثلا هم أهل التسلط و الحكومة. فهؤلاء هم أهل الاجماع في هذا الشأن. و كل أحد سواهم يعتبر من العوام بالنسبة لهم بحسب مقتضى القاعدة. فهم الخواص و البقية كلهم عوام. و لك أن تتصور ما يترتب على هذا. و تصور كما تشاء بغير حرج.

فيظهر من كل ما فات أن فكرة الاجماع هذه هي سلاح سياسي لا غير. مجرد وسيلة من الوسائل الكثيرة التي يسعى بها بعض الناس للسيطرة على الجماهير. و الان, من أين بدأت هذه الفكرة؟ اذا تتبعنا ظهورها التاريخي, هل من الممكن أن نجد جذورها ؟ و ان افترضنا أنه لها جذور فمن هم أول أبطال و أرباب هذا الأصل؟

كتب الغزالي فقرة في معرض حديثه عن مسألة هل يشترط انقراض العصر حتى يتم الاجماع, و من الافضل أن ننقل الفقرة كلها ثم نرى ما فيها, كتب الامام رحمه الله " الشبهة الرابعة: ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: اجتمع رأيي و رأي عمر على منع بيع أمهات الأولاد, و أنا الآن أرى بيعهن. فقال عبيدة السلماني:رأيك في الجماعة أحب الينا من رأيك في الفرقة. قلنا : لو صح اجماع الصحابة قاطبة لكان هذا يدل من مذهب علي على اشتراط انقراض العصر. و لو ذهب الى هذا صريحا لم يجب تقليده. كيف و لم يجتمع الا رأيه و رأي عمر, كما قال. و أما قول عبيدة: رأيك في الجماعة, ما أراد به موافقة الجماعة اجماعا, و انما أراد به: أن رأيك في زمان الألفة و الجماعة و الاتفاق و الطاعة للامام, أحب الينا من رأيك في الفتنة و الفرقة و تفرق الكلمة و تطرق التهمة الى علي في البراءة من الشيخين رضي الله عنهما. فلا حجة فيما ليس صريحا في نفسه".

أقول: لا أريد أن أعلق على الكلمات و التلميحات الناصبية من الغزالي و طعنه المبطن في علي عليه السلام, و لا اريد أن أرد على زعمه بأن مخالفة علي لرأي عمر يعني او يتضمن و يلمح الى "الفتنة و الفرقة وتفرق الكلمة و تطرق التهمة الى علي في البراءة من الشيخين" و لا أدري ما علاقة هذا بهذا, و هل خلاف علي في مسألة فقهيه يقتضي و يسبب فرقة و فتنة و عصيان الامام و تهمة البراءة من ابي بكر و عمر! فليفهم اهل الاشارة ما يفهمون. ليس هذا مبحثنا هنا. و انما ما يلفت النظر هو كيفية رد عبيدة السلماني على علي. "رأيك في الجماعة أحب الينا من رأيك في الفرقة". و هنا نرى ملامح من فكرة الاحتجاج باجتماع الامة و وجوب لزوم الجماعة بغض النظر عن الرأي الشخصي في الأمر. فالمهم أن تبقى في الجماعة. ثم من حسن توفيق الله أنه بعد أن قرأت هذه الفقرة

استشعرت بأن جذر مسألة الاجماع لعله يرجع الى عهد عمر بن الخطاب و أن له يدا في الأمر, و كان منطلق استشعاري هذه الفقرة التي نقلتها عن الغزالي. ثم تركت الأمر نحو يوم و لم أكتب في الأمر. فوفقت للنظر في كتاب "مظلومية الزهراء" للسيد محمد رضا الشيرازي رضوان الله عليه. و في ذيل هذا الكتاب وجدت ذكر لمصادر سنية عن مسألة هجوم عمر بن الخطاب و من معه على دار السيدة فاطمة صلوات الله و سلامه عليها, بعد وفاة النبي الاول عليه السلام. ووجدت تصريحا من عمر بن الخطاب بعقيدة الاجماع هذه. و أنقل لكم نص الرواية, بل الروايات مع ذكر المصادر السنية التي توجد فيها هذه الروايات و سأقتصر على بعضها فقط اذ مضمون الرواية مشهور.

في كتاب العقد الفريد-مجلد 4 ص242- لابن عبد ربه الاندلسي (الذي يقول عنه ابن كثير في البداية و النهاية: من الفضلاء و العلماء بأخبار الاولين و المتأخرين) " الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر: علي و العباس و الزبير فقعدوا في بيت فاطمة, حتى بعث اليهم ابوبكر عمر بن الخطاب ليخرجوا من بيت فاطمة, و قال له:ان أبوا فقاتلهم. فأقبل بقبس من نارعلى أن يضرم عليهم الدار, فلقيته فاطمة فقالت: يا بن الخطاب, أجئت لتحرق دارنا ؟ قال: نعم, أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة ". و نفس كلمة عمر هذه ينقلها أيضا أبو الفداء في المختصر في أخبار البشر-ج 1 ص156. و كذلك ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان-ج1 ص268. و كذلك محمد بن شحنة في روضة المناظر في أخبار الاوائل و الاواخر على هامش الكامل لابن الاثير- ج11 ص 113.

و في كتاب بيعة الرضوان لمحي الدين البغدادي-ج2 ص33 يقول "ان ما جاء في التأريخ من اعتداء الخليفة عمر على بيت فاطمة و ايذائه اياها لم يكن في الكرسي و الخلافة, بل كي لا تتفرق و تفتتن الأمة فيما بينها". و يكفي هذا.

فاذن عمر هو أقدم من جاء بفكرة اجبار و اكراه المخالف على الدخول كرها في أمر ما بحجة أن هذا الامر هو أمر "الأمة". "ادخلوا في ما دخلت فيه الأمة", "كي لا تتفرق و تفتتن الأمة". و كتعليق بسيط: لاحظ المغالطة السخيفة في قول عمر لعلي بن ابي طالب و من معه "ادخلوا في ما دخلت فيه الامة" و كأن علي بن ابي طالب و السيدة فاطمة و العباس و الزبير و المقداد و غيره ليسوا من "الأمة" و انما عليهم أن يدخلوا فيما دخلت فيه الأمة ! و هذا يفترض أن عمر كان يرى أن سادة السقيفة –و هم قلة من المسلمين او هذه دعواهم على الاقل- هم "الأمة" فما أبرموه و قضوا به فهو حكم الأمة, و يفترض أيضا أن حكمهم واجب الاتباع لا تجوز مخالفته بحال من الاحوال, و يجب أن يجبر المخالف على الدخول فيه مهما كان الثمن حتى لو كان حرق بيت علي عليه السلام الذي لولاه لعله لما كانت "الأمة" أصلا , و كبس بيت فاطمة بنت سيد "الأمة", و الهجوم على بيتهم خوفا من أن يكونوا "سبب تفرق و فتنة للامة" كما يزعم هذا الناصبي الخبيث محي الدين البغدادي و من لف لفه. و لا أدري ماذا سيقول هذا الخبيث و أشباهه اذا قال لهم شيعي مثلا أن عمر او ابوبكر كانوا سبب في فتنة و فرقة الامة. لعله سيتهمك بالكفر فورا. حسنا, أليس علي و فاطمة عندكم من الصحابة الاجلاء أيضا, فكيف استباحوا لانفسهم بان يقولوا أن عمر و من معه هجموا على بيت فاطمة و ارادة حرقه بحجة أنهم أرادوا اتقاء الفتنة و الفرقة التي سببها عدم مبايعة علي و فاطمة و من معهم؟! أم أن حرمة فلان و فلان مصونة و حرمة ولي الله المطلق و سيدة نساء العالمين غير مصونة؟ على أية حال. هنا نرى مرة أخرى أن عمر بن الخطاب و شيعته هم أول من أسس لفكرة الاجماع ذات الصبغة

السياسية و الدينية هذه. و كما ترى بوضوح, فان أول استعمال لها كان في شأن سياسي ديني (و التفريق بين الديني و السياسي هو امر متأخر كما لا يخفى). ففي مسألة الحكم و الخلافة استعمل سيف الاجماع لأول مرة, و أول من سل هذا السيف في وجهه هو الامام علي بن طالب عليه السلام, و السيدة فاطمة الزهراء عليها الصلاة و السلام. ثم استمر المسلسل القبيح من بعد ذلك الى يومنا هذا الى حد ما كما هو معروف.

و قد ذكر الغزالي في (فضائح الباطنية) عبارة مهمة جدا و لها دلالة كبيرة. في الباب الثالث من الكتاب المذكور, عندما يفصل الغزالي – كما يتخيل- طرق استدراج الباطنية للناس الى مذهبهم, ذكر ان الباطنية لهم دعاة أذكياء ماكرين جدا, و من دهائهم و مكرهم أنهم يستدرجون كل طائفة من الناس بالعقائد التي يعتقدونها. فمثلا اذا ذهب الداعي الباطني الى يهودي, فانه يدخل عليه من عقائده اليهودية و يظهر له انه يؤيده فيها ثم بعد ذلك يبدأ في استدراجه الى مذهبه. و هكذا في بقية انواع الناس و أديانهم. و الغزالي يكتب على لسان دعاة الباطنية- اي كأنهم يتحدثون- أنهم يقولون التالي "و أما حال المدعو من حيث المذهب, فان كان من الشيعة فلنفاتحه بأن الأمر كله في بغض بني تيم (قبيلة أبو بكر) و بني عدي (قبيلة عمر بن الخطاب) و بني أمية و بني العباس و أشياعهم و في التبري منهم و من أتباعهم و في تولي الأئمة الصالحين و انتظار خروج المهدي. و ان كان المدعو ناصبيا ذكر له ان الأمة أجمعت على أبي بكر و عمر, و لا يقدم الا من قدمته الأمة. حتى اذا اطمأن اليه قلبه ابتدأ بعد ذلك يبث الأسرار على سبيل الاستدراج المذكور بعد. و كذلك ان كان من اليهود و المجوس و النصارى حاوره بما يضاهي مذهبهم من معتقداته. فان معتقد الدعاة ملتقط من فنون البدع و الكفر, فلا نوع من البدعة الا و قد اختاروا منه شيئا, ليسهل عليهم بذلك مخاطبة تلك الفرق على ما سنحكي من مذهبهم".

أقول: تأمل في كلامه جيدا. ألم تلاحظ شئ يلفت النظر؟ دعني أحاول مساعدتك للملاحظة ثم ارجع و اقرأ النص من جديد. عندما يريد الداعي الباطني أن يستدرج الشيعة, ماذا يستعمل؟ يستعمل أبرز أفكار الشيعة و خصائصهم المذهبية. فبغض ابوبكر و عمر و عثمان و بني أمية عموما و بني العباس عموما و التبري منهم و في موالاة أئمة أهل البيت العلويين و انتظار خروج المهدي منهم, هي من خصائص التشيع لأمور معروفة لسنا بحاجة لذكرها هنا. هذا معروف و واضح و ليس فيه شئ. و لكن ما يلفت النظر هو أن الداعي الباطني- كما يقول الغزالي- عندما يريد أن يستدرج النواصب (اي الذين يبغضون علي بن ابي طالب و أهل بيته) ماذا يستعمل هذا الداعي الذكي الداهية؟ لابد أنه سيستعمل أيضا فكرة مميزة يعتقد بها النواصب و تعتبر من خصائص مذهبهم, كما أن التبري من أعداء علي و تولي أهل بيته هي من خصائص التشيع بل هي الخاصية الكبرى للتشيع من حيث العقيدة العمليه. فما هي هذه الفكرة الناصبية المميزة؟ يقول الغزالي "و ان كان المدعو ناصبيا ذكر له أن الأمة أجمعت على أبي بكر و عمر " فاذن للنواصب خاصيتان أساسيتان: فكرة اجماع الأمة, و فكرة أن الأمة أجمعت على أبي بكر و عمر !! و معلوم أن أول من بدأ فكرة أن الامة أجمعت على أبي بكر خاصة هو عمر بن الخطاب نفسه ! كما ذكرنا قبل قليل. "ادخلوا فيما دخلت فيه الأمة", و هو عين قول النواصب الذي يذكره الغزالي هنا, أي ان الأمة أجمعت على أبي بكر و يجب أن يقدم من تريد الأمة تقديمه. و قل مثل ذلك في عمر- بالنسبة لهم بالطبع. و أما ما علاقة مناصبة علي و آله العداء بالاعتقاد بأن الأمة أجمعت على أبي بكر و عمر, فلنترك ايجاد العلاقة بين هذين الامرين للذين يزعمون أنهم "يحبون" علي بن أبي طالب و مع ذلك يعتقدون بأن الأمة أجمعت على أبي

بكر و عمر ! ليت هؤلاء المغفلين يستيقظون. و ما يهمنا هنا هو النتيجة المستخلصة و هي هذه: النواصب هم أول من اخترعوا فكرة اجماع الأمة هذه, و عمر بن الخطاب امام و رئيس هذه المقولة. و مصدر هذا الاستخلاص ليس الا قول مؤرخو شيعة عمر بن الخطاب (أهل السنة كما يسمون أنفسهم) و أبو حامد الغزالي في كتابه فضائح الباطنية. و أما دوري في الاستخلاص فليس الا الملاحظة و الجمع بين هذا و ذاك كما رأيت بنفسك أيها القارئ اللبيب. و طبعا نقض فكرة الاجماع لا يستند الى كون النواصب أو غيرهم هم اصله أو أول من استعمله. و لكن يستند الى كل الحجج التي ذكرناها في هذا الباب. و انما ذكرت "تاريخ" فكرة الاجماع من باب الفضول المعرفي و لكي ندرك شئ جديد من زوايا و أبعاد فكرة الاجماع هذه. و عندما تنظر الى حامل الفكرة فانك قد ترى بعدا جديدا للفكرة لن تراه اذا نظرت الى الفكرة مجردة. و كلا الأمرين خير. و لكن الأصل هو النظر الى الفكرة بتجريد, ثم النظر اليها مقرونة بمبدعها و أوائل حامليها. و هذه النظرة الثانية ثانوية كما ذكرت, فثبوتها يقينا او حتى زوالها يقينا لن يغير من نقد الفكرة بالنظرة الاولى المجردة. فتأمل.

و أحسن تعريف للاجماع في الميراث الفكري للمسلمين في القديم, وجدته مذكورا في المستصفى أيضا في بداية باب الاجماع. يكتب الغزالي "و ذهب النظّام الى أن الاجماع عبارة عن: كل قول قامت حجته, و ان كان قول واحد". و النظّام هو الامام المعتزلي المشهور. و تعريفه للاجماع هو أحسن تعريف قدمه أصولي على الاطلاق. و هو التعريف الموافق للقرءان و مقتضيات الحياة الانسانية الكريمة الخالية من طغيان أرباب الطغيان بشتى صورهم. فحتى اذا قلنا أن "اجماع الامة حجة" فان كلمة "الامة" تنطلق على الفرد الحامل للحق, و لو كان واحدا منفردا في مواجهة ألف ألف انسان. الدليل؟ يقول الله تعالى عن ابرهيم الخليل الامام المطلق للمسلمين و أبو الملة " ان ابرهيم كان أمّة". و قد حان وقت أن يحكم المسلمون على صنم الاجماع هذا بروح ابرهيم الخليل و سلاح التنزيل. و لا قوة الا بالله العلي العظيم.

....

قبل ان نختم هذا المبحث نريد ان نذكر ثلاث ملاحظات على عجاله.

اولا، في الروايه المشهوره عند القوم " لا تزال طائفه من امتي ظاهرين على الحق " و التي يستدل بها اصحاب المذهب الواسع في التكفير، الذين يريدون اخراج كل احد سواهم من امه محمد، فيها نفسها رد عليهم. فالروايه تقول " لا تزال طائفه من امتي " و هذا يعني ان من سوى هذه الطائفه ايضا من امته . و يكون البقيه اما غير ظاهرين على الحق، كان يكونوا مستورين او مغلوب على امرهم، او يكونوا قد اعرضوا عن جانب من جوانب الحق في امر من الامور و هكذا. فالروايه تحتمل كل هذا بلا تكلف. و النص واضح انه يسمي من عدا هذه الطائفه " امتي ". فهم كلهم من امه محمد.

ثانيا، لا اجماع عند الغنم. بمعنى انه لكي يتم اعتبار راى المفكر او العالم او الفرد المسلم، يجب ان تتوفر الحريه الكامله له في ان يفكر و يقول ما يشاء بلا اي خوف او توقع عنت و ضيق من المحيط. و عندها فقط يمكن ان ننظر

في ما ينتجه هؤلاء و نجمعه و نعتبر انه قد نرى له قيمه من حيث ان "اكثر" المسلمين يرون ذلك او "كل" المسلمين يرون ذلك الامر – هذا من حيث النظريه. و اما بوجود "خواص و عوام" و "اهل حل و عقد و رعيه " و حد رده و زندقه، فانه لا مجال لاعتبار اي شئ يصدر او لا يصدر من علماء المسلمين لانه يوجد على الاقل سبعه اسباب لرد هذه الاعتباريه و هي عين الاسباب التي ذكرها الغزالي رحمه الله و نقلناها عنه.

ثالثا، اعتبارنا لزلل العالم المسلم او الفرد المسلم في مساله و امر مهما فحش في نظرنا فانه لا يجيز لنا ان نسقط اعتباريته في كل الامور و المسائل. فالله تعالى يحكم على الناس بالميزان " فاما من ثقلت موازينه " لاحد الاطراف، و هذا يعني ان الكل يمكن ان يحتوي على حسنات و سيئات، و هذا معروف و انما نذكره من باب التذكير و وضع الامور في نصابها. فما اخذناه على العلماء و المفكرون الكرام الذين نقلنا عنهم – مهما كانت حده الاعتراض – لا يعني اننا نرى سقوطهم بالكليه و العياذ بالله. كيف و هم ممن تعلمنا منهم و استفدنا منهم و قد افادوا الامه عموما بنحو او باخر. و لكن ساحه الفكر لا تعرف مثل هذا "التسامح" او المداراه. ليس في عقلي قدره ان افكر و احلل و انظر في نفس الوقت الذي اهتم فيه بالتعابير و الالفاظ العرضيه. فليدرك ذلك من يقرا لنا حتى يرتاح و يريحنا معه.

5. (خاتمة بحث الاجماع)

لا يوجد "سواد أعظم" ليلزمه الناس حين يكون السواد الاعظم المزعوم انما هو تابع لقله من الناس، فالسواد انما هو مظهر، و واقعه قله من وراء الستار. فلزوم الجماعه بهذا المعنى : كذب و سطحيه.

لا اجماع في شريعة الله الا البرهان من كتاب الله. فمن كان عنده رأي فليذكر براهينه و لا يذهب و يقاتل من قرى المذاهب المحصنة أو من وراء جدار " أجمعت الأمة". نحن أمة لا تعرف الا " هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين" هذه الآية هي أكبر دليل يهدم فكرة الاجماع, و هي الآية التي تشفي من داء " أجمعوا" و " اتفقت الأمة" .

و مجمل القول في المسألة هو هذا: الاجماع ان كان مستند على برهان, فاذا الحجة هي البرهان و ليس للاجماع شيء. و ان كان مستند على برهان و لكن المجمعون كتموه فان الله قد لعن الذين يكتمون البينات. و ان لم يكن الاجماع مستند على برهان فالمجمعين قد قالوا بالهوى في دين الله و قد حل عليهم غضب الله يقينا. فاذن لا يقول بأن الاجماع دليل شرعي في دين الله الا جاهل أو مغضوب عليه.

و هذه الاية هي خلاصة ما يقال لاهل هذا الاجماع المزعوم " هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين"

(القياس)

1. (ما هو القياس المقصود هنا ؟)

لدينا واقعة و لها حكم شرعي عينه الله. و لدينا واقعة أخرى لا نعلم لها حكم من الله مباشرة و نريد أن نعرف حكم الله فيها. فنذهب الى الواقعة الأولى, و ننظر في العلة التي من أجلها حكم الله بما حكم, ثم نرجع الى الواقعة الثانية, و ننظر هل تتوفر فيها نفس العلة التي جعلت الله يحكم بالحكم الأول. فان لم تتوفر بحثنا عن واقعة أخرى. و ان توفرت نفس العلة تماما جعلنا حكم الواقعة الثانية نفس حكم الله في الواقعة الأولى. هذا هو ملخص القياس في اصول الفقه.

2. (أساس القياس و نقده)

نلاحظ أن القياس يقوم على ركنين: معرفة علة حكم الأصل. و معرفة تحقق علة الأصل في الفرع.

و اذا أردنا أن نعرف قوة الفكرة فيجب أن تكون أركانها قوية أولا.

أولا, علة حكم الأصل. من العسير جدا أن يحيط الانسان بالعلة التي جعلت الله يحكم بحكم ما. فللحكم الواحد سبعين علة, علل جسمية و عقلية و اجتماعية و سياسية و كثير غير ذلك. فعندما يقول فقيه أن هذا الحكم صدر بسبب هذه العلة, فما أدراه أنه لا يوجد علل أخرى اجتمعت مع العلة الأولى التي ذكرها هو, على فرض صحتها, و مجموع العلل أنتج الحكم؟ و حكم الحاكم متناسب مع مقدار علمه و خبرته و حكمته و غايته. فمن أين للفقيه أن يعرف بنفسه كل العلل التي حكم بسببها الله؟

فمثلا, عندما يحكم الكتاب بالعدة أربعة أشهر و عشرا للتي يتوفى عنها زوجها. ما هي علة هذا الحكم و هذه المدة بالذات؟ قد يقول الفقيه " للتأكد من براءة الرحم" هذا لا يحتاج الى أربعة أشهر و عشرا خاصة لو استعملنا الأجهزة و التحاليل الحديثة و التي تجعنا نعرف وجود الجنين من عدمه في ظرف ساعات. العلة اذا زالت زال المعلول. فهل حكم الكتاب المتعالي أصبح لا فائدة منه اليوم؟ و أيضا لا نحتاج الى اربعة أشهر و عشرا للتأكد من براءة الرحم. و أيضا لماذا اذن حكم بالعدة على اللائي يأسن من المحيض و اللائي لم يحضن, بالرغم من ان كلاهما لن تأتي

بولد؟ و هكذا, ففضلا عن امكانية نقد العلل التي يستنبطها الفقيه, فانه حتى ان وجد علة فما أدراه على وجه اليقين , بل حتى على وجه غلبة الظن, انها هي العلة الوحيدة؟ لا يستطيع.

و مثلا الزنا. لو قيل أن العلة من تحريم الزنا هي " عدم اختلاط الأنساب" لقلنا نعم قد يكون هذا صحيحا في الزمن الغابر, أما اليوم فنستطيع أن نعرف من هو الوالد بتحليل الحمض النووي. و لعل اليقين بمن هو الوالد اليوم أكثر من أمس, اذ لعل الزوج كان مسافرا أو في عمله فزنت المرأة مع الجار فحملت و لما رجع زوجها في الليل نام معها فظنوا أن الولد ولدهم و الحق غير ذلك. أما اليوم فساعات معدودة تكشف كل شيء. فهل أصبح الزنا حلالا لأن الخشية من اختلاط الأنساب زالت؟

و لهذا من يبحث عن تعليل حكم الله بمستوى عقله في زمن ما, ثم يزعم أن هذه العلة هي العلة الوحيدة التي من أجلها حكم الله بما حكم فانه قد قال على الله عظيما و بغير علم. كما رأيت في المثال السابق. و بهذا فان تعليل الدين يؤدي في أكثر الأحيان الى محق الدين. و التعليل الماحق هو أن يزعم أحد أن العلة كذا بغير دليل قاطع من نفس كتاب الله ثم يحلل و يحرم بناء على هذه العلة المظنونة.

و لعل تعليل تحريم الزنا باختلاط الأنساب كان يقينا لا يختلف عليه اثنان بالنسبة للأولين و حتى لأكثر الغافلين اليوم. ثم اخترع الأطباء تحاليل معينة فتحول اليقين الى وهم محض. فمن يستطيع بعد ذلك أن يعلل في الدين خاصة و ان كان سطحيا لا يعلم روح الله؟ ثم من أين لكم أن اختلاط الأنساب سوء عند الله؟ لعله لولا أن الأعراب كانت تقدس الأنساب لما فكر الناس أن هذه هي العلة. فالتعليل بالهوى و بالمستوى المعرفي للفرد المحدود هو المضر.

فاذن لا يستطيع أحد أن يعرف العلل الكاملة لحكم الله الا ان كان هو الله أو أن الله علمه اياها. كيف؟ بالوحي. و هل نزل القرآن الا لنعرف عقل الله (ان صح التعبير)و على هذا فقد انهدم القياس بانهدام ركنه. فالذي يستنبط علة حكم الله من غير كتاب الله فانما يتكلم بالظن, و الظن لا يغني من الحق شيئا. و اذا نظرت الى أكثر قياسات الناس فسترى أنها اسقاطات للعادات و أفكار معينة على القرآن. و فكرة ان الظن مقبول في الاحكام الشرعية العملية اي الفقهية, هي فكرة اقتضاها واقع الاحزاب, لان دينهم كله ظن في ظن, من ظن المرويات التي اغلبها احاد فضلا عن عدم الدقة و انعدام السياق في اغلبها كما وضحنا سابقا, الى ظن التعليلات المحدودة , الى ظن الى ظن و هكذا. و كثيرا ما يبني هؤلاء اصولهم بناء على فروعهم! بمعنى انهم ينظرون الى واقع حالهم ثم منه ينطلقوا في تأسيس قواعد لتحملهم و تؤيد مذاهبهم. و هذه فكرة مهمة تفسر الكثير جدا من عقائد و سلوكيات الناس في كل زمان و مكان. و لا أريد ان افصل فيها اكثر اذ هي خارج عن موضوعنا مباشرة, فاشرنا اشارة لاولي الالباب. "ثم نكسوا على رؤوسهم".

ثانيا, تحقق العلة في الفرع. يمكن أن يقال هنا نفس ما قيل في الأول فلا نكرر. و انما يجوز ان نبحث عن تحقق العلة في الفرع ان كنا قد عرفنا ما هي العلة التامة في الاصل, و حيث ان هذا غير ممكن كما عرفنا, فان الثاني المبني عليه غير ممكن ايضا.

3. (من مفاسد هذا القياس)

من الثمرة تعرف الشجرة. و ثمرة العقل القياسي هي موت القلوب و تجمد الحركة الاجتماعية و العلمية. لأن عقل المؤمن يصبح غير حاضر في الواقع كما هو, و يصبح لا يعرف و لا يقدر أن يواجه الحياة التي هو فيها, و يصبح لا يعرف كيف يدرس الظاهرة التي أمامه بدون فروض مسبقة بل هو ليس فقط يفترض و لكن يقطع ,و هنا المصيبة.

فهذا النوع من الناس و ما أكثرهم لا يستطيع مثلا أن يقتنع بالسباحة لأن السباحة خير بنفسها, و لكن يجب لكي تقنعه بالسباحة أن تقول له أن فلانا قال " عليكم بالسباحة" أو أن فلانا سبح في البحر لما كانوا في الحبشة ليستطلع الأخبار للمسلمين و فلانا صحابي, فاذن علينا أن نتعلم السباحة لأن الصحابة لا يفعلون الا الخير. أو ما شابه ذلك من التفكير الطفولي او الطفيلي.

و بعد الغياب عن الواقع و الفهم المباشر قل ما شئت عن الشر الناتج من ذلك.

4. (هل بعد القرآن نحتاج الى قياس؟)

أولا, ان من الدروس المستفادة من قصة البقرة هي أن لا نعقد الأمور البسيطة, و أن لا نجادل في ما لا حاجة الى الجدل فيه, و أن نبقي الواسع على سعته.

و ان الله قد فصل لنا القرآن و الأحكام لنفهم أسرار حكمته, و فصل لنا الغاية من الخلق. ثم من هذا نؤسس منهجنا في الحياة. و من الغاية تتشكل الوسائل.

فمن فهم كل هذا أصبحت معرفة الأحسن من الأعمال في كل مقام راسخ في عمق عقله و بديهة له, فلا يحتاج الى التكلف في اختراع الظنون لكي يعلم ما هو الأحسن في المسألة المعروضة أمامه.

ثانيا, ان القرآن يبين أنه لا يوجد علة واحد للحكم الواحد دائما بل علل كثيرة, و كذلك لا يوجد حكم واحد للعمل الواحد, بل في كل حالة يتغير حكم العمل الواحد. فمثلا القتل في حالة يكون محرما و يكون القاتل مغضوب عليه الى الأبد, و في حالة أخرى يصبح القتل واجب من تركه فهو المغضوب عليه, و في حالة ثالثة يكون القتل على التخيير ان شئت فعلت و ان شئت تركت بمقابل أو بدون. و هكذا في كل الأمور. فالبحث عن علة واحدة للحكم الواحد دليل على عقلية طفولية. و كذلك البحث عن حكم واحد للعمل الواحد.

و على هذا فيجب أن ندرس كل حالة على أنها حالة جديدة حتى نحسن فهمها, بدون سابق تشبيهات, و سابق افتراضات أثارتها أمور لا علاقة لها بالدين, كتجارب الفقيه في حياته الشخصية, أو آلامه و لذاته. فيأتي و يسقط كل ذلك على المسألة المعروضة أمامه, و هو يظن أنه يفكر بتحرر و اخلاص لوجه الله العلي.

ألم تسأل نفسك يوما لماذا لا نرى الأغنياء يعملون لانتصار الاشتراكية أو الغاء النقود ؟ أو صاحب نظام سياسي يبين للناس مفاسد هذا النظام؟ أو صاحب مؤسسة دينية يدعوا لحرية الفكر و جواز الخروج عليه؟

القول بالقياس دليل على الكسل. لأنه يريد أن يفرغ من المسألة بأن يلحقها بما يشبهها, و انتهى الأمر. و يقتل التفكير العاقل الذي ينفع كل الناس لقرون. ألا ترى أن الذي يدرس الأمور بتجرد و لفهم الواقعة نفسها ينتفع بعلمه أهل الشرق و الغرب, و أما الذي يقيس على أمور دينية خاصة لا ينتفع الناس بعلمه كالأول؟ هذا هو الفرق بين أن تدرس ما هو أمامك و بين أن تقيس ظاهريا على أفكار مسبقة عندك أو في نصوص كتبك.

فاذن, بطول التأمل في القرآن,و فهم الغايات التي يرسمها للحياة, و فهم الوسائل التي يدعوا اليها, و فهم الأسباب و العلل التي يذكرها, و ممارسة هذا التأمل لمدة طويلة و المداومة عليه, كل هذا يبني عقل للانسان يوازي عقل القرآن او يقترب منه في بعض المستويات, حتى يصبح حكمه مطابق لحكم الله, حتى لو لم يرجع الى القرآن و يذكر الآية بنصها, هذا اذا اجتهد و استفتح ليعرف الأحسن و تعمق في البحث.

و علينا أن ندرس ما أمامنا كما هو, و نستعمل ميزان العدل في الموازنة بين الحجج, بطول صبر و حب للمعرفة و العمل. و بهذا لا نحتاج الى قياس ضعيف مظنون, و لا الى أنواع هذه الأصول التي تقتل الحي و تجعله ميت في ثوب حي. و لا قوة الا بالله.

يوجد انفصام حاد خطير, و ازدواجية من اشد الازدواجيات تاثيرا سلبيا في تاريخ هذا النوع من الفقه, و هي ازدواجية العلة و الحكمة. بل هذه الازدواجية هي من اخطر و اسوأ ما يقع في كل دين او مذهب او مجتمع. و لها علاقة مفصلية في بحث القياس هذا. لاحظ ان ركن القياس ليس "معرفة الحكمة" و لكن "معرفة العلة". ما الفرق؟ سأذكر ما كتبه الدكتور عبدالكريم زيدان في كتابه الوجيز في اصول الفقه, ثم نعلق.

كتب الدكتور "الحكمة هي المصلحة التي قصد الشارع تحقيقها بتشريعه الحكم. و ان العلة هي الوصف الظاهر المنضبط الذي بني عليه الحكم وربط به وجودا و عدما لأنه مظنة تحقيق المصلحة المقصودة من تشريع الحكم. و لهذا يقول الاصوليون: الاحكام تربط بعللها لا بأحكامها" . و يضرب مثالا على هذا فيكتب "اباحة الفطر للمسافر في رمضان مثلا: حكمتها دفع المشقة, و هي امر تقديري غير منضبط, فربط الشارع هذا الحكم بأمر منضبط هو السفر او المرض, لان كلا منهما مظنة تحقيق حكمة الحكم. و مثله ايضا تشريع الشفعة (حكمتها) لدفع الضرر, و الضرر غير منضبط, فربط الحكم (كعلة) بالشركة او الجوار, لان الشريك او الجار قد ينالهما الضرر من المشتري, فربط الحكم بهذين الامرين مظنة دفع الضرر, و هو مقصود الشارع" . جيد, و الان ماذا يحدث بسبب هذا الانفصام المرضي بين العلة و الحكمة؟ نجد احكام من قبل هذه, يكتب الدكتور نفسه " على هذا (اي بناء على الشرح السابق): فمتى كان المسلم مسافرا فله أن يفطر, و ان لم يجد مشقة(!) و من كان مقيما فليس له الافطار و ان وجد مشقة في عمله (!) , و متى كان شريكا في عقار فله أن يمتلك حصة شريكه جبرا بحق الشفعة اذا باعها من اجنبي, و ان لم يجد ضررا من المشتري (!) لان حق الشفعة ربط بالشركة او الجوار لا بالضرر الفعلي (!) و من لم يكن شريكا او مجاورا فليس له التملك بالشفعة و ان ناله اعظم الضرر من المشتري (!)" فاذا سالنا علماء هذه الاصول: و لماذا تهتمون بالعلة اكثر من الحكمة حتى انكم تجوزون مخالفة الحكمة من اجل العلة؟ سيأتي الجواب, كما يكتب الدكتور "و السبب في هذا المسلك: ان الحكمة قد تكون خفية لا يمكن التحقق من وجودها, فلا يمكن بناء الحكم عليها... و قد تكون الحكمة امرا غير منضبط, اي يختلف باختلاف الناس و تقديرهم, و لا يمكن بناء الحكم عليه, لانه يؤدي الى الاضطراب و الفوضى في الاحكام, فلا يستقيم امر التكليف, و لا يطرد و لا ينضبط, و تكثر الادعاءات للتحلل من الاحكام" .

تعالوا ننظر في هذا الكلام المعمول به منذ قرون الى يومنا هذا, و معمول به ليس فقط على المستوى الفقهي بل على المستوى الديني و الاجتماعي و كل المستويات تقريبا.

أولا, لاحظ انهم يتحدثون عن حياة الناس و اعمالهم كما يتحدثون عن الالات او الغنم التي يراد وضعها في حظيره واحده. فهم يريدون ان تكون الاحكام التي تسري على حياة الناس "مطردة, منضبطة" و يريدون ان يسدوا الباب امام "الادعاءات" للتحلل من الاحكام. ادعاءات من؟ ادعاءات الناس المسلمين. هذه الادعاءات هو و امثاله يتحدثون عنها و كانهم يتحدثون عن عبيد لهم و لاباءهم, عن عبيد يجب قمع نواياهم في "التحلل من الاحكام" عن طريق فعل اي شئ, حتى لو كان بابتكار انفصام مريض و غبي مثل الانفصال بين العلة و الحكمة. الحكمة عند

الله هي العلة. فان زالت زال العمل كله, و ان وجدت وجد العمل. و لذلك لما خلقوا هذا الانفصال المريض اصبحت الاحكام, بل الحياة كلها, مقلوبة رأسا على عقب. فالحكمة من الفطر للصائم هي لدفع المشقة, فعندما تتحقق المشقة يجوز الفطر مباشرة. و لكن هذا الدكتور و امثاله من رؤساء الاحزاب, لا يريدون ان يكون لاتباعهم اي سلطان على انفسهم (خاصة في امور الدين العمليه الجسمانيه). فبدل ان يقولوا لاتباعهم: اذا وجدتم مشقة بالغة فالله قد اباح لكم الفطر, و هو ما يقتضيه اقرارهم بأن الحكمة من اباحة الافطار في السفر و المرض هي لدفع المشقة, فبدل ان يفعلوا هذا و يعطوا الناس سلطانا على انفسهم و استقلالا في تقدير شؤونهم التكليفيه , لا هذا لا يجوز عندهم, و لكنهم يريدون ان يضعوا قواعد و اصنام حتى يظل الناس عاكفون عليها الى الابد. ففي رأيهم انهم لو اعطوا مثل هذا السلطان للناس فان "الادعاءات ستكثر للتحلل من الاحكام" و ما شانك انت في ذلك؟ فليتحلل من يشاء, اليس الله سيحاسبه؟ تريده ان ينافقك انت و امثالك من السادة و الكبراء في المجتمع حتى لو كان هو لا يريد ان يصوم؟ ثم يصل الامر بهم الى النهاية المتوقعة المخزية و هي ان يبيحوا للمسافر ان يفطر و لو لم يجد مشقة, و لا يجيزوا للعامل الكادح التعيس ان يفطر لو لم يكن مريضا او مسافرا و لو وجد مشقة اهل جهنم! خطورة هذا الانفصام انه أساس الشكليات و البيروقراطية في الدين. عبادة المظاهر, النفاق, الفراغ المعنوي, التفاهة, و عبادة الاصنام و الاوثان كلها من فروع هذه الشجرة الخبيثة من الازدواجية بين العلة و الحكمة. و قل مثل ذلك في مثل الشفعة الذي ذكره. و هذه مجرد امثلة بسيطة توضح المسألة.

ثانيا, على اي اساس قرءاني اقمتم هذا الانفصام المريض؟ هل تجدون في القرءان انفصالا بين العلة و الحكمة؟ كما قلت و اكرر ان من يدرس القرءان سيجد ان الحكمة هي عين العلة. الصراع القديم الحديث بين الشكلية و الجوهرية, اي الناس الذين يدافعون عن الشكليات في المجتمع , و الناس الذين ينادون بضرورة التمسك "بروح" الدين او "بجوهر" الدين, اصل هذا الصراع هو الازدواجية بين العلة و الحكمة. انصار العلة يريدون بقاءها و التزام الناس بها حتى لو زالت الحكمة , و انصار الحكمة يريدون زوال العلة بسبب عدم تحقق الحكمة فيها. و قس هذا على كل صراع بين "المحافظين" و "المجددين" في المجتمعات. و سترى هذا ايضا في مسألة مثل الصلاة. الصلاة (اذا اخذناها بمعنى الصلوات الخمس المعروفة) المفترض انها مجرد وسيلة للاتصال بالله. فالحكمة التي يفترض ان تحققها هذه الحركات و ما فيها هي الاتصال بالله. و لكن ما يحدث هو ان يأتي انسان مثلا و يقول: انا لا ارتاح في الاتصال بالله عن طريق "هذه" الحركات و الكلمات, و لكني افضل و اجد الاتصال به عن طريق حركات اخرى او وسيلة اخرى. هنا سنجد الصراع بين انصار العلة و الحكمة قائم مرة اخرى. سيقول انصار العلة ان "هذه الصلوات هي مظنة تحقق المصلحة و الحكمة التي هي الاتصال بالله" و سيقول هذا الانسان الذي هو من انصار الحكمة "انتم تقولون انها مظنة تحقق الحكمة, و لكن انا على يقين انها غير متحققة في حالتي, و انا على يقين ان الحكمة متحققة في وسيلة اخرى, فكفوا عن المشاغبة". و هكذا في كل مسألة اخرى. اذا انفصلت العلة عن الحكمة تحول الدين الى صنم من الاصنام. و اذا عرفنا ان الحكمة هي عين العلة فكن على يقين اننا على هدى مستقيم و على خير دين على وجه الارض.

ثالثا و اخيرا, لاحظ ان الدكتور و امثاله يسمون اتباع الحكمة و الالتزام بها دائما , يسمونها ب "الاضطراب و فوضى الاحكام" . اضطراب و فوضى, نعم و ماذا يضرك انت؟ ان كان اتباع الحكمة يؤدي الى اضطراب و فوضى, فعدم اتباعها الى ماذا سيؤدي ايها المحترم؟ سيؤدي الى جاهلية عمياء. انا لا ادري عن اي اضطراب و فوضى يتحدث هذا الرجل و امثاله؟ اهو اضطراب في عقولهم؟ لعلهم يريدون تسهيل حفظ المسائل على انفسهم, او تسهيل ابتكار الحلول الفقهية و الاجتماعية والسياسية و ما اشبه, فعندها نعم نحتاج ان نجد عذرا لقتل الحكمة او سجنها على الاقل في بعض الاحيان, حتى يسهل علينا هذا الابتكار. نعم ان كان هذا هو الاضطراب الذي يقصده فانا اوافقه. و لكني مع الاسف لا ارضى ان اتعامل مع الناس عموما, و عباد الله خصوصا بهذه العقلية المسيطرة الطاغية التي تبيح لنفسها اشقاء الناس في مقابل حفظ انفسها (و لعل مناصبها ايضا في بعض الاحيان) من الفوضى و الاضطراب. و لاضرب اخر مثال من امر بعيد عن الفقه لاظهر لكم كيف ان انفصام العلة و الحكمة قد تغلغل في اعضاء مجتماعتنا. كنت في الجامعة ادرس القانون , و كنت ادعو الى الغاء نظام التحضير الاجباري (اي ان الدكتور عندما يدخل يكون معه كشف باسماء الطلاب, و يبدأ ينادي على الاسماء اسما اسما, و من يغيب عن المحاضرة خمسة مرات مثلا يرسب في المادة كلها). و واجهت نفس هذا المرض و انا ادعو الى هذا الالغاء. انا كنت اقول: الحكمة من حضور الطالب هي ان يستمع للدكتور و يستفيد من النقاشات التي تدور في المحاضرة, و انا شخصيا لا احتاج الى الحضور لافهم المادة لانني افضل ان افهم من الكتاب المقرر نفسه في الغالب و لا احتاج الدكتور الا في بعض المواد و في بعض الاحيان فقط, و يوجد امثالي كثير من الطلاب ممن لا يحضرون الا خشية الرسوب بسبب الغياب, بل ان الكثير من الطلاب لا يبالي اصلا بالمحاضرة, و تراه يلهو بالجوال او يتكلم مع زميله و لا يستفيد شئ من الحضور بل لعله يضر بزملاءه الذين يريدون الحضور و الاستماع للدكتور و المناقشة الجماعية. طبعا لم يرد علي السادة و الكبراء في الجامعة الا بنفس عقلية اصول الفقه التعيسة هذه و قالوا ما معناه: ان الحضور هو العلة التي هي مظنة تحقيق الاستفادة من المحاضرة. فلما قلت لهم: و لكن انا على يقين انني لا استفيد, بل ان الوقت الذي اضيعه في القدوم الى الجامعة فقط لاقول "حاضر!" عندما ينادى على اسمي هو وقت ثمين لو انفقته في دراسة مقررات الجامعة لكنت من الاوائل. (و قد تخرجت بمعدل امتياز من هذه الجامعة، فانا لست كسولا يريد التهرب من الحضور). و لكن مع ذلك انصار العلة فيهم علة لا يرجى الشفاء منها.

لقد فصلوا العلة عن الحكمة. خلقوا ووضعوا العلة لتكون مظنة تحقيق الحكمة, ثم انتهى بهم الأمر الى ذبح الحكمة من أجل الابقاء على حياة و رضا العلة. فأصابهم هذا بعلل شديدة لا يشفي منها الا الله. "و ان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل, فأمكن منهم, و الله عليم حكيم".

فاذن خلاصة الامر, الحكمة هي العلة. اينما وجدت وجد اثرها و معلولها, و اينما تخلفت تخلف معلولها. و الاجتهاد ضروري, و لكل انسان سلطان على نفسه فيما يخصه.

و بالمناسبة, يذكر الدكتور زيدان في فصل القياس جملة مهمة تستحق الاقتباس, بعد ان يذكر العلة و الحكمة كما نقلنا عنه قبل قليل, يكتب " و لا ينتقض ما قلناه بذهاب بعض الفقهاء الى عدم وقوع طلاق المكره او بيعه (يعني اذا تم اكراه رجل ليطلق زوجته, فقال لها "انت طالق" و هذه الكلمة هي العلة التي هي مظنة تحقيق الحكمة من الطلاق ووقوع الحكم كما فصلنا, و كذلك اذا تم اكراه احد على بيع شئ فظهرت منه علة البيع من ايجاب و قبول و ما شابه , فان بعض الفقهاء الغى فاعلية هذه العلة, فالدكتور الان يعلق على قول هؤلاء الفقهاء) "لأن العلة اعتبرت مناطا للحكم باعتبارها مظنة الحكمة, فاذا قام الدليل القاطع على انتفاء المظنة عن العلة , زالت العلة" (و هذا قول قوي و جميل, و يكفي لقبول ما ذكرناه من قبل و تأييده. فعندما تنتفي هذه المظنة فان فاعلية العلة تزول. و لكن ما لم افهمه هو لماذا لم يأخذ الفقهاء و منهم الدكتور بلوازم هذا القول في المسائل كلها. فمثلا, عندما قال ان السفر هو علة الافطار في رمضان, لان السفر مظنة تحقيق الحكمة من هذا الافطار و هو لدفع المشقة, فكان من اللازم ان يقولوا كما قال الدكتور هنا: و لكن اذا انتفت المشقة في السفر فان الدليل القاطع يكون قد قام على انتفاء هذه المظنة عن العلة و بالتالي تزول العلة. و كذلك كان من اللازم ان يقولوا ان العامل الذي تصيبه المشقة الحرجة في عمله, و لو لم يكن مسافرا و لا مريضا, فان الحكمة تكون تحققت و بالتالي له ان يفطر, اذ السفر و المرض مجرد امثلة للعلل التي يمكن ان تسبب المشقة, امثلة ذكرت على سبيل التمثيل و ليس الحصر كما يقول اهل القانون, و بالتالي كل ما سبب المشقة الحرجة فانه يعتبر من علل الافطار في رمضان. و قس على هذا المثال باقي المسائل الكبيرة و الصغيره التي يستعمل فيها القياس و العلة و الحكمة. لو قالوا هذا لاستقامت الامور. و لما اضطررنا ان نقع في هذه الدوامة المريضة من الانفصام بين العلة و الحكمة على مدى قرون. و غريب امر اهل العقائد الجازمة المسبقة, فانهم يقولون شئ في بداية كتبهم و ينقضونه في نهايتها, و لا يلتزمون بلوازمها في منتصفها. اياك و تصنيم الامور, فانه يجعلك مضطربا و يجعل الناس تضحك على لحيتك. و لا قوة الا بالله)

5. (خاتمة)

ان مبحث القياس هو مبحث مهم جدا. و لا يخفى على اصحاب النظر ان ليس كل القياس مرفوض, و لكن فقط ما يستند الى تكهن و رجم بالغيب. و لكن يوجد مباحث كثيرة مهمة و جميلة في القياس فليراجعها من يحب. و انما نرفض بعض الامور في القياس. و هي التي اشرنا اليها.

ولم أذكر أدلة المثبتين للقياس لأنه يوجد من المذاهب من أنكره و استوفى البحث فيه. فلا حجة من القرآن لهذا القياس لأن القرآن لا يخلق أموات بل أحياء نورهم يسعى بين أيديهم. و السنة نفسها ليست ثابتة و هي أضعف من أن تقيم أصل جديد من باب أولى , اذ الذي لا يقيم نفسه لا يقيم غيره. و الاجماع, و الذي هو الحجة الحقيقة للقياس ليس بثابت, و حتى الأمة لم تجمع كلها على القياس, سواء القدماء أو المحدثين. و طبعا المقصود هو القياس الضعيف الاسس فقط, اذ العقل دائما يقيس بطبيعته.

دراسة القرآن تغني عن القياس المميت. و دراسة الواقع أولى من عبادة القديم او العكوف على العلة الجامدة الميتة.

(الفرق بين دين الكتاب و دين الأحزاب)

1. (مقام الانسان)

أترى لو أن رجلا يقف في الدور العاشر في مبنى, و كنت أنت خارج المبنى على الارض. و رمى هذا الرجل حبل من عنده, من الدور العاشر, و قال لك " تسلق هذا الحبل و اصعد" , فالى أي دور يريدك أن تصعد؟ لابد أنه يريدك أن تصعد الى الدور حيث ينتهي الطرف الاخر من الحبل . فمثلا لو كان معقودا في الدور السابع و قال لك الرجل أن تصعد, لأصبح المعنى أنه يريدك أن تصعد و تكون في الدور السابع, حيث ينتهي الطرف الاخر من الحبل.

كذلك " الرحمن على العرش استوى" و " الرحمن علم القرآن" و " و اعتصموا بحبل الله جميعا" . فطرف القرآن الأول هو من أعلى العرش بيد الرحمن, و طرفه الثاني هنا على الأرض. فاذن الله يريدنا أن نصعد الى أعلى العرش.

ما معنى أن نصعد الى أعلى العرش؟

الذي يجلس على العرش هو الملك, و بما أن الله يريدنا أن نصعد الى العرش, حيث هو مستوي, اذن الله يريدنا أن نكون ملوك, و لذلك قال " و جعلكم ملوكا" . و أيضا " في مقعد صدق. عند مليك مقتدر" و لم يقل " عند المليك". و الفرق أن " المليك" تدل على أنه لا يمكن لأحد أن يكون ملك و لا يريد هو أن يجعل اي أحد ملكا. أما " مليك" فتدل على وجود ملوك غيره, فمن هم؟ هم الذين قال فيهم " و جعلكم ملوكا" أي كل من يرغب في دراسة كتابه, و تكون حياته تحت حكمه وحده.

الملك على العرش, و من عنده ألقى الينا روحه لكي ندرس كتابه و نرقى اليه و نجلس بجانبه على العرش و نصبح ملوكا. هذا ما يريده الله.

العرش رمز الحكم , فمجموع أحكام العوالم و ما فيها هو العرش. ففهم أسرار هذه الأحكام هو الجلوس على العرش. و الذي يفهم باطن عقل الملك و شؤونه فهو ملك به. " و جعلكم ملوكا و آتاكم ما لم يؤت أحدا من العلمين".

فالله يريد الانسان أن يكون ملك, لا أن يكون من العبيد, بل أن يكون ملك بالفهم. و هذا هو جذر التفرقة بين روح الكتاب و أغلال الأحزاب. الكتاب يريدك ان تكون ملك, الأحزاب يسعون لجعلك من العبيد, و الخيار بين يديك.

فمثلا, ترى عند الأحزاب أنه من الفضيلة أن تصدق بعقائد لا يقرها قلبك و أن تعمل أمور لا يفهمها عقلك, و يسمون ذلك " تسليما" و يقولون " نحن نفعل ذلك لأننا عباد الله و تسليما لأمره" بل انهم ليغالون أحيانا كثيرة فيجعلون مجرد التفكير في الجواب تكلفا و بحث " لا يصل اليه عقل الانسان القاصر" و يضربون على ذلك أمثلة كعدد ركعات الصلاة و طقوس الحج , و معاني صفات الله في القرآن, و معجزات الأنبياء, و أسرار الحروف المقطعة, باختصار كل ما له علاقة بأصل الدين و جوهره. و هنا محل التعجب منهم, و هو أن الأمور التي تميز هذا الدين عن باقي اختراعات البشر هي الأمور التي يستحيل فهمها و يجب أن لا يفكر الانسان فيها! و لذلك اني اتحير في تابع الأحزاب كيف لا يرتد. لعله بسبب سلطان التربية و العادة لا غير. فلو تربى هذا المغفل على الطواف حول الخنزير لاستوى عنده ذلك مع الطواف حول بيت مكة.

أما في دين الله فان فهم الشيء هو عين اتباعه " و لا تقف ما ليس لك به علم" و فهم الشيء في دين الملوك هو عين الايمان به. و لذلك فصل الله لنا أمور القيامة لأن الذي لا يفهم القيامة لن تقوم عليه. و أي فائدة في أن يفصل أمر , أن يفصل لك أمر لا علاقة لك بقيامه؟ تعظيم الفهم و جعله أولوية مطلقة لا تعلو عليها مصلحة عامة او خاصة هو الفرق بين الله و الشيطان.

و مثلا ترى عند الأحزاب أن ارادتك يجب أن تكون متوافقة غصبا عنك مع ارادة الشرع, سواء شرع الله أو الشرع بحسب تفسيرهم و قوانينهم. و يسمون ذلك " طاعة" و يقولون " نطيع الله و رسوله و أولي الأمر منا" . ان معنى الارادة هو أن تفعل الشيء و أنت تملك أن لا تفعله, و أن يستوي عندك الفعل و الترك, فلا اجبار و لا اكراه (و لا نفسي). فالخالق في ارادته أن يخلق شمس واحدة او سبعين شمسا, سواء فعل هذا أو هذا لا راد لحكمه و لا معقب له, و انما تتعلق الارادة بما يريده هو, و ليس ما يريد غيره, لا اله الا هو. هذا هو المعنى الحقيقي للارادة.

أما الشياطين فيقولون " انك تستطيع أن تطيع و تعصي, و قد أعطاك الله هذا الخيار, و لذلك سنجبرك على الطاعة, اما أن تطيعنا أو سنعاقبك و نقتلك" أليس معنى الطاعة البديهي هو ما ليس باكراه؟ ألم يجعل الله الطاعة في طرف و الاكراه في طرف آخر في قوله " ائتيا طوعا أو كرها"؟

أما في دين الله , دين الملوك(بالمعنى الروحاني و ليس الفرعوني طبعا), فانك حر في فعل ما تشاء, و في ارادتك تكمن انسانيتك. فلو أردت أن لا تتبع ما يأمر به الله فلك ذلك " افعلوا ما شئتم"(و لا يقال ان هذا للتهديد كما يقول بعض الشعراء) , و ان أردت أن تطيع فسيجزي الله الشاكرين. و لو فعلت الخير و أنت لا تريده فلن تؤجر, و لو فعلت الشر و أنت تريده فعليك أن لا تلوم الا نفسك لو وقع لك ما لا تحب بحسب سنن الله في العوالم.

تعظيم الارادة الفردية و أولويتها هو الفرق بين دين الملوك و دين العبيد.

فلا يوجد على الأرض كلها قديما و حديثا, شرقا و غربا, الا هذين الطريقين لا ثالث لهما, مهما تغيرت الثياب و اختلفت الألوان, فالجوهر واحد, اما عبيد و اما ملوك. العبيد يسلمون بما يفرض عليهم, و الملوك يتساءلون عما يعرض عليهم. فان شاؤوا عملوا و ان شاؤوا تركوا. و اليوم الذي يصبح فيه الفهم و الارادة هو أساس الحياة في المجتمع هو يوم المسيح و القيامة. و هو اليوم الذي توفى فيه كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون و الأمر يومئذ لله.

(كلمات حول بعض المسائل المعروضة في هذا الكتاب)

بعد أن فرغت من الكتاب وقع في يدي كتاب يرد على شبهات القرآنيين, و هو من دكتور سني, و بعد أن اطلعت عليه و وجدته قد جمع كل " شبهات القرانيين" خطر لي أن أضيف هذا الباب, اذ توجد مسائل أثيرت و لا تزال تثار حول القرانيين فأحببت أن أجيب عن المهم منها هنا طالما أن هذا الكتاب و لا شك سيصنفه الناس على أنه من كتب القرانيين.

-

1- تسمية " القرآنيين" .

اني لا أعلم كل من ينسب نفسه للقرآن فقط ما هي دوافعه الكامنة و راء عمله هذا, ولا يهمني, و اني لا أعلم أكثر من نفسي و ليس لي من غيري الا ما ظهر منه و فهمت منه, اذ الظاهر لا يدل على الباطن الصحيح دائما عند الناس. و بما أني أعلم أن من الناس من سيقولون عني " قرآني" و قد فعلوا, فسأحسب أن لا أحد غيري مقصود بهذه الكلمة حتى أقدر على الرد بوضوح. و تبيين موقفي.

لقد أصبح الذي يسمى " قرآني" يعتبر مذموما و هذه الكلمة كأنها وصمة عار على الجبين, لماذا ؟ فالسنة ينسبون أنفسهم في أحسن الظنون الى كلام محمد النبي الاول عليه السلام, و الشيعة ينسبون أنفسهم في أحسن الظنون الى كلام آل محمد العلويين (النسبة الدموية), و لكن القرآني ينسب نفسه يقينا الى كلام رب محمد و آل محمد, فما أحسن من ذم انسان بكلمة قرآني, بل هي أحسن تسمية لو كان الشخص سيجعل لنفسه تسمية أصلا.

و كتب المرويات هذه على فرض ثبوتها فانها انما ثبتت بحجة القرآن لا غير, و لولا القرآن لما وجدت مروياتهم, فالقرآن هو الأصل دائما, فلماذا لا ينسب المؤمن نفسه الى الأصل, و ينسب نفسه الى فروع و ينشىء أحزاب متفرقة؟ ان محمد الذي تدعون أنكم منسوبين اليه هو أول من سيتخلى عنكم كما قال الله " ان الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا لست منهم في شيء" .

و هذه قصة يفاخر بها السني على الشيعي. و هي أن مناظرة وقعت بين شيخ سني و الشيعة(و الشيعة يقولون العكس), و كانت حجة السني أنه قال " لم يكن يوجد شيعة أيام النبي فالشيعة بدعة" أو يقولون أحيانا " هل كان النبي يسمي نفسه شيعي؟ و النبي أسوتنا" أقول و بنفس هذا المنطق الذي تجادلون به الشيعة و تتغلبون عليهم بحسب رأيكم : هل كان النبي سني؟ هل كان يسمي نفسه سني؟ هل كان النبي يعرف شيء غير كتاب الله؟ فلو كان النبي سيسمي نفسه باسم لكان و لا شك هو اسم " قرآني" .

فالتسمية لا تهم , المهم هو العلم و الحكم من أين يستمد. فالسني في حقيقة الأمر انما يقصد بهذه التسمية أنه يستقي دينه من كتب معينة و بمنهج معين. و الشيعة كذلك, و كل تسمية أخرى انما المقصود منها شريعة و منهج, أي أصول يستمد منها العلم بمنهج معين. و بما أن شرعتنا هي القرآن و منهجنا منه فلو كان النبي سيسمي نفسه باسم لما وجد أمامه الا أن يسمي نفسه " قرآني" فهل كان للنبي مصدر علم غير الوحي؟ أليس الأمر هو " أن احكم بينهم بما أنزل الله" فكان مصدر علمه القرآن و خلقه القرآن. و لا معنى للقرآني غير هذا. فيا ليت لو يصدق علينا تسمية "قرءانيين" لكان هو الشرف فعلا.

2- دعوة القرآنيين دعوة شيطانية المقصود منها ابعاد الناس عن الاسلام .

هذا كلام صادق لا شك فيه. نعم بالنسبة لهم هذه الدعوة شيطانية و المقصود بها أولا ابعاد الناس عن اسلامكم, و ثانيا فتح باب دراسة كتاب الله لكل الناس كما هو في نفسه بدون مروياتكم و افككم و تخرصاتكم و تكهناتكم.

من الظاهر أن أحكام الناس تتبع اعتقاداتهم الشخصية. فالأمر يختلف باختلاف الحاكم و ذوقه. فهؤلاء ينظرون الينا على أننا من حزب الشيطان لأننا نقول غير ما يقولون. و أنا بدوري أراهم من الأحزاب لأنهم فرقوا أصل الدين و جعلوا العصبيات و الطموحات و الآباء حجة في دين الله. فهم لهم حجة و نحن لنا حجة, و بالتالي هم يتبرءون منا و نحن نتبرأ منهم. و الوقت سيظهر من أنفع للناس من من, كما حكم الله في كتابه " فأما الزبد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" و أكبر حجة لنا عليهم تظهر أنهم ضعفاء هو أنهم لا يأذنون لنا أن نتكلم في العلن و أن تنشر كتبنا بين أبناءهم و كبارهم, أما نحن فكل أفكارهم و مؤلفاتهم عندنا و كتبهم و تفاسيرهم عندنا. الأقوى لا يخشى. فان كنتم الاقوى, و نحن الاضعف و الاجهل, حسنا, فلم تخافون منا؟ لم تهددوننا بسفك الدم و السجن و الرجم و الطرد من البلاد؟ الأقوى لا يخشى. الخاسر الافاك هو الذي يخشى. فان كنا نحن من الخاسرين الافاكين عندكم, فلم تخشون منا؟ هذا تساؤل لكم لتفكروا فيه, ان كنتم تحبون التفكير طبعا.

فمجرد السب و اللعن و كل أنواع التهكمات كل هذا لا يغير من الواقع شيئا. لكل فكرة دليل يثبتها, فان كان قويا ثبتت, و اذا نظرتم الى كتب أعداء هذه الدعوة لوجدتم أن السب فيها أكثر من العلم في الكثير من الأحيان. فحتى يذكر المعلومة يجب أن يمهد لها بسب و شتم و لعن, ثم يتخللها أنواع من التهكمات, ثم يختمها بسب و لعن و شتم. و ان كان هذا يدل على شيء فهو يدل على شدة خوف هؤلاء من دعوة كتاب الله وحده. و خوفهم من أن يتهدم البناء الذي بنوه لأنفسهم. اذ من المعلوم أن الغضب من وسائل الدفاع عن النفس الرخيصة في الكثير من الاحيان.ولو كان السب يدل على قوة الحجة لكانت الحجة للمشركين على المرسلين, لأنهم لم يجدوا نوع من السب الا كالوه لهم, و لكن صدق القائل " ان جندنا لهم المنصورون".

ان أهل هذه الأحاديث لا يتطرقون للمسائل المهمة الجذرية. فها هو كتاب أمامي فيه 33 شبهة للقرآنيين و لا يوجد ذكر للمسائل الجذرية كقول الله أن "كتابه مفصل تفصيلا", و هذه الكلمة وحدها كفيلة بهدم كل دين الأحزاب لأن قاعدة بنائهم أن كتاب الله مجمل غير مفصل. و كذلك أن "الفرع لا يحتج به على الأصل" و أكثر جدالهم هو أن يقولوا لا يوجد تفصيل الصلاة في القرآن فاذن القرآن ناقص يحتاج الى السنة و ما أشبه, و هذا استدلال من جعل عالي الأمور سافلها كما عرفنا. كذلك أن "أي استدلال على حجية السنة – جملة و تفصيلا – يجب أن يكون نابع من القرآن فقط لأنه الأعلى", و هذا ما لا يمكن أن يقوموا به و لا حتى أن يلفتوا نظر أتباعهم اليه لأنهم لن يجدوا شيئا الا كالعطشان صاحب السراب الذي لم يجد عنده شيء الا الله فوفاه حسابه. و هكذا في باقي الأمور الأصلية المهمة.

و ان كان الذي يدعوا الى كتاب الله " ملحدا, علمانيا, يهوديا, زنديقا من زنادقة العصر, عميلا أجنبيا" فهل يوجد في الحياة كلها مؤمن؟ و لكن الذي يدعوا الى كتاب البخاري و ابن تيمية و فلان و فلان فهذا هو الصديق الشهيد أليس كذلك؟ و قد نبأنا الله بأمثال هؤلاء الذين يجرحون الفكرة بجرح الداعي اليها كقولهم " ان هذا لشيء يراد" أو " ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق" . وكأني بصوت أحد يقول: نحن لا ندعو الى البخاري, نحن ندعو الى سنة النبي! اقول: ايا كان صوت قائل هذه الكلمة الذي وصلني و انا اكتب, فيا عزيزي ارجع و اقرا كتابي هذا فأنت لم تفهم شئ مهم منه. و اقرأ بتأمل.

لا يوجد شيء قيل في المرسلين الا و سيقال بعينه في "القرآنيين" (و كما قلت انا لا اقصد الا ما ادعو اليه انا, و لست مسؤولا عن غيري كما ذكرت سابقا, "لا تكلّف الا نفسك"). و لا تحسبوا أن الأحزاب قد ذهبوا, بل هم هم في كل قرن الى أن يتم هذا الأمر.

كيف تكون دراسة كتاب الله و جعله أساس الحياة النفسية و الاجتماعية تعتبر " دعوة شيطانية تولى كبرها ابليس" و لكن الدعوة الى صحيح فلان و مسند فلان و مذهب فلان و آرائه هي دعوة الهية قائدها الملهم هو النبي محمد نفسه؟

يقولون أننا نريد أن نأتي بدين جديد. أقول نعم سنأتي بدين جديد, دين لا تعرفون شيء عنه بعد. و لكن سيأتي يوم ينظر فيه الناس الى أصحاب علم هذا الكتاب على أنهم موسى و هارون , و الى الأحزاب على أنهم فرعون و هامان و قارون. " و لكل نبأ مستقر و سوف تعلمون".

لو كنا عملاء لمن تسمونهم باليهود و النصارى فانا لن نتعب أنفسنا بالطعن في الأحاديث و لكن سنطعن في القرآن مباشرة. و يوجد في مصادركم و كتب تراثكم ما يكفي للطعن في القرآن. و هذا ما يفعله اعداء هذا الدين فعلا! و كما هو معلوم أن هدم القاعدة هدم لكل ما فوقها " فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم" فالظن أن هؤلاء يهدمون خطوة بخطوة دليل على ضعف عقولهم لو كانوا حقا يقومون بذلك. دعوني أسألكم, عندما ترسلون الدعاة الى بلاد الغرب ليدعوا الصليبيين و العبرانيين الى الاسلام, و تريدون أن تثبتوا لهم أن دينهم باطل باثبات أن كتبهم محرفة و فيها أخطاء, فهل تجادلونهم في التلمود و الزوهار و كتب الآباء و المعلمين, أم أنكم تدخلون مباشرة الى ما يسميه الصليبيين بالعهد القديم و الجديد؟ و ما تفعلونه هو عين العقل, و كذلك هم ليسوا بأخف عقولا منكم.

فهؤلاء السنيين و غيرهم لما وجدوا أن الناس تنصرف عن مذاهبهم و نظرتهم للحياة لأسباب كثيرة, لم يجدوا أمامهم الا سياسات معينة يتخذونها ليرجعوا الناس الى حظيرة مذهبهم. من أهمها أن يشعروا أتباعهم بوجود مؤامرة خارجية تسعى لهدم طريقتهم المثلى, و أنها تمارس عليهم شتى أنواع التأثير, فاذا جاء أحد الاتباع و أراد أن يتخلى عن هذا الدين سيشعر داخله أنه يتم التلاعب به, و أن الشيطان يوسوس له, و بذلك يعمد الى عقله و يقنعه بالثبات على الحق حتى يأتيه اليقين بالموت, و لا يبالي بعد ذلك لو كانت هذه الدعوة الشيطانية الخبيثة قبحها الله, هي الدعوة الى القرآن, فهذا من ألسنة اللهب عنده, و أدلتهم مهما كانت قوتها و وضوحها فهي مرفوضة لأن الشيطان الملعون له أساليب قوية في الاقناع, و العقل لا علاقة له بالشرع الذي يحكم على العقل. و انا لله و انا اليه راجعون.

و من أكبر الأدلة على ذلك أنهم يخشون أن تنشر كتب القرآنيين في مكتباتهم, أو أن يقرأها أبناءهم, و لا يأذنون بقيام برامج تلفزيونية تعلّم هذا الأمر و لا يقيمون مناظرات بين علماءهم و علماء هذا الأمر, (على مستوى واسع و مفتوح و راقي, و ليس التهريج الذي نراه من البعض هنا و هناك) في نفس الوقت الذي يسمحون فيه بدخول شتى أنواع الكتب الأجنبية و الفلسفية, أما القرآنية فلا و العياذ بالله. اجعلوهم يسمحوا بنشر كتبنا بين أتباعهم, و يقيموا مناظرات عامة راقية بيننا و بينهم, ثم أروني كم واحد منهم سيبقى معهم.

من هؤلاء اذا ذكر أحد المستشرقين فانه يسبغ عليه لقب "الأستاذ " و لكن نفس هذا لو ذكر قرآني يؤمن بالله و رسوله فتراهم تحولوا الى وحوش, و جعلوا حول اسمه من الشتائم حتى انك لتغلط في اسمه الحقيقي ما هو. امسك بكتاب ملحد و لا بأس عليك, و لكن أن تقرأ كتاب لقرآني فجهنم ستنفتح عليك.

و كلمة " اسلام" هذه ماذا تعني عندكم؟ كل فرقة تصيح كل يوم " اسلام! اسلام!" و كل فرقة تكفر الأخرى. فأي اسلام هذا الذي تتهموننا باننا نريد أن نبعد الناس عنه؟ أهو الاسلام السني السلفي؟ فالشيعة و الصوفية و غيرهم يعملون على ذلك ايضا.

عند الأحزاب قدرة عظيمة على التكلم و عدم التكلم في نفس الوقت. كلامهم لا مدلول واقعي له, حتى انك لتظن أن أهل السياسة في هذا العصر تعلموا منهم. و كذلك تحديد مدلول واضح و محدد ثابت هو أيضا نادر كالألماس في كلامهم.

و بما أننا نتهم بأننا نريد أن نبعد الناس عن الاسلام فيجب أن نفهم ما هو هذا الاسلام عندهم.

أولا, كلمة " اسلام" كلمة مجردة لا معنى لها عند أهل السنة, لأن الشيعي أيضا " مسلم" و لكنه كافر سيدخل النار, و المسلم لا يدخل النار لقول الله " ياعبادي لا خوف عليكم و لا أنتم تحزنون. الذين ءامنوا بئاياتنا و كانوا مسلمين" و أما أن يأتي غافل و يقول " أهل السنة لا يحكمون على الشيعة بأنهم في النار" فالرد عليه واضح و هو كتبهم تقول ذلك مباشرة أو غير مباشرة و كذلك دعاتهم. و لو أصروا على العناد فسأقول " بما أنكم لا تكفرون الشيعة فهم اذن من المسلمين, فدعوهم يدعوا الى "الاسلام" في بلادكم و مساجدكم!" و لن يجد من هذا مخرجا أبدا, لأنهم لن يأذنوا لهم بذلك, و لو كانوا يرونهم من المسلمين فلماذا لا يأذنون لهم؟

فالمقصود بالاسلام هو مثلا المذهب السني.

و لكن قد يكون الرجل مسلما سنيا و مع ذلك يكون في النار لو كان صوفيا بالنسبة الى الوهابية, و لن أقول عنهم سلفية لأن كل المذاهب تنتسب الى السلف, و كذلك الوهابي ناقص عند الصوفي. فلنأخذ الوهابية كمثال, فيصبح المقصود بالاسلام هو المذهب السني الوهابي.

" الاسلام السني" معناه أن تأخذ الدين من مصادر السنيين و بحسب منهجهم و " الوهابي" يعني أن تضيف التعديلات الوهابية على المنهج و طريقة فهمهم للنصوص.

و الآن أروني من يتهمنا بسوء اذا نحن رفضنا هذا "الاسلام"؟ كل الناس اذا ترفض " الاسلام" الا جماعة الوهابية! فعندما يقال أن عدد المسلمين يبلغ 1.5 مليار فهذا كلام خاطىء. لأن الاسلام هو أن تكون وهابي. فالأمر ببساطة هو هكذا , كل من ليس معنا فهو ضد الله. و لكل مسلم نفس الحق في أن يزعم لنفسه هذا الشرف بما أننا كلنا تركنا الاخلاص لكتاب الله و لكل واحد منا كتب خاصة, فأي فضل لك علي؟ هذا هو منطقهم و صدق القائل " كل حزب بما لديهم فرحون".

ان الله لا يريد كل هذا القتال. أصلنا كتابه و به نمشي بين الناس, و الحق ما ثبت تطابقه مع الواقع و ما ينفع الناس و كفى.

ثانيا, لو كان معنى الاسلام هو القيام بالأركان الخمسة, اذن لكان القرآن ينقصه أهم شيء جاء من أجله. لأن هذا التعداد الخماسي و تفصيلاته لا يعرفها كتاب الله تحت تعريف الاسلام و لا غيره. فتعريف الاسلام هذا غريب عن أصل أصول الاسلام الذي هو كتاب الله. كتاب الاسلام لا يحوي تعريف الاسلام! هذه حقا من الأمور المضحكة المبكية! لو أراد الغرب أن يشهروا بهم لكفاهم أن يقولوا لنا عندما ندعوهم الى القرآن العظيم أن يردوا علينا " ان كتاب الاسلام هذا لم يعلم تعريف الاسلام بطريقة واضحة, حتى انكم تتقاتلون على معنى الاسلام, فكيف تزعمون أنه كتاب عظيم كامل شامل لكل الحياة؟"

القرآني هو الذي يرفض أن يكون القرآن ناقصا.

ثم ان أئمة الشيعة الذين هم من آل محمد حتى عندكم لا يتفقون على هذا التعريف للاسلام و تفصيلاته. فأي اسلام هذا, و أي اجماع أمة. القرآن جآء ليوحدنا تحت مظلة دين الله و هؤلاء يقولون أن تعريف الاسلام لم ينص عليه كتاب الله!

اذن نخلص الى أن لعن الانسان لا يعني أنه ملعون. و اتهام الانسان لا يعني أنه مذنب. و الدعوة الى كتاب الله هي كدعوة محمد الى ملة ابراهيم لكي يحل الخلاف القائم بين الفروع التي خرجت من ابراهيم. فاما أننا كلنا و كل مذاهبنا من حزب الشيطان, أو أن أهل كتاب الله هم وحدهم من يصدقهم عليهم "حزب الله". فدعونا من سياسة الاتهام الجماهيرية الرخيصة, و تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم. و أنتم تعلمون ما هي الكلمة السواء.

-

3- يعيب أهل السنة علينا عندما نحتج بأحاديث معينة تؤيد ما نقول و نترك أحاديث أخرى ترد على ما نقول, و يدعون أن معنى هذه الآية ينطبق علينا " أتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض" . مثلا عندما نذكر لهم الحديث الصحيح عندهم و الذي ينهى النبي فيه عن كتابة حديثه, و لا نذكر الأحاديث الأخرى التي تؤيد الكتابة. فتعالوا ننظر في هذا فانه نافع ان شاء الله.

ورد في كتاب مسلم الذي يعتبر صحيحا عند جماهير أهل السنة أن النبي قال " لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن و من كتب عني شيئا غير القرءان فليمحه" بتصرف في اللفظ لأني أكتب من الذاكرة.

هذا النوع من الاستدلال ليس من باب " أتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض" و لكنه من باب "و شهد شاهد من أهلها" لا أكثر و لا أقل. نحن لم يقدم او يؤخر عندنا هذا الحديث, و لكننا نذكره لمن يؤمن به.

لا شك أن كل مذهب عنده من الأدلة ما يكفي لاثبات مذهبه, و هل كتب المذهب الا لكي تثبت المذهب؟ فشيء بديهي أن يكون عندهم ما يؤيدهم. و لكن عندما يريد انسان أن يجادل فانه ينظر في كتب الخصم ليجد ما يؤيده بدون تحريف و تحوير. هذا معروف و كل أحد يقوم به, حتى علماء السنة أنفسهم.

فمثلا, عندما يدعوا علماء السنة في بلاد الغرب تراهم يستدلون على صحة الاسلام و نبوة محمد من كتب العهد القديم و الجديد, فيذكرون عباره من هنا و عباره من هناك, فهل معنى ذلك أن قول الله "أتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض" ينطبق عليهم؟ لا. و هل يجوز أن نقف في وجه رجل مثل المرحوم أحمد ديدات و نقول له " لماذا تستدل بكتبهم على صحة ديننا, أتؤمن ببعض الكتاب و تكفر ببعض؟" بالطبع لا و لا أحد يقول له و لأمثاله أي شيء من ذلك , بل يمجدونهم لقدرتهم على استنباط ما يؤيد ديننا من كتبهم. فهو ينتقي ما يناسبه و يؤيد به دعوته. فلماذا يعتبر هذا السلوك مجدا لهؤلاء اذا فعلوا ذلك و عارا علينا اذا فعلنا مثله تماما؟

و هنا الأمر نفسه, فنحن نأخذ ما يؤيدنا و الباقي لا حاجة لنا به, أو انه محرف أو قل ما شئت خاصة اذا كان ظاهر الضعف.

فاذا نظرنا الى قولهم أن" النبي نهى عن الكتابة خشية اختلاط شيء بالقرآن ثم أذن بها" لرأينا أن هذا كلام ضعيف. فأين كلام محمد من كلام الله؟ ثم ألستم تحتجون على عظمة الصحابة بفصاحتهم و علمهم, فأين هذه الفصاحة عند تمييز كلام العزيز الجبار عن غيره من كلام البشر؟

ثم ها هو حديث صحيح صريح ينهى عن الكتابة و يأمر من كتب أن يمحي. ثم يقولون أن عبدالله بن عمرو بن العاص كان يكتب, و أن النبي أقره على الكتابة, فما أدراكم أن هذا الأمر النبوي الذي نهى عن الكتابة أنه كان قبل اذنه لابن العاص؟ هو رجم بالغيب و لا شك. فأنتم فرضتم مسبقا أن بن العاص لا يمكن أن يعصي أمر النبي لأي سبب كان, فلما وجدتم تعارض, فضلتم أن تنسخوا قول النبي بدل أن تقولوا أن بن العاص عصى أمر النبي (و لعله بن العاص او غيره قد اختلق الحديث الموضوع حتما الذي ينسب فيه الى النبي انه قال "اكتب فوالله ما يخرج من فمي الا حق" و ما شابه, و قد اجبنا على هذا في ردنا على الاستدلال باية و ما ينطق عن الهوى فليراجعه من يشاء التثبت) اظهار أن النبي متناقض في تفكيره و اوامره أهون عندكم من أن تقولوا أن بن العاص عصى النبي. و بالطبع لم تؤيدوا بن العاص حبا فيه أو لسواد عيونه و انما لأنكم أردتم أن تثبتوا جواز كتابة الأحاديث لعلمكم أنه لولا هذا الاثبات لزال حزبكم كله من أسا سه. و لن يعجز أحد عن اختلاق الأمور لتأييد حزبه. في سبيل الله ايضا! كمثل الوضاع الشهير الذي اختلق اربعة الاف حديث في فضائل القرءان, فقبل ان يعدموه سألوه: ما حملك على الكذب على النبي؟ فقال اجابة جميلة: لقد وجدت الناس قد انشغلوا بالاحاديث و هجروا كتاب الله, فوضعت هذه الاحاديث لارجعهم الى كتاب الله, و اني لم اكذب "على" النبي, و لكني كذبت "له" !! (و لعلهم اعدموه لانه يضع الاحاديث في فضائل القرءان و بسبب نيته في ارجاع الناس له, و الا لعلهم كانوا سيعطونه جوائز مالية ضخمة كما فعلوا احيانا مع غيره من الوضاع) قد كان من الصالحين والزاهدين من يبيح لنفسه الكذب على او للنبي , أفيتورع عبيد السلاطين و المذاهب و الفقهاء و رؤساء الاحزاب عن وضعها ايضا؟

فالسبب الذي يقولون أنه جعل النبي ينهى عن الكتابة ثم يسمح بها باطل قطعا, اذ حتى الشاب العربي العاقل يستطيع أن يميز بين أسلوب القرآن و أسلوب الحديث, و هذا اذا صرفنا النظر عن حقيقة كون القرآن مكتوب و ليس بالسماع و الحفظ كما يدعي الشعراء(و لهذا البحث موضع اخر), و اذا بطل السبب بطل الأثر.

فاذن نخلص الى أن النهي صحيح و دائم غير منسوخ. و الحكمة من ذلك هي سهولة اختلاق الأحاديث و نسبتها الى النبي. فمن يعجز عن اختلاق الأحاديث؟ لقد اختلقوا مئات الآلاف منها.

و لكن من الأفضل أن نجادل بكتاب الله فقط. و لا يستحسن دائما أن يلجأ أهل القرآن الى أسلوب " وشهد شاهد من أهلها" لأنه قد يؤدي الى التطويل و اللجاج الذي نحن في غنى عنه. و أن ننفق جهدنا في دراسة آية خير من أن ننفقه في افك بعض الناس. فان نور القرآن اذا أشرق قامت القيامة و اندكت اوتاد فرعون و اخوانه.

-

4- يقول أحد علماء السنة عندما يرد على قول بعض أهل القرآن من أن الأحاديث وضعت في قصور الأمراء, يقول لنا " من له المام بالحديث النبوي و اغراضه التي قيل من أجلها لن يعثر على حديث فيه محاباة للأمراء و

الحكام و السلاطين" و يقول نفس هذا الكلام الكثير من أهل السنة. و لذلك لم انسبه لمصدر معين. و الرد رد على من يقول بذلك.

يوجد حديث صحيح في كتاب مسلم يقول " أطع الأمير و لو جلد ظهرك و أخذ مالك" هل تريد أكثر من ذلك؟ و معلوم أن هذا من أكبر أسباب استنعام و استحمار أهل الاسلام. و مثله حديث الذي ينقض بيعة امام بعد أن يبايعه.

و بعض من ينتسب الى أهل القرآن عندما يقولون أن السنة دونت في قصور الأمراء لهم استشهادات كثيرة سطحية و عميقة من هذا النوع الذي ذكرت و لهم تحليلاتهم, و استشهادهم ليس مجرد ترف فكري نظري, بل آثار هذه الأحاديث مشاهدة في عقلية اعداد لا باس بها من الناس في البلاد الاسلامية. و لكن أهل السنة في كثير من الاحيان لا ينظرون الى أمثال هذه التحليلات و لا يعيرونها اهتمامهم الجدي.

و عادة يذكرون حديثين ليستدلوا على أن السنة لا يمكن أن تكون دونت في قصور الأمراء و بأمرهم, و يقولون أنه لا يمكن لأمير أن يدفع مالا لكي توضع له أمثال هذه الأحاديث, و معلوم أن الانسان عندما يجادل و يضرب الأمثلة يختار الأوضح و الأقوى بحسب المقام.

الأول هو " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" و الثاني هو " من بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له و لا للذي بايعه".

الجميل في الأمر أن هذين الحديثين من أحسن ما يدفع الأمراء لكي يوضع لهم !على العكس تماما مما يتصور بعض المفكرين الذين لا يجاوزون السطح.

أما الأول, فتأمل في عباره " كلمة حق", فهل يحب السلاطين الظالمين أكثر من أن يعرفوا من هم الذين يخالفونهم في حكمهم و لهم الجرأة على الجهر بهذه المخالفة؟ و هل عمل الاستخبارات الحكومية الا الكشف عن هؤلاء؟ و هذا الحديث يجعل هؤلاء يأتون بأرجلهم عند السلطان. فما أجمل هذا الحديث الذي اختصر عمل المئات بل الآلآف من الجواسيس.

و منذ متى كان الكلام ينفع مع الطاغية و أعوانه؟ ان كان فرعون لم ينتفع بكلام موسى كليم الله فأي طاغية سينتفع بكلام من هو أقل من موسى؟

و دعوات آل محمد (حتى عندكم) كانت في الغالب الاعم سرية لا تمارس أفضل الجهاد هذا. من يستطيع أن يغير المجتمع باستعمال تهور كهذا؟

فيظهر أن هذا الحديث ليس فقط من صياغة الأمراء و لكن من صياغة أمن الدولة ان شئت.

و أما الثاني فقد يكون فيه شيء من الصحة لأنه يشبه تعليم الكتاب. و لكن لا ننسى أن " مشورة المسلمين" تعني مشورة أهل الحل و العقد عند هؤلاء. و الجماعة التي يريد أن يراها الأمير على أنها أهل الحل و العقد, و هؤلاء لا أظن أنهم سيختاروا غيره.

و من ادعى أن " مشورة المسلمين" تعني " كل المسلمين" فعليه أن يأتي بشاهد واحد منذ أن توفي محمد النبي الى يومنا هذا ليرينا متى تشاور كل المسلمون.

و هذا الحديث لو كان صحيحا فكيف لم يمنع عائشة و من معها من الخروج على الامام علي و هو الذي بايعه حسب التاريخ نفس أهل الحل و العقد الذين بايعوا من قبله؟

فهذا الحديث يغلب على الظن أن واضعه أراد أن يبطل مشروعية الثوار عليه. اذ هو الحاكم الشرعي لأن أهل الحل و العقد بايعوه, فكل خارج عليه لا مشروعية له من الله.

كمثل الحسين بن علي الذي خرج على يزيد بن معاوية, و عشرات الآلاف من " المسلمين" الذين خرجوا ليقتلوا الحسين كانوا كلهم يعتقدون أنهم يقدمون قربانا الى الله بقتله لأن الحسين خرج على الخليفة الشرعي الذي بايعه أهل الحل و العقد في الدولة الاسلامية. فهذا الحديث سلاح جيد في يد الأمير ليذبح كل ثائر و منشق عليه. و يوجد الكثير من الشواهد التاريخية التي تثبت استعمال مثل منطق هذا الحديث لقتل دعوى خصوم الأمير الملقب نفسه بالشرعي بل و الشواهد الحاضرة ايضا. و يكفي في هذا المقام مثال الحسين بن علي, فان كان هذا السلاح قد نفذ في جسمه فأي جسم لن ينفذ فيه.

ثم ان من رقة الاستدلال ان تستشهد بحديث او حديثين لاثبات ان "كل" الاحاديث, او غالبيتها لم توضع في قصور الامراء و بأمرهم و تحت اشرافهم المباشر أو غير المباشر. وهذه نقطة منهجية نتمنى من الاخوة اصحاب مثل هذا المنطق ان يراجعوها.

فاذن من يدرس هذه الأحاديث يجد يد الأمراء و الفقهاء في كثير منها, خاصة في " الصحيح" منها.

" فبأي حديث بعد الله و آياته يؤمنون"

-

5- يقولون أن " السنة رويت باللفظ و المعنى"

هذا الكلام لا يصدقه واقع كتب الأحاديث, و التي تروي نفس الحديث بأكثر من لفظ و هذا معلوم بداهة, فلماذا هذا اللجاج. نعم ان هذا لا يعني ان "كل" الاحاديث رويت بالمعنى، و لكنه لا يعني ايضا ان كلها قد رويت باللفظ الدقيق.

ثم ان مجرد اضطرارهم أن يقولوا أن هذه الأحاديث نقلت "باللفظ و المعنى" دليل على عدم صدقهم. اذ كيف تنقل " المعنى"؟ انما النقل نقل الألفاظ و هي التي تحوي المعاني. على مهلكم و انظروا جيدا فيما تقولون. ثم اي دقة في نقل الالفاظ ان لم تكتب من اول يوم, لا اقول تكتب بعد مئة سنة او اكثر كما هو واقع الحال مع هذه المرويات, لا لا, اقول الدقة لا تكون الا ان كتبت مباشرة, و الحق بها كل ما من شأنه ان يوضح السياق التام, و غير ذلك. و هيهات ان يوجد او حتى ان يدعي احد وجود مثل ذلك.

و كونهم يدعون أن كل كلام محمد وحي, و أن هذا الكلام نقل لهم بدقة " لفظا و معنى" فمجرد اظهار خطأ واحد في حديث واحد يبطل الوحي كله, كمثل لو وجد خطأ في القرآن. و لو وجد تعارض بين حديثين فهذا مبطل لكل النبوة لأن الله يقول " و لو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" كمثل لو وجد تعارض في القرآن. فهل يوجد من يترأس هذه الفكرة؟ " سلهم أيهم بذلك زعيم" . و من صفات الوحي الالهي انه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه, فأتونا بكتاب من احاديثكم لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه, هذا ان كنتم تريدون ان نأخذ كلامكم و دينكم على محمل الجد. و لا احسب انهم يطيقون الجد. نحن في القرءان ننظر في كل حرف, و ننقد و نتأمل في كل حرف, هذا هو كتاب الله. أعندكم مثله؟ "هل تعلم له سميا".

عندما تعرض دعوة الكتاب أمامهم و يعاندون يصبحون كالغريق الذي لا يحسن السباحة يحرك يديه و رجليه بجنون حتى يصبحوا لا يدركون ما يقولون. " و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون"

-

6- كثيرا ما يسأل الناس " كيف نصلي لو رفضنا السنة"؟ و قد عالجت هذا السؤال في ثنايا الكتاب. و أجيب عنه هنا باختصار, و من شاء الاستزادة فليرجع الى القرآن أو ليرجع الى كتابي في الصلوة الذي جمعت فيه شؤون الصلوة من كتاب الله.

الصلاة هي دراسة كتاب الله. و العمل به, و الدعوة اليه.

-

7- توجد أربعة أمور يقول بها العلم و يقول بعض أهل دين الأحاديث أنها من اختلاق الزنادقة و أعداء الدين.

الأولى هي أن القرآن يجب أن يدرس. و هذه هي الغاية منه و ليس الحفظ و التلاوة. الغاية هي الدراسة. و بما أنه مكتوب فلا نحتاج الى حفظه و لا ترديد تلاوته بهدف كسب الحسنات مثلا.

الثانية هي أن النبي نهى أن يدون حديثه الخاص به و يجعل كدين.

و الثالثة هي أنه يجب عرض أي فكرة على القرآن فان خالف و لو بالظن فيجب الغاء الحديث حتى لو صدر عن شخص مهم.

الرابعة هي التثبت من الحديث حتى لو تيقن صدوره من الصحابي أو النبي. حتى ندرك حقيقة المعنى المراد منه بكل ابعاده.

و عملا بقوله " و شهد شاهد من أهلها" أريد أن أذكر من أحاديثهم ما يؤيد هذه المقولات الأربعة. و لن أذكر الا أصح الأحاديث عندهم و التي لا يمكن دفعها الا بتعسف ظاهر.

الأول و هو الدراسة. يقول النبي " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة و غشيتهم الرحمة و حفتهم الملائكة و ذكرهم الله فيمن عنده"

الثاني في النهي عن التدوين. عن المطلب بن عبدالله بن حنطب قال : دخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث , فأمر انسانا يكتبه, فقال له زيد " ان رسول الله صلى الله عليه و سلم أمر أن لا نكتب عنه شيئا من حديثه, فمحاه"

هم يقولون أن النبي نهى ثم سمح. و معلوم أن امارة معاوية كانت بعد وفاة النبي, و المفترض أن النبي قد رفع الحظر عن كتابة حديثه, فكيف يقول زيد بن ثابت لمعاوية ان "رسول الله أمر لا نكتب شيء من حديثه"؟ هذا على فرض ان الواقعة حدثت في امارة معاوية او على الاقل بعد وفاة النبي عليه السلام. و حتى لو لم يصح ذلك, فان قول زيد كافي لاثبات ما نريد. اي لو افترضنا ان موضوع الروايه كان في زمن النبي نفسه، فان قول زيد تاكيد اضافي لمنع التدوين. فالنهي ثابت عندهم. و اما نسخ هذا النهي فهو دعواهم الخاصه.

فاما أن النبي لم يسمح أبدا لأحد أن يكتب حديثه الى أن توفي, و اما أن النبي نسخ هذا النهي بعد أن توفي من وراء القبر الشريف؟

فلا يكفي أنهم تركوا أمر الكتاب و لكن حتى الحديث الصحيح عندهم اذا خالف أفكارهم تركوه. و لهذا شواهد كثيرة يدركها من يتتبع امثال هذه الابحاث.

و الثالث و الرابع عن العرض على القرآن و الاكتفاء به. سأذكر حديثين الأول في كتاب مسلم و الثاني في البخاري و مسلم.

1. عن فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها ثلاثا و أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يجعل لها سكنى و لا نفقة. فقال عمر " لا نترك كتاب الله و سنة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت, لها السكنى و لها النفقة, قال الله عز و جل " لا تخرجوهن من بيوتهن و لا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة و تلك حدود الله"

فها هو عمر يرفض قول صحابية و روايتها عن النبي, و هي صحابية عاشت مع النبي و روايتها مباشرة و هذا بعد بضعة سنوات من وفاة النبي, و ليس عن طريق العنعنات و مرور قرن أو اثنين أو ثلاثة, بل في زمن النبي و لعلها كانت تسكن على بعد بضعة أمتار منه, و مع ذلك رفض عمر حديثها لظنه أنها خالفت كتاب الله, مع أنها قالت

أن هذا هو ما حكم به النبي نفسه. و لاحظ أن عمر لم يترك حديثها لأنه ظن أنها كاذبة و لكن لأنه شك في حفظها. فلو شك في كذبها كالكثير من هؤلاء الرواة الذين يررون هذه المسانيد و الصحاح فأظن أنه كان سيجلدها.
و اما قول عمر "سنه نبينا" فمعارض بقول اخر لعمر "حسبنا كتاب الله" في وجه امر النبي في رزيه الخميس. فالمعنى يحمل على انه اراد سنه نبينا في اتباع امر كتاب ربنا- و ليس السنه بالمفهوم الذي تطور عبر التاريخ الفكري لهذه الفرق. فتامل ان مدلول الكلمه له تاريخ، و ليس كل "سنه نبينا" في عصر الصحابه كان المفهوم منه "سنه النبي" في العصور اللاحقه. و يكفي ان عمر هنا رفض حديث عن صحابيه لانه شك في حفظها. فلو اتبنا لعمر بكتب فيها نقول عن النبي و عنعنات عمرها مئه او مئيتين سنه فاظن انه كان سيكفرنا جميعا.

فان كان الموضوع بهذا الوضوح و تركه عمر لكتاب الله, فأين الغلو في رجل يرفض هذه الأحاديث التي الله أعلم بها و التي كثير منها يخالف كتاب الله يقينا ظاهرا و باطنا ؟

فلو كان الذي يحاكم الأحاديث الى القرآن قد يعتبره بعض الناس أنه من الزنادقة و أعداء الدين أفلا يعتبر عمر اذن امام الزنادقة بحسب نص هذه الرواية الصحيحة عندهم؟

2. عن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم " ان الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه" قال ابن عباس : فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت " رحم الله عمر. و الله ما حدث رسول الله ان الله ليعذب المؤمن ببعض بكاء أهله عليه. و لكن رسول الله قال " ان الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه" ثم قالت "حسبكم القرآن "القائل و لا تزر وازرة وزر أخرى

فانظر الفرق بين ما نسبه عمر الى النبي و بين ما تنسب عائشة الى النبي! فان كان عمر قد اخطأ مثل هذا الخطأ الخطير و هو مع النبي و هو من هو في العلم حسب كلامهم, فكيف يزعمون أن تناقل الروايات بعد عشرات و مئات السنين فيه دقة خيالية و توثيق عظيم.

ثم هاهي عائشة تصحح كلام عمر بالقرآن, و قالت أيضا "حسبكم القرآن".

و عمر نفسه في حادثة أخرى و هي في البخاري و التي تسمى رزية الخميس, لما أمرهم النبي و هو على فراش الموت أن يأتوا له بكتاب ليكتب لهم ما لن يضلوا بعده أبدا, فرفض عمر أمر النبي و قال "حسبنا كتاب الله" .

فاذا قالت عائشة " حسبكم القرآن" في وجه رواية عمر, و اذا قال عمر " حسبنا كتاب الله" في وجه أمر النبي الحي, يقول هؤلاء " لا بأس هؤلاء صحابة رضي الله عنهم". و لكن اذا قال أحد من عامة المؤمنين بل علمائهم و اهل الفكر فيهم " حسبنا كتاب الله" في وجه هذه الأحاديث التي فيها من الكذب بشهادة أصحابها أكثر من الصدق بنسبة أقل من عشر العشر بل أقل , قالوا " أعداء الدين لعنهم الله" ؟ و لا قوة الا بالله. " اعدلوا هو أقرب للتقوى"

و لاتباع المذهب الشيعي نقول: يوجد في مروياتكم ايضا ما يؤدي معنى هذه الاحاديث. فكم من حديث عن ائمتكم يقولون فيه معاني مثل "ان حدثتكم بشئ فاسألوني عن مصدره في كتاب الله" او "كل حديث يخالف كتاب الله فاضربوا به عرض الحائط" و ايضا "ان القرءان فيه كمال دينكم, و ما عدل احد عن القرءان الا الى النار" تأمل انه "فيه كمال دينكم". و أيضا "ان اردتم عيش السعداء و موت الشهداء و و النجاة يوم الحشر, و الظل يوم الحرور و الهدى يوم الضلالة فادرسوا القرءان, فانه كلام الرحمن و حرز من الشيطان و و رجحان في الميزان" تأمل كلمة "فادرسوا القرءان". و الحق يقال: ان من أعظم روايات اقرأها في عظمة القرءان و حامل القرءان هي من روايات الشيعة الامامية. و العجيب ان نراهم ينساقون وراء ما انساقت اليه الفرق الاخرى بالرغم من وجود مثل هذه الاحاديث العظيمة عندهم. و من أحب هذه الكلمات في قلبي هي ما ينسب الى زين العابدين علي بن الحسين "لو مات من بين المشرق و المغرب لما استوحشت بعد ان يكون القرءان معي". أين هذا من واقع الشيعة و ما يخوض فيه أكثرهم؟ بل اني قرأت لامثال السيد كمال الحيدري-بارك الله في عمره- و غيره انهم يشتكون من قلة او عدم تدريس القرءان في مجتمعاتهم و حوزاتهم. و يقول ان السيد الطباطبائي-رحمه الله-صاحب تفسير الميزان الشهير لم يعيره الناس اهتماما بقدر ما يستحق في حياته لأنه كان يهتم بتفسير القرءان! و قد قرأت حول هذا المعنى في أكثر من موضع و لكني لا أذكر أين بالضبط, و لكني اذكره جيدا لاني لا ازال أتعجب من ذلك و أحاول ان أفهم سر هذا السلوك.

و تأمل معي هذا الحديث العظيم عن ابي عبد الله جعفر الصادق- عليه السلام و اقول عليه السلام الف مرة فقط من اجل هذه الكلمة التي سأنقلها عنه و هي في كتاب الكافي, يقول " ان الله تبارك و تعالى انزل في القرءان تبيان كل شئ, حتى والله ما ترك الله شيئا يحتاج اليه العباد, حتى لا يستطيع احد (ان) يقول: لو كان هذا في القرءان..الا و قد انزله الله فيه" اني لأعجب والله كيف تنقل مثل هذه الكلمة عن انسان و لا يقال عنه "قراني"! و هل القرءاني الا هذا! تأمل ما يقول ابي عبد الله هنا, و كلامي لشيعته: اذا جاءكم احد مثلا و قال: لو كان الله انزل تفاصيل الصلوات الخمس في القرءان؟ كيف ستجيبونه؟ و يكفيني هذا التساؤل في هذا المقام, لاننا اذا تجاوزناه تبين ما سواه. (و انما اشدد على مساله الصلوات الخمسه هذه لانها هي التي يشدد علينا بها ارباب دين المرويات).

و قد استمعت للسيد كمال الحيدري مرة يقول معلقا على قول القرءان "قل كل يعمل على شاكلته" يقول "كما ان شاكلة الله انه غني عن العالمين فكذلك عمله الذي هو كتابه ايضا غني عن غيره" و هذا من عميق الاستدلال و لطف الاشارة . و يقول السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان ما معناه "حاشا ان يكون القرءان تبيانا لغيره و لا يكون تبيانا لنفسه و يكون مفتقرا الى غيره في التبيان". و هذا معنى النور: البين بنفسه, المبين لغيره. و القرءان نور لمن كان له قلب او القى السمع و هو شهيد.

من طول تتبعي لمذهب الشيعة الاماميه خصوصا و روايات العلويين من امثال زين العبادين و الباقر و الصادق و امثالهم, اصبحت اميل الى ان أصف دعوة التشيع بانها كانت دعوة "قرانيين" ان صح التعبير. و لا أدري أنستطيع ان نكون قرءانيين أكثر مما في كلام ابي عبدالله الذي نقلناه قبل قليل؟ اللهم الفرق هو في تطبيق محتوى هذا الكلام. اما من الناحية النظرية فما يقوله و ما نقوله واحد. بل لعله يقوله خير مما نقوله. و لكننا نريد ان نطبق محتواه بقدر استطاعتنا.

فهذا أهم ما يمكن الاستشهاد به من منابع الحزب السني و الحزب الشيعي بالمعنى الواسع لهما. "فذكر ان الذكرى تنفع المؤمنين".

-

8- ما رأيك في هذا الحديث " لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته. يأتيه الأمر من أمري فيقول: لا أدري حسبنا كتاب الله ما وجدنا فيه من حلال حللناه و ما وجدنا فيه من حرام حرمناه. ألا ان ما حرم رسول الله هو ما حرم الله"

لو كان كل ما حرم محمد هو ما حرم الله في غير كتابه فكيف يقول " يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك".

و الادعاء بوجود تحليل و تحريم باستقلال عن الكتاب هو من الشرك "أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله". و اذن الله نعرفه من كتابه و رسالته في هذا المقام.

و يظهر أن قائل هذا الحديث لا يحب أهل الجنة, و كأنه اختار عن عمد الكلمة المشهورة التي تصف أهل الجنة, أهل القرآن " متكئين فيها على الأرآئك" لعله يعلم أن أهل الجنة هم الذين سيكشفون تضليله و مكره, فاختار وصف هو يعلم يقينا أنه متحقق في أهل القرآن.

نعم نحن المتكئون على الأرآئك الذين نرفض كل ما عدى الله ورسله المخلصين. فلا يوجد عندي رد على هؤلاء الا أن أدعوهم الى الاتكاء معنا على الأرائك و دراسة كتاب الله.

أما قولهم " لا أدري حسبنا كتاب الله" فهي كلمة لا يمكن أن تصدر من عالم بالكتاب. بل يقول نرفض كذا بسبب كذا و نقبل كذا بسبب كذا. و لا يهمنا بعد ذلك عمن صدر الكلام.

لا يوجد ملك على المؤمنين الا الله رب العالمين. متى سيفهم الناس هذا الكلام؟!

..

و أريد ان اذكر بحادثه تكشف لنا عن اساس الفرق بين منهجنا و و منهج اتباع الحكايات. قد كنا ذكرنا ان ورايه عرض الاحاديث على كتاب الله ، تعتبر عند القوم من وضع الزنادقه. و قد ذكرنا ما ينقلونه عن امامهم صاحب العباره القبيحه " السنه تقضي على القرءان و لا يقضي القرءآن على السنه ". نفس هذا الرجل له عباره اخرى ينقلها القوم حين يتحدثون عن مسأله الاسناد و انه القوائم التي يقوم عليها فن المرويات. و أنا انقل من كتاب (السنه قبل التدوين) للدكتور محمد عجاج الخطيب الاستاذ بكليه الشريعه بجامعه دمشق. يكتب الدكتور ص٢٢٨ " قال الامام الاوزاعي: كنا نسمع الحديث ، فنعرضه على اصحابنا كما يعرض الدرهم الزيف على الصيارفه ، فما عرفوا منه اخذناه و ما تركوا تركناه " . و ينقل عن ابن سيرين ص ٢٢٠ " لم يكونوا سيألون عن الاسناد (يقصد الصحابه) فلما وقعت الفتنه ، قالوا : سموا لنا رجالكم ، فنظر في أهل السنه فيؤخذ حديثهم و ينظر الى أهل البدعه فلا يؤخذ حديثهم " . و ينقل عن ابن عباس ص٢٢٢ " انا كنا مره اذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، ابتدرته ابصارنا و اصغينا اليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب و الذلول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف ". انتهى.

أقول: أولا ، لاحظ ان عرض المرويات على "أصحابنا " جائز عندهم. و أما عرضه على كتاب الله فيعتبر زندقه. فاصحابهم يحسنون التمييز و الحكم و التنوير، و أما كتاب الله فلا يعرض الاحاديث عليه الا الزنادقه اعداء الاسلام.

ثانيا، بالرغم من أن مسأله قبول احاديث من يسمونهم اهل البدعه ، هو مساله خلافيه و فيها تفاصيل ، الا ان ابن سيرين فيما ينقلونه عنه يسهل على نفسه المساله و يجعلها حديه بسيطه ، فمن كان مثله اخذ حديثه و من خالفه رد حديثه . و نحن نقول بنفس هذا المبدأ و لكن بصوره اوسع و ارحم و أفقه. و هو ننظر في مضمون الحديث ان كان تابعا لمذهب ايات القرءان أخذنا به ، و ان خالفه رددناه .

ثالثا، ان ابن عباس يقرر انه لن يأخذ الا ما "يعرف" و لا ادري ما مضمون هذه العباره تحديدا ، اذ ان كان "يعرف" الروايه فهو لن يحتاج ان "ياخذها" اصلا، و ان كان لا يعرف فهو يقرر بانه لن ياخذ. و اي فائده اضافيه

في الاستماع لمضمون تعرفه ، انما البحث عن ما لا تعرفه. المهم ان ابن عباس يقرر بانه لن ياخذ الا الروايه التي يعرفها هو، و هو من هو في القرب من عصر صدور مثل هذه المرويات - او هكذا يفترض في اصل هذه المرويات. فمعياره في القبول ذاتي ، ان عرف ان الروايه صحيحه لسبب او لاخر اخذ به ، و ان انكره لسبب او لاخر رده على من اتاه به. و نحن نقول بنفس المضمون هذا تقريبا ، و لكن معيارنا افصح و اكمل و اتقن من معياره ، اذ نحن نقول : على المسلم ان يدرس القرءآن و يدمن على دراسته و يتعمق فيه و يستفتح الله و ينظر فيه، و من هذه الدراسه المتواصله سيقيم القرءآن مبادئ و اصول معينه في قلبه و يرسخها في عقله ، على بصيره و فهم . فبعد ذلك ان سمع او قرأ روايه تنسب الى مقام النبوه ، نظر في مضمونها و مدى توافقه و مطابقته مع هذه المبادئ و الاصول القرءآنيه الالهيه، فان " عرفها " قبلها ، و ان انكرها ردها مؤقتا ان دائما.

و قبل ان نختم هذا الفصل من الاقتباس من كتاب الدكتور الخطيب، أحب ان اقتبس اخر عباره و حاشيه مقرونه بها ، و هو اقتباس يبين اصل فكره الاسناد هذه التي يتبجح بها الكثير من القوم و يعتبرونها اس الاسس التي "ابتكرها" علماء المرويات. يكتب الدكتور الفاضل في ص٢٢١ " الاسناد لم يكن طارئا و جديدا على العرب بعد الاسلام ، بل عرفوه قبل الاسلام ، و كانوا احيانا يسندون القصص و الاشعار في الجاهليه " و في حاشيه هذه العباره يكتب " و قد ينتهي الاسناد الى الشاعر او الى راويته ، و لم يكن التزام الاسناد المتصل دائما بل من النادر ، اما الاسناد المرسل فهو أكثر -و يكاد يكون ملتزما في روايه الادب التزاما لا اخلال فيه - " هذه العباره الاخيره مقتسبه من كتاب مصادر الشعر الجاهلي. انتهى.

أقول: اذن فكره الاسناد اساسها جاهلي و من عادات رواه القصص و الادب و الشعر في الجاهليه. و هذا ليس بمستغرب، فالدكتور نفسه كما غيره يشبهون الاسناد للروايه كالنسب للبشر. فعندما نقول ان هؤلاء يتبعون الاباء فاننا لا نعدو ان نقول ما يقولنه هم بكل فخر. فنسب الروايه عندهم هو كنسب الاباء للبشر، و بالتالي يستمد قيمته منه - بحسب عرفهم الجاهلي طبعا. و لهذا تفرع هذا هذا النظر النقول الكثيره عن أول "علماء" هذا الفن الجاهلي، فيقولون كلمات والله لا ندري كيف يستحسن ان يخرجها رجل بيده كتاب الله رب العرش. مثلا ص ٣٢٣ " قال هشام بن عروه: اذا حدثك رجل بحديث فقل عمن هذا ؟ " ثم يترقى او قل تهوي اصولهم فيقول الاوزاعي " ما ذهاب العلم الا ذهاب الاسناد " ! العلم يذهب بذهاب الاسناد ! و ماذا في كتاب الله اذن ! ثم يقول سفيان الثوري "الاسناد سلاح المؤمن ، فاذا لم يكن معه سلاح فبأي شئ يقاتل ؟ " اقول لسفيان : يقاتل بالذي امر الله النبي بان يقاتل به " و جاهدهم به جهادا كبيرا " . ثم يقول ابن المبارك " الاسناد من الدين ، و لولا الاسناد لقال من شاء ما شاء " و كما ترى فان مرجعيه كتاب الله قد طمست كليا من وعي من هذا وعيه ، فاصبح وجوده كعدمه ، و هو كذلك عندهم ، بل لعل عدم وجوده خير لهم.

فان كان سلسله السند هي سلسله اباء الروايه ، و الروايه هي العلم ، فالنتيجه ان ذهاب السند ذهاب العلم، كما قرره من نقلنا عنه و لا نحب ذكره مره اخرى. هذا هو منطق القوم. فاذا ذكرنا منطق اخر و هو منطق : ايات الكتاب هي اباء الفكره ، و الفكره القرءآنيه هي العلم ، فان هذا يصبح منطق الزنادقه و اعداء الدين. و لهذا اكرر و اقول :

نحن فعلا زنادقه و اعداء الدين ، دينكم انتم. و أما دين الله الذي انزله في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، فهو الذي ان شاء الله ان نكون مستظلين بظل عرشه.

و لنجعل ختامها مسك ، يكتب الدكتور و يقرر حين يتكلم عن اسباب نشوء الوضع في الاحاديث النبويه ، فيكتب ص ١٨٨ " و قد حاول كل حزب ان يدعم ما يدعي بالقران و السنه. و من البدهي ان لا يجد كل حزب ما يؤيد دعواه في نصوص القران الكريم و السنه الشريفه " ثم يكتب " و لم يجد بعضهم الى تحريف القران او تاويله سبيلا ، لكثره حفاظه ، فتناولوا السنه بالتحريف و زادوا عليها ووضعوا على رسول الله ما لم يقل " .

اقول: باستثناء اقحامه الغريب بل السخيف للسنه و قرنها مع كتاب الله، في قوله " ومن البدهي ان لا يجد كل حزب ما يؤيد دعواه في نصوص القران الكريم و السنه الشريفه " ، و سخافه هذا الاقحام الناشئ من العمى المعضل، هو ان السنه فعلا قد تحرفت باقراره و تم تحريفها و الوضع فيها، و هو لا يستطيع و لا غيره يستطيع ان يحكم ان السنه قد زيد فيها او نقص منها، لانه لا يعرف ما هي السنه اصلا ! فما ادراه انه قد زيد فيها او نقص منها و هي غير مجموعه و محفوظه كالقران ! هذا من سخف العقيده. و اما الواقع و هو ما اقر به ، القران لم يستطع احد تحريفه لوجوده و "كثره حفاظه" على حد تعبيره ، و هو هنا يقر بانه لم يستطع احد ان يقوم بذلك و يفرق الامه الى احزاب بسبب القران و باتخاذ القران مطيه كامله له ، و هو يقر بوجود ذلك في السنه و هو واقع لا يستطيع احد انكاره، اصحابه قبل غيرهم. و ما يقوم به الدكتور المحترم هنا و من شيوخه و ابائه من قبل ، اي بنسبه الوضع و الدس للشيعه او الزنادقه و نحو ذلك ، و نسبه حدوث التفرق في الامه لهؤلاء ، ما هو الا تهرب من حقيقه ان تخلى الناس عن القران و اعراضهم عنه هو السبب الاكبر، ثم بقيه الاسباب ثانويه و ان كانت قويه و هي قويه. و انما اتخذت السنه و دعاوى اهلها كمطيه لزياده هذا التفريق. و اما القرءان فباقرارهم هم قبل غيرهم، لم يستطع ان يحرفه احد او يتلاعب به احد ، و مع الاسف فان ما يروى في هذا المجال من وقوع تحريف او نسيان او خلط في القرءآن - و هم ينكرون هذه الروايات او يصرفونها عن معناها - انما هي رواياتهم هم و حكاياتهم هم و ابائهم ، و ان استحق احد ان يسمى زنديقا يريد تدمير الامه فهو من يروى مثل هذه الروايات في حق كتاب الله تعالى و ينسبها الى من يفترض انهم حفظه القرءآن بزعمه ، و ان صدرت هذه المرويات فعلا منهم و ففضلا عن سخفها و ردها بمثلها من عندهم قبل ما سوى ذلك من شواهد و ادله، فان هذا الراوي و الناقل و الكاتب لمثل هذه المرويات و الحكايات هو الزنديق حقا و عدلا . و عليه و على من اعانه و نقل زوره لعائن الحق تعالى المتتاليه . ثم يزعم هؤلاء التائهون اننا نحن من نريد ان نطمس دين الله تعالى الذي نزله على رسوله. " ألا ساء ما يزرون " " و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ".

-

هل نتبع محمد أم نتبع ابراهيم؟ يقول الله للنبي " اتبع ملة ابراهيم" فمحمد يتبع ابراهيم فلماذا تتبعون محمد أو تدعون ذلك؟ أليس اتباع ابراهيم مباشرة هو الاتباع الحقيقي لمحمد؟

يقول الله " ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم" و لكن قال "ملة أبيكم ابراهيم" فنحن لسنا أبناء محمد و لكن أبناء ابراهيم, و محمد (كل محمد) نفسه من أبناء ابراهيم.

أما الذين يدعون أنهم اتباع محمد عن طريق كتب المرويات هذه و السير التي وضعها بعض السادة و الكبراء و الاحبار و الرهبان لغايات و من مصادر الله أعلم بها, فهؤلاء هم أول من سيتبرأ منهم محمد نفسه الذي يزعمون أنهم أتباعه. ألم ينبئنا الله بقوله " ان الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا لست منهم في شيء"

أساس ملة ابراهيم هو قوله " الذي خلقني فهو يهدين" فلا نرضى هداية الا من الذي خلقنا. و هذا معيار عظيم لا ينفذ منه شيء.

" قل سموهم" سموا لنا هؤلاء الذين تركتم كتاب الله من أجلهم. هل هؤلاء خلقوكم؟ ان كانوا هم الذين خلقوكم فاقبلوا هدايتهم, و ان كان لا و اتبعتموهم في كلامهم الذي يخالف كتاب الله فاذن لستم من ملة ابراهيم لأنكم لم تعملوا نفس عمل ابرهيم. "فمن تبعني فانه مني ".

" و يجعلون لله ما يكرهون" فانظر كيف يصفون كتاب الله بالاجمال و الغموض و الصعوبة, و هي صفات يكرهونها, ثم يصفون كلام أئمتهم و كتبهم بالتفصيل و البيان و السهولة. "ألا ساء ما يحكمون".

" و الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل أليك. و من الأحزاب من ينكر بعضه" فالأحزاب لا ينكرون كل القرآن و لكن بعضه فقط, فاذن هم يؤمنون بالبعض الآخر. و هل تعرفون جماعة في العالم كله تؤمن ببعض القرآن فقط؟ اذا ذهبتم الى أتباع أي دين أو الملاحدة هل يقولون أنهم يؤمنون ببعض القرآن و ينكرون البعض الآخر, أم أنهم يكفرون بالقرآن جملة و تفصيلا؟ فمن هم الأحزاب ان لم يكونوا أتباع المذاهب و الفرق المسماة اسلامية؟ هؤلاء وحدهم الذين ينطبق عليهم وصف الايمان ببعض القرآن و انكار البعض الآخر-ينكرون البعض بالضروره لانهم يتبعون غيره بحجه ان هذا الغيره و هذه التفاصيل من الغير غير موجوده في القرءآن.

و سبب تسميتهم بالأحزاب ظاهر, لأنهم "كل حزب بما لديهم فرحون" فكل حزب لديه كتب بجانب كتاب الله و أشخاص بجانب الشخصيات القرآنية, و يستمدون العلم من الكتب و القدوة و القصص من الشخصيات. و كل حزب يفرح بكتبه و شخصياته و يكره كتب و شخصيات الآخر. و لذلك قال الله "و لا تكونوا من المشركين" من هم؟" من الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا. كل حزب بما لديهم فرحون" فمعنى الشرك هنا هو وضع شيء بجانب الله,

و ضع كتاب بجانب كتاب الله, وضع أشخاص للقدوة الحسنة بجانب أنبياء الله الذين ذكرهم في أحسن القصص و احسن الحديث, و وضع اشخاص للتنفير منهم من المجرمين بجانب الامثال التي وضعها الله لاعداءه- كمثل فرعون و قارون- الذين ذكرهم في أحسن القصص و أحسن الحديث في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

و هكذا تتشكل الأحزاب بالرغم من أنهم قد يكونوا من أشد الناس حفظا لكلمات كتاب الله. فهم أمام باب الجنة و لم يبق عليهم الا تحطيم الأغلال التي تمنعهم من دخولها. و فهم معنى لا كتاب الا كتاب الله هو مفتاح الجنة الحقيقي. الجنة العلمية العملية و ليس الجنة التي يتكهن بها بعض الناس.

-

من الأحزاب من يقول "اذا كنتم تشككون في الأحاديث و رواتها فأنتم مضطرون الى الشك في القرءان أيضا. لأن الذين رووا الأحاديث و نقلولها لنا هم الذين نقلوا لنا القرءان, فاما أن تثقوا في الاثنين و اما ان تشكوا في الاثنين" ما مقدار صحة هذا القول الذي ما فتئ بعض رجال الاحزاب يكررونه منذ ما يزيد عن الف سنة؟

أولا, ألستم تقولون أن الله اوكل حفظ الكتب السابقة للناس و لكنه تعالى توكل بحفظ كتابه هذا بنفسه "انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون", فاذن كيف تراجعتم عن قولكم هذا و نسبتم حفظ القرءان الى الناس؟ أدع هذا لكم لتحلوه. و اذا قلتم أن الله يحفظ كتابه عن طريق الناس و توكيلهم بذلك, فاذن لا فضل للقرءان على الكتب السابقة من ناحية الحفظ- و بالتالي يحتمل في القرءان ما يحتمل في كل الكتب السابقه. اخرجوا انفسكم من هذه الورطة التي وضعتم فيها انفسكم بانفسكم , و تريدون ان تقدحوا في كتاب الله من اجل نصرة كتب احزابكم. "يخربون بيوتهم بأيديهم".

ثانيا, فلنسلم مبدئيا أن ما نسب الى رجال الطبقة الأولى من "الصحابة" هو فعلا صحيح و لم يكذب عليهم, و لنسلم مثلا بأن ابن عباس الذي كان صبيا يوم توفي النبي عليه السلام قد لا تقبل شهادته في المحكمة, فضلا عن التهمة (صدقت ام كذبت) التي وجهت اليه عندما سرق بيت مال البصرة حين كان واليا عليها في دولة علي و اشترى به الجواري و ما لذ و طاب من الدنيا , او انه كان يستحل مال الفئ بالتأويل (و انا اعلم ما قيل من رد هذه الروايات ومع ذلك فهي واقعة و يؤيدها بعض المؤرخين) روى فعلا كل هذه الأحاديث و لم يضع العباسيين الاحاديث على لسانه رغبة منهم في تفضيله على علي بن ابي طالب الذي كان يعتبر أبناءه خصوما للعباسيين. و لنسلم أن أبو هريرة لم يكن يضع الأحاديث لمعاوية بن ابي سفيان و غير ذلك, فضلا عن أن عمر بن الخطاب اتهمه بالسرقة, و منعه من التحديث, و أيضا أنه هو نفسه اتهم المهاجرين و الأنصار أنهم كانوا بنشغلون "بالصفق في الأسواق"

عندما كان هو يأخذ الأحاديث من النبي على لحم بطنه, و لنغض الطرف عن الطقس السحري الذين نسبه الى النبي و الذي جعله يحفظ كل شئ يسمعه (و الغريب أنه لم ينقل لنا الكثير من خطب الجمعة النبوية و التي يفترض أنه سمعها) و لنسلم أنه كان فعلا يروي عن النبي. و هكذا فلنغض الطرف عن كل العيوب و العلل التي تحيط برواة الأحاديث من الصحابة. فنتساءل الان: كم عدد الصحابة الذين رووا أحاديث, و لو حديثا واحدا و مكررا رواه غيره؟ (ذكرنا هذا من قبل و نكرر لاهميته) يذكر ابن الاثير في كتابه أسد الغابة في معرفة الصحابة نحو 7550 صحابيا و صحابية (و لا أدري كيف و لكن بعض العلماء وواقع حياتنا يشهدان باننا لا نعرف اكثير من نحو 100 صحابي على الاكثر هم الذين نسمع انهم حدثوا بكذا و رووا كذا) على اية حال. و يذكر ان الرواة من الصحابة الذين بلغتنا مروياتهم هم نحو 1800. و الان هنا العجيب في الامر: سبعة من هؤلاء ال1800 لكل واحد منهم نحو 1000 حديث! و البقية ما بين مئة حديث و عشرة و ما دون العشرة. و يوجد بضع مئات منهم لم يرو الا حديثا واحدا. على اية حال, فلنأخذ هذا العدد من الرواة , اي ال 1800 (مع التذكير انه يوجد من "العشرة المبشرين بالجنة" كابن نفيل, من لعله لم يروى عنه شئ على الاطلاق, و ابوهريرة وحده عنده من الاحاديث ما يزيد على كل ما نسب الى "الخلفاء الراشدين الاربعة"! فتأمل).

حسنا, يوجد لدينا 1800 صحابي و لنجعلهم 2000 حتى يسهل الكلام و تنقطع الحجة. رووا كل ما بين ايدينا من مرويات أحاديث, و منهم من لم يروي الا حديث واحد أو فتوى واحدة و لو من عنده, و منهم من كان صبيا يوم وفاة النبي الأول عليه السلام, و منهم المجروح و القاتل و الخارجي و الملعون و المرتد و المنافق. و لكن فلنغض الطرف للمرة العاشرة.

الان, 2000 صحابي رووا هذه الاحاديث, نتساءل: كم عدد الصحابة الذين "نقلوا" القرءان(بالرغم من تحفظي على كلمة نقلوا القرءان و سيأتيك لاحقا لماذا)؟ عدد الصحابة يوم وفاة النبي عليه السلام كما يقول هؤلاء الخبراء يتراوح بين 90ألف و 150 ألف, و 60 ألف منهم كان في المدينة كما يقول احد الخبراء. فلنأخذ المتوسط و نقدر أنهم كانوا نحو 120 ألف.

2000 صحابي رووا الاحاديث (و لا تنسى ان سبعة منهم رووا نحو سبعة الاف منها كما يقول ابن الاثير), و 120 ألف صحابي رووا او "نقلوا" القرءان. كم النسبة؟ يعني أقل من 2% فقط من الصحابة هم رواة الأحاديث! و هذا مع كل المبالغات التي تنزلنا فيها لهم, و مع كل الزهد الذي مارسناه في حق حجتنا. و مع ذلك فأقل بكثير من 2% من الصحابة هم رواة الاحاديث.

فاذن, مع كل تقدير و احترام لأصحاب هذا الاعتراض: أرجوا أن لا يأتي حمار بعد اليوم و يزعم أن رفض أقل من 2% يعني رفض بقية ال98%! و لا يأتي أحد و يساوي هذه السخافة بكتاب الله.

دعونا ننظر الأن في عدد رواة الاحاديث بدون مبالغات أو تنزلات لنرى الأمر بوضوح وواقعية أكثر.

اذا أخذنا بقول خبير مثل الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء, فانه يقول أن عدد الصحابة الرواة لا يجاوز 1900 . و اذا نظرنا في المكثرين من الصحابة و الذين هم العمدة في غالب الأحاديث المهمة و التي يعمل بها في واقع هذه الفرقه من المسلمين, فان عددهم لا يزيد عن عشرة: أبوهريرة, عائشة, ابن عمر, ابن عباس, انس بن مالك, علي بن ابي طالب, ابو موسى الأشعري, عمر بن الخطاب, و غيرهم من المشاهير المعروفين بيننا. و لا تكاد تسمع او تقرا حديثا عن غيرهم الا فيما ندر.

فعلى اعتبار أن 1900 هم الرواة, تكون نسبة ناقلي الاحاديث (أو مختلقيها و محرفيها أحيانا) أقل من 2%. و على اعتبار أن المكثرين و رواة الاحاديث المهمة في صلب الدين هم نحو 20 مثلا, تكون نسبة هؤلاء أقل من نصف في %. فأين هذا من كتاب الله! "ألا ساء ما يحكمون".

و اذا اعتبرنا أن عدد الصحابة المعتبرين هم فقط 10 الاف و هم أهل فتح مكة (كما يقال), و اخذنا عدد الصحابة الذين رووا ما له قيمة فعلية في الدين و لنرفعهم الى 200 صحابي كمبالغة اكرامية مننا, فان هذا يعني أن 2% فقط هم رواة الاحاديث المهمة و بقية ال 10 الاف ممن فتحوا مكة لم يذكروا شيئا من ذلك و لم ينقلوا الا كتاب الله.

انظر كيف شئت ستجد أن المساواة بين الذين نقلوا (على فرض صحة كلمة نقلوا أصلا) القرءان لا يمكن أن يقتربوا حتى أو يذكروا بجانب رواة الاحاديث هذه. و هذا كله و نحن لم ننقد أحد من الصحابة الرواة, و لم نتساءل عن معيار قبول الرواية و لا شيء. سلمنا بكل هذا, و مع ذلك فالنتيجة بعيدة أشد البعد مما يحاول ان يختلقه أهل المرويات ليدعموا دينهم. "فلله الحجة البالغة".

و لنذكر امرين غاية في الاهمية في هذا المقام: لماذا هذا الغلو في تقديس من يسمون بالصحابة؟ و هل يصح ان القرءان منقول ؟

أولا عن الغلو في تقديس الصحابة. بعد ان عرفنا ان عدد الرواة (او المختلقين) من الصحابة لا يساوون الا اقل من 2% من مجموع المسلمين على عهد النبي الاول عليه السلام. و بعد ان عرفنا ان هؤلاء القلة القليلة أغلبهم ان لم يكن كلهم قد طعن بعضهم في بعض, و غمز بعضهم بعضا, و كفر بعضهم بعضا, و لعن بعضهم بعض, و قتل

بعضهم بعضا, كما يعلم اهل التواريخ و الخبراء بهذا الشان. فاذن النتيجة الطبيعية ان فتح الباب لانتقاد صحابي واحد, ايا كان هذا الصحابي, سيفتح الباب لكشف الانتقادات عليهم كلهم. و حيث ان هذا لو وقع فان اغلب ان لم يكن كل بنيان هذه الاحزاب سيسقط و يتهافت كماء اختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح الى واد سحيق. فهم لم يملكوا الا وضع ستار العصمة المطلقة (و التي يعلم علماءهم انها كاذبة) عليهم, لان اي شئ غير هذا سيؤدي الى انهيار بنيانهم في جهنم النقد و كشف السوء. تأمل مثلا في شئ من كتب الرجال التي يتم فيها نقد الرواة, و سترى اننا لو طبقنا المعايير التي ينقدون فيها الرواة من الطبقة الثالثة او الرابعة و ما فوق, لو طبقنا نفس هذه المعايير لا اكثر, على الصحابة انفسهم فاني اشك ان يبقى احد منهم قائما على ساقيه بعد النقد, او في احسن الظنون و التفاؤلات قد يبقى بضعة منهم, بل و حتى هؤلاء القلة القليلة سيأتي من يطعن فيهم من زاوية او اخرى, كما اننا نجد في الرواة الطبيعين (البشر الغير معصومين) من الطبقات غير طبقة الصحابة, نجد انه لم يخلو احد منهم تقريبا الا و طعن فيه احد. فمثلا, رجل مثل الامام الشيعي جعفر الملقب بالصادق, تجد انه عند بعض او غالبية علماء الرجال هو من الشيوخ الاجلاء و العظماء الى اخر قائمة التعديل, و لكن تجد احد شيوخ هذا الفن يقول عنه "في نفسي منه شئ". و هكذا لا يمكن لاحد ان يسلم مطلقا من الطعن و اللمز من زاوية او اخرى. فاذن قلة عدد الرواة من الصحابة, و التفاف الشبهات و السيئات حول الكثير من هؤلاء القلة (عند بعضهم البعض على الاقل و عند الفرق), و رغبة السادة و الكبراء في تفريق هذا الدين و اتباعه و الذي يستلزم خلق كتب تنافس كتاب الله و قدوات تنافس رسل الله, كل هذه المقدمات , و غيرها, ادوا الى ابتكار فكرة عصمة الصحابة المطلقة, و التي في الواقع يعنون بها عصمة هؤلاء الرواة اولا, و عصمة (عصمة تنزيهية اي لا يجوز ان تذكر مثالبهم, بل البعض يتمادى و ينفى عنهم المثالب اصلا و يستميت في ذلك بشكل محرج) امثال معاوية بن ابي سفيان و من لف لفه ثانية (و هذا الاخر له اسباب سياسية لا نريد الخوض فيها هنا اذ هو خارج نطاق هذا الكتاب).

ثانيا هل يصح ان القرءان "منقول". الجواب باختصار: القرءان ليس "منقول" الينا, و لكنه "موجود" بيننا. و الفرق بينهما كالفرق بين الارض و السماء. فلنفصل قليلا لمن لم يدرك: انا اسألكم, من "نقل" الينا هذه الكعبة الموجودة في مكة؟ ستقولون: هذه لم ينقلها احد لانها موجودة على اعين كل الناس منذ وجدت. حسنا انا اسألكم مرة اخرى, من "نقل" الينا الشمس؟ ستقولون: لم ينقلها احد اذ هذه لا يختص بها احد دون احد و لكنها موجودة للكل فلا احد يملكها اصلا, و لا احد يحتكر حيازتها اصلا حتى يقال ان هذه الفئة الصغيرة المحتكرة هي التي نقلتها للبقية المحرومة. اسألكم للمرة الاخيرة, من المسؤول اليوم عن"نقل" كتب ابن تيمية للاجيال الاتية مثلا؟ ستقولون: كتبه تداولها الناس على مستوى واسع, و انتشرت النسخ بين مئات الالاف بل الملايين من الناس, في شتى البلدان المختلفة, و لا احد يستطيع ان يجمعها كلها, او ان يغير فيها كلها اذ هذا فوق الامكان اصلا. حسنا, كما فهمتم هذه الامثلة الثلاثة, فهذا هو بعينه ما ينطبق على كتاب الله تعالى. كتاب الله موجود بين كل المسلمين من يوم نزل على رسوله الاول عليه السلام. و ليس كما يزعم البعض من انه كان يتداول شفهيا و انه لم يكتب الا لاحقا, او انه كتب كتابة مبعثرة على سعف نخل و جلود التيوس و على عظام (لا ادري اي شئ اصاب عقول هؤلاء الناس) و لا ادري ماذا ايضا, و قد تكلمنا عن هذه المسألة في كتاب (طريق السفراء الى القرءان) و قد تكلم غيرنا ايضا فليراجعه من يشاء. و لا يستطيع احد لا من القدماء و لا من المحدثين ان يزعم ان فئة معينة من الناس هي التي "نقلت" كتاب الله الى الناس. الكتاب موجود, و ليس منقول. الكتاب متداول, و ليس منقول. فاختلاق فكرة

العصمة المطلقة للصحابة او غيرهم بناء على انهم هم الذين "نقلوا" الكتاب العزيز- فضلا عن السخافات التي تحتويها هذه الفكرة و التي ذكرنا طرفا منها قبل قليل- فانه يلزم ايضا ان نخلق عصمة تنزيهيه او مطلقه للجيل الثاني بعد الصحابة, اليس كذلك؟ اليسوا هم الذين "نقلوا" كتاب الله للجيل الثالث الذي اتى بعدهم؟ اذن كل من يطعن في احد من الجيل الثاني فهو زنديق! و لماذا نتوقف هنا, اليس اهل الجيل الثالث هم الذين "نقلوا" الكتاب العزيز للجيل الرابع؟ فاذن كل من يطعن في فرد, صغير او كبير, من اهل الجيل الثالث يجب ان نتهمه بالكفر بالقرءان,لانه يطعن في "نقلة" القرءان. و لا لا , لن اتوقف هنا, اليس اهل هذا الجيل الذي نحن فيه هو الذي "سينقل" القرءان الى الجيل الاتي؟ حسنا, اذن و بناء على منطقكم الرفيع, كل اهل هذا الجيل معصومين منزهين لان كل من يطعن في فرد منهم, مهما كان هذا الفرد, و لو كان من طراز معاوية بن ابي سفيان, فهو زنديق اثيم, لانه يشكك بطريقة غير مباشرة و يفتح الباب لنقد بقية اهل هذا العصر الناقل للقرءان للعصور الاتية. و احسب ان سخافة هذا المنطق واضحة لكل احد. فأرجوكم كفاية سخافات و تعالوا نرتقي قليلا, و كفاية ذبح للقيم الربانية القرءانية من اجل حفظ ماء وجه اصنام بعض الناس. و كأن ما يقع من هؤلاء يشبه ما كتب الله "و لا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم" نعم والله, ما ان تمس شئ من كتب احزابهم و شخصياتهم المقدسة, حتى تجدهم هجموا على كتاب الله و سبوه و قدحوه و لمزوه (و لو من وراء حجاب) من اجل جعل من يمس احزابهم يخنع لهم. من سوء حظهم اني و اخواني لا نبالي بذلك كله. "كتب الله لاغلبن انا و رسلي, ان الله لقوي عزيز".

و من هذا الطعن الرقيع الذي يهجمون به على كتاب الله هو قول بعضهم لنا: ان تركتم احاديثنا و كلام فقهائنا فلن تستطيعوا ان تفهموا كتاب الله, لان القرءان غامض و معقد و كلام الصحابة هو خير ما يفسر القرءان و يدلنا على المعاني الحقيقية التي قصدها, لانهم شهدوا التنزيل و عاصروا النبي عليه الصلاة و السلام. أقول: ان كنا مفتقرين الى كلام من تسموهم صحابة لنفهم كتاب الله المبين, فالى من سنفتقر لنفهم كلام هؤلاء الصحابة؟ لعلك تقول: لكلام الفقهاء و العلماء. اقول: و الى من سنفتقر لنفهم كتب و كلمات الفقهاء و العلماء؟ ستقول: هو مفهوم بنفسه لكل من يدرك العربية. اقول: بدل هذا اللف و الدوران, نحن نقول في كتاب الله ما تقولونه انتم في كتب صحابتكم و شيوخكم. (و الله يعلم اننا نستمع و نستشير كل اجتهاد في الفكر و القرءان, و لكن فرق بين الاستشارة و بين التعبد و التسليم, كما لا يخفى على اللبيب). ان كنا نفتقر الى كلام النبي (كما هو عندكم) لنفهم كلام الله, فاذن كلام النبي اعلى في البيان من كلام الله. و كنا نحتاج الى الصحابة لنفهم كلام النبي, فكلام الصحابة اعلى في البيان من كلام النبي. و ان كنا نحتاج الى كلام الفقهاء لنفهم كلام الصحابة فبيان الفقهاء افصح من بيان الصحابة. و هكذا و بهذا المنطق الاعوج نصل الى ان كلام بعض الشيوخ هو اعلى في البيان و الفصاحة من كلام الله و النبي ايضا! "الحمد لله الذي انزل على عبده الكتب و لم يجعل له عوجا. قيما". العجيب في هؤلاء انهم اذا وصلوا الى كتاب الله العربي المبين يبدأو يتصرفوا كان قلوبهم غلف, و في اذانهم وقر, و كانهم لا يفقهون من العربية و المنطق شئ, و يتصرفوا و كانهم يأجوج و مأجوج الذين لا يكادون يفقهون حديثا, كل هذا من اجل ان يثبتوا ضرورة الافتقار الى غير كتاب الله. و لكن ما ان تسلم لهم بهذه المقدمة و ترضخ لهم و لاباءهم حتى يتحولوا الى فطاحلة اللغة المتمرسين, و ارباب البيان المحنكين, و سادة الفصاحة المخضرمين. فهم حمير مع كتاب الله, عباقرة مع كتب غيره. هم جهلة صبيان مع كتاب الله, و علماء و سادة و احبار مع كتب غيره. انتم تقولون ان كتاب الله (بحق) هو افصح الكتب, و الاعمق, و انه في اعلى معايير البيان, و اسمى درجات التبيان,

فلماذا هذا التصرف الطفولي اذن؟ لماذا سد الاذان و اغلاق العيون و قتل القلوب اذا وصل الامر الى فهم كتاب الله؟ حتى في ابسط الامور و اوضحها يتصرفوا و كأن كتاب الله اعجمي افرنجي فرنسي في تعقيده الغامض الذي لا يكاد يحسن احد فهمه. و طبعا هذا لا يعني ان "كل" كتاب الله بنفس درجة السهولة في الفهم, او انه كتاب سطحي معمول للصبيان, حاشاه, و كل من يعرف القرءان و يعرف ما نكتبه نحن حول هذه المسألة يعرف اننا من ابعد الناس اعتقادا بهذا. و لكن في نفس الوقت القرءان ليس طلاسم لا يحسن فكها الا بعض من يقدسهم الاحزاب. يوجد حواجز كثيرة تمنع الانسان العربي من فهم كتاب الله و الغوص فيه, و هذه الحواجز هي السبب الرئيسي في امتناع الفهم و الغوص, و قد فصّل الله لنا كل هذه الحواجز, و قد كتبنا عنها في كتبنا مثل (كيف هجرنا القرءان) و غيره. الحاصل: ان كل من يفتقر الى غير الله لن ينتهي افتقاره, و سيؤول به الامر -بحجة او بأخرى- الى الاعراض عن الله و هجر كتابه و اتخاذه ظهريا و سطحيا, و الى جعل ارباب تحول بين الانسان وكتاب الله الذي هو خليفة الله في الارض بالحق. فتعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم.

(عن قواعد فن مصطلح الحديث)

يقوم فن مصطلح الحديث على ثلاث محرمات على الأقل, أي ثلاث مخالفات صريحة لكتاب الله, و انما سميتها محرمات بحسب اعتبار الفقهاء الذين يقول أصول فقه بعضهم أن "النهي يقتضي التحريم كأصل", و هذه المخالفات الثلاثة هي مما لم تنسخ عندهم بل يفترض وجوب العمل بمقتضى هذا النهي. و هذه الثلاثة هي: قوله تعالى "و لا يغتب بعضكم بعضا" و "و لا تزكوا أنفسكم" و "لا تتخذوا من دون الله اولياء". و لنعلق بشيء من التفصيل.

"و لا يغتب بعضكم بعضا" من المقتضيات الأساسية لفن الجرح و التعديل هو الخوض في المسلمين من وراء ظهورهم. فعندما يقال أن "فلان لا يقتدى به" أو "غير ثقة" أو "مدلس" أو "زنديق" أو "فيه بدعة" أو "ضعيف" و ما شابه, بدون أي معيار موضوعي, هو غيبة من الدرجة الأولى حيث لا يسمح للشخص بأن يدافع عن نفسه. و كما جاء في الحديث النبوي الصحيح عندهم أنك اذا قلت عيب حقيقي في مسلم من وراء ظهره فقد اغتبته فان لم يكن فيه حقا فقد بهته! و يا لرقي هذا الفن القائم بين الغيبة و البهتان.

و يحلو للبعض بأن يشبه فن الجرح و التعديل في الحديث بجرح و تعديل الأطباء و المهندسين مثلا. فيقولون أن جرح الراوي مثل جرح الطبيب. فنحن لا نعتبرها غيبة اذا سئلنا عن الطبيب فلان و قلنا عنه أنه "فاشل" أو "سئ". و للاجابة عن هذه الحجة الجيدة في الظاهر علينا أن نذكّر ببضعة أمور حتى يستقيم المثل و الشرح.

أولا, عندما يكون الكلام عن دين الله الكامن في كتابه الكامل المفصل تفصيلا, فان الذي يدعي أن القرءان ناقص و مفتقر الى كلام مخلوق لاكماله و تفصيله من خارجه بأمور أقل ما يقال فيها أنها تعارضه و لا علاقة حقيقية بينها و بينه, فان هذا المتحدث متهم من قبل أن يفتح فمه. فكل المحدثون بمجرد قبولهم لفكرة الاحاديث البشرية المزاحمة لكتاب الله أحسن الحديث, هم متهمين بل محكوم عليهم الى ابعد الحدود. فهؤلاء لا يجاهرون فقط بنقص

كتاب الله, بل انما بفعلهم هذا يستدركون على الله ما نسي أو غفل –تعالى- عن وضعه في كتابه الذي وصفه بأنه "تبيان لكل شيء". فهؤلاء ليسوا مجرد متهمين و أغبياء و لكن حتى قليلي الأدب في حضرة الله. و لا أدري بعد هذا من بقي لكي نعدله. و لو كان ما ينقلونه هو امور من كتاب الله او اجتهادات في فهم كتاب الله لما كان في الامر بأس, بل هذا هو عين تدوال العلم النافع, و لكن ما يوجد هو امر اخر تماما.

ثانيا, اذا أردت أنت أيها القارئ أو السامع أن تشتري ساعة قيمتها 200 ريال فهل تدقق بنفس التدقيق لو كنت ستشتري ساعة قيمتها 200 ألف ريال؟ لا شك أن شراء ساعة ب 200 ألف, و هو مبلغ تكون غالبا شقيت في كسبه, ستدقق لذلك و تستعمل معايير أكبر بكثير من لو كانت مجرد ساعة ب 200 ريال. و كذلك في أمور الدين, عندما يأتي شخص و يريد أن يحدثنا أو يبيعنا فكرة منسوبة الى الله (هل أدلكم على تجرة) بطريق غير مباشر, فهو يقصد بهذا أن يجعل لفكرته حصانة ملكية و دبلوماسية, أي لا يجوز التفتيش فيها أو نقدها. و نحن نشتري الأفكار الدينية خاصة بعملة صعبة جدا و هي حياتنا! أنت تدفع بحياتك ثمنا لأفكارك, تدفع من حيث تشعر او لا تشعر.فاذا كنت سأشتري شيء مادي ثمين فاني سأدقق تدقيقا عظيما, فأي عقل هذا يجعلني أقبل بفكرة أدفع ثمنها بحياتي و عقلي و روحي لمجرد أن أحد البشر قال "سمعت" أو "حدثني فلان"؟! فعندما ندقق و نتوسع في نقد الأفكار الدينية, و أولها القرءانية كذلك, فهذا ليس كرها لها أو انتقاص لها و لا محاولة للتخلص منها, و لا شيء من هذه النوايا السيئة التي يفترضها الأنعام في المحللين لأمور الدين. انما هو لعظم شأنها و ثمنها و قيمتها. و لو كانت الفكرة حقا صادرة من حضرة العليم الحكيم فكيف يخشى عليها من الخسارة في ميدان النقد؟ هل عقل الانسان أكبر من عقل الرحمن؟ ان خشيتهم من نقد أفكارهم و العمل على تحصينها دبلوماسيا بشتى الطرق هو بحد ذاته قرينة قوية جدا على وجود مكر او جهل فيها.

و تامل في سوره الملك. يقول الحق تعالى " الذي خلق سبع سموت طباقا. ما ترى في خلق الرحمن من تفوت. فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ". لاحظ ان القرءان هنا اطلق دعوى و هي " ما ترى في خلق الرحمن من تفوت". فماذا فعل القرءان بعد ذلك ؟ هل افترض ان الامر مسلم و لا يحتاج السامع او القارئ الا الى قراءه هذه الكلمه الالهيه حتى يسلم بها تسلميا تاما و يطمئن قلبه لها ؟ لا . بل امر السامع بان يبصر السموات السبع، و يحقق انه ليس فيها اي تفاوت او فطور. و لم يامره بذلك مره ،بل عده مرات. الذي يعرف ان معه الحق، يدل الناس على التحقق مما معه. و يصر عليهم. و يكرر اصراره عليهم. و اما من يقول للناس : خذوا و سلموا حتى لا تفتنوا. فان مجرد خشيه هذا او تردده او استعماله لمثل هذا المنطق دليل كاف للشك في امره. و هذا هو ما فهمه بعض اهل الغرب من الملاحده من هذه الاديان. فهم يظنون بان هذه الاديان تمنع التحقيق و التدقيق و النقد لاصولها و مبادئها خشيه منها على بقائها. و انقل لكم عباره لمحلل النفساني فرويد في هذا الشان لها دلاله خاصه، يكتب في كتابه مستقل وهم " ان هذه النقطه الثالثه (اي منلقشه صحه دعاوى الدين) لابد ان تثير شكوكنا الى اقصى درجه، فمثل هذا التحظير لا يمكن ان يكون له بالفعل سوى دافع واحد: فالمجتمع يعلم اي اساس واهن تقوم عليه مذاهبه الدينيه. و لو كانت الحال على غير ما نقول، لكان المجتمع وضع ، بكل تاكيد، الماده الضروريه في متناول كل من يريد الوصول الى اقتناع شخصي". و هو على حق فيما تصوره الى حد كبير جدا. و مشكلتنا الاساسيه مع فكر هذه الاحزاب انه في لبه مضاد للفكر القرءآني الذي يفتح المجال الى اوسع مدى في التفكر في الشؤون كلها. و

لا يوجد تفريق بين مسائل "دينيه" او مسائل "فلسلفيه" و "علميه" و ما اشبه من تقسيمات لا تعني في المحصله الا ان الدين شى سخيف اعطي لاطفال من اجل ان يجعلهم يرتكبوا شى من الخير و يمنعوا انفسهم من ارتكاب بعض الجرائم بالاضافه الى شئ من الامل هنا و هناك. القرءان يبني كل احكامه على ما يقرره في علومه. فالعلم فرع الحكم و ناشئ عنه. و لذلك ترى وصف للوجود و درجاته و علاقاته، و تجد كذلك وصف لسنن الكون و الاقوام، و في موازاه هذه الاوصاف كلها تاتي الاوامر و الوصايا الشرعيه. فوصف الكون - الذي يعتبر عمل الفلسفه و العلوم - هو الغالب على كل سور القرءآن و اياته. و ليست وصايا الكتاب العزيز من قبيل " لا تقتلوا " و نحو ذلك من حيث الظاهر الا بضع مئات من الايات الكريمات، و باقي البضعه الاف من الايات المباركات كلها يمكن ادخالها تحت بند وصف الكون. فان كانت البراهين تطلب في ما يسمونه فلسفه و علوم، على اساس انها اوصاف للكون و سننه و علاقاته ، فان الامر نفسه بل عينه في كل اوصاف الكون الوارده في القرءآن. تسخيف الدين شان احزابي، و ليس شان قرءآني. و من اساليب التسخيف هو صرف الناس عن التعامل الحر المطلق مع كتاب الله تعالى، بوضع حجب المرويات النبويه ثم الصحابيه ثم التابعيه ثم المشيخيه. ازيلوا كل هذه الحجب، و اخلصوا الامر لله تعالى و الباقي لا يكون الا خيرا باذن الله.

قد يقول البعض: و لكننا اذا تعاملنا مع القرءآن على انه كتاب حقيقه و رؤيه معرفيه من حيث الاصل و ليس ككتاب اخلاق و سلوكيات دنيويه ، فان الكثير من مطالب و دعاوى القرءآن لن تثبت بالنظر و التفكر و العقل و الكشف ، فهذا سيؤدي الى ضعف القرءآن ؟ الجواب مع التنزل و افتراض ان ما يحويه مضمون هذا السؤال هو فعلا صحيح- و لا نراه كذلك الى الان- و لكن لا باس فلنتنزل و نفترض ان ما يقوله صحيح. الجواب هو التالي : فليكن ! " ما ترى في خلق الرحمن من تفوت فارجع البصر هل ترى من فطور". فكيف تلوم من يرى الفطور !

ثالثا, في الأنظمة القانونية المحترمة (قديما و حديثا), فانه على المدعي أن يقدم البينة على دعواه, و يجوز بل يحق للمدعى عليه أن يواجه بهذه الدعوى, و بالتالي يحق له أن يدفع التهمة عنه. و يجب ان يكون الحاكم طرفا ثالثا غير المدعي و المدعى عليه. فلا يجوز أن يكون الحاكم هو الخصم. بل ان العدالة منعت أن يكون الحاكم في القضية ممن له صلة قرابة أو منفعة شخصية مع أحد الخصوم. و الحكمة وراء مثل هذه الاجراءات ظاهرة فلا نفصلها هنا و من أراد التفصيل فليراجعا في مظانّها . و الشريعة التي استنبطها و وضعها الفقهاء تقر هذه المبادئ العادلة. فاذا أتينا الى فن الجرح و التعديل نرى أنهم قد أغفلوا هذه المبادئ العادلة. فترى الحاكم هو الخصم, و الحكم يصدر غيابيا على المتهم, و لا يحق للمتهم أن يدفع التهمة عن نفسه, باختصار فن الجرح و التعديل هو من أسوأ الحالات الممكنة من الطغيان القانوني. بل حتى الطغيان في بعض الاحيان يواجه المتهم بالتهمة و لو كان بريئا.

و نستطيع أن نفهم سبب اغفالهم لقواعد العدالة هذه. لان الحاكم (المجرح) لا يملك برهانا أو بينة عادلة للحكم, بل هو راي شخصي بحت في أكثر الاحيان, و لذلك ترى احكام مثل "يعجبني فلان و لكن فلان يعجبني أكثر منه" و ما أشبه. و الحاكم هو نفسه الخصم فلا داعي لمواجهة الخصم الاخر (المجروح). و لا يجرؤ الحاكم أن يجرح خصمه في

وجهه في اغلب الحالات و الا لتحولت حلقات الدرس الى حلبة مصارعة بين ثيران هائجة. فحتى يرسوا لهم الأمر أغفلوها كلها.

يكفينا من قواعد العدالة هاتين القاعدتين: تقديم البينة التامة العادلة, و مواجهة الخصم. عندما يقول "فلان كذاب" انظر و سترى أن الغالبية العظمى من حالات الجرح و التعديل تقوم على حكم مجرد, حتى تسبيب الحكم, و هو أيضا قاعدة قضائية ضرورية, غائبة في الكثير من الحالات, بالرغم من اشتراط بعض النقاد لها, و لكن كما قلنا فان تبيين سبب الجرح ليس مثل تقديم بينة على صدق السبب و تحققه فعلا. أحسب ان الأمر ظهر.

نرجع الان الى تشبيه الحكم على الراوي بالحكم على الطبيب و المهندس. أقول: حتى الحكم على الطبيب و المهندس هو راي شخصي نسبي, هذا اولا. فهذا يرى الطبيب سئ و هذا يراه خير من وطئ الأرض. و هذا يرى المهندس فاشل و ذلك يراه جيد. و ثانيا و هو الاكبر, ان الحكم على الطبيب و المهندس مبني في أحسن الحالات على رؤية موضوعية مجردة. الطبيب يشفي, و المهندس يبني. و الحكم مبني أيضا على علم مجرد, فعندما يكون المهندس قد بنى العمارة على خلاف الحسابات و الرياضيات الصحيحة مما يؤدي الى سقوط البناء فمن العدل أن نحكم عليه بأنه أساء العمل. و دليل سوء عمله هذا ليس تخمين أو حدس (او "ملكة فنية " الذوقية البحتة, كما يذكر الدكتور السباعي-رحمه الله- عن بعض نقاد الاحاديث) و لكن لأن الاثبات الرياضي ضده أو ان البناء سيسقط بعد حين. و كذلك الطبيب الذي ينسى المقص داخل بطن المريض في عملية جراحية هو طبيب سئ في هذه الحالة, و الانسان ينسى و يهمل. و حتى هذا الطبيب الذي أخطأ هذا الخطأ الفادح لن يحرق شهادته في الطب و يذهب ليبيع الفول السوداني بجانب المسجد, و لكنه سيصلح نفسه غالبا.

فاذا قارنا هذا بالحكم على الرواة سنرى أنه لا شبه أصلا بينهما. فلا معيار موضوعي غالبا, و الأدهى أنهم ينسبون فلان الى أنه "نسي" الحديث أو "حرفه" بالرغم من عدم توافر النسخة الأصلية الموثوقة من الحديث! فما أدراكم أنه نسي أو حرف؟ و لو كانت عندكم النسخة الأصلية (و هي غير متوفرة و انما أفترض وجودها جدلا) فاذن أنتم لا تحتاجون الى سماع رواية هذا الراوي أصلا. فحتى أحكم بالعدل أن فلان لم ينقل الحديث بدقة, فهذا يقتضي أني أملك نسخة أصلية مثبتة دقيقة من هذا الحديث, ثم بمقارنتها مع رواية هذا المحدث فوجدته ينقل بغير دقة أو تحريف متعمد اذا كان الفرق فاحشا. كمثل تلاوة القرءان, فنحن نملك الكتاب, فاذا تلا أحد "بسم الله الرحمن الرحيم" نستطيع أن نحكم بعلم و عدل أنه تلاها بدقة. فهل مثل هذا الشرط متوفر في هذه الأحاديث؟ لا.

و من ناحية أخرى, فان الطبيب لا يدعي أنه ملهم من الله و لا يجوز نقده. اسمحوا علنا بنقد المرويات في ذاتها بدون تعريض الناقد الى الاعتداء و الاجرام او ان يحكم عليه بالردة (هذا الحكم الجائر) من مؤسساتكم و أتباعكم, و لن نحتاج ان نكمل هذا الكتاب.

فعندما قال الله "و لا يغتب بعضكم بعضا" كان من المفترض أن يقول رجال فن مصطلح الحديث "علينا أن نلغي فكرة الجرح و التعديل لأنها غيبة, و يجب علينا أن نبحث عن معيار اخر لمعرفة صدق الحديث" و لو فعلوا هذا لكانوا أهل للتعظيم فعلا. و لكن الغريب ان الذي حدث هو عكس ذلك تماما! لقد اعترفوا بأن الجرح و التعديل من الغيبة , تأمل هذا جيدا لقد اعترفوا و اقروا بان فن الجرح و التعديل يعتبر من الغيبة, و لكنهم استثنوا الغيبة التي يمارسونها هم ,من هذا النهي المطلق "و لا يغتب بعضكم بعضا". و حرفوا الاية لتصبح و كأنها تقول "و لا يغتب بعضكم بعضا الا رجال الجرح و التعديل فيحق لهم أن يأكلوا لحم اخوانهم"! فهم أئمة الكتاب و ليس الكتاب امامهم.

يقول الله "و لا تزكوا أنفسكم" من الظاهر و المعروف أن فاقد الشي لا يعطيه. فاذا كان الانسان المسلم لا يحق له أن يزكي نفسه فكيف يجوز له أن يزكي غيره, فضلا عن أن يجرح في ديانه و صدق غيره من المسلمين؟ عندما تستمد الأفكار قيمتها بناء على الرجال الذين يرونها و يؤيدونها فهذا اشراق الطغيان.

يقول الله "لا تتخذوا من دون الله أولياء" و عندما يترك كتاب الله و ما ينفع الناس من أجل رجال فهذا عين ما تنهى عنه الاية. و بداية الوقوع في ما تنهى عنه.

صدق القائل على المشرك مع الله غيره من الاحبار و الرهبان و السادة و الكبراء و الكتب المنافسة بل المتعالية أنه خر من السماء أو تهوي به الريح في مكان سحيق. و ها هم يخرون من سماء القرءان و العقل و المنفعة الى مكان سحيق, مصطلح الحديث و الاهتمام بالرجال.

(وقفه مع الامام الشافعي- رحمه الله)

سمعت من اكثر من شافعي-بغض النظر عن صحه القصه الا انها مشهوره- موقفين للشافعي فيما يخص اصول الفقه احببت ان اشير اليهما هنا و اعلق تعليقا بسيطا. الاول فيما يخص قدرته على الاستنباط، و الثاني في استخراجه لدليل الاجماع من كتاب الله تعالى.

الموقف الاول. ان الشافعي استنبط نحو خمسمائه حكم شرعي من روايه واحده يقول فيها النبي عليه السلام لصبي " يا ابا عمير ما فعل النغير ؟ " . و تعليقي : ان من يحسن ان يستنبط خمسمائه حكم شرعي من "ما فعل

النغير" و لا يحسن ان يستنبط مليون حكم شرعي من كتاب الله تعالى حتى يضطر الى ان يخترع اصولا اخرى مستقله عنه ، يجب ان يراجع سوابقه الفكريه.

الموقف الثاني. ان الشافعي لما سئل عن حجه الاجماع من القران، طلب مهله من السائل، ثم مكث في بيته و ختم القرءآن ثلاثمائه مره ثم خرج بايه " و يتبع غير سبيل المؤمنين". و تروى هذه على انها فضيله و منقبه، و هي في الواقع ضد ذلك تماما لو صحت. تعليقي: لولا ان الشافعي او غيره قد اخترع فكره الاجماع ، ثم بعد ذلك ارادوا ان يسقطوها على كتاب الله تعالى ، لما احتاج الشافعي ان يختم ختمه واحده لياتي بالحجه التي تدعم هذه الفكره. فلو كانوا قد استنبطوها من كتاب الله في الاصل، لاجابهم فورا ان حجه الاجماع في القرءآن هي ايه كذا و كذا. و اضطراره ان يقرا القرءآن ثلاثمائّه مره حتى "يستخرج" او قل "يختلق" حجه لهذا الاجماع (و حجه رفضها بعض اكبر اتباعه كالجويني و الغزالي !) لهو دليل ممتاز على منزله القرءآن الحقيقه عند القوم. فعندما نقول انهم يختلقون ما يشاؤون ثم يسقطونه على كتاب الله و لو كان اسقاطا سخيفا سفيها، و هم لا يبالون، و هذا استخفاف بعقول و ارواح الناس، "استخف قومه فاطاعوه" و يظهر ان هذه الامه قد استخف بها القوم و اطاعوهم بالرغم من ذلك. فتامل هذه المناقب التي واقعها اشد المثالب.

(اعادة بناء علم الروايات)

مقدمة

"و يحب المتطهرين" ان الهدم ليس مقصودا لذاته, و لكننا نهدم البناء القديم المهترئ لكي نبني مكانه بيت جديد راقي أحسن منه. و يوجد من المفكرين من يبرعون في النقد و الهدم و اكتشاف العيوب و الثغرات فقط, و اخرين يسعون الى اصلاح البناء المهترئ بطريقة وهمية تسترية لا تصلح في الواقع شيئا و لا تنفع الناس الا قليلا. و لكننا نرى أن خير طريق هو الهدم التام, أي ضرب البناء بأقوى ما يمكن من الأسلحة, و بذلك تتبين مواطن الضعف و القوة فيه, ثم نبني من جديد على أسس راسخة و صورة جميلة.

و لما كانت دعوتنا و تحريضنا موجه الى دراسة القرءان بعمق شديد من قبل كل الناس, و كان ما يسمى بالسنة النبوية و ملحقاتها عائقا و عقبة أمام هذه الغاية التي هي في رؤيتنا أكبر غايات الحياة الراقية, و جب علينا أن نحطم كل ما يقف في وجهنا. و لكن المشكلة أن ما يواجهنا هنا هو كلام يعتقد الناس أنه "وحي من الله" أي سواء نسبت مباشرة الى النبي الأول عليه السلام, أم صدرت ممن يسمون الصحابة الذين يفترض انهم كلهم عدول و بأيهم اقتديتم اهتديتم, او من العلويين الذين روايتهم عن جدهم عن جبريل عن رب العزة. و هذا الأمر يشكل عقبة حقيقية أمام الوصول الى الله بالقرءان وحده. و قد فرغنا الى حد كبير من نقد هذه الأفكار, و يظهر أننا اكتفينا من الهدم . و حتى لا نكون قد قطعنا نصف الطريق و نمنا على قارعة الطريق كسلا, فنريد في هذا الباب أن نساهم في بناء علم الحديث من اول و جديد على اسس راسخة يؤيدها القرءان بالعلم الواقعي. (و يوجد من قال بكل ما سنذكره هنا, و قد لا نأتي بجديد او مجهول في الموضوع, و انما هو من باب الترتيب و التذكير).

و قد يتساءل أحد أصحابنا أو غيرهم: ان كنت ترى أن القرءان وحده يكفي و أنه من الشرك الايمان بأي شيء معه, فلماذا تداهن في دينك و الله يقول بعدم المداهنة؟ أقول: تساؤل جيد. و لكن من قال أننا نداهن؟ نحن لسنا شعراء نحيا في عالم الخيال, و من الواقع و الخبرة نعرف أن أكثر الناس لن تستطيع على التوحيد المطلق "و ما يؤمن أكثرهم بالله الا و هم مشركون" و ان أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع. فاذا قلنا, و قد قلنا, بضرورة ترك كل ما عدا القرءان من المراجع الدينية, و بناء الدين كله من أوله الى اخره على أساس كتاب الله وحده, فهذا الكلام لن يجد صدى في قلوب الكثير من الناس. و لذلك عوامل كثيرة لا نريد أن نفصلها هنا.

دعني أضرب لك مثلا يبين الغاية من هذا الباب: اذا وجدت أخوك يأكل طعاما متسخا و مقرفا, و حاولت أن تقنعه بأن يتركه فلم يقتنع او لم يرغب في الاقتناع, فماذا تعمل؟ تأخذ منه هذا الطعام و تحاول أن تطهره قدر الامكان, فاذا استطعت أن تزيل كل الاوساخ فعندها الحمد لله, و ان لم تستطع على ذلك التطهير التام فأن يأكل نصف الأوساخ خير من أن يأكلها كلها.

فالناس على ما أظن ستستمر في الاعتماد على ما في كتب المرويات, و ستظل على هجر القرءان ظاهرا او باطنا بدرجة او بأخرى, فاذا قمنا باصلاح معيار قبول الاحاديث قد يساعد ذلك في العودة الى القرءان قليلا أو كثيرا.

ثم اني سأستعمل أفكار قرءانية للمساهمة في اصلاح كتب المرويات. و لا تكون المداهنة الا بترك شيء من القرءان في سبيل ارضاء الجهلة و المترفين, و هذا ما لن نفعله أبدا , و لا قوة الا بالله.

و نحن لسنا ضد الكلام لانه كلام, و لكن لأنه كلام يخالف القرءان باسم الله, و يخالف العلم و الحياة الراقية. فنحن في الواقع لا نبالي لو كان الكلام صادرا من جبريل أو ابليس, و لكن ما يهمنا هو مضمون الكلام. فنحن نسمع لكل أحد, و ندرس كل الافكار ما استطعنا, و لا يهمنا عمن صدرت الا ثانويا, بل لعلنا لا نهتم بذلك أبدا لو لم يكن ذلك ضروريا في بعض الأحيان, لفهم الظروف التي نشأت فيها الفكرة, و حتى هذا لا أرى أنه واقع, و هي مجرد فكرة نظرية أكثر منها عملية واقعية, ففي نهاية المطاف الناس تريد أن تعيش حياة ميسرة و فهم أسرار العوالم قدر الامكان, و لا هذا و لا ذاك له علاقة مباشرة بحدثني و حدثنا, و قال فلان و قال علان. فلولا شدة تعلق الناس بهذه المرويات و كونها عقبة و حجاب على جواهر القرءان و العلم النافع, لما أنفقت من حياتي ساعة واحدة في سبيل فهمها و المساهمة في اصلاحها ما استطعت.

و أخيرا قد يقال: من انت حتى تزعم أنك ستصلح علما قام عليه الاف العلماء الذين أفنوا أعمارهم في هذا و أنت لا تساوي ظفرهم؟ أقول: يوجد الاف العلماء في كل دين و مذهب و طريقة ممن ينفقون أعمارهم في تحقيق أديانهم و تهذيب عقائدهم و دعمها, و مع ذلك أنتم ترونهم على باطل محض و عميان. يوجد ملايين من العبرانيين اليهود مثلا ينفقون في تحقيق اديانهم و فقههم اضعاف اضعاف ما ينفقه علماءكم, و في اضعف الاحوال ينفقون مثل جهد علماءكم, و مع ذلك هذا لم يشفع لهم في اكتساب رضاكم, و ايضا هذا لم يجعلكم تقولون :طالما انهم افنوا اعمارهم فان هذا يعني ان ما يجتهدون فيه له قيمة عظمى. بل لعلكم ترونهم ممن ينطبق عليهم مثل "عاملة ناصبة تصلى نارا حامية". و كذلك مثلا (و كلامي للوهابية) عندما تجدوا ان ملايين العلماء الاسلاميين السنيين الصوفيين افنوا اعماره في تحقيق و تنقيح مذاهبهم, و انفقوا في سبيلها الغالي و الرخيص, و سافروا و ساحوا في الارض, و تعذبوا و اضطهدوا و صلبوا و قتلوا, و مع ذلك ثبتوا و استمروا على عقائدهم, فان كل هذا لم يشفع لهم عندكم و يجعلكم تردوا على من ينكر عليهم علمهم و عرفانهم و ان تقولوا له: اخسأ ايها التعيس! من انت حتى تزعم انك ستصلح ما بناه كل هؤلاء الاجلاء من علماء الصوفية, لقد افنوا اعمارهم في هذا العلم و هذه الطرق, انت

لا تساوي ظفرهم. و كذلك يقال للشيعة ان ملايين السنيين فعلوا مثل ذلك, و هكذا في كل فرقة يقال لها ما يقال لنا هنا, و لا شك انكم لم تعيروا من يستعمل مثل هذه الحجج اي اهتمام. و ستقولوا: نحن نتبع الدليل اينما مال نميل. و هكذا نقول نحن, فانصفونا من انفسكم ايها الناس, و اعدلوا هو اقرب للتقوى.

ان قيمة الفكرة لا تقاس بعدد من قام عليها. و سيهزم الجمع و يولون الدبر. بل ان المرة الوحيدة التي اعجب فيها المؤمنون بأنفسهم هو في يوم حنين "اذ اعجبتكم كثرتكم" و ادى هذا الاعجاب الى الهزيمة. نحن امة تنصر الواحد لو كان على حق و بينة من امره, و ترفض الملايين لو كانوا على غير ذلك. او هكذا هو المثال المفترض ان نحتذيه بقدر استطاعتنا. قد ذكرنا ما عندنا و كشفنا. و أحسب انكم أعقل من أن تكونوا من أتباع مقولة "أهذا الذي يذكر الهتكم" أو "ما سمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق". و لكن هذا الاعتراض منهم علينا فيه بشرى, و هي أنهم أقروا بنوع من الهزيمة, اذ الذي لا يجد حجة معرفية سيحتمي وراء جلال الاباء. الذي لا يستطيع أن يدعم المقولة لنفسها فانه يهرع و يتحصن وراء عظمة قائلها, او على الاقل العظمة التي هو و امثاله يعتقدونها في قائلها. فحسبنا الله و ما تكشفه البينة و ما ينفع الناس.

(1 نقد لمذهب الرواة ووضع الغاية التي نريدها)

ذكرنا مسبقا الكثير من الأمور على أساس أنها معروفة من القراء, أو على الأقل أصلها معروف عندهم. و لم نذكر اقتباسات عن علماء الحديث بطريقة مباشرة, و اني اعلم أن هذا قد يكون مدخل للطعن في الكتاب, اذ لا يصبر هؤلاء على رؤية فتحة بقدر الشعرة حتى يصوروها للناس بقدر المجرة. و اني لم أذكر الاقتباسات مباشرة أو ذكر شواهد من فلان و فلان لأني أوجه هذا الكتاب الى العلماء بهذا الشأن في المقام الأول. و هنا أريد أن أذكر بعض الاقتباسات المهمة و هي منسوبة الى كبراء علماء الحديث و التي تشهد بما نسبناه لهم, بالرغم من ان اهل العلم بهذه الامور يدركون جيدا حقيقة ما ذكرت في ثنايا الكتاب دون الاضطرار الى ذكر المراجع, و انا لا املك الوقت و لا الرغبة لمثل هذا العمل اصلا, و يكفي الوقت الذي انفقناه في هذا العمل , و في هذا نفع للكل ان شاء الله.

ذكرنا أن أكبر نقطة ضعف في مذهب المحدثين هو اعتمادهم على الرجال و ليس على الافكار. فلو أن الافكار التي يعرضها الحديث صحيحة قرءانيا أو علميا أو نافعة فانهم لا يتورعون عن وسمها بالضعف و الوضع اذا اختل السند. و ذكرنا أن متن الحديث لا أهمية له في الواقع الفعلي لهم و لو ادعوا غير ذلك. أي أنهم لا يبالون لو خالف الحديث القرءان او الواقع ما دام السند سليم و المتن سليم من زاوية معينة يريدونها و دائما عندهم وسائل لترقيع الحديث و رتق الخروقات التي فيه. و هنا نريد أن نذكر بضع اقتباسات من علماء هذا الشأن. مع العلم أن نفس الفكرة معلومة لكل مسلم يمارس الاسلام و له اطلاع على كتب الدين.

يقول الخطيب البغدادي في كتاب الجامع (2/452) "السبيل الى معرفة علة الحديث: أن تجمع طرقه, و يعتبر بمكانهم (الرواة) من الحفظ و منزلتهم في الاتقان و الضبط".

يقول عادل الزرقي, أستاذ الحديث بكلية المعلمين بالرياض في كتابه قواعد العلل, و قد جمع فيه ما قال الأولون فلا يذكر رأي الا و هو منسوب الى عالم كبير من علماء الحديث, بل أكثر من عالم, فكتابه جمع و نقل لاراء كبار رجال هذا الفن "من أراد الاشتغال بعلم العلل... أن يهتم: معرفة الثقات من الضعفاء, معرفة مواليدهم و وفياتهم و بلدانهم, معرفة المكثرين من رواة الحديث, معرفة مراتب أصحابهم منهم, معرفة المدلسين و المختلطين, معرفة المنقطع من الأسانيد"

و يقول عادل الزرقي و هو يذكر القرائن التي يستدل بها العلماء على صحة الحديث من ضعفه فوصل بها الى نحو عشرين قرينة سنذكرها هنا باختصار لأهميتها : عدد الرواة, قوة حفظ الراوي, الاختصاص (تلميذ الشيخ أو قريبه و ما شابه من علاقة خصوصية بين الراوي و الذي يروي عنه) , سلوك الجادة (الرواية بأسانيد معروفة), غرابة السند, اتفاق البلدان, رواية الراوي عن أهل بيته, الرواية بالمعنى, اختلاف المجلس, سعة رواية المختلف عليه, شذوذ السند, فقدان الحديث من كتب الراوي, مخالفة الراوي (عمليا) لما روى, وجود تفصيل أو قصة في السند أو المتن, التفرد, غرابة المتن (و هو في الواقع تكهن ناقد الحديث بكون الحديث مما "يمكن" أن يكون صادر عن النبي أم لا), اختلاف ألفاظ الروايتين, اضطراب احدى الروايتين, تشابه الاسمين, رواية أهل المدينة (و هذا مبني على أنه "لولا أن أهل المدينة سمعوه من النبي لما رووه" و لكنهم لا يعيرون وجود المنافقين من الصحابة أي اهتمام "و من اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم") احتمال التدليس ممن وصف به, التصريح بالسماع. (و الغريب ان الزرقاني لم يذكر شئ عن مخالفة القرءان و غير ذلك مما نقلناه عن الدكتور السباعي في فصل السنة, و لا ادري ما سر هذا, و لعل الراسخون في العلم يدركونه!)

و نذكر اخر استشهاد من ابن رجب صاحب كتاب شرح العلل (2/ 467-468) يقول "اعلم أن معرفة صحة الحديث من سقمه تحصل بأحد وجهين: معرفة رجاله و ثقتهم و ضعفهم, و معرفة مراتب الثقات".

حسنا, أحسب أن الأمر ظهر بما فيه الكفاية. هل تجد في كل ما ذكرناه شيء عن القرءان و الاحتكام الى حكم الله بعرض الأفكار عليه؟ أليس التركيز كله على الرجال. و باختصار ان كل كلامهم مبني على تكهنات و اراء شخصية متأثرة بعقل الناقد و مزاجه الشخصي و مذهبه و لا برهان حقيقي عليه. و هذا ليس مبالغة مني , فهم أنفسهم يقولون أنه لو سألهم أحد عن برهانهم في قولهم لما استطاعوا أن يجيبوه بشئ. يقول ابن نمير: قال عبد الرحمن بن مهدي " معرفة الحديث الهام, لو قلت للعالم يعلل الحديث : من أين قلت هذا؟ لم يكن له حجة. قال ابن نمير معقبا: و صدق, لو قلت من أين قلت؟ لم يكن له جواب"

فعندما نقول أن القرءان لا محل حقيقي له في دين انصار هذه المرويات فهذه ليست مبالغة, و أي شيء أكثر تريد من كونهم يصرحون بأقوال مثل "القرءان أحوج الى السنة من حاجة السنة الى القرءان, السنة تقضي على القرءان و لكن القرءان لا يقضي على السنة, و أن السنة مستقلة بالتشريع" , بالمناسبة ذكر الدكتور السباعي في ص 423 من كتابه الرائع عن السنة ان قائل هذه المقولة القبيحة عن كتاب الله, اي "الكتاب(القرءان) احوج الى السنة من حاجة السنة الى الكتاب" هو من يسمونه بالامام الاوزاعي. و يقول ابن عبد البر مفسرا كلام الاوزاعي: يريد انها تقضي عليه و تبين مراده. اعوذ بالله من هذا القلب, كيف يتجرأ الاوزاعي او ابن عبد البر ان تصدر منه مثل هذه الكلمات في حق الله؟ لا اقول كيف يتجرأ, بل كيف استساغ قلبه ان يقول مثل هذا, و لو على الاقل من ناحية

الادب مع الله و ليس من ناحية العلم بكتابه (و الذي اجزم انه- و بسبب هذه المقولة الشنيعة- انه ممن ينطبق عليه بدرجه او باخرى مثل الحمار الحامل للاسفار) .. و لذلك ينقل ايضا السباعي ان الامام احمد بن حنبل سئل عن مقولة الاوزاعي هذه فقال: لا أجسر ان اقوله! (اي لا اتجرأ ان اقول مثل هذه الكلمة) ان السنة تفسر الكتاب و تبينه. أقول: مقولة ابن حنبل الطف قليلا من مقولة ذلك الخبيث. و لكنه مع ذلك يدعي امورا تخالف الكتاب نفسه الذي يدعي ان السنة تفسره. ان القرءان ليس له تفسير, القرءان هو تفسير بل احسن تفسير لكل شئ. "و لا يأتونك بمثل الا جئتك بالحق و أحسن تفسيرا". نحن لا نفسر القرءان , نحن ندرس القرءان. و الفرق كبير. و يروي ايضا عن عمر انه قال لقاضيه " اذا وجدت شيئا في كتاب الله فاقض به و لا تلتفت الى غيره", و ايضا "انظر ما تبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا, و ما لم يتبين لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله". ممتاز!

أقول: جاء رجل الى عالم من الاحزاب و عالم من الكتاب. و سأل الاول: من اين استقي ديني؟ فقال رجل الاحزاب: ابحث في كتاب الله فان لم تجد ففي السنة فان لم تجد ففي الاجماع فان لم تجد ففي القياس و هكذا. فقال العالم من الكتاب: ابحث في كتاب الله, فان تجد فابحث في كتاب الله, فان لم تجد فابحث في كتاب الله, فان لم تجد فاذهب و ابكي على نفسك لانك ممن ختم الله على قلبه و سمعه و جعل على بصره غشاوة فمن سيهديك من بعد الله.

و عندما نقول أن فن الجرح و التعديل و الحكم على الرجال لا برهان عليه, فهذه ليست مبالغة. و عندما نقول أن معرفة قوة الحديث من ضعفه مبنية في أحسن الأحوال , في اكثر من 90% منها على الرجال, فهذه ليست مبالغة. و اذا كانت مخالفة القرءان تكفي لاثبات بطلان الحديث فان هذا الاقرار منهم يكفي و يعني أن هذا الكتاب قد وصل الى غايته. بعض الناس اليوم يحب أن يلقي كلاما في الهواء و يدعي ان السنة الصحيحة لا تخالف القرءان و لا المعقول, اذن قولوا ذلك علنا, و اعترفوا بأن مخالفة القرءان و لو في تفصيل واحد تكفي لتقرير بطلان الحديث. فاذا جئتهم بأول مثل على مخالفة كتاب الله و هو ادعاء فرضية اعيان هذه الصلوات الخمس, فانها ليست في القرءان باقرار الجميع بتفصيلاتها, فهل هذا يعني بطلانها من حيث المفروضية ؟ نعم. و لكن هل سيقرون بذلك؟ لا. و قل مثل ذلك في باقي المسائل الكبيرة و الصغيرة.

هم يقبلون نقد الحديث و عرضه على القرءان بشروط كثيرة, اذا اعتبرناها توصلنا الى أن وجودها مثل عدمها. بل عدمها أحسن اذ بذلك لا يوهمون الناس بأن الأحاديث توافق القرءان جملة و تفصيلا.

و حتى قبول الرواة يقوم على التخير بلا ضابط حقيقي. فمثلا يمكن بكل بساطة أن يبطلوا الرواية لأن أحد الرواة شيعي أو سني أو خارجي (ان شاؤوا طبعا) و لكن اذا نظرت في كتاب البخاري مثلا سترى أنه يروي عن الخوارج و النواصب . فاذا سألته في ذلك فلسف الأمور و قالوا "ان الخوارج يرون حرمة الكذب و كفر مرتكب الكبيرة عامة و

الذنب في بعض الاقوال فتوقع صدق روايتهم قوي" و لا أدري أي مسلم يرى أن الكذب على النبي حلال او ان الكذب حلال! نعم البعض يتأولون و لكن لا ننسى ان الكل يتأول و يغني على ليلاه, و لعل ليلى هي التي ابتكرت قصة عشق ذلك الابله لها. و الله اعلم بالحقيقة. على أية حال, لا تتعب نفسك و تحاول أن تجد تناسقا فكريا في مناهج تقوم على المصالح و المكر كما تقوم على الابحاث و الفكر. ابحث عن التناسق عند العلماء الحقيقين- هذا ان وجدوا اصلا.

فاذن, علم الحديث الحالي يقوم على السند. و حتى هذه الجملة غير دقيقة بالكلية لأن ناقد الحديث يختار من المسانيد ما يحب و يرفض ما لا يحب. ففي الحقيقة أصدق ما يقال عن علم الحديث الحالي أنه لا يقوم على شئ الا ذوق الرواة, و أرباب نعمتهم في بعض الأحيان.

2) خطتنا لعلم الحديث و الاثار)

ان مما يعلمه كل من يطلع على الاثار الفكرية الدينية التي ورثناها عن الاباء هو أنه ميراث ضخم عظيم يحوي من كل الاراء و المذاهب و مناهج التفكير و التأويل و أساليب التعبد و التأله و الاستنباط. باختصار: هو بحر من الأفكار. فيه من كل شيء. و البحر يحوي الجواهر و الؤلؤ و المرجان و يحوي ايضا الاحذية القديمة و جثث الموتى و بعض الطلاسم و العقد السحرية الخرافية.

و اني أرى ان نكون طماعين بجشع. أي نطمع في الميراث كله, ولا نترك شيء منه يفلت من أيدينا. و لذلك أقترح الاتي:

أولا, علينا أن نمحي كل الأسانيد. و كل المذاهب و كل المحدثين. أي نقوم بجمع كل الاحاديث و الاثار المروية عند كل فرقة و حزب منسوب الى الاسلام و لو من بعيد. و لا نبالي من هو المحدث أو الشيخ الذي جمع الاحاديث أهو سلفي أو شيعي أو سني أو صوفي أو أي شيء لا يهم.

ثانيا, أن نحذف كلمة "قال رسول الله" أو قال فلان و ما شابه من قبل المقولة. حيث ان هؤلاء لم يدونوا كلامهم بأنفسهم, فلا يحق لأحد أن يتعدى عليهم و ينسب لهم ما لم يشرفوا على تدوينه بأنفسهم. و كما عرفنا, فان نسبة الفكرة الى شخص عظيم دليل على أن صاحب النقل يريد أن يسقط المشروعية على الفكرة بطريقة جاهلية و ليس معرفية راقية.

ثالثا, نجمع كل أبواب الحديث و الاثار, مثل الصلاة و الذكر و الجهاد و فضائل القرءان و ما شابه. و نرتبها في فهرس, ثم نجمع كل حديث أو أثر ذكر في أي كتاب من كتب الاثار مما يندرج تحت هذا الباب. فقط نكتب الرقم و علامتي تنصيص ثم المتن. (و قد نستغني حتى عن الترتيب في ابواب لان الروايه الواحده تحوي معاني و دلالات كثيره و لا تنحصر في باب واحد- و هذا سيجعل العمل اسهل).

رابعا, نحرص على عدم اغفال أي كتاب أيا كان مذهبه و بطلانه و ضعفه و قدمه. و نحرص على أن لا نكرر الحديث قدر الامكان.

خامسا, نسمي هذه الموسوعة باسم يناسبها مثل "جامع الميراث" مثلا , ثم توضع تحت أيدي الناس.

لاشك أن هذا العمل سيحتاج الى جهود جبارة يبذلها كل من له اهتمام بأمور الحديث و الاثار و المذاهب و المشارب. و هذا سيكون من أكبر أسباب توحيد الناس مرة أخرى, الى حد ما. و سبب رائع لسعة الاطلاع و العمق في النظر و التحليل و النقد. و هذا بحد ذاته خير عظيم.

اني شخصيا لا يمكن أن أنفق من حياتي لكي أقوم بمثل هذا العمل, و حسبي كتاب رب العرش, فاني لم أفهم عشر معشاره بعد و قد ذهب ربع عمري أو يزيد, و لكني أذكر ذلك للذين يصرون على التفرق و الشقاق بسبب ما يزعم البعض أنه وحي الهي. و اني لأفضل أن ينشغل الناس بدراسة القرءان عن القيام بمثل هذا العمل. و لكن لو كان و لا بد من افتقار الناس الى هذه الاحاديث و المرويات, فهذه الخطة الجديدة ستأتيكم بكل الاحاديث. هيا ماذا تريدون اجمل من ذلك, انتم تريدون احاديث و قال و قيل , و لكنكم تحصرون انفسكم في "بعض" كتب المرويات, و انا اقول: خذوا "كل" كتب المرويات. و هذه الخطة ليست من ابتكاري حصرا, بل بذورها موجودة من قبل. و هي من أحسن ما يمكن أن نقدمه لاخواننا الذين نحبهم و حجبتهم بعض الأمور عن روح الله.

ثم من تجربتي مع هذا الميراث فاني أجده مليئ بالافكار الرائعة كما ذكرت من قبل. و ان من الاحاديث ما أتخذه أساسا في حياتي بنصه. و ليس من العدل أو العلم أن نحرق كل ذلك فيذهب سدى. فلا بأس من تطهيره من اثار التعصب و الجاهلية. و التعامل معه بطريقة هادئة راقية. فنأخذ ما ينفع, و ندع ما لا يسمن و لا يغني من جوع. " كذلك يضرب الله الحق و الباطل ,فأما الزبد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض "

(نقد لمقولة حسبنا كتاب الله- في سياق التاريخ و الذات)

يظهر أن خلاصة طريقتنا التي مهدنا لها في هذا الكتاب هي نظرية: حسبنا كتاب الله. هذا ما سيظنه معظم ان لم يكن كل تابع للاحزاب الاسلامية للوهلة الأولى. و دفعا لهذا التوهم أحببت ان أضيف هذا المبحث. سأبدأ بعرض مبسط جامع لتاريخ هذه النظرية كما ذكرت في سياق تاريخ الاسلام بحسب الشيعة و السنة عموما. و أعلّق بعض التعليقات المناسبة على الجدل الدائر بينهم- و لا يزال- حول هذه المسألة. ثم سأعرض ما أراه في هذه النظرية او "نسختي" الخاصة منها ان شئت.

يروي رجال الحزب السني أن النبي عليه السلام قال "لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري, ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه", و في رواية أخرى "بيننا و بينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من حلال أحللناه و ما وجدنا فيه من حرام حرمناه..ألا و ان ما حرم رسول الله كما حرم الله" او نحو ذلك, و في رواية "لا أعمل الا بما في كتاب الله" و في رواية "ألا اني اوتيت الكتاب و مثله معه".

فالجامع بين هذه الروايات- ان صحت- أن النبي ينهى عن رفض طاعته بحجة عدم وجدان ما أمر به أو نهى عنه في كتاب الله. و أما تعليل نهي النبي هذا و تحذيره فتختلف فيه الروايات اختلافا مهما جدا و له دلالة تختلف جذريا من رواية الى اخرى. فبعض الروايات لا يعلل فيها النبي سبب نهيه. و انما يذكر قول الرافض لطاعة أمره فقط. اي كقوله "لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه" او "لا أعمل الا بما في كتاب الله" و نحو ذلك. و بعض الروايات يعلل فيها النبي نهيه و تحذيره هذا بان ما يحرمه رسول الله هو مثل ما يحرمه الله. و تعليل اخر بان الرسول اوتي الكتاب و مثله معه. هذا من حيث ما يظهر من رفض العمل بأمر النبي و نهيه بحجة أنه غير موجود في كتاب الله تعالى في زمن النبي- هذا طبعا ان صح كل هذا و نحن اتقاءا للجدل سنسلم بصحته مبدئيا.

و أول ما ظهرت هذه الكلمة بهذا الشكل "حسبنا كتاب الله" ظهرت على لسان عمر بن الخطاب في الحادثة المعروفة ب "رزية الخميس". و خلاصة هذه الحادثة كما ذكرتها صحاح أهل السنة في مجموعها هي التالي: ان النبي عليه

السلام عندما اشتد به الوجع(المرض) قبل وفاته بنحو أربعة أيام, كان على فراشه في بيته المبارك, و حوله جماعة من أصحابه. فقال النبي لهم " أئتوني اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا". فامتنع بعض الحاضرين(عمر و طائفه معه) عند تقديم هذا الكتاب للنبي و عصوه في ذلك, و الفريق العاصي قال أشياء مثل: هجر رسول الله, ما شأنه أهجر ؟ استفهموه, أهجرا, ان النبي غلبه الوجع, و قال عمر بن الخطاب: حسبنا كتاب الله. ثم أمرهم النبي بالخروج من عنده عندما تنازعوا في طاعة أمره هذا.

و لست هنا بصدد ذكر ما يقوله المدافعون عن عمر و الفرقة التي عصت أمر النبي في احضار الكتاب و الدواة, و لست بصدد ذكر ما يقوله أعداء عمر و حزبه في ذلك, اذ هذا الجدل قد شحنت به الكتب حتى اتخمت و أحسب أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بأكثر مما عرضه الفريقين منذ أكثر من ألف سنة في هذا الموضوع. فمن شاء أن يستزيد في الأمر فليراجع كتب الفريقين و محاضراتهم فهي كثيرة و متوفرة.

ما نريده هو التنبيه على أن هذه هي أول واقعة- حسب التاريخ الموجود عند الفرق الاسلامية و كتبهم- يعارض فيها أمر النبي عليه السلام بحجة "حسبنا كتاب الله". فرواية نهي النبي عن رفض أمره بحجة أن الأمر ليس في كتاب الله لا تذكر أن أحدا من الصحابة قام بذلك فعلا, و انما تذكر تحذيرا من النبي لا أكثر. و قد يكون أحد منهم قد همّ بان يقوم بذلك, او لعل أحدهم قام بشئ من ذلك و وصل الى النبي عليه السلام فقال ما قال. و لكن أول ممارسة ظاهرا لهذا الامر تمت على يد عمر بن الخطاب في ما يعرف برزية الخميس. فالنبي بكل وضوح أمر بأمر, فرفض عمر و من معه تنفيذه بحجة أن النبي يهجر او غلبه الوجع و أن "حسبنا كتاب الله".

و لكن الغريب أنه بعد ان توفي النبي عليه السلام مباشرة, عندما ذهبت السيدة فاطمة عليها السلام تطالب بميراثاها من أبي بكر الذي أصبح رأس الدولة الآن, أي المطالبة بأرض فدك و القصة معروفة, فان أبوبكر رفض اعطائها ميراثها. فتخاصم أبوبكر و السيدة فاطمة في ذلك. هو احتج على مذهبه و هي احتجت على دعواها. و هنا المفارقة: فان أبوبكر رفض اعطائها ميراثها بحجة أن النبي أمر و قال "نحن معاشر الأنبياء لا نورث, ما تركناه صدقة". و أما فاطمة عليها السلام فاحتجت بكتاب الله ! مثل "وورث سليمان داود" و قول زكريا "يرثني و يرث من ال يعقوب", فضلا عن احتجاجها العام و هو أنه لم يرد في كتاب الله أصلا أن النبي عليه السلام لا يورث, فاذن المفترض أن يكون مثله مثل بقية الناس في هذه المسألة أي مشمول بايات الوصية و الميراث التي في كتاب الله و احكامها المعروفة, و قالت السيدة فاطمة عليها السلام لابي بكر ما معناه: أفي كتاب الله يا أبي بكر أنك ترث أباك و لا أرث أبي ! و لكن أبوبكر أصر على رفض اعطائها ميراثها و احتج بحديث نبوي- لم يروه غيره!- و دفع دعوى فاطمة بنت النبي, و دفع كتاب الله و ما يأمر به سواء بالأمر العام او الامر الخاص- أي كون النبي مشمول بايات الميراث و الوصية لا يوجد ما يخصص خروجه منها في القرءان, و الأمر الخاص هو ذكر الله تعالى لأنبياء ورثوا من بعدهم من أبناءهم كسليمان ورث داود و يحيى ورث زكريا. و المفترض أن يكون أبوبكر من حزب عمر, و عمر هو أول من دفع امر النبي الحي المباشر بحجة "حسبنا كتاب الله". فالمتوقع حتى يكون هذا الحزب

متسقا في أصوله و فروعه, أن يقدّموا حجة كتاب الله على قول النبي عليه السلام, و بالتالي تكون الحجة للسيدة فاطمة عليها السلام. و لكن هذا لم يحدث... و لعل الراسخون في العلم يعرفون لماذا.

ثم بعد ذلك, أبرز من حمل لواء نظرية "حسبنا كتاب الله" هم الفرقة التي يسميها أعداؤها بالخوارج. فهؤلاء كانوا يردون كل ما يخالف كتاب الله و ما لا يوجد فيه و ان نسب الى النبي. و الظاهر أنهم يرفضون تصديق نسبة ما يخالف كتاب الله الى النبي. فمنهجهم هو عرض الروايات على كتاب الله فما خالفه رفضوه. و هذا منهج واضح في كلمات أئمة الشيعة عليهم السلام كما ذكرنا من قبل, و أمرهم لشيعتهم بأن يعرضوا ما ينسب اليهم على كتاب الله فما خالفه فهو زخرف و اضربوا به عرض الجدار وما يخالف القران فهو من قول الشيطان و ما شابه. و أما أئمة السنة فمرة يتقدمون و يدعون بانه لا حديث صحيح يخالف القران و مرة يقولون بان النبي مستقل بالتشريع و غير ذلك مما ذكرناه من قبل فلا نعيد. و الحاصل, أن الخوارج في أصل منهجهم أنهم يردون الروايات التي تنسب الى النبي ان خالفت كتاب الله الذي أنزل على النبي. كمثل ردهم رجم الزاني و غير ذلك. و لكن هذه الفرقة قد خرجت على الامام علي و كفرته بعد قضية التحكيم المشهورة. و بدأوا يصرخوا في وجه علي "لا حكم الا لله". و هنا رد عليهم علي – كما جاء في مصادر متعددة و أنا أنقل من نهج البلاغة- لما سمع علي الخوارج يقولون لا حكم الا لله قال "كلمة حق يراد بها باطل. نعم انه الا حكم الا لله, و لكن هؤلاء يقولون الا امرة الا لله. و انه لابد للناس من أمير برّ أو فاجر يعمل في امرته المؤمن و يستمتع فيها الكافر" و في رواية أخرى أنهم لما قالوا لا حكم الا لله رد عليهم "حكم الله أنتظر فيكم". و معلوم أن الرأي السني العام هو أن الخوارج كفار. و الرأي الشيعي فيهم أيضا كذلك اذ من يخرج على امام زمانه و يقاتله لابد أنه كافر او يدور حول الكفر لا أقل من ذلك. و مهما كان فان هؤلاء الذين لقبهم أعداءهم بالخوارج هم أناس ساقطين عموما عن الاعتبار في أعين بقية الفرق من سنة و شيعة. بالرغم من أن صحاح السنة تحتج بروايات الخوارج و تقبلها أحيانا بحجة أن الخوارج لا يكذبون و لا يستحلون الكذب . و بسبب هزيمة الخوارج و قلتهم الشديدة على مر العصور لم تتطور نظرياتهم في الاعتماد على كتاب الله وحده , فضلا عن نواقص اخرى في نهجهم العام كميلهم الى سفك الدماء في أحيان كثيرة. و بسبب هذا اقترنت نظرية حسبنا كتاب الله و لا حكم الا لله التي ترفض أمر النبي و أمر الامام, ارتبطت بالخوارج. و هذا الارتباط و الاقتران جعل النظرية قبيحة في أعين عموم أهل الاسلام من شيعة و سنة. فهو كمثل اقتران العسل بكأس كان يوضع فيها بول الكلاب, فحتى لو طهرت الكأس و عقّمته و طهرته بماء مقدس فان عموم الناس تستقذر أكل العسل من هذا الكأس. فالمقرون بالخبيث خبيث. و للعادة سلطان على النفس. و العقلية الجماهيرية سطحية, و قد يكون العلماء أحيانا أصحاب عقلية جماهيريه. فكم من عالم في فكره عامّي في منهجه أو بعض منهجه.

فاذن, نظرية حسبنا كتاب الله, ارتبطت في عقول عموم أهل الاسلام أولا بتحذير النبي (شيعة و سنة), و ثانيا بعصيان عمر و حزبه لأمر النبي في حياته و الذي كان سيبين فيه أمر الخلافة لعلي على رأي البعض (شيعة فقط), و ثالثا بعصيان الخوارج لأمر علي و كونهم كفار او مبتدعين في حكم الكفار (سنة و شيعة).

و بسبب هذه الارتباطات الثلاثة أصبحت النظرية بشكل عام ممقوتة في اللاوعي الجمعي لهؤلاء الاسلاميين. فمثلا اذا جلست مع شيعي و قلت له "حسبنا كتاب الله" ثم جئت له بألف اية قرءانية و حجة منطقية لتأييد هذا الطريق و المنهج, فانه و ان جادلك و تباحث معك و تحاور معك بعقل منفتح و صدر منشرح, و هذا نادر كندرة الكبريت الأحمر بل و العنقاء, فان اللاوعي عنده سيفرض عليه شعورا سليبا و رفضا لهذا المنهج لانه مرتبط عنده- من حيث يشعر او لا يشعر- بمظلومية أمير المؤمنين علي عليه السلام او مظلومية السيدة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها, او مظلومية أهل البيت عليهم السلام عموما, و هذا يأتي بارتباط اخر للتاريخ الدموي الذي اضطهد الشيعة , و يأتي أيضا بصورة عمر بن الخطاب الذي يعتبره بعضهم أكبر صنم عرفه التاريخ و أكبر ظالم لمحمد و ال محمد بل و للمسلمين بل و للناس أجمعين, و غير ذلك من ارتباطات. فأنت قد تكون مسلما محبا مطلقا لكتاب الله تعالى و ليس لك ارتباط بعمر بن الخطاب و حزبه و أفكارهم بأي نحو من الانحاء, بل قد تكون أميل الى التشيع من حيث الفكر التاريخي و الأسس العامة, و لكنه مع ذلك عندما تذكر حسبنا كتاب الله فان هذه النظرية لا تدخل وحدها في بيت قلب الشيعي, و لكنها تأتي و معها جماعة من ضيوف أهل جهنم ! فتحرق القلب و تؤدي الى الرفض.

و للذين يسمون أنفسهم بأهل السنة ارتباطات سلبية أخرى مقرونة بهذه النظرية. بل ان من كبار علماءهم من يقول قولا عنيفا جدا ضد حملة هذه النظرية و هذا المنهج. أنقل أقوى ما يوجد في هذا الشأن. و لا يوجد أقوى منه الا استباحة سفك دم أصحاب هذا الطريق الالهي الخالص في كتاب عون الباري ببيان ما تضمنه شرح السنة للامام البربهاري للربيع المدخلي يقول "فاذا جاء انسان يقول لك: حسبنا كتاب الله, يكفينا كتاب الله, لا تأتي الا بكتاب الله, كتاب الله بين أيدينا ما أحله أحللناه و ما حرمه حرمناه: فاعلم أنه مبتدع أو زنديق" ! (و لا ادري بالنسبة لهؤلاء يكون عمر بن الخطاب مبتدع أو زنديق ؟! طبعا عندما يكون أحد أئمتهم و رموزهم الحزبية يستخرجون له تأويلات لا يحسن استخراجها او استساغتها أكبر محامي يهودي, و لكن عندما يكون غيره و غيرهم فالاتهام بالابتداع و الزندقة جاهز فورا. "اعدلوا هو أقرب للتقوى".)

ثم مرت العصور و القرون, و ظهرت حركة منظمة مندفعة سماهم أعداءهم او رضوا لانفسهم بتسميه "القرانيون". و بسبب الافكار التي تبناها هؤلاء على اختلاف مدارسهم و افكارهم التفصيلية, و على اختلافهم في ظروفهم الاجتماعية و السياسية, فان الحملة ضد منهج الاكتفاء بكتاب الله ازدادت حدة. و الذي يبدو لمن تتبع الأمر أن رفض الناس لهؤلاء القرانيون على اختلافهم يعود في كثير من الاحيان الى أحد عاملين: اما ضعف منهج المنتسب الى منهج الاكتفاء بالقران, و اما الظروف الاجتماعية و السياسية التي يكون فيها هذا الشخص او تنسب اليه. فمثلا, قد يوجد من هؤلاء من يرى بأن قصص القرءان تاريخ, كما يقول الاحزاب. و يبني على هذا أمور غريبة مرفوضة. فيكون مدخلا للطعن عليه. و قد يكون ممن يقول بان "السنة العملية" للنبي مقبولة و لكن السنة القولية مرفوضة, و هذا التقسيم و ان كان له ما يبرره الى حد ما, و لكنه مدخل للطعن عليه من باب انه يقر بأصل قبول أمور ليست في القرءان, فحتى هذه "السنة العملية" كالصلوات الخمس مثلا, ليس في القرءان بظاهرها هذا كما يقر أنصارها أنفسهم شيعة و سنة, فعندما يأتي شخص و يقول بان "القرءان و كفى و القرءان بين و شرح و فصل كل شئ" ثم يأتي و يقبل بفرضية هذه الصلوات الخمس فانه عندها يناقض نفسه بنفسه و يجعل نفسه مهزلة في أعين

المحققين من العلماء و المفكرين. (و طبعا منهم من يقبل بهذه الصلوات الخمس و غيرها من "أركان الاسلام" من باب التقية. و الا فسفاكي الدماء قد لا يتورعون عن قتل مثل هذا لو التزم بكل لوازم منهجه المكتفي بكتاب الله تعالى. و واضح ان اللوم الأكبر يعود على البرابرة سفاكي الدماء, ولو احترموا مقام الله قليلا و تورعوا عن سفك الدماء كالفراعنة, فان من يملك علما سيظهره كله و عندها يظهر أن الساحر لا يفلح حيث أتى . فتأمل). و من هؤلاء مثلا من ارتبط بأمريكا, و نسب الى أنه "عميل" يهدف الى هدم الاسلام, و قد يكون قام بأمور ينبغي أن لا يقوم بها من ناحية ارتباطه بأمة المسلمين على وجه العموم. و قد شاهدت لأحد هؤلاء مقابلة يفضح فيها عيوب جماهير أهل الاسلام أمام رجل من أتباع العبراني يسوع أي اصحاب الصليب الذين يسمون أنفسهم بالمسيحين. و هذا الرجل الصليبي هو مقدم برنامج شهير يطعن فيه رجل دين صليبي في دين الله الذي نزل على محمد عليه السلام, طعنا شديدا (غبيا سطحيا في معظم الاحيان ان لم يكن كلها لان مصادره في النقد القرءاني هي مصادر الاحزاب في كثير من الاحيان و تاريخهم و غير ذلك). فعندما يخرج رجل المفترض أنه قراني و يلعن في المسلمين أمام عدو المسلمين, فماذا تتوقع أن يكون رد أهل الاسلام عليه و على منهجه و دينه ؟! هذا من باب اقتران العسل بالكأس الخبيث. أو هكذا سيراها عموم الناس على الأقل.

و هكذا, كان من سوء حظ القران و مظلوميته أن الاخلاص له اقترن على مر العصور بالنواصب و الخوارج و التافهين المستهترين ! فعندما يرد الناس على الاخلاص للقرءان العظيم انما هم في الواقع يردون على النواصب و الخوارج و التافهين المستهترين, و ليسوا يردون على الحجج الحقيقية التي يقوم عليها منهج الاخلاص للقرءان وحده.

و هنا ينبغي أن نفصل بين حجج منهج الاخلاص المطلق للقران, و الناس الذين استغلوا هذه الدعوى او ءامنوا بها فعلا بنحو ما على مر العصور. و ينبغي للعلماء و المفكرين أن يفصلوا فصلا تاما بين الاول و الثاني. فالمنهج القرءاني شئ, و القرانيون شئ اخر. حسبنا كتاب الله شئ وعمر بن الخطاب شئ اخر. لا حكم الا لله شئ و الخوارج شئ اخر. و يجب أن نحاكم من يسمون بالقرانيين الى المنهج القراني, و لا نحكم على المنهج القراني بما يفعله او يستنبطه القرانيون. و يجب ان نحاكم عمر بن الخطاب و حزبه بحسب كتاب الله لا أن نرفض الاخلاص لكتاب الله و نسميها "نظرية الاعور الدجال" و ما أشبه. و أخيرا يجب أن نحاكم من يسمون بالخوارج بحسب قيم كتاب الله لا العكس. و الواقع الذي أعرفه و أؤمن به هو أنه لا عمر بن الخطاب و حزبه, و لا الخوارج, و لا من يسمون بالقرانيون في عصرنا هذا هم ممن يقوم فعلا ب "كل" القواعد التي أقامها كتاب الله تعالى. و لم أجد الى الان واحدا عنده الجراة الكافية ليقوم بهذا المنهج بكل أبعاده و لوازمه. ة لم أجد الى الان "قرانيا" واحدا قام ذلك. "و ما يومن أكثرهم بالله الا و هم مشركون". و هذا الجهد ينبغي أن يقوم به "كل" علماء الاسلام و المفكرين أجمعين. ادرسوا كتاب الله وحده, لا تخافوا, ادرسوه وحده و اصرفوا عنكم كل منهاج أحزابكم, على الاقل الى أن تتموا دراسة المسألة التي تبحثون عنها من كتاب الله, و بعد ذلك احرقوا النتيجة التي ظهرت لكم ان شئتم, لا تعملوا بها, و لكن على الاقل ان تكونوا على بصيرة في ماهية حكم الله و منهجه في الأمر. ثم ان شئتم فارجعوا الى احزابكم و تمتعوا بها قليلا فسوف تعلمون.

لقد وضعت تحديا و أنا أكرره و أثبته الان: أتحدى كل علماء الفرق الاسلامية, بلا استثناء, أن يدرسوا موضوعا واحدا خالصا من كتاب الله حصرا. و الموضوع مثلا هو الصلاة. أتحداهم أن يقوموا بما يسمونه "دراسة موضوعية" لموضوع الصلاة فقط من كتاب الله. و أنا أقول لكم: لن يفعلوا ذلك !! أليست احد حججكم على اثبات صدق القرءان أنه من عند الله أنه أخبر عن الغيب و قال "فان لم تفعلوا و لن تفعلوا". أي قال "لن تفعلوا" و جزم بذلك مع أن هذا تحديا قويا كان عند العرب كل الدواعي على القيام به و معارضته. وحيث انهم لم يفعلوا ذلك تجزمون بان هذا الكتاب و هذا التحدي صادر من عند الله تعالى. ممتاز, أنا الان أضع لكم مثل هذا التحدي, و أقول لكم: ادرسوا موضوع الصلاة حصرا من كتاب الله تعالى, دراسة تفصيلية تحليلة شاملة موضوعية كاملة تستقصي مافي كتاب الله بقدر الوسع كله, كأعظم ما تكون الدراسات النصية و القرانية. و التحدي هو هذا: لن تفعلوا ! طبعا أنا أوجه التحدي لكبار رجال المؤسسات الدينية شيعة و سنة و غيرهم. و لن نقبل الا دراسة كبار هؤلاء, أكبرهم أو على الاقل دراسة يختم عليها أكبرهم بختم القبول. لانه لن تقوم الحجة الا بذلك. أنتم تقولون أن :بيننا و بين الكفار الصلاة. و أنا أقبل ذلك الان. ادرسوا موضوع الصلاة من كتاب الله حصرا و أنشروا أمام كل الناس دراستكم هذه. و قولوا "هذا ما يقوله الله تعالى في كتابه عن موضوع الصلاة تفصيليا" ثم بعد ذلك لا بأس قولوا للناس "و لكن هذا ما ورد في سنة رسول الله عن موضوع الصلاة". و لير الناس الفرق ثم لننظر ماذا سيحدث. و لننظر هل كتاب الله موافق لما تقولون أنتم انه سنة رسول الله, أم ماذا. و هذا التحدي قائم ما وجد مسلم على الارض. و نحن ننتظر نتائج دراستكم هذه.

و الان دعني أخي القارئ أن أشرح لك هذا التحدي و شئ من أبعاده.

أنا أدعي أنه لا يوجد ولا واحد من كبار رجال الفرق الاسلامية هذه- شيعة و سنة و صوفية و اباضية..الخ- مخلص لكتاب الله. و حب الله ليس الا حب ما أنزل الله. و حب ما انزل الله هو اتباعه. (وهذه الحكمة ظهرت لي في سورة البقرة من اية165 الى 176 فراجعها و تأملها جيدا). و هذه الفرق منذ القدم قد اتخذت اندادا يحبونهم كحب الله بل أشد مما يحبون الله, بدليل انهم يقدمون أحكام و كتب غيره على كتابه. و الأدهى أنهم يزعمون ان الله أمرهم بهذا و حثهم عليه! و عندما نذكر و نؤسس لمنهج ديني شامل مستنبط من كتاب الله تعالى حصرا أول ردودهم علينا: و أين الصلوات الخمس في كتاب الله تعالى؟ و ان لم تكن موجودة فيه فكيف تجرؤون على نسبة فرضها على كل عباد الله باسم الله؟ آالله أذن لكم أم على الله تفترون؟ و عندها سيقولون: ان كتاب الله أمر بالصلاة اجمالا و النبي فصّلها باذن الله. و الرد هو: ان كتاب الله مفصل تفصيلا و الله تعالى رب العالمين هو الذي تكفل بتفصيله و تبيينه و تفسيره. (و قد سبق ان ذكرنا الايات الدالة على هذا بما لا مزيد عليه. و هي الايات التي كتمها رجال الفرق على مر العصور و حرفوها معنى و فعلا). و للرد العلمي العملي نضع هذا التحدي: ادرسوا مسألة الصلاة من كتاب الله, احصروا كل الايات التي تتحدث عنها, و أنتم علماء كبار فطاحله في اللسان العربي و التحقيق الفقهي و التعمق العلمي, أنتم كبار اهل العلم و حملة الأمانة و أهل الذكر أو شيعة أهل الذكر, و أنتم مراجع المسلمين و سادة الدين و سدنة بيت الله, أنتم أمراء الامة و نظامها الجامع, فهل بعد كل هذا ستعتذروا بان قلوبكم غلف لن تستطيع أن تفقه معاني كتاب الله؟ لا أظن هذا. و الحمد لله, المعاجم المفهرسة

للقران متوفرة سواء بالكتب او الكمبيوتر, فما أسهل أن تحصروا كل ايات الصلاة و السور التي وردت فيها و سياقاتها و عدد مرات ذكرها و أشكال و صور ذكر كلمة صلاة و تصريفاتها المتعددة و غير ذلك. و الحمد لله, أنتم كثير و عندكم مؤسسات كبرى و أموال كثيرة, فاجمعوا أكبر علماءكم و كبراءكم و قوموا بهذا البحث و هذه الدراسة. و الحمد لله, أنا لا أتحداكم بان تدرسوا كتاب المجوس او الملاحدة, التحدي هو في كتاب الله تعالى ربنا و ربكم, كتاب الله الذي تؤمنون به و تحبونه و تحفظونه عن ظهر قلب و تخلصون له (هكذا تقولون و تعتقدون أليس كذلك أم يا ترى أنني أبالغ في الوصف؟), و تلاوة اية من كتاب الله فيها عشر حسنات و الله يضاعف لمن يشاء, و خير المجالس مجلس تدارس كتاب الله و الملائكة تحف هذا المجلس و الله يرحمهم و غير ذلك من فضائل. و أخيرا الحمد لله نحن لسنا في عجلة من أمرنا, خذوا وقتكم و اتقنوا الدراسة و اخرجوها للناس كأعظم ما يستحقه كتاب الله من التقدير و التعظيم و التدقيق و الجدية, فلا تعتبروها مجرد دراسة لرد تحدي خطير يوجه ضدكم, لان شكل و مضمون الدراسة سيكشف عن مقدار علمكم ! و هذا أحد أسباب هذا التحدي, و هو لكي يظهر لهم و للناس مقدار جديتهم و احاطتهم بعلوم القران و فقهه. و بالاضافة على كل ما فات, فان دراسة مسألة الصلاة التي هي عمود الدين و الفاصل بين المؤمنين و الكافرين, هي دراسة جميلة و ممتازة و حكيمة بحد ذاتها, لا أقل أن تكون من باب "الفضول العلمي الديني". فهل يوجد أسهل من هذا التحدي؟ أليست كل الدواعي متوفرة لقبوله و معارضته؟ أليس متيسرا لهم أن يعارضوه ؟ أحسب أن أكبر المعاندين سيوافق على كل ما فات و يجيب عنه بالايجاب. فهيا أيها الكبراء قوموا و اثبتوا خطأ و دجل كاتب هذه السطور في هذا التحدي؟ و ما أسعدني يوم يثبت كذبي ! و أتمنى أن يثبت كذبي من كل قلبي. أتمنى أن يكون الملاك الذي أمرني بتدوين هذا التحدي هو مجرد وسواس خناس- و العياذ بالله منه. فلنرى ماذا سيحدث.

و من باب الفضول و اتمام المسألة قبل أن ننتقل الى التعليق على الموضوع الأساسي لهذا المبحث, أقول: يوجد احتمالات ستصدر من كبار رجال الدين- بل الاديان- ردا على التحدي الذي ذكرته. اما انهم سيقبلون به, أو انهم سيرفضونه. ان رفضوه أيا كانت ذريعتهم و حجتهم فقد ثبت أنهم قد عجزوا عنه و بالتالي تثبت كل الدعاوى التي طرحتها, و التي منها أنهم ليسوا من أهل دين الله الخالص و أن ملاكا نزل عليّ من الله تعالى بهذا الأمر مما يعني نوعا من النبوة (أقول هذا لأستفزهم أكثر و أدفعهم لقبوله..حتى لا يبقى لهم عذر) فانا الان أدعي انني نبي أمرني الله تعالى أن أظهر أن كل هؤلاء ليسوا من أهل دينه بل قد أشركوا به عندما لم يخلصوا لكتابه, و أن الدين الذي يبنى على كتاب الله تعالى حصرا لم يظهر بعد, و هذا ينسف عقيدتهم في ختم النبوة. فمن الافضل أن يقبلوا التحدي. مع العلم أن من الذرائع التي قد يستعملونها لرفض هذا التحدي هي الطعن في شخصي و مستواي المعرفي او الاخلاقي او بقية التهم البائسة. لا بأس, قد اتهم سادة و كبراء الجاهلية النبي عليه السلام بمثل ذلك. و أيا كان, فان رفضهم يعبّر عن عجزهم, كما أن رفض شعراء الجاهلية لتحدي النبي بالقراان يدل على عجزهم مهما كانت ذرائعهم في ذلك- كما يعلمون و يقبلون هم بذلك فعلا. <u>فرفضهم يعني عجزهم, و عجزهم يعني صدق نبوتي فضلا عن انه يعني كفرهم و شركهم</u>. فهذه هي النتيجة الحتمية لرفضهم لهذا التحدي. و لذلك أحسب أنهم لن يتخذوا هذا السبيل لعلمهم بعواقبه الوخيمة. و قد يكون رفضهم من باب عدم مبالاتهم بهذا التحدي أصلا. أي لن يلتفتوا اليه و لن يشهروا وجوده, و هذا ايضا رفض كما لا يخفى, و سنعمل نحن على نشره, و ان شاء الله سينتشر بانتشار هذا الكتاب بل و حتى بمجرد اقتباسه من هذا الكتاب و عرضه على الناس.

الاحتمال الثاني هو أنهم سيقبلون بالتحدي. و هنا يوجد احتمالات فرعية. منها أنهم سيوكلون صغار مفكريهم و جنودهم ليقوموا بهذه الدراسة. حتى اذا فشلوا في النتيجة لا تنهدم المؤسسة كلها و تسقط من أعين الناس. بل سيقولون"ان فلان لا يمثل فرقة أهل السنة..أو فلان و فلان لا يمثلون فرقة الشيعة الامامية" و أشباه ذلك. و أنا ذكرت أن الدراسة التي سنقبلها هي التي يقوم بها "أكبر" رجال المؤسسة الدينية أيا كانت الفرقة, أو على الأقل أن يوافق عليها أكبر رجال المؤسسة الدينية. أي ان المفترض أن تكون الدراسة معبرة عن رأي الفرقة التي ستقوم بها كلها. حتى لو اضطروا أن يمروا على أكبر عشرة رجال عندهم و يختموا كلهم بالقبول عليها. فهذا شرط أساسي. لان الحجة لن تقوم على الفرقة كلها الا ان كان القائم بها و الخاتم بقبولها هم أكبر رجال هذه الفرقة. فاذا قام بالدراسة غير هؤلاء سيعتبر رفض للتحدي, و بالتالي يلزمهم ما يلزمهم لو سلكوا طريق الرفض الصريح, فهذا يعتبر رفض ضمني. و الحكم واحد اذ الجوهر واحد و هو رفض للتحدي كما هو. (بالرغم من سهولته و توفر كل الدواعي على قبوله كما ذكرنا فتأمل).

و منها, أن كبارهم سيعلنون بانهم قبلوا بالتحدي, و سيقوموا بدراسة سيئة مجملة مليئة بالمواعظ السخيفة و التعميمات الفارغة, و الأغلب أنهم سيملؤونها بشتائم موجهة للمسكين كاتب هذه السطور, و سيعلنون الويل و الثبور من فساد العصر و جرأة الجهال و صغار الناس على كبار العلماء و العظماء, و لا يستبعد أن يجعلوا هذا المسكين من خوارج العصر الذين يقراون القران لا يجاوز تراقيهم, و غير ذلك من أسلوب نعرفه كلنا و مللنا منه و من أهله. و سيكون كل هذا التشغيب وسيلة لشحذ عواطف القراء للدراسة حتى تعمّي عليهم حقائقها. و ان سلكوا هذا السبيل فأنا من الان أبشرهم: سأقرأ دراستكم حرفا حرفا, و سأستبعد مشاغبتكم و لن تؤثر عليّ بأي تأثير, ثم سأستخلص حججكم و أفكاركم, و ارتبها ترتيبا هادئا متزنا, ثم سنحاكمها و نحاسبها حسابا عسيرا لا يغادر صغيرة و لا كبيرة الا أحصاها. و هذا سيؤدي الى سقوطكم من أعين الناس – أتباعكم قبل كل أحد- فنصيحتي المتواضعة هي أن لا تتخذوا هذا السبيل, و اكتبوا دراسة قرءانية متزنة منضبطة فانتم تتعاملون مع كتاب الله العزيز الجبار و ليس معي أنا. و كل حرف تكتبونه في هذه الدراسة سيكون منسوبا الى الله تعالى, فاحذروا أن تقولوا على الله ما لا تعلمون او أن يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا.

و منها أن كبارهم سيقبلوا بالتحدي, و سيقوموا بدراسة شاملة تفصيلية محصورة في كتاب الله تعالى, و لكن سيدخلوا عليها شئ من سنتهم و مروياتهم و هذا يعتبر عجز و سيعتبر كذلك فورا. و قد لا يدخلوا شئ من مروياتهم و لكنهم سيقولوا: لقد درسنا القرءان و لم نجده يفصّل مسألة الصلاة تفصيلا كاملا. و عندها سيظهر أنهم كفروا بقول الله "و فصلنه تفصيلا..و تفصيل كل شئ..و لقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم..تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين" و غير ذلك. و ان فعلوا هذا – بعد الدراسة و الاستقصاء- فالحمد لله تم المطلوب و ظهر أنهم في عداد الكفار بكتاب الله تعالى. مع الأسف. اذ هم أنفسهم يقولون أن من رفض اية من كتاب الله او كذب خبرا في كتاب الله فهو من الكفار. حسنا نلزمهم بما ألزموا به أنفسهم. و هو أيضا يثبت عجزهم. و على الاغلب سيسلكوا هذا الطريق, ثم سيقولوا ان سنتهم "تكمل" كتاب الله. و ان فعلوا هذا- و هو سلوكهم العام منذ قرون- فقد ثبت ما قلته عنهم.

و منها أن كبارهم سيقبلوا, و يدرسوا و يخرجوا بنتيجة حقيقية, و لكن بعد ذلك سيقولوا ان كتاب الله لا يجوز العمل به بدون الرجوع الى السنة, لان السنة تخالف القران في هذا الأمر و بنحو من الانحاء, و العمل بالسنة اولى من العمل بالقران لسبب او لاخر, و هذا ايضا سيثبت ما قلته عنهم.

و أخيرا أن كبارهم سيقبلوا, و يدرسوا, و يخرجوا بنتيجة حقيقية و يقولوا: لقد كنا ظالمين ضالين من قبل, و لا ينبغي أن نقدم على كتاب الله تعالى شئ, فنستغفر الله و نتوب اليه. و أدعوا الله أن يسلكوا هذا السبيل, و سأرضى و سأستغفر الله تعالى من ذنبي الذي سلّط علي شيطانا يوحي الي بفكرة خاطئة, و أنا راضي تماما بهذا. فأن يرتفع كتاب الله و اسقط أنا هو في الحقيقة رفعة لنا كلنا. و الحمد لله. و لكن سلوكهم هذا الاحتمال يظهر أنه كتوبة أبي لهب ! تأمل فقط في حقيقة أنهم الى يومنا هذا- منذ أكثر من عشرة قرون الى يومنا هذا لم يكتبوا كتابا واحدا..كتابا واحدا..واحدا فقط..ليس اثنين, و لكن واحد فقط عن الصلاة في كتاب الله, و يكون دراسة حقيقية شاملة محصورة على كتاب الله فقط. و لكن عدد الكتب التي كتبت عن الحيض و النفاس و امامة الأئمة الاثني عشر و فضائل الصحابة و بقية الأمور الحزبية فماشاء الله لا يحصرها الا رب العزة جل جلاله. لا نريدهم أن يبذلوا من الجهد أكثر من الجهد الذي يبذلونه في مباحثهم العقائدية و الفقهية الحزبية. و أرجو من الله أن يفعلوا. و بالمناسبة أنا و من معي لا ننتظر أحدا من أجل أن نعرف مسائل مثل الصلاة في كتاب الله و غيرها, بل عندنا كتابا مبدئيا في هذه المسألة قد وضعنا فيه الافكار العامه و نحن لا نزال ندرس و نتعمق في كل المسائل, و لكن هذا من أجلهم هم و حتى تثبت الحجة و تظهر البينة للكل.

و عندما يتبين لعموم الناس مفارقة كتاب الله تعالى في تشريعه و علومه عن ما يظنون الان انه دين الله المحض, عندها سيكون بداية الطريق الى نسف جبال الاحزاب و تثبيت دين الكتاب. ان في ذلك لذكرى لاولي الالباب.

فلنرجع الى مبحث نظرية "حسبنا كتاب الله".

أولا, تعليلي الشخصي للروايات الواردة في هذا الشأن- و هنا أفترض صحتها- هو التالي: انما نهى النبي عن رفض أوامره بصفته أمير للدولة ,و ليس كامام يتعاطى مع كتاب الله و لا كرسول مبلغ لأمر الله. فمن حيث كونه رسولا لله قد يبلغ كتاب الله الذي هو رسالته و انتهى الأمر, فليس للرسول بما هو رسول الا هذا. "رسلا يتلون عليهم ءاياتنا" و "ما على الرسول الا البلاغ" و "يأيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك". و من حيث كونه اماما و نبيا فهو متعاطي مع كتاب الله في حد ذاته اي يتلوه و يدرسه و يستنبط منه, فهو ما يسمونه "مجتهد" و لا يخفى أنه في أعلى هذه الرتبة التي هي رتبه "و انك لتلقى القرءآن من لدن حكيم خبير". و أما من حيث كونه أمير, فهذه شؤون الدولة و الحياة المعيشية الظاهرية. و هذه لا علاقة مباشرة لها بالدين لانها تكون قبل نزول الدين و تكون بدون دين الهي أصلا. و لهذا لما قال الخوارج لعلي "لا حكم الا لله" رد عليهم أنهم لا يفهمون معنى هذه الكلمة

أصلا. و حقيقة مطالبتهم هي أنه "لا امرة الا لله". فهم يتعاملون مع الله كأمير للدولة و ليس كحاكم في شؤون الدين و الوجود. و قد بيّن علي عليه السلام أن حكم الله يتجلى في شؤون الدين و الوجود في ما نقلناه عنه. فمرة يقول لهم أنه يوجد فرق بين الحكم لله و الامرة لله. و مرة يقول لهم "حكم الله أنتظر فيكم". اي الحكم الوجودي, من باب تنزل قضاء الله و سنته في الخلق عليهم. و على العموم, هذين المعنيين لحكم الله يدل عليهم كتابه العزيز بكل وضوح كما يعلم أهل العلم. فيوجد فرق بين "لا حكم الا لله" و بين "لا امرة الا لله". الامارة شأن انساني اجتماعي, سواء من ناحية شكلها و اسمها و وظيفتها. و لذلك قال علي "لا بد للناس من أمير, بر او فاجر". فشؤون الامارة هي شؤون عالم الظاهر و المعيشة, و اما شؤون الحكم و النبوة و الامامة فهي شؤون عالم الباطن و الروح و المعرفة. و لذلك لن تجد نبيا جاهلا, و لكنك ستجد أميرا ظالما. لانه لا يؤتى علم الله و روحه الا الطاهر المخلص, و اما شؤون عالم الظاهر فقد ينالها أفجر و أظلم و أجهل البشر ان امتلك قوة و قهر-كفرعون و هامان و قارون.

و أما عن الرواية التي تعلل نهي النبي عن رفض أوامره بان "ما حرم رسول الله هو كما حرم الله" و هنا واضح انه يتكلم بصفته رسولا مبلغا لما في كتاب الله, و لكن اذا أخذت بمعنى ان ما يحرمه هو بأي صفة كان يعتبر كما حرمه الله فهذا شرك و العياذ بالله. الله نفسه يقول "يا ايها النبي لم تحرم ما أحل الله لك". بل ان عبادة الاحبار و الرهبان هي بسبب تحليلهم و تحريمهم, و الله نفى ان يؤتي أحدا النبوة ثم يقول للناس "كونوا عبادا لي من دون الله". و أما أن يزعم أحد أن الله "فوض" التحليل و التحريم للنبي, فهذا من أخبث الشرك و ما هو الا وسيلة اتخذوها ليمرروا ما يشاؤون من أمر و نهي تحت ستار اسم النبي و النبي منهم براء. و الله قبل ذلك منهم براء. و أنا على ذلكم من الشاهدين.

و أما عن الرواية التي تعلل نهي النبي بأنه أوتي "القرءان و مثله معه" فهذا ليس فقط شرك و لكنه كفر محض. لان الله يقول انه لا يوجد و لا يمكن أن يوجد مثل هذا القرءان. "قل لئن اجتمعت الانس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا". بل قال الله عن مجرمين جهلة سيقولوا "سأنزل مثل ما أنزل الله". و ان الله ليس كمثله شئ و ما هؤلاء الا أصحاب دعاوى فارغة. يريدون أن يرفعوا منازل كتب أربابهم و أسيادهم الى مرتبة كتاب الله. و قد رأينا قيمة هذه الكتب و ما أرخصها! و ان كان فيها خير فانه بين ركام كثير من اللغو. و ان كان كلام النبي عليه السلام في "مثل" درجة كلام الله تعالى فينبغي أن لا يستطيع أحد ان ياتي بمثل كلام النبي. لا تتهربوا من هذه النتيجة. ان كان كلام النبي "مثل" كلام الله, "أوتيت القرءان و مثله معه", أنتم تفسرون "مثله معه" بالسنة اي كلام النبي, جيد, هذا يعني أن خصائص كلام النبي لها نفس خصائص كتاب الله, و الا فما معنى هذه المثلية؟ ان كلاهما "وحي". حسنا, و ما معنى أنه وحي من الله؟ يعني أنه له خصائص كلام الله, هذا معنى وحي. و اما التفريق بين الوحي بالمعنى و اللفظ و الوحي بالمعنى دون اللفظ فهو تفريق لا معنى واقعي له و قد ذكرنا شئ عنه في ثنايا الكتاب و فلا نعيد. و قد رأينا مقدار الكذب الذي وجد و لا يزال يوجد في كلام ينسب الى النبي. بل انه يوجد ملايين من الناس تقيم عقائدها على روايات تنسب الى النبي مع أنه يوجد ملايين من الناس تجزم بأن هذه الروايات كذب على النبي ! مثال بسيط جدا, أحاديث عظمة أبوبكر, يؤمن بها السنة و يكفر بها الشيعة. عموما. و قل مثل ذلك في التفاصيل. بل و ما أسهل الكذب على النبي و اختلاق كلام يوحي بانه كلامه عليه السلام و هو في الواقع كذب. كمثل قصة بياع التمر. يحكى أن رجلا عنده محل لبيع التمر بجانب مطعم يبيع السمك. و كل يوم يرى الناس تأتي أفواجا الى مطعم السمك و لا أحد يدخل عنده و يشتري التمر, و مع مرور الوقت بدأ يخسر فخشي على بضاعته و تجارته, فقام بكتابة لوحة ووضعها على باب متجره بحيث

يستطيع أن يراها كل من يخرج من مطعم السمك. و بعد أن فعل ذلك أصبح محله مزدحما جدا و راجت تجارته و اغتنى الرجل. لعلك تسأل: و ما هو الذي كتبه على هذه اللوحة؟ الجواب: كتب "اذا أسمكتم فأتمروا" !! أي اذا أكلتم السمك فكلوا التمر بعده. هكذا كتبها مجردة. لم يقل "قال رسول الله" او ما شابه. فقط ذكر هذه الصيغة فظن الناس أنها رواية عن النبي, اي أن هذا كلام النبي, فصدقوه و أصبحوا كلما أكلوا السمك اشتروا تمرا, و الحمد لله رب العالمين ! و الفكرة واضحة, وهي أنه ما أسهل أن يختلق الانسان كلاما و يضعه على لسان النبي و قد يحتار العالم نفسه في كون هذامن كلام النبي ام لا. و يحتاج الى تتبع و بحث ليدرك ذلك. و ما مئات الالاف من الروايات "الموضوعة" و "الضعيفة" الا أكبر شاهد على هذه الحقيقة. فاذن, كون كلام النبي كانسان هو مثل كلام الله هو مقولة من أشنع و أكذب و أتفه المقولات التي يعتقد بها بعض الاحزاب.

فلم يبقى الا الاحتمال الذي ذكرناه, و أشار اليه من قبل علي عليه السلام كما نقل عنه. و الفكرة سليمة حتى لو لم تصح عنه. فالامرة شئ و الحكم شئ اخر. الحكم لله, و الامرة للناس فاما تكون امرة بارة مهتدية بأمر الله و اما تكون امرة فاجرة ظالمة للناس لا تطعم من جوع و لا تؤمن من خوف. و هذا مبحث أخر تستطيع أن تنظره في كتابي (هل القرءان يؤسس لدولة؟) لمزيد من التفصيل عنه.

و أما عن رواية حادثة رزية الخميس. فان عمر بن الخطاب و من معه قد احتجوا بأمر لا علاقة له بما طلبه النبي. النبي يقول "ائتوني بكتاب و دواة" انتهى. هذا أمر طبيعي يمكن أن يطلبه أي شخص من أصحابه أو أهل بيته فما علاقته بأن يقال للنبي أنه يهذي و يخرف (أهجر) , و لا علاقة له برد عمر "حسبنا كتاب الله". و لاحظ انه لم يرد أحد على عمر: لا ! ليس حسبنا كتاب الله و لكن يجب أن نتبع أمر النبي ايضا ! لم يقل أحد هذا, و يظهر أن الحاضرين لم يحتاجوا الى أن يقال لهم أن كتاب الله يكفي في أمور دين الله, و لا أن يقال لهم أن أوامر النبي في حياته الخاصة لا يمكن رفضها بحجة أن كتاب الله يكفي اذ لا علاقة بين الأمرين, و لذلك يظهر أنه كثر اللغط و النزاع. فعمر قال كلاما لا معنى له أصلا. و من شأن الكلام الذي لا معنى له أن يسبب لغطا و نزاعا. و كما قيل "لو سكت الجاهل لما وجد اختلاف". فالذي وقع هو مجرد لغط و صراخ و نزاع. شئ لا معنى له. فمثلا, عندما طعن أبو لؤلؤة عمر و كان ينازع أتوه – بنبيذ (أنصار عمر يقولون انه تمر نبذ في الماء اي نقع فيه, و أعداءه يقولون انه نبيذ يعني خمر!)- فشرب منه فخرج من جوفه بسبب الطعنة. الان تصور أن عمر طلب من أصحابه في ذلك الوقت أن يأتوه بنبيذ (ماء او خمر) فقال أتباعه: ما شأن عمر أهجر ! استفهموه! حسبنا كتاب الله! واضح أنه سيكون كلاما لا معنى له. فالرجل عندما يأمر من حوله بشئ أيا كان خاصة لو كان في ساعة الموت يجب أن يطيعوه, فضلا عن لو كان هذا الشخص هو النبي عليه السلام. و لا علاقة لهم بتفسير طلبه و الرد عليه. ينفذوا و كفى. خاصة و أنه أمر برئ ليس فيه ظلم لاحد. فالنبي لم يقل "عّذبوا فلان" البرئ أو "اسفكوا دم فلانة", و لكنه قال ان يأتوه بكتاب ليكتب لهم ما لن يضلوا بعده أبدا. فهو أمر خير. فحتى لو كان من حوله مجموعة من الملاحدة, فان المنطق يقضي بأن ما سيكتبه اما ان يكون خير كما قال فلنأته بالكتاب و الدواة لنكسب هذا الخير, و اما ان يكون شرا بعكس ما قال فعندها ننظر في هذا الذي كتبه و لا نعمل به. هذا أضعف الايمان, بل أضعف الالحاد! فاذن ما فعله عمر و حزبه شئ لا معنى له بتاتا و لا يحوز أن يطعن على مقوله "حسبنا كتاب الله" بسببها أبدا. بل هذا فيه ظلم

لكتاب الله تعالى. و ظلم لمنهج العلماء في البحث و التحقيق. فليكف الشيعة خصوصا عن هذا. و لا يجرمنهم شنئان قوم على أن لا يعدلوا.

هذا فيما يتعلق بتاريخ هذه الفكرة و تعليقاتنا عليها.

و أما في مضمون المقولة نفسها. فاني أضيف اليها قيد واحد حتى تكتمل. و أقول "حسبنا كتاب الله فيما ينسب مباشره الى الله". هذا القيد ضروري جدا. "فيما ينسب مباشره الى الله". أي نحن لا نقبل ان ينسب شئ الى الله تعالى, ايا كانت هذه النسبة, الا لو كان مذكورا بالتفصيل في كتابه العزيز. و ما سوى ذلك فهو رأي الناس. أيا كان هؤلاء الناس, أنبياء أم أشقياء أو ما بينهما. لا يحق لأحد أن ينسب الى الله فكرة, أو حكم, أو حقيقة, أو اي شئ على الاطلاق, الا ان كان هذا الشئ مذكورا بالتفصيل في كتابه العزيز. اكرر ذلك حتى ينقطع النفس.

و من فوائد هذا القيد و أسراره هو هذا: القول بانه "حسبنا كتاب الله" مطلقا هكذا مستحيل. مستحيل بكل معنى الكلمة.

أولا, لأن تعلّم اللسان العربي الذي به يعرف كتاب الله يحتاج الى معلمين من الناس. و أصل وضع اللسان ليس من كتاب الله و انما كتاب الله جاء باللسان العربي. فلسان العرب سابق على كتاب الرب. "انما يسرنه بلسانك". و هذا لا يمنع أن يؤسس كتاب الله لقواعد لسانية و أساليب تعبيرية لم تكن موجودة في لسان العرب من قبل. فمثلا, قبل أن تستطيع ان تفهم كتب الأطباء يجب أن تتعلم لسان الاطباء من طبيب او من يفهم هذا اللسان. ثم بعد ذلك قد تبتكر أنت مصطلحات طبية جديدة لم تكن موجودة من قبل, أو تبتكر أسلوبا جديدا في الكتابة في المسائل الطبية. و هذا لا يعني أنك خرجت عن لسان الأطباء. و انما هو ابداع في نطالق اللسان. و كذلك لسان الأنبياء. فلفهم نص كتاب الله تعالى يجب أن تكون عربيا. و تعلّم العربية لا يكون الا عن طريق انسان ما او جماعة من الناس. و هذا يعني أنك لتفهم كتاب الله أول الأمر أنت مفتقر الى وجود هؤلاء الناس.

و ثانيا, ما معنى كلمة "حسبنا" ؟ ان قلنا أن معناها حسبنا في أمور الدين. فهذا صحيح. و لكن هل هذا يعني أن كتابة الناس لدراساتهم و نشرها حول كتاب الله هو أمر ممنوع ؟ هذا أيضا مستحيل و لا معنى له. لأن القارئ لكتاب الله هو في فعل قراءته "يكتب" سلسلة تفكيره و استنباطه و تحليله و تدبره على "صفحة" قلبه. فمعنى ان يمنع نشر كلام الناس حول كتاب الله هو أن يمنع الناس من تدبر و دراسة كتاب الله نفسه. و التالي باطل لان الله أمرنا أن ندرس كتابه, فالاول مثله. بل هذا النشر هو من باب التعاون على البر و التقوى و الشورى بين المؤمنين و العلماء. انما المحذور هو ان تجعل احدى هذه الكتب "حاكمة" على كتاب الله, أو أن تجعل الكتب "الوحيدة" الصحيحة في فهم كتاب الله. فلا يوجد أعلى من كتاب الله, و لا يحق لاحد أن يحتكر دراسته و لا يحق لمسلم أن يصنع أصناما من هذه الكتب يلعن كل من لا يعكف عليها. فالطغيان هو المرفوض. و لكن لا ينبغي أن نرفض حقا من أجل أن نسد باب ظهور باطل, فان حفظ الحق أولى من سد باب الباطل. اذ الحق مؤكد و الباطل محتمل. و سد

الباطل سدا تاما يكون باظهارحق أعلى منه, و ليس بقتل حق مأمور به. فالله أمرنا بدراسه كتابه و التعاون مع اخواننا فيه و أن يكون أمرنا شورى بيننا, هذا حق. و كتابة الأفكار و الدراسات ليس الا اظهار ثاني للفكر الذي ظهر في القلب أولا. فكل كتاب يظهر في عالم الاجسام انما هو كتاب كان موجودا أولا بنحو من الانحاء في عالم القلب. اذ كل اناء ينضح بما فيه.و الكتابه اخراج ما في القلب الشخصي الى القلب الاجتماعي (الكتب). فاذن "حسبنا" لا تعني أنه لن يوجد كتب أخرى, و لكن تعني أنه لا يوجد أعلى من كتاب الله في حقل الدراسات الدينية التي تنسب الى الله.

و ثالثا, من ظلم الله تعالى و أذيته و تغيير خلقه أن ينسب اليه أمر هو لم ينزله. ان مثل هذا الظلم يجب أن نرفعه عن أبسط رجل منّا, فما بالك بربنا جل و علا. الان في كل المجالات اذا نسب احد قولا الى أحد او رأيا اليه فانه يضطر الى توثيقه و اثبات نسبته اليه. و اذا ثبت أن هذه النسبة خاطئة فان الناسب يلام جدا و قد تسقط قيمته العلمية و الاخلاقية أحيانا من أعين الناس. فكل أحد يحق له أن يدفع عن نفسه نسبة ما لم يقله. و لا يحق لاحد أن ينسب لاحد قولا لم يثبته على نفسه او لم يثبت عليه ببرهان قوي و قرائن كثيرة قوية. هذا هو الكمال في هذا الامر. و ان كان صعبا في كثير من الاحيان, و يختلف الامر بحسب اختلاف حقل الدراسة و النظر. فالتدقيق في المسائل التاريخية و الحوادث الجنائية ليس مثل التدقيق في أراء الكاتب الفلاني او الشاعر الفلاني. الاول أصعب و أما الثاني فأسهل لان كتب الكاتب و شعر الشاعر موجود بيننا و نسبتها اليه ثابته. والان, هذا الكتاب الذي نقول عنه "كتاب الله" و نؤمن بذلك, هو الكتاب الوحيد الذي ينسب الى "الله". فمن أراد أن يتكلم باسم الله فليس له الا هذا الكتاب كمنطلق و تفصيل. و ما سوى ذلك فهو رأيك الخاص. و هذا أضعف الايمان في هذه المسألة. و لذلك نقول "حسبنا كتاب الله فيما ينسب الى الله". لاننا لا نجرؤ و لا نبيح لانفسنا مثل هذا الظلم الشنيع الذي نرفض ان نرتكبه حتى في حق أصغر مفكر على الارض, بل على أصغر انسان على الارض. فما أشد احترازنا في ارتكاب مثل هذا الظلم في حق رب العرش و السماوات و الارض!

و أخيرا, يقول بعض الناس, "أفضل الحديث كلام الله, و افضل الهدي هدي محمد". و نحن نقول: أفضل الحديث كلام الله و انما الهدى هدى الله. و محمد ممن يهتدي بهذا الهدى. و هذا التفريق الأرعن الذي ترتكبونه يدل على ظلم كبير. فما معنى ان تفصلوا الهدي عن الله و كتابه؟ هل يوجد هذا الفصل في كتاب الله أم انه صرح أن أفضل الهدى هو هدى الله, بل قال "قل ان الهدى هدى الله". هم جعلوا كتاب الله "أفضل الحديث" نعم مجرد حديث عظيم و كفى. و أما الهدى فخذوه من مواضع اخرى (مواضع هم اختلقوها طبعا و نسبوها الى محمد). هذا مرفوض قطعا. بل كتاب الله هو أقوم الحديث و أفضله و فيه البينات و الهدى و الفرقان لقوم يعقلون, و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فاتقوا الله و اخلصوا له ان كنتم اياه تعبدون.

(هل الروايات "السنة" بيّنت القرءان فعلا ؟)

كثيرا ما نسمع, بل ان البناء العقائدي و التشريعي لمعظم الفرق- و كلامنا عن أكبر فرقتين الشيعة الامامية و من يسمون أنفسهم أهل السنة و الجماعة بشكل عام- قد قام على أساس أن : السنة مبينة للقرءان. و قد عرفنا ما في هذا القول من شطط و غلو, أول من يثبت بطلانه هو القوم أنفسهم. فكل من يتعمق في درس كتبهم و قواعدهم و

ثمار اجتهاداتهم يعرف هذا جيدا ان وفّقه الله تعالى و لم يطمس على بصيرته لذنب ارتكبه أو هوى حكمه. و يمكن تلخيص اثبات هذه الدعوى في ثلاث حجج أساسية :

بالنظر الى أسس الرواية, و بالنظر الى ثمار الأخذ بها كأصل و مصدر أساسي, و بالنظر الى افتقارها الى مبين.

أما بالنظر الى أسس الرواية فهو عندما ننظر في ما يسمى بعلم الرجال و معايير نقد الرجال, فاننا سنرى أن الموضوع منتقد من حيثيتن: من حيث ان معيار النقد شخصي و ذوقي , فصاحب المدرسة في نقد الرجال هو الذي يضع المعايير مهما تكلّف و تعنّت لاظهار "الموضوعية" في هذا المعيار, فانه في نهاية المطاف هو الذي يحدد و يحكم كون العدالة و الوثاقة و الحفظ في فلان قد تم أم لم يتم, و أكبر دليل على شخصية هذا المعيار هو أن الارا ء في الرجل الواحد قد تتعدد لتصل الى درجة الجمع بين المتناقضات, فهو عند قوم عدل و صدوق و عند قوم قد يكون بالضد من ذلك تماما, و هذا ليس فقط في الاعتبار المذهبي للراوي كمثل من يرى أن التشيع يقدح أو لا يقدح طالما أن الراوي صدوق فمثلا يوجد من علماء "السنة و الجماعة" من يرى أن كون الراوي شيعيا أو فيه تشيع ليس بقادح في حد ذاته فيه و لكن عندما نحقق في السبب الذي جعلهم يأخذون بهذا فانه ليس من باب " التسامح بين المذاهب " أو شئ من هذا القبيل بل انه بسبب الضرورة الملجأة فان الكثير جدا من الرواة كانوا من "اتباع الاهواء و الفرق المنحرفة " فان ترك حديث كل شيعي و متشيع و خارجي – و أشعري على حد قول البعض- مثلا فانه لا يبقى من الحديث الا النزر اليسير. و هي نفس الضرورة التي تمثل الحيثية الثانية لنقد المعيار و هي أن هذا المعيار لا يتم وزن "الصحابة" به. فالطبقة الأولى من الرواة لا يتم المساس بها بحال من الاحوال, و كل التكلف الذي تقوم عليه نظرية قدسية الصحابة او تنزههم المطلق او شبه المطلق ليست هي من قبيل "حب الصحابة" او "اتباع القرءان" او نحو ذلك من تخرص و مزاعم و أهل العلم و الفن يدركون جيدا – و ان كان في خاصة أنفسهم و لا يظهرونه- انه لا يوجد أي حجة فعلية من هذا القبيل , و لكن السبب مرة أخرى هو الضرورة الملجأة, فان عدد "الصحابة" الذي رويت عنهم كل المرويات قليل جدا, (و قد اخبرني مباشرة دكتور في الشريعة من الأزهر الشريف أن "الدين كله جاءنا من نحو 15 صحابيا لا غير" !) فان أعملنا سيف النقد في هؤلاء القلة فانه لن يبقى مستمسك لرواية, و يمكن بكل بساطة أن نضرب بعضهم ببعض, فنأتي بما قاله الصحابي فلان في الصحابي علان من طعن فنسقط عدالته او نقيدها تقييدا شديدا , ثم نأتي بما قاله أو عمله الصحابي فلان فنجعله دليلا على ضعفه او "عدم الارتياح له ! " (كما قال أحد "علماء" الجرح و التعديل في الامام جعفر بن محمد : في نفسي منه شئ , و كان هذا أساسا لترك رواية البعض عنه) و بهذا تسقط الطبقة الأولى كلها و هي أهم طبقة في رواية هذه الآحاد. و لذلك شددوا في بناء الحصون الكثيرة حول هذه القلة من الطبقة الاولى, و أول حصن بنوه حولهم هو اسم "الصحابة" الذي يوهم بالكثرة بل يوهم بالشمول المطلق ل "كل" الصحابة. و الحق أنهم لا يمثلون أقل من 1% من الصحابة, بل ان منهم من يجزم بعض المسلمين بكفره و نفاقه و يلعنه صباح مساء على بينة و برهان في ذلك- بالنسبة له . و حسبنا ان القرءان نفسه ذكر أهل النفاق و الشقاق, و سبحان الله من بعد ذهاب النبي الاول عليه السلام فان فكرة النفاق هذه قد تبخرت من عقول الناس, حتى انهم اصبحوا يثقون بكل رواية عن النبي من أي أحد فقط بحجة أنه "صحب النبي و راه و سمع منه" (وقد ورد هذا في جواب للامام علي في نهج البلاغة حين سئل عن سبب اختلاف الرواية عن النبي عليه السلام, و سواء صح النقل عن علي أم لا فان الفكرة صحيحة و مشهود لها قرانيا و واقعيا). فبين الذوق و

الحصانة, أي ذوق الناقد و حصانة بعض الرواة من التعرض للنقد, فان النتيجة هي تهالك هذا الأساس الأكبر للمرويات كلها. اللهم الا ما شهد لها القرءان أو نور من الخارج أو نور في قلب القارئ فهذا شأن اخر لعلنا نرجع له لاحقا ان شاء الله, و هو يدخل تحت مبحث: كيف نعرف الرواية الصحيحة.

أما ثمار الاخذ بالمرويات, فانه بكلمة واحدة "سبرماركت". أي ان المصادر الروائية تشبه السبرماركت, فيه من كل شئ, و كل طبّاخ يستطيع أن يكتب قائمة المشتروات التي يحتاج اليها ليعد طبخته, ثم يذهب الى السبرماركت و يشتري ما يشاء و يصنع طبخته بمواد سبرماركتية, ثم يصرخ في وجه الناس "السبرماركت لا يخرج الا هذه الطبخة التي صنعتها أنا ! و من قال غير ذلك فهو ضال أو أعمى ! " طبعا و الطباخ الاخر يفعل نفس الشئ تماما, و هذا هو الوضع المؤسف الى يومنا هذا. يظن الغافل ان المشكلة في الاختلاف و التفرق بين المسلمين هو أنه يوجد أحد ضال أو أعمى أو معاند يريد أن يدخل جهنم او نحو ذلك, و الانصاف أنه في معظم الحالات ان لم يكن كلها فان صاحب الرأي في الدين يكون فعلا مقتنعا برأيه على أنه "الدين" و هو لا يتصنع أو ينافق نفسه, بل اذا محصته وجدته مؤمن فعلا بأن ما توصل اليه هو الدين بعينه. و كل أحد عنده روايات و ايات تدعمه في مقولته. طبعا في الغالب الأعم لا يكون الاستناد الى الايات القرءانية الا بنحو لاحق, أي اما انه قد أحكم رأيه و ذهب الى القرءان ليجبره ان اضطر على أن يختم له على رأيه بختم القبول مهما كلف الأمر, و في معظم الاحيان يكون الاعتماد على مرويات من هنا و هناك. و دائما يوجد مرويات لتؤيد أي شئ يريد أي أحد أن يعمله, و ان لم يجد فان مناهج أصول الفقه كفيلة بايجاد مخرج لصاحب الرأي- هذا ان كان ذكيا و "فقيها" طبعا.

انظر مثلا الى كتاب "بداية المجتهد " لابن رشد الاندلسي- رحمه الله. لا تكاد تخلو مسألة من المسائل التي يطرحها بداية من كتاب الطهارة الا و يذكر فيها اراء متعددة- سبرماركتية- تشمل تقريبا أو تشمل فعلا كل الاحتمالات الممكنة أصلا للاجابة عن التساؤل المطروح, ثم بعد أن يذكر الاختلاف تراه يذكر في الكثير جدا من الاحيان أن سبب الاختلاف هو "الاختلاف في المرويات..الاختلاف في الأثر الوارد في ذلك, الاختلاف في النقل ". و اذا نظرنا في الجنبة الشيعية الامامية تجد مثلا الشيخ الطوسي صاحب التهذيب يقول في مقدمة كتابه أنه لا يوجد خبر الا و يصح في مقابله مضاد له. و اذا نظرنا الى التطبيقات الفقهية للامامية سنجد في كثير من الاحيان- على غرار الفقه السني- وجود الظاهره التي أسميها أنا بالسبرماركت او القول بدون قول شئ. ما معنى "القول بدون قول شئ" ؟ هو أن يكون القول شاملا لكل الاحتمالات الممكنة او شاملا لاحتمالات متناقضة. مثلا: اذا سألتني " أين فلان ؟" فأجبتك " فلان اما في البيت أو ليس في البيت" فما الفائدة الفعلية لقولي و اجابتي هذه ؟ لا شئ ! كوني ذكرت كل الاحتمالات أو ذكرت احتمالات متناقضة فان هذا يعني أني لم أقل شيئا من الناحية الواقعية. و هذا هو عين ما تجده في الغالبية العظمى في المسائل الدينية عند كل الفرق المتبحرة في المسائل و عندها علماء كثر. و كنت أحب أن أضرب أمثالا على هذه الظاهرة و لكن من كثره الامثلة لا أعرف كيف أتخير منها. و قد ذكرت لك الأصل فانظر في كتب الفقه المقارن او العقائد المقارنة في الفرقة نفسها أو بين الفرق, وسترى ما أقوله بكل وضوح. فان التتبع يظهر أن الأصل هو وجود قاعدة القول بدون قول شئ, و الاستثناء أن يوجد رأي جازم في الأمر. و لنكتف بضرب مثال لأكبر مسألة دينية اسلامية على الاطلاق و هو الله تعالى. فترى أنه يوجد في ذاته أقوال متعددة منها في أقصا اليسار من يجعل الله شابا أمردا يتمشى في الجنة فوق سبع سماوات تشبه العمارة, و

منها في اقصا اليمين من يجعل مجرد قول أنه يوجد شئ غير الله فهو شرك و كفر بالله .من التشخيص المطلق الى التجريد المطلق و ما بين ذلك, كل هذا تجده في الميراث الاسلامي, و كل واحد عنده رواياته و اياته و حججه العقلية و النقلية. فعندما يأتي مثلا انسان من خارج التراث الاسلامي و يسأل : ماذا يقول الاسلام في ذات الله؟ (فاننا لا نستطيع أن نجيبه باسم فرقة معينة من الفرق الاسلامية لان هذا ظلم و كتم لما عند الفرق الاخرى- وطبعا لا نتوقع وجود هذه الامانة و سعة الصدر في معظم الناس الذين يبلغون الدين بين الأمم بل عموما يظهر كل أحد أن فرقته هي الفرقة الوحيدة و البقية فرق ضالة الا ما شذ و ندر من الدعاة الكبار المتبحرين بل اكاد أقول المتألهين فان لهؤلاء القدرة على ذكر الاراء الاخرى و العجيب أن هؤلاء في كثير من الاحيان يتعرضون للسب و الشتم بل و التكفير و الزندقة من قبل فرقهم بسبب اخذهم لاراء الفرق الاخرى بعين الاعتبار بوجه او باخر, فتأمل.) بل ان هذا السائل عندما يقول " الاسلام " فانه يعني كل من ينتسب للاسلام. و لا تهمه الفروق المذهبية و الطائفية في شئ. كما أن أهل الاسلام اذا نظروا الى الديانات الاخرى فانهم ياخذون كل ما تقوله الفرق المنتسبة لهذه الديانة على أنه منها, بل لا يبعد أن يعتبروا اختلاف فرق الديانة من أسباب بطلانها و كونها ديانة وضعية مبتورة عن الحق تعالى !! و لعلهم يستشهدون بقوله "و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" أيضا ! (و هذا يشبه قول يشوا اليهودي "لا تنظر الى القشة في عين أخيك و تغفل عن الخشبة التي في عينك ") و لا أدري ان كان اختلاف الفرق في الديانة دليل بطلانها فكيف لا يكون اختلافنا نحن دليل كوننا على باطل أيضا بنفس المعيار ؟ على أية حال, هذا موضوع لبحث أخر, المهم عندما يأتي انسان و يسأل رأي الاسلام في ذات الله, فان الجواب الأمين هو هذا: يوجد من يقول أن الله مشخص شديد التشخيص و من هؤلاء يقول أن الكيفية هي مثل كيفية الانسان و منهم من يقول أنه ليس ككيفية الانسان فله يد و لكن لا كالايادي و عين لا كالاعين و هكذا, و يوجد من يقول أن الله مجرد شديد التجريد و من هؤلاء من يقول أن الله لا يعرف الا بالسلوب المحضة و لا يعرف بسمة ايجابية و منهم من يقول أن الله يعرف بالايجاب, و منهم من يقول بالجمع بين التنزيه و التشبيه, و منهم من يقول أنه واحد لا يتجلى في شئ, و منهم من يقول انه واحد يتجلى في بعض الاشياء, و منهم من يقول أنه واحد يتجلى في كل الاشياء, و منهم من يقول ان وحدته عددية و منهم من يقول أن وحدته ليست عددية, و منهم من يقول ان له صفات, و منهم من يقول أن كمال الاخلاص له هو نفي الصفات عنه, و منهم و منهم و منهم و منهم...الخ. تفضل هذا هو "الاسلام" !! ألن يكون من العدل الطبيعي أن يقول الرجل: طالما أنه يوجد في الاسلام كل هذه الاراء المتناقضة الشاملة فان النتيجة هي أن الاسلام لا يقول شئ ! و هذه هي النتيجة الطبيعية التي يصل اليها كل من ينصف مع نفسه. و أساس هذه المصيبة هو : وجود تعدد في المصادر المكتوبة و غياب صاحب الرسالة صاحب القول الفصل في تعيين القول المعتبر في ديانته. و لعل توحيد الكتاب كفيل بازاحة معظم هذه الاختلافات, بل كلها على التحقيق. و هذا هو ما نريد ان يقع باذن الله. فان كان الاختلاف في ذات الله تعالى و هو أس أسس و مبدأ مبادئ الدين هذا هو حاله, فماذا يا ترى يكون شكل الاختلاف في ما هو دونه.

و ليس هذا الاختلاف- حتى فيما يسمونه بالفروع العملية (و تقسيم الدين الى أصول و فروع هو مما لا برهان و دليل عليه كما يعلم أهل العلم, و يعللون التقسيم بأن ما يرجع الى فعل الله سمي أصلا و ما يرجع الى تكليف العبد سمي فرعا, و لا أريد أن أنقد هذا التقسيم و لوازمه و قواعده و تعليله هنا فلعل له يوم اخر) بالأمر الهين. فانه من المعلوم أن لاعمال الانسان اثار في الوجود و في حياته الاخرة خصوصا. و هنا مسألة مهمة جدا: هل الاثر الأخروي خصوصا يترتب على "نية" العمل أم على "ذات" العمل ؟ أي هل لو عمل انسان عملا ما و لكنه كان فعلا

ينوي نية حسنة, و لكنه أخطأ في تشخيص المصداق أو جهل أو لأي سبب اخر لم يصب الحق في العمل فضل الطريق و عمل عملا محرما "في نفس الأمر عند الله" , فهل هذا الانسان سيرى خيرا- بحسب نيته الخيّرة- أم شرا – بحسب ذات عمله للشر ؟ ان قلنا : سيجازيه الله على نيته حتى لو اخطأ في المصداق, فان اللازم الضروري هو أن كل أهل الديانات بل حتى أهل الالحاد الذين نووا أن يكونوا مع الحقيقة و الخير و لكنهم ضلوا فسيكونوا من أهل النجاة, و هذا يعني أن الذي قتل الانبياء بنية أنه يريد تخليص الارض من فسادهم و حماية الجماهير من ضلالهم فانه سيكون من أهل الجنة أو سيرى خيرا بسبب عمله هذا لأنه "نوى" خيرا, ففرعون مثلا عندما أراد قتل موسى بحجة " اني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد " فانه يكون على خير حيث ان حفظ الدين و حفظ الأمن الاجتماعي من أهم المقاصد الشرعية ! و ان قلنا بالاحتمال الآخر و هو أن الجزاء يكون على ذات العمل بغض النظر عن النية في حال ضلال العمل, فان هذا يعني أنه حتى المجتهد المسلم الذي يخطئ في حكمه و فتواه فانه سيرى شرا على ذلك و لم يكون معذورا, و على هذا لن يوجد من يجرؤ على الفتوى و التحدث باسم الدين الا من كان "معصوما" و ماذونا له من الله مباشرة بأن يباشر هذه المهمة و هذا يعني استمرارية نوع من النبوة و الرسالة و الامامة ما دام الله يريد لدينه أن يعمل به في هذه الارض. فالفقيه الذي يقول أن العمل الكذائي حلال أو حرام فانه لا يعطي فقط حكما دنيويا اجتماعيا او شخصيا, ان مضمون قوله حلال او حرام باسم الله أنه يوجد علاقة مباشرة- علاقة وجودية متعددة المستويات- بين هذا العمل و بين اثار وجودية دنيوية و اخروية معا. فمن قال أن زواج المتعة "حلال " فان هذا يعني أن الذي يتزوج متعة عملا بهذه الفتوى سيرى يوم القيامة يوم "تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا و ما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا " أن زواجه للمتعة سيكون من الخير الذي سيجده محضرا, و من الناحية الاخرى من يفتي بأن زواج المتعة "حرام" فان هذا يعني أن من يتزوج متعة سيجد يوم القيامة عمله هذا من الشر الذي سيود لو أن بينه و بينها أمدا بعيدا, و حيث أنه لا يمكن أن يكون كلا الأمرين حقا في الواقع, و لا يمكن أن نقول أن الله تعالى العادل الحكيم صاحب السنن الوجودية الحقة و الأسباب المنتظمة, سوف يعطي الشيعي خيرا على أنه تزوج متعة و سيعطي السني جهنم اذا تزوج متعة ! حاشا لله. أم يا ترى عند العلماء رأي اخر في هذه المسألة. و قل مثل ذلك في بقية المسائل كلها صغيرها و كبيرها, ما دخل منها تحت عنوان العقيدة أو الشريعة بحسب المتعارف عليه من هذه العناوين. فهل يوجد عاقل مسلم- بدون اذن مباشر من الله الحي- يستطيع أن يجد في نفسه القوة على أن يتحدث باسم الله و هذا هو الحال ؟!

فان كانت هذه الخطورة واقعة بالنسبة حتى لمن يكون حديثه باسم الله مقتصرا على ما يجده في كتاب الله, و ان كانت النسبة ضعيفة لأن الله لا يفتح كتابه أصلا الا لمن يختارهم لذلك مسبقا, فأي جرأة و صفاقة هذه لانسان ينظر في كتب " روى فلان و قيل في علان " ثم يستنتج النتائج و يختم عليها بخاتم " قال الله رب العرش و الأكوان " ؟! "ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين".

و كاشارة سريعة للمسألة التي عرضنا لها قبل قليل أي ارتباط الجزاء هل هو بنية العمل أم بذات العمل. أقول: ان المشاهد في الارض التي فيها ايات الله, أن العمل مرتبط بذات العمل. و ليس بنية العمل. فمثلا, اذا نوى انسان أنه يريد أن يتعافى جسمانيا من مرض و لكنه تناول سما بدل ذلك لأنه ارتجل في تشخيص الداء و تحديد الدواء, فان النتيجة ستكون مترتبة على ذات العمل- أي تعاطي السم او الدواء الفاشل- و لن يقول له الوجود " نعم , لن نقتلك لأننا نعلم أن نيتك صالحة و طيبة ! ". و مثلا, من لا يؤمن بما يسمى بقانون الجاذبية باي ذريعة ذكية أم غبية من قبيل أنه جاءنا من الغرب و لم تنص عليه النصوص الدينية, ثم يقفز من فوق عمارة من الدور المائة بعد

قراءة دعاء لحفظه من الموت مروي في كتب معتبره (!) فهل سيقول له الله " بما أنك نويت الخير, و دعوتني, فانك لن تموت من هذه السقطة المميتة " . أحسب أن الأمر قد اتضح. فالله تعالى خلق العوالم و جعل بين كل سبب و أثر علاقة, و هذا لا يعني أن علاقة السببية هذه ضيقة و سخيفة كما يحسبها العوام (و بالعوام أقصد أيضا السخفاء الذي أخذوا ضغثا او ضغثين من كلمات بعض مفكري الغرب الموتى ظنا منه أنه "علمي" في تصرفه الصبياني هذا) بل أسرار نظام السببية أكبر و أوسع, بل انها من أعظم علوم الأنبياء, بل انها لب علوم الأنبياء و العرفاء. و لكن أيا كان, فان الله هو الذي وضع هذا النظام, و حكم بهذه الأحكام, و الاعتقاد بأن الله شئ و نظام السببية شئ اخر هو من الجهل الأعظم, بل من الشرك الاعظم. فاذن, الجزاء على العمل خاضع لنظام السببية الالهي الذي يشمل العوالم كلها من أعلاها الى أسفلها. و العمل سبب, و الجزاء أثره. فمن عمل عملا ترتب عليه أثره, بغض النظر عن "النية" التي قصد اليها الانسان من عمله هذا. فان نوى الجنة و لكن عمل عمل أهل النار و هو لا يدري دخل النار. و ان نوى النار و لكن عمل عمل أهل الجنة و هو لا يدري دخل الجنة. "ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون". "انما تجزون ما كنتم تعملون". هذا هو المبدأ الحاكم. و الله يحكم لا معقب لحكمه. و لولا أن الضلال- الذي يفترق طبعا عن العناد و الجحود- له مدخلية مباشرة في الوصول الى النار لما وجدنا الضال يتعذب في الدنيا قبل الاخرة و لما ذكر القرءان للضال عذابا ما. و ليس لانسان أن يقطع بأن فلان من أهل الجنة أو النار, أولا لأن الأمر ليس بيده, فالأمر بيد الله و السنن ستجري كما حددها الله فلا فائدة أصلا من هذا القطع على فرض امكانه. فهذا لا يعني نشر ثقافة التكفير و التضليل, هذا اضاعة للوقت. ليس للعاقل الا أن يحدد ما فتح ربه له, و على كل أحد أن ينظر لنفسه و ينظر ما قدمت يداه. و من أكبر علوم القرءان هو علم أسميه : علم نظام السببية. و هوالعلم الذي يحدد العلاقات بين الأعمال و اثارها الدنيوية و الاخروية. مطلق الاعمال. و العمل يشمل القول و الفعل. و القول و الفعل يشمل ما أسره الانسان في نفسه أو أعلنه. "ان تبدوا ما في أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله". و هذا مشاهد اليوم فضلا عن في اليوم الاخر. فان الانسان اذا أسر شيئا في نفسه حوسب عليه اليوم, في نفسه أولا و في خارجه ثانيا. و هل الكبت النفسي لشر و الانتقام و الحسد الا من الأمور التي تدخل تحت " أو تخفوه ". ألستم ترون أثر هذه الامور في قلوبكم و عقولكم بل ثم و أجسامكم و ثم في علاقاتكم في الارض عموما. فهذا الربط بين المخفي في النفس و الحساب و الجزاء عليه هو أمر حقيقي داخل في نظام السببية الالهي. و ينبغي لمن أراد الخير لهذه الأمة (اي لنفسه و لاخوانه, اذ المسلم ليست له نفس مستقلة تمام عن نفس أمته. كما يتبين من الايات التي حرمت على بني اسرئيل أن يخرجوا "أنفسهم" من ديارهم, و غيرها من ايات و حقائق) أن يستفتح الله و و يدعوه ليكشف له في علم نظام السببية هذا, و يستأذنه في دراسته و الكتابة عنه و نشره. و عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده.

فالحاصل أن كل صغيرة و كبيرة تتم باسم الله تعالى, انما تعني أن لهذا الأمر علاقة بنظام العوالم و نظام السببية. فعلا و حقا, صدقا و عدلا. (و ليس وضع اسم الله على شئ هو مجرد وسيلة الى اقناع العوام بالالتزام بالامر. فيكون اسم الله تقدس و تعالى, مجرد وسيلة سياسية لدفع البشر للعمل او الترك.) و من لم يفقه أن اسم الله أعظم من أن يكون مجرد سوط بيد سائس الحمير ليدفعها للعمل, فانه عندي ليس جديرا باسم "انسان" فضلا عن أن يكون وارث الأنبياء و أمين الرسل و عالم من العلماء.

نرجع الى دعوى ان الاحاديث و المرويات قد بينت القرءان و هي مخرج لحل الخلاف بين الأمة في فهم القرءان.

انظر مثلا في كتاب الشيخ محمد احساني المسمى "أسباب اختلاف الحديث" لترى مقدار عظمة هذه الاحاديث. فانه ذكر نحو 80 سببا لاختلاف الحديث ! 80 سببا ! ان كانت المرويات نفسها تحوي 80 سببا للاختلاف فيها, فأي تبيين هذا نرجوه منها ؟! و أنا أعلم أنه يوجد الان من القراء من يفكر في نفسه و يقول: و حتى القرءان يوجد فيه أسباب للاختلاف فالامر سيان اذن . أقول له:, ان الامر ليس سيان أبدا. و تفصيل البحث نقوله لك عندما تكبر قليلا. و لكن كجواب يكفيك مبدئيا و تتسع له بطنك الصغيرة نقول, ان الله تعالى نفسه قد قال " و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا" و الايات في هذا المضمون كثيرة, فان كان لا يمكن أيضا الاجتماع على كتاب الله, فان هذه الايات كلها تكون باطلة و مكلفة بمستحيل من حيث الواقع مما يعني أن الله تعالى يجهل وقائع الامور و لا يدري أنه لا يمكن الاجتماع على كتابه حيث ان الامر سيان بينه و بين المرويات التي رواها – او ائتفكها- عصبة من البشر . و هذا يعني نسف لهذا القرءان و الدين كله من أساسه. فمن يحاول أن ينقذ أربابه و أصنامه عن طريق تشبيهها بل تمثيلها بكتاب الله تعالى فانه لا يدري ان الحجة التي يستعملها هي هي الحجة التي يمكن استعمالها لنسف الدين كله, فضلا عن كونها باطلة في ذاتها عند التحقيق. و لا وجه للمماثلة بين كتاب الله و قال و قيل, لا من حيث الرتبة الوجودية و لا من حيث حضور صاحب الكتاب و القول و لا من حيث الفصاحة و البلاغة و لا من حيث الدقة و الحفظ و لا من حيث اجتماع أهل الله عليه و لا من حيث قبول عموم الناس و خواصه له, و لا و لا و لا من كل الحيثيات. نعم يوجد عامل مشترك واحد يجمع بين كلام الله و كل كلام الناس و ليس فقط كلام المرويات, و هو أن كل هذا الكلام يتم ب "اللغة العربية". و لكن حتى هذا العامل ليس مشترك فعلا من كل الزوايا, فان كلام الله نعم صورته عربية و لكن الكتاب ليس فقط في اللغة التي تستعمل فيه بل يوجد عوامل أخرى تتدخل في صناعة الكتب و تأثيرها و قوتها و تبيينها, ثم ان كان كلام الله العربي لا يدل على معانيه فان كلام من بالضبط هو الذي يدل على المعاني ! كلام الذي يريد أن يقنعنا ان كلام الله لا يدل على المعاني !! كلامك أنت يدل و كلام الله لا يدل ؟ فلنفرض أنه ليس كلام الله بل كلام انسان, فلا أقل انه انسان مثلك, فكما أن كلامك أنت الذي تستعمله لتدلنا على أن كلام الله لا يدل, هو كلام دال, بدليل سعيك الى اقناعنا عن طريقه, فليكن كلام القرءان كذلك. و ليس الجاهل بالشئ بحجة على العالم به. و ليس المغفل الأعمى بحجة على العبقري المستبصر. و ليس من يعاند و يماري و يريد التخلص من شئ بحجة على من يسعى باخلاص و سعة صدر و تفتح عقل و يريد الفقه و الفهم حقا. على كل حال, فكرة أن الكتب لا تدل على معانيها هو من تفاهات- آسف "الحضارة العلمية"- لبعض أموات الغرب ثم تابعهم عليه الأموات عندنا. و العجيب أن هؤلاء الموتى كتبوا كتبا يجزمون عن طريقها أنه لا يمكن فهم معاني الكتب بمعنى دقيق و محدد و أن المعنى ضبابي يستطيع أي أحد أن يجعله كما يشاء ! نعم كلامهم هم و كتبهم هم تدل على معاني دقيقة و نظريات "علمية" عميقة, و أما بقية الكتب, خصوصا كتاب الله تعالى, فانه لا لا يدل على شئ و لا يمكن أن يدل. لا أدري ان كانوا سيفهموا هذه الكلمة التي سأكتبها الان: اذهبوا الى جهنم يا حمير و يا بله ! (بالمناسبة قصدي من هذه الجملة-بناءا على على علم الهرمونيطيقا!- هي ان اقول: أنا أحبكم يا اخواني فتعالوا معنا الى الجنة! لا أدري ان كان "تفسيري" هذا لهذه الجملة هو أمر محتمل و مقنع لهؤلاء العباقرة . نستغفر الله عن اضاعة الوقت مع مثل هؤلاء, الا انه مع الاسف أصبح لغوهم منتشرا بين الكثير ممن رأيتهم).

قد يقال: فان كان يمكن استنباط معاني محددة من النصوص, فلماذا تقول بأن النصوص الروائية تحتمل كل الاحتمالات ؟

الجواب: لا علاقة بين هذا و ذاك. نحن لم ننكر يوما بأنه يوجد معاني محددة – واسعة أو ضيقة هذا مبحث اخر- للنصوص, لأي نص على الاطلاق. و انكار ذلك من أسخف السخف كما ذكرنا. و لكن يوجد سبب ذاتي و سبب منهجي أديا الى نشوء ما أسميته بظاهرة السبرماركت او "القول بدون قول شئ".

أما السبب الذاتي, فهو ليس أكثر مما ذكره شيخ الطائفة الامامية الطوسي-رحمه الله- عندما ذكر أنه يوجد في قبال كل خبر اخبار تناقضه. و هذا التناقض ليس فقط في المفهوم من النص أو ما يحتمله النص, بل في نفس النص أي في ظاهره. و هذا تجده في الكثير جدا من الحالات و من تتبع عرف. و لذلك اضطر العلماء الأفاضل- رحمهم الله- ان يضعوا قواعد للترجيح. و كثير من هذه القواعد تحكمي و فيه خلل و لا أقل انه ليس قريب من القطع و اليقين الذي يطمئن اليه قلب العاقل. فضلا عن غياب المعيار القراني الحقيقي و الفعلي, سواء على مستوى التنظير الحقيقي أو على متسوى التطبيق الفعلي. و أقصد بالمعيار القراني الحقيقي هو أن تتم دراسة القرءان بتعمق ثم استخراج قواعد منه تكون حاكمة على كل المعارف الدينية, و يتم ارجاع كل شئ اليها, و جعل مبادئ القرءان هي الحاكمة على الكل, و هذا ما لا يمكن أن يقوم به أحد من المنتمين الى فرقة من هذه الفرق الاسلامية الموجودة. و أقول ذلك بقطع و جزم. لسبب بسيط و هو أن مباني القرءان تخالف مبانيهم, و مبادئ القرءان تضاد مبادئهم, و لا أقل أن يوجد اختلاف بين مبدأ قرءاني و بين أصل مذهبي محوري, و لن يستطيع عندها صاحب المذهب أن ياخذ بالمبدأ القرءاني الا ان تخلى عن هذا الأصل المذهبي, و اذا تخلى عن هذا الأصل خرج عن المذهب فعلا (و ان حال التوفيق و الاحسان, أي أن يزعم بأن المذهب هو الذي يقول بهذا المبدأ القراني, حتى يجنب نفسه خطورة الخروج من حظيرة المذهب) و هذا معنى قولي أنه لن يستطيع أن يتبع القرءان حقا و باخلاص تام تابع لمذهب من المذاهب المعروفة. اذ كل مذهب أخذ شئ من القرءان و أشياء من غيره, فاختلط ماء القرءان بتراب الغير, و بنى كل لنفسه بيت من الطين, فان انذرته مصيبه الخروج عن القرءان قال لك "انظر الى الماء الذي بنيت به هذا البيت" و بالطبع فانه ينظر الى الماء و يتغافل عن التراب. و هكذا مع بقية الفرق. فالفرق مجتمعة بالماء, و لكن كل منها يرشق الاخر بترابه و حجره و صخوره.

وأما السبب المنهجي فهو أن منهاج الفرق في ما يسمونه بأصول العقائد و أصول الفقه يؤدي الى نشوء هذه الظاهرة السبرماركتية. نفس المنهج يسمح بذلك. فهو ليس منهج "مرن" بل هو منهج "مائع". مهما حاولوا أن يضفوا عليه ثياب الصرامة و الجدية و الحدية. و لذلك لا يوجد شئ الا و يستطيع الفقيه المتبحر أن يجعله حلالا أو حراما او ما بين ذلك. و لهذا قلت في تعريفي للفقيه في هذا السياق : ليس الفقيه الذي يعرف الحلال و الحرام, و لكن الفقيه هو الذي يستطيع ان يجعل ما يشاء حلال و ما يشاء حرام. فمثلا, الحرام يمكن أن يصبح حلال بحجة "الضرورات تبيح المحظورات" , و الحلال يصبح حرام بحجة "سد الذريعة الى الحرام" و الوسيلة الشرعية تصبح مرفوضة بحجة "مخالفتها للمقاصد" , و الوسيلة الغير شرعية تصبح مقبولة بحجة "موافقتها للمقاصد ". فأي شريعة هذه بالضبط ؟ مع العلم أن تشخيص مصداق كلمات مثل "الضرورات" و "الذريعة الى الحرام" و "المقاصد الشرعية" لا يوجد فيها نص شرعي قاطع بل و لا شبه قاطع (بحسب مباني الفرق طبعا) انما يجتهدون و يستقرؤون – و أريد أن أقول يتخرصون و يداهنون- ثم يفعل كل منهم ما يشاء, و لا يستحي أن يقول بعد ذلك " هذا هو دين الله ". و

كردة فعل على هذا من بعض أتباع الفرق الذي لم يرض عن هذه الحالة و لم يستطع لسبب ما أن يخلص نفسه لكتاب الله بكل لوازم هذا الاخلاص الصغيرة و الكبيرة, فانه قد نشأ توجه جديد في هذا العصر المظلم, و هو توجه يريد أن يقول للناس أن يكونوا أهل دين و لكن بدون يقين ! فهؤلاء يزعجهم أن يروا الناس على يقين مطلق من عقائدهم و شرائعهم و عاداتهم, و بالطبع هم أنفسهم في العادة يكونوا من "المثقفين" و لعلهم يسكنون في بلاد الغرب أي اوروبا و امريكا و لا بأس عندهم بأن يعيشوا – أو يعلنوا ذلك و الله أعلم بالسرائر- أنهم يعيشون و لكن بدون يقين مطلق بصحة ما هم عليه من دين و شريعة. هذا ما يقولونه, و لكن الواقع أنك اذا سمعت لهم جيدا ستجد أنهم من أشد المتعصبين , و هل يوجد دليل على ذلك أوضح من تعصبهم ضد "المتعصبين" ! و تشددهم ضد "المتشددين". و يقينهم بعدم صحة او منفعة سلوك مسلك اليقين القاطع. و يظن هؤلاء التائهين أنه يوجد أحد محترم من الناس سوف يتبع دين ما بدون أن يكون على يقين من صحته ! هيهات. نعم لعل من يرتزق من الدين و يجد لنفسه شهرة و جاه بسببه أو يجد لعقله متعة بالافكار الدينية (و الحق انها ممتعة لمن يفتح له شئ منها) نعم مثل هذا قد يستطيع أن يجد من نفسه – شعوريا او لا شعوريا- دافعا كافيا لاتباع دين ما, و لكن عموم الناس و كل من يحترم نفسه, لن يتبع شيئا لا يوقن بيقين كاف أنه نافع له و سبب لسعادته و رضا ربه. والحق لو يعلم العوام بما يدور بين الخواص لكفر العوام بالدين و لهجموا على الخواص و قتلوهم. العوام لا يمكن أن يتبعوا شيئا هم على غير يقين من صحته. أيا كان طريق حصول هذا اليقين, حتى لو بالدجل و الكذب و اخفاء الحقائق. وهذا هو حال عوام أمتنا. و لذلك لما سحبت قاعدة القوة الحكومية من تحت السلطة الدينية و انكشف العوام لتوجيهات الغرب و ثقافتهم تشربوها حتى النخاع و تعذب العلماء في سبيل حفظ شئ من الدين في نفوس العوام و الجماهير, و هذا طبيعي فان عوامنا كانوا كالأنعام مع العلماء و كانوا أيضا كالأنعام مع الثقافة الغربية, فالبهيمة بهيمة و لا تستطيع أن تفرّق بين الراعي العربي و الراعي العجمي. ما هو أصل كل هذا ؟ هو أننا أوجدنا طبقة في الاسلام اسمها "طبقة العوام". و الحق القراني انه لا عوام في الاسلام. من لا يسمع و لا يعقل فهو ليس انسان و مآله الى السعير. و المسلم هو الذي يدرس كتاب الله تعالى. هذا هو العمل الأعظم للمسلم. و كل شئ اخر يتفرع عنه و يرعاه. و كل ما أقامه علماء الفرق عموما من مناهج و كتب مطولة تفصّل تفصيلات عقيمة في مسائل كثيرة, و تجعل التركيز الأساسي على مسائل ثانوية, و تجعل اهتمام ثانوي بل ثالثي بل لا تهتم أبدا ببعض أهم المسائل على الاطلاق. و بدل أن يكون هدف كل علماء الاسلام في مدارسهم و حوزاتهم هو: أن يستطيع المسلم أن يتعاطى مع كتاب الله بعلم و فقه سليم و يستقل بذلك. فان الهدف أصبح الترويض على المذهب الخاص و نحو ذلك.

فاذن, نحن لا ننكر أن للمرويات معاني خاصة, بل ان الكثير جدا من المرويات عندما ننظر اليها بعين قرانية نورانية نجد فيها من الحكم و الأسرار و العلوم و الأوراد و الأدعية ما تتصدع القلوب من هيبته و جلاله, فليس من توجهنا في شئ أن ننكر كل الميراث الروائي. المأخذ كل المأخذ هو على جعل هذه المرويات مصدرا ثانيا فوق القرءان او معه في نفس المرتبة. هذا هو منشأ الخلل و أس المصائب. و ما يكون دون الشئ لا يحكم على ما هو أعلى منه. فالأدنى لا يحكم على الأعلى. بل الأعلى يحكم الأدنى. فالمرويات بل كل الميراث الاسلامي بل كل الميراث البشري هو دون مرتبة القرءان العظيم المهيمن على الكل. و بالتالي لا يمكن لرواية أن تخصص قرءان مطلق بحيث يكون تخصيصا قاتلا مانعا للنص القرءاني من أن يعمل في سعته التي وضعها الله له. و لا يمكن لحكاية أن تنسخ و تلغي نصا قرانيا. و لا يمكن لأي شئ من دون كتاب الله أن يحكم على كتاب الله. هذا هو المبدأ الذي كتب كل هذا الكتاب من أجله. و ليس الاجماع الا وسيلة اخرى من وسائل التخريب و التحريف, فحتى لو افترضنا اجماع ألف ملاك و

ألف نبي و ألف عالم رباني بل لو أجمعت كل الملائكة و الأنبياء و الرسل و الأولياء على تغيير حرف من كتاب الله او نسخه او تقييده بعد ان أطلقه الله أو اطلاقه بعد أن قيده الله أو تخصيص الذي عممه الله او تعميم ما خصصه الله, فان هذا الاجماع يلقى في أقرب مزبلة و لا يلتفت الى كل هؤلاء- سلام الله عليهم. فما ظنك لو جاء حفنة من الذين الله أعلم بحقيقتهم و زعموا ان كذا مجمع عليه و كذا مجمع عليه و بالتالي هو حق لا يجوز لاحد خلافه ! لا اجماع وجد فيه معصوم و لا اجماع تدعى له العصمة, من خالف كتاب الله فمخالفته حجة عليه. و من ادعى انه أعلم بحقيقة القرءان من غيره و أن اجماعه كاشف عن حقيقة المعنى القراني, فليتقدم مشكورا ببيانه على دعواه هذه, فنحن أهل الاسلام قد عرّفنا الله وحدته و عرشه و اسماءه, و من يستطيع أن يعلم هذا و يشهد عليه لن يعجز عن فهم هذه "الأسرار" الطلسمية التي يخفونها على أساس أنها أسرار ما بعدها أسرار, و سر مستتر بسر تحته سر و فوقه سر و لا أدري ما هي بقية الطبقات بالضبط. قد سبرنا غور هذه الأسرار فلم نجد في معظمها الا هواء فوقه هواء و تحته هواء و ليس ببعيد أن يتخلل الكثير منها الكثير من الهراء. و حاصل ما فيها من علم هو هذا : تعيين بضع تجليات الله في العوالم. لا اكثر و الأقل. كمثل القول بأن الامام هو يد الله و وجه الله. كلها المقصود منها تعيين بعض التجليات و المظاهر. و هذا ليس فيه زيادة "سرية". انما هو تطبيقات موسعة لبعض المبادئ القرءانية الحقيقية. و لكن التهويل الزائد أحيانا يكون سببا في الغفلة عن كل شئ بل حتى يضيّع "السر" الذي أراد بثه لاتباعه. بل انهم في خضم تعيين التجليات نسوا الذات. فأصبحوا لا يفرقون بين "النبي" و بين "محمد بن عبد الله". أي النبي في مرتبته العرشية العليا, و تجلياته المتعددة في العوالم و التي منها تجليه في شخص سيدنا رسول الله محمد عليه السلام الذي بعث و توفي قبل قرون متعددة. فأصبح هؤلاء لا يفهموا فضلا عن أن يقبلوا بوجود تجليات و تنزلات أخرى للحقائق العرشية, فزعموا ان يد الله قد غلّت و انقطعت و غير ذلك. و لا قوة الا بالله.

فإذا خرجنا من ساحه المتن إلى ساحه السند خصوصا و ساحه العلوم الحديثيه عموما ، فسنرى أن الاختلاف لا حد له تقريبا في أصول الصناعه الحديثيه . و تكفينا نظره في أي كتاب يذكر اختلاف علماء المرويات في أصول نقدهم للرويات ، سندا و متنا ، لنرى مقدار هذا الاختلاف . فانظر مثلا في كتاب الاستاذ خلدون الأحدب المسمى " أسباب اختلاف المحدثين- دراسات نقديه مقارنه حول أسباب الاختلاف في قبول الأحاديث و ردها " لترى أنه لا يذكر تقريبا و لا مسأله واحده إلا و يذكر فيها اختلافات تذهب عامه من النقيض إلى النقيض . و يمكن استعمال أي رأي منها لنقض أي روايه تقريبا و اسقاطها من الاعتبار . بل يمكن اسقاط شخصيات لا يشك الكثير من الناس في كونهم من الصفوه و الخلص الكمل . فمثلا في مسأله " التدليس " يقول البعض أن التدليس هو الروايه عن ب عن أ ، و لكن بدون ذكر ب ، بل ذكر أ رأسا . فاختلفوا فيمن يفعل ذلك ما حكمه . فيذهبوا يمنه و يسره ، فمنهم من يقول بأن من يقوم بهذا التدليس ساقط عن الاعتبار بالكليه . و منهم من لا يرى أي بأس في هذا التدليس على الإطلاق . و منهم من يرى التفصيل ، فمن كان لا يدلس إلا عن الثقات فيجوز ، و لكن من كان يدليس عن الضعفاء فهو المجروح ، بمعنى أن (ب) إن كان عاده من الثقات و لم يذكره الرواي المدلس الذي أخفى هذه الحلقه في سلسله روايته فإنه لا بأس في ذلك ، و أما لو أخفى ذكره لأنه ضعيف و هو يريد تمرير الروايه على الناس أو نحو ذلك فعندها يكون مجروحا بتدليسه . لاحظ كيف أن الآراء فيها اليمين المتطرف و اليسار المتطرف و الوسط . فإذا أخذنا رأي اليمين المتطرف ، فعندها يصبح الكثير جدا من الصحابه و أئمه المذاهب من المدلسين المجروحين . و قد تنبه لهذا من نظر في هذه المسأله فقام بمنطق مقلوب عجيب ، و هو أنه يحتج للرأي بلازمه ، بل

أن يحتج على اللازم بالرأى . و هو تنظير لواقع ، بدل أن يكون نظريات محكمه تحكم على الواقع المعين . فيذكر الاستاذ مثلا في ص٢٧٩من المجلد الأول أن الرأي الراجح ليس في الذي يدين كل من يدلس على الإطلاق ، و هو الذي أسميناه باليمين المتطرف ، فيكتب " و هذا المذهب ضعيف و جمهور العلماء على خلافه . و كلام الحافظ ابن عبد البر يشير إلى ضعفه فإنه قال بعد أن ذكره (فإن كان هذا تدليسا ، فما أعلم أحدا من العلماء سلم منه في قديم الدهر و لا في حديثه ، اللهم إلا شعبه بن الحجاج و يحيى بن سعيد القطان ، فإن هذين ليس يوجد لهما شئ من هذا) " . فتأمل في هذه الحجه ، و ما قيمتها الفعليه . لنضرب تشبيها أقوى لهذا النوع من الاحتجاج حتى تتبين قيمته للجميع ، فهو كأنه يقول : طالما أن معظم الناس يغتصبون الأطفال جنسيا ، إلا فلان و فلان ، فإذن النتيجه أن اغتصاب الأطفال جنسيا حلال . و بتشبيه قرءاني أرقى ، كأنه يقول : طالما أن أكثر الناس للحق كارهون ، فإن كره الحق هو الرأي الصواب . هل يوجد مصداق أفضل لمعرفه الحق بالرجال ، بدل معرفه الرجال بالحق الذي هو الصراط المستقيم ، من هذا المصداق . ثم يذكر الاستاذ خلدون في الصفحه التاليه ، فليخص حجج هذا القول " الراجح " فيحدد ذلك في أمرين و دقق النظر فيهما : الأول (أنه قول المتقدمين من أهل الحديث) و هذه حجه كاسده . فإن هؤلاء " المتقدمين " على أي أساس قاموا بما قاموا به ؟ و كونهم قاموا بأمر لا يعني أن عملهم صحيح ، و أحسب أن هذا بديهي في ديننا فلا أدري أي حجه هذه . اللهم إلا أن يفترض و يتوهم بأن مجرد كونهم قاموا به - على فرض القيام فعلا - فإنه لابد أن يكونوا قد استندوا على حجه ما ، و هو نفس المنطق الأعمى لأصحاب الاجماع الذي ذكرناه في ذلك الباب ، فلا نعيد . و لا نقبل أن " نفترض " وجود حجه عند أحد ، فنتبعه على عمى في هذا ، إنما الاتباع على بصيره . و لا يوجد عندنا شاهد على كون التدليس هو من شؤون المؤمنين عموما . الثاني (للتمييز الدقيق الذي يحصل من خلال هذا القول بين الحديث المدلس و بين المرسل الخفي) و حتى تفهم هذه الحجه الثانيه ، فاعلم أن الذين اجازوا التدليس قاسوه و شبهوه بالحديث المرسل ، و حيث أن الحديث المرسل محتج به عندهم فالتدليس كذلك . و هذه الحجه أعجب من أختها . فإنها أيضا لا تضيف شيئا ، إذ إنها تفترض مسبقا بأنه يوجد تعريف محدد للتدليس و تعريف محدد للمرسل ثم تقسيم للمرسل إلى خفي و جلي ، و تفترض أن المرسل مقبول أو ينبغي أن يكون مقبولا - و هو أمر فيه نزاع ، و الجلي منه فيه نزاع فما بالك بالخفي - ثم تقفز من كل هذه الافتراضات التي هي كلها غير مسلمه ، ثم تقرر تشبيه التدليس به ، ثم تقرر اعطاءه نفس حكم التدليس . و لا أدرى أي منطق هذا ، و لكني لا أفهمه . و هو من باب تحصيل الحاصل ، فهو يفترض مسبقا في الحجه و يقيمها على أساس الأمور التي هي نفسها ما يسعى للاحتجاج عليه و اثبات صدقه . و إذا قطعنا كل هذا اللف و الدوان ، و النقاش في سطوح و اختلاف في أمور الواقع الذي دفع للاختلاف فيها وراء السطور ، فسنرى أن قول الاستاذ في ص ٣٠١ يبين ذلك لمن عقل ، أي يبين الأصل الحقيقي الذي أوجب هذا الاختلاف كله بل و يبين السبب الذي أدى بهم إلى ترجيح ما رجحوه بالرغم من عدم وجود حجه كافيه بل شبه كافيه بل لا حجه أصلا كما رأيت ، إذ ينقل صاحب كتاب فتح المغيث تمثيله عن التدليس على ثقه مثل المدلس ، فيقول (ثم مثل لذلك بمراسيل كبار الصحابه ، فإنهم لا يرسلون إلا عن صحابي) . فإن قبلنا أن اخفاء اسم الواسطه في الروايه ، يعتبر تدليسا جارحا ، فهذا يعني أن من سماهم " كبار الصحابه " كلهم من المدلسين المجروحين . و هذا فيه ما فيه كما لا يخفى . فكان التنظير قائما على تبرير هذا الواقع . فتقرأ الاختلافات بسطحيه و أنت لا تعلم الدافع الأعمق لهذه الاختلافات و الترجيحات ، فتظن أنها مدفوعه بدوافع معرفه الحق الأحق بالاتباع ، فترى أن ما وقع كان بخلاف ذلك أو لا أقل هو حق ليس أحق بالاتباع . و كثيرا ما يفعل " كبار الصحابه " أمور ، ثم يتم دفع الثمن باهظا في سبيل تبريرها ، و التنظير لها . و هذا مجرد مثال آخر في ضمن القائمه العريضه من الأمثله في ذلك .

و لو شئنا أن ننظر في كل كتاب الاستاذ خلدون ، و الذي هو نقولات مرتبه عن علماء هذا الشأن في الغالب الأعم ، فسنرى أن الاختلاف واقع في أصل الفن و مبادئه كلها تقريبا . فإن كان الاختلاف واقع في أصل نقد الروايات ، فضلا عن الاختلاف الواقع في فهمها - و ليس الفهم بسبب وجود نص واحد له تأويلات متعدده فقط بل بسبب وجود مرويات متناقضه متضاربه - فإن دعوى كون هذه المرويات هي الوسيله " للجمع بين المسلمين " هي دعوى كاذبه جمله و تفصيلا . و هذا ركن أخر من أركان هجر القرءآن قد سقط إن شاء الله . و الله المستعان .

آخر فقرة هي أن هذه المرويات نفسها تفتقر الى مبيّن. بل و مصحح. و هذا مما يتفق عليه الجمهور من علماء الفرق, فلا أحد مهما كانت مرتبته في العلم و الفكر و التقوى و الفتح يستطيع أن يرجع مباشرة الى المراجع الروائية و يستنبط منها و يبني عليها. لان الرواية من حيث السند قد يكون فيها قول, و ان سلم السند فان المتن قد يوجد متن رواية أخرى يعارضه أو يناقضه أو يحدده, و قد يوجد فيه علل كثيرة من هذا القبيل, و لا يستطيع حتى من كان علامة زمانه في اللسان العربي و الذكر و الفكر و التقوى أن يرجع الى هذه الكتب و يستوعب ما تعلمه. هذا هو قولهم على الاقل. و الانصاف أن قولهم مقنع, لانه فعلا بحسب معاييرهم و بحسب هذه المرويات و العلل التي فيها فانه فعلا كيف يستطيع أحد أن يثق بما يستنبطه على أنه قول المعصوم او مقصود فلان او علان, او ان القصة فعلا صحيحة (هذا كله على فرض الحاجة الى هذه الامور أصلا). فالرجوع الى كتب المرويات بالنسبة لغير المتخصص ليس الا للاستئناس او الاستلهام الاخلاقي او نحو ذلك من امور قاصرة تقتصر عليه وحده في معظم الاحيان, و أما أن يقيم معرفة دينية سليمة بناءا على هذه الكتب فهذا شبه مستحيل بل مستحيل على غير المتخصص. و هذا هو السبب الحقيقي الذي أنشأ هذه الكتب و هذه الفنون. فان كون كتاب الله بين يد الكل يعني ان الكل يجب ان يكون دارس و متدبر و مرتبط بكتاب الله, فحتى يخلقوا طبقة "العوام" يجب أن يتم خلق كتب اخرى و علوم أخرى تحول بين المسلم و كتاب ربه الذي أسلم له, و هذا ما وقع.

أريد أن أختم هذه المقالة بتفصيل كلمة أشرت اليها. و هي أن كل فرقة اسلامية أخذت شئ من القرءان و هو حق ثم أضافت اليه أشياء اخرى, و بسبب هذه الاضافات اختلفت الفرق و تباغضت و ذاق بعضها بأس بعض و بسبب هذه الاتفاقات انتسب الكل الى دين الله. و لاضرب مثال على ذلك, انظر الى أشهر خمسة فرق اسلامية: الامامية و الاسماعيلية و الزيدية و الصوفية و السنية . ستجد أن الامامية أخذوا من القرءان مبدأ " تجلي الله في الانسان الكامل ". و الاسماعيلية أخذوا مبدأ " لكل ظاهر باطن ". و الزيدية أخذوا حكم " مجاهدة الحكومة الطاغية ". و الصوفية أخذوا مبدأ " ذكر الله و كسب الولاية و تحصيل علم النبوة بالكشف و الوحي الحي المباشر ". و السنية أخذوا مبدأ " حفظ النصوص الدينية و العمل بشريعة الله ". هذه المبادئ الخمسة هي كلها مبادئ قرءانية, و لا يمكن لمن أتاه الله حظ في القرءان أن يخالف في واحد منها. فالقرءاني على التحقيق هو امامي اسماعيلي زيدي صوفي سني. و لكن فقط من حيث هذه المبادئ. و أما بقية الحواشي التي أضافها كل مذهب ليكمل ثوبه فهذا شانهم و ليس لنا أي علاقة مباشرة به. فالدين عندما نزل من عرش الله تعالى كان يشبه الثوب, فلما توفي النبي الاول عليه السلام, تنازع الناس على ثوبه, فقطع كل واحد قطعة منه, فهذا أخذ الكم و هذا أخذ الجيب و هكذا كل واحد أخذ قطعة, ثم حتى يظهر أنه يلبس ثوب محمد كاملا اضطر الى نسج ثوب كامل ليكمل هذه القطعة

المحمدية, و هكذا بهذه القطعة ينتسب الكل الى دين القرءان, و ببقية الثوب يفترقون عنه. و في اليوم الاخر سيجمع الله الثوب كله مرة أخرى. و في هذا سر, و هو أن الله قد قضى بذلك لحكمة انتشار الدين في كل الارض. فان الناس يختلفون فلو جاءهم الاسلام بالثوب كاملا من أول يوم لما لبسه و لما طاق أن يلبسه أحد " كبر على المشركين ما تدعوهم اليه", و لكن لما تقطّع استطاعوا أن يلبسوه, و الجامع بينهم هو القرءان العظيم. فالرجوع و القيامة ستحدث عندما يتم لبس ثوب القرءان كاملا بدون أي زيادة خارجية طارئة. و ليس هذا بالأمر الشديد الصعوبة لمن وفقه الحق تعالى. فقط اخرجوا من بيوتكم الطينية هذه. و اعزموا على الدخول الى بيت الله الخالص بدون شوائب خارجية. و على الله قصد السبيل.

(حديث الثقلين)

ان ما فات من بحثنا ينطبق على مسأله السنه بمظهرها الشيعي و السني. و لكن نريد ان نخصص هذا الباب للمسأله الشيعيه حصرا. فبالاضافه الى مافات ، يوجد الروايه المشهوره المعروفه بحديث الثقلين. و التي قال النبي عليه السلام فيها " تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ابدا: كتاب الله و عترتي اهل بيتي " و في روايه انه ذكر " تركت فيكم الثقلين ، الثقل الأكبر كتاب الله ، و الثقل الاصغر عترتي اهل بيتي " . ثم ان حضره علي عليه السلام هو امام العتره المقصوده و منه تمتد سلاله الثقل الأصغر. و بناءا على هذا الحديث، و الذي ترويه المصادر المقبوله عند السنه و الشيعه على السواء، تعتبر نظريه حسبنا كتاب الله ، اعورا دجالا او كفرا اذ انها تاخذ بثقل واحد و النبي قال انهما ثقلين. فبماذا نجيب عن هذه الاطروحه ؟

يمكن ان نختصر الاجابه و نختزل المبحث و نقول : اننا نبحث عن حجيه المرويات ككل في قبال كتاب الله تعالى، و الاستدلال على حجيه مضمون روايه الثقلين يعتمد على ثبوت حجيه اصل الروايه ، و هو المتنازغ فيه . فنرجع الى اصل الاحتجاج السخيف الذي يقول : يجب ان نتبع كتب المرويات لانه في كتب المرويات انه يجب ان نتبع كتب المرويات. فتسقط المسأله من أساسها. و لكنني لن أجيب بهذا ، بل سأسلم مبدئيا بصحه صدور هذه الروايه عن النبي عليه السلام ، و سأعتبرها في قمه التواتر و القبول و سأسلم مبدئيا بمتنها كله. فالنبي يقول انه علينا ان نتمسك بكتاب الله و عترته اهل بيته ، و ان الثقل الاكبر هو كتاب الله ، و الثقل الاصغر هو عترته اهل بيته . و ان حضره علي عليه السلام هو امام العتره و هو مضمون حديث الغدير، الذي سأسلم ايضا هنا بصحته و ان النبي عين عليا عليه السلام وليا للامه يقوم مقامه من بعده. كل هذا مقبول عندي الان ، فلننظر هل يوجد ما يطعن في نظريه حسبنا كتاب الله كما نراها و نعمل على أساسها ، ام ماذا. تعالوا ننظر.

اولا، الروايه تثبت ان كتاب الله هو الثقل الاكبر ، و انه المتبوع من قبل الثقل الاصغر. و النظر في مرويات علي و بعض الائمه العلويين الكبار كالباقر و الصادق تثبت - كما نقلنا من قبل- انهم كانوا يرجعون رجوعا كليا الى كتاب الله و يأمرون اتباعهم بان يسألوهم عن مصادر كلامهم من كتاب الله. فلا يوجد في الروايه ان للعتره استقلالا في مقابل كتاب الله. بل يظهر ان قيمتهم من هذه الحيثيه ترجع الى علمهم الشامل و الدقيق بكتاب الله. فكان النبي يقول : هذا كتاب الله اتبعوه، و عترتي هم اعلم الناس به فان قالوا امرا عنه فخذوه فهو اعلم منكم و هم مع القران و القران معهم. فالواقع ان روايه الثقلين ان كانت تثبت امرا فهو ان العتره هم فقهاء القرءآن- الفقه الحقيقي. فالمرجع الاوحد لهم، كما للنبي عليه السلام- هو كتاب الله الذي بدونه لا تساوي هذه الأمه فلسا.

ثانيا، ليس في الروايه - فضلا عن القرءآن - ان مقامات الانسان تثبت بالنسب الدموي الجاهلي. و انما تثبت مقامات الانسان بالنسب الروحي العلمي. فعتره النبي على التحقيق هم من اتصلت ارواحهم بروحه، و عقولهم بعقله ، و استمدت قلوبهم من مدده. و ليس عليا بعظيم لانه "ابن عم النبي" كما يهرف البعض. ان عليا عظيم لانه علي ، و ليس لانه ابن عم النبي او نحو ذلك. و مقام علي يرجع في الحقيقه الى مستوى روحه و عقله ، " يرفع الله الذي ءامنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات ". و لا نعلم في الكتاب العزيز ان نسب الانسان الدموي اوصله الى شئ. بل هذا من مقولات الكفار و اهل الضلال و السفل. و لهذا وجد في اهل علي و ابناءه من كان كافرا او ضالا او ملعونا او خبيثا ، حتى ان اخو علي - ان لم تخني الذاكره - ترك عليا و ذهب الى معاويه . و من احفاده من كان حتما يعتبر من اهل الضلال بنحو ما ، ان قبلنا مقولات الاماميه و الاسماعيليه. فان هؤلاء يقولون بان المهدي مثلا سيظهر في زمن ما ، فان ادعى المهدويه احد قبل هذا الزمان فهذا المدعي كاذب، و من خرج في زمان امامه بدون اذن امامه يعتبر صاحب رايه ظلم و جهل. و المعروف انه في زمن الامام الباقر و الصادق، خرج بعض احفاد علي و قاموا بثورات، بل منهم من ادعى احدهم المهدويه - و هو المعروف بمحمد النفس الزكيه - و منهم من ثار كزيد ابن علي ، و هذا بدون اذن امام الوقت على حد تعبير الاماميه و الاسماعيليه ، و لعله لولا ان هؤلاء من العلويين لكفروهم و لعنوهم و اعتبورهم ضلالا، فالعرقيه لابد ان لها مدخليه هنا اذ لو قام بهذا العمل غير علوي النسب الدموي لقالوا فيه الكثير مما لم يقولوه في هؤلاء ، بل ترحموا عليهم او حزنوا عليهم و نحو ذلك. على ايه حال، لا يوجد في روايات الثقلين اي ذكر تفصيلي لمن هم العتره المقصودين على التفصيل ، و عمل احفاد علي الحسنيين و الحسينيين على مر العصور يدل على انهم يعتقدون ان كلاهما من اهل البيت و العتره، فلا تخصيص لجانب على جانب من هذه الحيثيه ، و ان كنا نعلم ان أول العتره هو علي، فان الروايه لا تثبت اي شئ عن تفاصيل العتره و من هم . بل ان من الروايات ما يقول " سلمان منا اهل البيت" اي سلمان الفارسي، و هذا مما يساعد اكثر و يشهد على ان مسأله أهل البيت ليست دنيويه دمويه، بل هي روحانيه عقليه. و في روايه " أشراف أمتي : حمله القرءآن " و " أهل القرءآن : أهل الله و خاصته". و لكن اصحاب الفكر العرقي لا يحبون ما يقرره القرءآن ، و لا يحبون حتى ما تقرره المرويات حين تثبت ان المقامات و الدرجات الدينيه لا تنال بعد فضل الله الا بالعلم و العمل و الاجتهاد و السعي. هم يريدون فضيله ذاتيه ، بمعنى انها موجوده عمل الانسان ام لم يعمل، علم الانسان ام لم يعلم ، فعل الانسان ام لم يفعل . هم يريدون امرا ناجزا مفروغا منه . و الحق ان هذا مريح لمن اخلد الى ارض الكسل و هبط الى

دركه موت العقل. القرءآن هو معيار الانتساب الى الله و رسوله. و منه يستمد الناس مقاماتهم، بحسب علمهم و عملهم و بسط ذواتهم فيه و به.

ثالثا، الروايه تثبت ان أهل البيت – سلام الله عليهم– هم الثقل الاصغر. فما بالنا نجد ان الشيعه عموما هم على مر العصور أقل الناس اهتماما بالقرءآن و أكثر الناس اهتماما بمسأله أهل البيت من الحيثيه العرقيه او حتى العرفانيه. في الالف و الاربعمائه سنيه الماضيه، من بين ٨٠ تفسيرا للقرءآن من التفاسير المشهوره ، يوجد للشيعه الاماميه و الزيديه نحو ١١ تفسيرا، و من اكبر تفاسير الاماميه كالقمي و الطبرسي الكثير منه تكرار بل يكاد يكون نقلا حرفيا عن تفاسير سنيه ، و لعل تفسير حيدر الآملي هو خير ما انتجه الاماميه من حيث علوم الحقيقه . و أما الاسماعيليه فلا نعرف لهم تفسيرا او كتبا منشوره اللهم الا ما بدأ ينتشر في هذا العصر على يد بعضهم ، و هذا لآن كتبهم "سريه" و سنأتي على ذلك بعد قليل ان شاء الله. و من هذه ال ١١ تفسيرا، نصفها تقريبا ليست تفاسير كامله مبسوطه، بل شئ مختصر و تعليقات سريعه هنا و هناك. و أحسن تفسير أخرجه الشيعه و بقي منذ وجدوا الى يومنا هذا هو التفسير المعروف الميزان للسيد الطباطبائي ، و كم عانى السيد من عنت اخوانه بسبب اهتمامه بتفسير القرءآن ! (كما ينقل عنه السيد كمال الحيدري و تثبته القرائن بل الشهادات). و كلامنا عن التفاسير المشهوره المعروف اهلها والباقيه. فحتى لو افترضنا وجود عشره تفاسير اخرى. فان هذا يثبت ان اهتمامهم بالقرءان لم يداني و يقترب من اهتمام أهل السنه خصوصا به. بل ان تفسير الشيخ الاكبر محي الدين ابن عربي الذي كتبه في نحو ١٠٠ مجلد (و لم يعثر عليه بعد) يساوي في مظهره اكثر من كل كتب الشيعه في التفسير في الاربعه عشر قرنا ، و اما من حيث جوهره فهو حتما اعظم من كل كتب الشيعه التفسيريه و غير التفسيريه – بشهاده بسط روح و عقل الشيخ الظاهره في كتبه كالفتوحات المكيه و فصوص الحكم. (و السيد الطباطبائي يقول ما معناه انه لم يأتي احد من العلماء و العرفاء ب "سطر واحد" مما كتبه ابن عربي ! و ان كانت شهاده قد نعتبرها مبالغه ، الا ان ورائها دلالات لاولي الالباب). بل جاء في الاماميه من ينكر ظاهرا الاعتماد على القرءآن اصلا. وهم الاخباريه. و منهم من يثبت ذلك ظاهرا و لكن ينكره عمليا. و ها هو فقههم و كتبهم موجوده منشوره انظروا كم فيها من القرءآن و الاعتماد الحقيقي عليه و الاستنباط منه. اللهم الا في هذا القرن الاخير وجد امثال الشهيد محمد باقر الصدر و امثال السيد الطباطبائي و الحيدري من يعتمد على القرءآن و يدعو الى الرجوع اليه. و اما الشيعه الزيديه فلا نعلم لهم شئ له وزن في هذا المقام، و ان كنا سنحكم بناءا على تفاسيرهم المنشوره ، كتفسير الحبري ، و فرات الكوفي ، و الاعقم و زيد بن علي، فان حكمنا سيكون : يا ليتهم لم يكتبوا في التفسير اصلا و يتعبوا انفسهم من غير طائل. و أما الاسماعيليه ، فلهم شأن اخر ، و لكنا لا نعلم لهم كتابا جامعا في ذلك و ان افترضنا صحه نسبه رسائل اخوان الصفا و الرساله الجامعه لهم، فان فيها من الاستدلال بالقرءآن و تفسيره الشئ الكثير، و اذا حذفنا الاستدلال الوعظي السطحي من النوع الذي يقوم به كل من يكتب و يتكلم في الدين، كاعتبار الذين لا يعقلون "كالانعام بل هم اضل سبيلا" و نحو ذلك من وعظيات و سطحيات يحسنها الجميع، فان الذي يفرق بينهم و بين غيرهم في فقه القرءآن يبقى قليلا بالمقارنه مع الذي جاء به أمثال محي الدين ابن عربي، و أمثال بقيه علماء أهل السنه عموما على اختلاف مشاربهم و طوائفهم. اللهم الا اذا اعتبرنا تركيزهم على تأويل القرءآن بمفتاح الامثال و دور الستر و دور الكشف، و هو الخلاصه الجوهريه لما عندهم ، هو ميزتهم الاساسيه ، و هي ميزه عظيمه من حيث الاصل ، الا انه حتى هذا ليس بحكرا عليهم ، فعند الساده الصوفيه و العرفاء من أهل السنه

عموما ما يساويه بل ما يعلو عليه بمراحل لا تحصى. اذ الحاصل في تأويلات الاسماعيليه ، و في المحصله ، هو ارجاع معاني القرءان لتدل على بضعه افراد من الناس، أي أئمتهم. و أما في تأويلات عرفاء الصوفيه فان معاني القرءآن ترجع الى الكشف عن أسرار الوجوده كله و خصوصا فيما يتعلق بتجليات الله تعالى و أسمائه في العوالم، و كيف ان "كل انسان" تنطبق عليه المعاني العاليه للقرءآن ان سلك في طريقه النبوه و الولايه. فالفرق بين الشيعه عموما و الاسماعيليه خصوصا ، و بين أولياء الصوفيه من أهل السنه عموما ، هو ان القرءآن عند الشيعه يرجع الى بضعه انفار لهم عرق معين، و ان كانت لهم مقامات معرفيه عظيمه، بل حتى وجوديه بنحو الرمز ، الا ان القرءآن عند الصوفيه يرجع الى كل الناس من حيث الاصل و انما يفترق الناس في احوال قلوبهم و سلوكهم و طريقتهم في الحياه. و هو الاقرب بل المطابق لكتاب الله و مضامينه الظاهره و الباطنه. و لهذا لم يكن للشيعه عموما نفس الاهتمام بالقرءآن كما اهتم به السنه، لا من حيث الكميه و لا من حيث الكيفيه. و يكفي ان تنظر الى تفاسير امثال الشيخ الطاهر ابن عاشور- رحمه الله- و تفسير الشعراوي و سيد قطب في هذا القرن، و تقارنه بما انتجه امثال السيد الطباطبائي و هو اليتيم بين الشيعه في هذا المجال (و اني سمعت ان احد علماء الاماميه و هو الأملي سيخرج تفسيرا عظيما للقرءآن و ان شاء الله ان يتممه).

ما الفائده من هذا التطواف ؟ هو لملاحظه ان الشيعه بمختلف طوائفهم الذين اصروا و يصرون على أهميه حديث الثقلين ، هم اول من خالف مضمون حديث الثقلين او بعض مضمونه. فالسنه عموما و ان كانوا قد اعرضوا عن "اهل البيت" كما يفهم الشيعه هذه الامور، فهم قد اعرضوا عن الثقل الاصغر، و اهتموا اهتماما كبيرا بالثقل الاكبر. و اما الشيعه فقد اهتموا اهتماما عظيما بالثقل الاصغر، و اعرضوا او شبه اعرضوا او اهتموا اهتماما قليلا بالثقل الاكبر. فان كانت القيمه الحقيقيه لاهل البيت العلوي مستمده من فقه القرءان ، فانكم قد خسفتم هذه القيمه بزهدكم او شبه زهدكم بالقرءآن.

و رابعا ، ليس الايمان بولايه علي عليه السلام مما يختص به الشيعه الزيديه و الاماميه و الاسماعيليه. فباستثناء الوهابيه و السلفيه او عموم هؤلاء ، اثبات ولايه علي بنص " من كنت مولاه فعلي مولاه " يعتبر من الامور العروفه و الثابته ، اللهم الا ما انتجه تعارض مفهومهم لهذا النص و امثاله مع عقيدتهم في ابوبكر و عمر و عموم من يسمونهم الصحابه . و الصوفيه عموما هم ممن يعتقد اعتقادا عظيما في علي عليه السلام. بل كبار الدوله العثمانيه كانت تعتنق عقيده (الله ، محمد ، علي) بتفاصيلها المعروفه عندهم. فكون علي هو باب مدينه العلم ، و واسطه فيض نور محمد ، يعتبر من المسلمات عند الصوفيه او كثير منهم. و الحاصل من هذا هو انه يمكن ان يعتقد الانسان بمضمون حديث الثقلين و لكن بمستوى ارفع من المستوى السياسي الدنيوي لها ، و الذي هو بتعبير الامام علي نفسه كما ينقل حفيده الرضي في نهج البلاغه " عفطه عنز ". فولايه حضره علي عليه السلام حقيقتها و اساسها و قوتها انها ولايه روحيه تنتمي الى العوالم العلويه ، و هذه ولايه لا يمكن نزعها او اغتصابها او الاستبداد بها على أهلها كما هي الولايه الارضيه التي هي احتمال من احتمالات ظهور تلك الولايه العلويه. و بناءا على هذا الفهم - و هو الفهم الحق و الوحيد الذي يمكن استمراره في كل زمان و مكان بعد تنزل كتاب الله - هو ان معاني تأويل القرءان و أسرار الحكمه المحمديه انما تنال بتصفيه القلوب و الاستمداد المعنوي من النبي و أهل بيته و في مقدمتهم الامام علي عليه السلام. و هذا يعني ان المرجع الوحيد في الارض هو كتاب الله ، و اما المرجع من الناس فلا يوجد مرجع واحد بعينه ، و انما علماء الكتاب و أهل القرءان الذين هم أهل الله و خاصته، هم المراجع

عموما ، و لهؤلاء درجات في العلم و الالقاء بحسب ما يقيمهم الله فيه ، " هم درجات عند الله "، و تحصيل الدرجات العاليه يكون بالاستمداد الروحي من " عترتي أهل بيتي ". و هو ما كان و يظل يقوم به كبار عرفاء الأمه و العلماء بالحقيقه الدينيه التي يختص الله بها " قليل من الاخرين ".

فأين مظهر اهل البيت اليوم على فهم الشيعه ؟ أهم أئمه الزيديه ؟ فلينشروا علومهم بكتاب الله ، فان درجه الانسان تتبين بمستوى و قوه و عمق كلامه في كتاب الله ، و كما ذكرنا و على مر العصور لا نعرف شيئا لهؤلاء المحترمين – رحم الله الماضين و بارك في الحاضرين – مما يستحق الذكر. أهم أئمه الاسماعيليه ؟ ففضلا عن ان في دعوه هؤلاء ما فيها ، فلنغض الطرف مبدئيا ، و لكن اي خط فيهم و هم قد اختلفوا ، اخط كريم اغا خان ام خط سلطان البهره ، ام خط الذين قالوا ان الملقب بالحاكم بأمر الله قد اختفى و نحو ذلك ، ثم اين علوم هؤلاء بالقرءآن حتى نأتم بهم في فقههم بالقرءآن ، و هم ممن يعتبرون علومهم "سريه " و قد اطلعنا على هذه العلوم السريه فلم نجد في الغالب الا زخرفات لفظيه و سجع ، ثم وعظيات عاديه يحسنها الكل ، ثم نقول عن الفلاسفه القدماء ، و ما تبقى من علوم مربوطه بالقرءآن تنقسم الى استدلال سطحي يحسنه الكل و لا يفرق بين شخص و شخص ، و بين عرفان حقيقي و معاني رفيعه و كشوفات تستحق التامل الجدي و الاحترام و التوقير ، و لكن معظم ما يقولونه في هذا العرفان ينتهي به الحال الى تقرير ان هذه المعاني هي امثال مضروبه لتدل على افراد بعينهم و هم الأئمه و لان الله متعالى جدا عن كل فهم و اتصال ، فان عباده الله هي بعباده هؤلاء الأئمه كمظاهر لله ، اي عباده الله عن طريق طاعه هؤلاء الافراد ، و الذين منهم من عرفنا سيرتهم جيدا حين حكموا مصر و لا يمكن ان نعتبر بعضهم شياطين لاننا نحترم افعال الشياطين اكثر مما نحترم ما فعله بعضهم ، بالاضافه الى الطامه الكبرى و التي هي مشكلتنا الاساسيه مع كل من يتعاطى مع هذا القرآءن من الاحزاب ، و هو احتكار معنى الكلمات القرءآنيه المطلقه ، و تعيين مصاديقها في اشخاص بعينهم لم يسمهم الله ، و هذا ما يمكن ان يقوم به اي احد ، بل هو سخافه و سماجه و ان كانت تقوم بها ديانات ، كالديانه اليسوعيه الصليبيه التي ادعى يسوعهم – كما ينقلون عنه – و اتباعه ادعوا له انه هو المقصود في النبوءات المذكوره في تناخ العبرانيين (اي كتابهم المقدس) فياتوا الى كلمه مطلقه و يقول يسوعهم : انا المقصود بهذه الكلمه ! و هكذا نفس هذا السخف يقوم به هؤلاء الذي يمرون على العبارات القرءانيه العاليه ، فيسجنوها في شخص او اشخاص الله اعلم بهم. و لا نصدر احكاما اخلاقيه ، و لكن يكفينا ان حديث الثقلين ، يدل فيما يمكن ان يدل على ان العتره هم ممن يعلم القرءان ، فاذن لا اقل ان يظهر لنا هؤلاء الذين يدعون انهم من العتره علومهم ، و كما يروي الاماميه عن الامام الرضا عليه السلام " لو علم الناس محاسن كلامنا لاتبعونا " هذا عين ما نقوله ، فليخرجوا لنا علومهم لنرى مستواهم الحق ، و اما التكتم بالسريه و دور الستر و نحو ذلك، فليبقوا اذن في سترهم و لا يدعوا انهم "أئمه الحق" بالمطلق. أم يا ترى هم أئمه الاماميه ؟ كيف و امامهم الثاني عشر غائب. و لا سفاره غير سفاره السفراء الاربعه و قد انقطعت. و نحن اليوم في الغيبه الكبرى. و أما ان يقال ان الامام الحجه عليه السلام عين مراجع الامه و هم نوابه ، فهيهات ان يحسن احد تعيين من هم هؤلاء النواب ، كيف و الحجه الاساسيه للاماميه على مخالفيهم من أهل السنه هي اختلاف اهل السنه بسبب عدم وجود امام عندهم ، و اتفاق الاماميه و الشيعه بسبب وجود امام واحد عندهم ، فان قلنا بان "كل المراجع" حجج الامام الغائب ، فان نفس ما قالوه و الزموا به اهل السنه يقع عليهم، و لات حين مناص. و ان قيل ان "بعض المراجع" هو الحجه ، فليعينوا لنا هؤلاء اولا ، و لن يستطيعوا ، لان معيار تحديد المرجعيه غير ثابت و يقيني عندهم ككل قبل غيرهم ، و الاماميه اليوم ليسوا على طريقه واحده فيوجد الشيخيه التي تتبع الشيخ الاوحد الاحسائي –

رحمه الله – و يوجد غيرهم كشيعه ايران عموما و هؤلاء ايضا بينهم خلاف في نواحي تقل او تكثر ، و يوجد في العراق و الكويت شيعه اخر ، و المراجع كثر ، و العلماء اكثر ، فهذا يقول ان معيار المرجعيه هو معرفه فقه الحلال و الحرام ، ذاك يقوم العمل السياسي له مدخليه ، و ثالث يقول ان المرجع يجب ان يكون فيلسوفا عارفا فقيها قرءانيا مؤرخا محققا و نحو ذلك . و نرجع الى ان تعيين هذه المعايير لا يكون الا باجتهاد من البعض. و حيث انه اجتهاد فانه لا الزام بعين واحده، و حيث لا الزام بعين واحده فلا حجه بواحد دون البعض.

فالحاصل ان حديث الثقلين ان قبلناه و اخذناه ، فان خير من فسره تفسيرا يصدق مصداقه منذ ان نطق به النبي عليه السلام الى يومنا هذا بدون تغيير في المعنى و زوال للدوله ، هم من قالوا (الله ، محمد ، علي) طوليا و ليس عرضيا ، و اعتبروا أهل البيت عموما وسائط روحيه متعلقه بالعوالم العلويه ، و ما هذه الدنيا و شؤونها و الولايه فيها الا كما قال امام العتره " عفطه عنز ". و بهذا الفهم لا يبقى مجال للشك في دوام هذا المعنى ، كدوام الحقيقه العلويه التي لا يمكن ان تطالها يد فرعون او يصل اليها صرح هامان او تشتريها كنوز قارون او يصرف عنها عجل سامري. و هذا المذهب في الفهم هو الحقيقه التي عليها الكثير من عرفاء اهل السنه من الصوفيه و المحققين منهم . و كل اللغط و العبث الذي غشي الشيعه بفرقهم الثلاثه الاساسيه لا مدخليه له في هذا ، و قد زالت دوله المعاني التي علقها الشيعه بهذا الحديث لزوال مصاديقها ، او عدم تحقق مصاديقها اصلا او قصورها من حيث مقارنتها مع غيرها.

فاذن ، كتاب الله هو المصدر الاوحد للعلم النبوي و الرباني و الالهي . و عتره النبي و أهل بيته الذين هم قوابل نور القرءآن في الملكوت ، هم وسائل فيض هذه الانوار على قلوب طلاب القرءآن و الساعين للاستناره ه بنوره الحق ، و حضره الامام علي هو صاحب الدرجه العليا في ذلك.

مع العلم ان الواسطه الحقيقيه لا يغير منها شئ انكارها ، و لا ينقطع فيضها عدم معرفتها باسم معين بالمعنى الرمزي للاسم. فقد يعتقد العارف بولايه علي ووساطته لفيض نور القراان ، و لكنه لا يعرف كلمه ولايه ، و لم يسمع باسم علي. فالحقيقه شئ ، و تسميه الحقيقه برموز اللسان شئ اخر، قد يتصلا و قد ينفصلا. فليتامل هذا الموضع.

بالاضافه الى ذلك ، فان للامامه و الولايه و جهين ، وجه ملكوتي و وجه ملكي. و كون النبي نص على امامه و ولايه حضره علي عليه السلام ، يمكن ان يتوجه الى كلا الوجهين او احدها. فاذا علمنا بانه توجد نصوص عن علي بل و عن النبي يمكن ان تشير الى ان الاماميه الملكيه – اي ما يسميه الغرب الاجتماعيه و السياسيه – انما تقوم من حيث الواقع بقبول الناس او اغلبيتهم لها ، فانه عندها يكون توجيه الروايات التي تشير الى امامه وولايه علي متوجه نحو اثبات مقام ملكوتي ، و أما اثبات المقام الملكي فقد يكون معناها هو : ترشيح علي لها . أي ان يكون النبي قد رشح عليا للقوم ، فان اختاروه للقيام بهذه المهمه ، كان بها ، و ان لم يختاروه بسلامه و عافيه و اختاروا غيره ، فهم و ما شاؤوا . و هذه النظره تفسر الكثير من الحوادث و الروايات. هل كان من الافضل لو تم اختيار علي لأمر الامامه الملكيه بناءا على ترشيح النبي له ، اي القياده الاجتماعيه السياسيه ، عندي ان ذلك هو الحق . و لا حتى ابوبكر نفسه يقول بانه افضل الناس لذلك " وليت عليكم و لست بخيركم " و كلام الكبار يحمل على الجد و الفصل و ليس بالتواضع الاصطناعي و لا الهزل . فضلا عن الوقائع الكثيره التي حدثت بسبب عدم رسوخ مبدأ

اختيار الامام الملكي، فأصبح الأمر فوضى يتواثب عليه كل من يجد عده و عتاد و جنود و اوتاد. هذه نظره ممكنه و قويه و تفسر الكثير. و لكن ما وقع فقد وقع ، و ليس في كل ما وقع ما يمكن ان يقوم حجه على ان كتاب الله ليس المرجع الاوحد للأمه من حيث العلو و الاستدلال التفصيلي في ما يشاء ان يفصله العزيز العليم سبحانه. بل ان لنا نظره خاصه في تفسير كل هذه الروايات و الاحداث منذ ذلك الزمن الى يومنا هذا ، و سنذكر طرفا منها في الباب اللاحق ان شاء الله تعالى. و انما ذكرت ما ذكرت حتى يتبين ان حديث الثقلين و ما حوله لا يقوم حجه على نفي المرجعيه المطلقه لكتاب الله ، و كلام الله هو التجلي الأعظم لله بالنسبه للانسان ، اذ ليس وراء ذلك الا النظر الى الله، و قد اثبت موسى ان هذا هو سقف الانسانيه حين قال " رب ارني انظر اليك " فقال له الله " لن تراني " ثم قرر بانه قد اطفاه برسلته له و بكلامه ، و ليس وراء ذلك مقام لانسان. و على هذا تقوم موازين الحق و القسط. " فلله الحجه البالغه ".

.....

(االغايه الكبرى و سر تفرق المسلمين)

يروي السنه و الشيعه عن علي عليه السلام انه قال : أما اني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " أما انها ستكون فتنه "

قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟

فقال : " كتاب الله تعالى. فيه نبأ من قبلكم ، و خبر ما بعدكم ، و حكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، و من ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى ، و هو حبل الله المتين ، و هو الذكر الحكيم ، و هو الصراط المستقيم ، و هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، و لا تلتبس به الألسنه ، و لا يشبع منه العلماء ، و لا يخلق على كثره الرد ، و لا تنقضي عجائبه ، و هو الذي لم تنته اليه الجن اذ سمعته حتى قالوا : انا سمعنا قرءانا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به . من قال به صدق ، و من عمل به أجر ، و من حكم به عدل ، و من دعا اليه هدي الى صراط مستقيم ".

أقول : من لم تنفعه كل الايات التي ذكرناها ، و كل الحجج التي سقناها ، و كل التفاصيل التي دققنا فيها ، فلم يبق لنا لنعتبره انسانا مسلما الا ان يقبل هذه الروايه عن الرسول الاول عليه السلام. و نعلق تعليقات مقتضبه على هذه الروايه العظيمه.

الرسول يقول " ستكون فتنه ". و لكنه لم يبين ما هي نوعيه هذه الفتنه . فالفتنه عباره مطلقه ، يمكن ان يقصد بها فتنه متعلقه بمسائل العقل و الفكر (و هي المبادئ) ، ام انها متعلقه بأمور وحشيه و سفك دماء و نحو ذلك من أعمال الهمج الضروريه أحيانا ، أم غير ذلك من احتمالات. و يظهر ان علي لم يسأل النبي ما هي نوع الفتنه . و لكنه اقتصر بالسؤال عن المخرج منها. و نلاحظ كذلك أن النبي يقول "ستكون " و فيها اشاره الى ما بعده. و الروايه لا تحدد ما هو الذي سيكون فتنه ، اهو حال الناس عموما ، ام حال الامه المحمديه خصوصا ، ام ماذا. و علي

يقول " اما اني سمعت رسول الله" ، و لكنه لا يبين هل سمعه في مجلس كان يتحدث فيه بأمور معينه ، ثم قال الرسول " اما انها ستكون فتنه " و بالتالي يكون سياق ما دار في المجلس ، او ما كان يدور قبل ذكر هذه العباره ، مما يساعد بل يحدد ما هو مضمون الفتنه و موقعها و اسبابها. و لكن كل هذا غير وارد في هذه الروايه. الا انه يوجد طريقه لتقريب هذه الامور الغامضه و الكشف عنها بدرجه ما. و هو الجواب عن المخرج. فالمخرج من الفتنه لابد ان يكون مناسبا للفتنه او مناسبا او دالا على ما أدخل في الفتنه . فمثلا ، ان قلنا : فلان سيمرض. فان عباره " سيمرض" تحتمل ان يكون مرضا جسمانيا ام مرضا قلبيا كقوله تعالى " في قلوبهم مرض " و نحو ذلك من احتمالات. و لكن ان كان الجواب عن : و ما المخرج من هذا المرض ؟ هو :علموه سوره البقره. فاننا نعلم او نقترب من اليقين جدا بان المعنى هو المرض القلبي العقلي. لان تعلم سوره البقره يكون شفاءا لامراض القلوب و العقول ، و اما مجرد الرقيه و التبرك بتلاوه سوره معينه فانه بعيد لان قرينه " علموه " تدل على تفاعل عقلي من المتعلم ، و اما لو كان يريد الرقيه فلعل الانسب كان ان يستعمل " اتلو عليه " فلعل هذا كان اقرب ، و لا يزول اللبس كليا. أما حيث انه استعمل كلمه "علموه" فان الاقرب الى اليقين انه اراد مرضا قلبيا فكريا. و هذا ظاهر.

على نفس النمط، قول الرسول " ستكون فتنه " ، فان الاجابه عن المخرج من الفتنه ، بكلياتها و تفصيلاتها ينبغي ان نتوقع ان تكشف لنا عن ماهيه الفتنه التي يتحدث عنها و لعل أسبابها تتبين بعد ذلك.

و هو الواقع. فان جواب الرسول كان " كتاب الله تعالى ". فان كون كتاب الله هو المخرج من الفتنه، فان هذا يعني أولا ان المعني بهذه الفتنه هم الأمه المحمديه التي تؤمن بكتاب الله تعالى. و الا فالفتن المتعلقه ببقيه الامم او علاقه امتنا ببقيه الامم ، ليس المخرج الوحيد منها هو كتاب الله بالمعنى الاخص. فتلك الامم لا تؤمن بكتاب الله تعالى اصلا حتى يكون مخرجا لها من الفتنه ، فضلا عن انهم لا يتحدثون لسان العرب حتى يفقهوا ما في كتاب الله أصلا. فالفتنه متعلقه بالمؤمنين بالرسول خصوصا.

فأي نوع من الفتنه ؟ هل هي متعلقه بالحرب الوحشيه و القتل و نحو ذلك ؟ ان كانت كذلك فان كتاب الله ليس هو المخرج منها لان مثل هذه الحرب اصلا قامت على خلاف في كتاب الله تعالى، و كل فريق يحتج بشئ منه و ان كان باغيا ، و القرءآن حمال اوجه و بابه تزكيه النفس ، و أما امثال هؤلاء الوحوش البشريه فانهم ليس لهم صبر لتأمل وجوه القرءآن و لا عندهم حظ يذكر من تزكيه النفس، بل لعلهم من الاعراب الذين يريدون ان يعطوا شيئا من المال و حسبهم ذلك. فكتاب الله لا يكون مخرجا الا من الفتنه التي يمكن ان نسميها " راقيه ". بمعنى انها كتعلقه بأمور أرقى من أعمال البدن المحض الذي لا يبالي اهله لا بقرءآن و لا بغير قرءآن. فرغباتهم و طموحاتهم محسومه سلفا ، و لن يثنيهم و يخرجهم من الفتنه لا كتاب الله و لا ألف كتاب من كتب الله تعالى. " و لقد أريناه ءاياتنا كلها فكذب و أبى ". فتفسير الفتنه هنا بفتنه سفك الدماء و الطموحات السياسيه السفليه بعيد جدا. خصوصا اذا نظرنا الى التفصيلات الكامنه في الاجابه.

الذي يظهر لي هو التالي : ان الرسول اراد ان يصل كتاب الله لكل بقعه على الارض. و هذا الأمر سيواجه بعقبات كثيره من شتى الامم و الدول ، على مر الأزمان . و حيث ان كتاب الله هو سقف الانسانيه من حيث الصله بالله تعالى من حيث التجلي الكلامي كما قرره مع موسى ، فان الغايه العظمى هي حفظ كتاب الله و نشره في كل

مكان و ايصاله الى كل الامم. فان كانت أمه محمد أمه واحده ليس فيها فرق و لا طوائف مطلقا ، فان أعداء الأمه سيتكتلون ضدها بحكوماتهم و شعوبهم. و يكون كل مؤمن سواء عندهم ، سواء كان فردا او شعبا او دوله. و هذا سيمنع من وصول كتاب الله اليهم و دخول المسلمين في بلادهم و استقرارهم فيها و كسب التحالفات معهم لضمان الامن و الاستقرار. فما السبيل الى تفادي هذه المحذورات ؟ الجواب : بتفريق الأمه مع الابقاء على امكانيه توحيدها لاحقا. فعندما تتفرق الامه ظاهرا ، و بكل قوه و بكل معاني التفريق الفكري و العقدي و السلوكي ، فان النتيجه هي انه ستظهر دول متعدده تختلف فرقها و طوائفها. و هذا يعني انها ستتحارب مع بعضها البعض ، و حيث ان الأمم الكافره او الضاله كليا ، كالدول الاوروبيه مثلا في ذلك الزمان و الدول الامريكيه مثلا في هذا الزمان ، ستكون ايضا متحاربه مع بعض الدول الاسلاميه و ان كان فقط بسبب التجاور على الحدود او بسبب التوسع العسكري. و هذا سيدفعها الى ان تتحالف مع بعض الدول الاسلاميه ضد البعض الاخر ، و هو عين المطلوب. فهذا التحالف سيسمح بوجود علاقات تجاريه و فكريه بل و الاستقرار و الانتشار في بلادهم من قبل المسلمين المنتمين للدوله المتحالفه او المتصالحه معهم. و هؤلاء المسلمين سيدخلون افكار فرقتهم و طائفتهم ايا كانت، و في أول ما سيدخلونه هو كتاب الله تعالى. فالفرقه تقول : كتاب الله، ثم كذا و كذا من مختصاتهم و عقائدهم و اساليب نظرهم و تفكيرهم و تفاعلهم. و هكذا ستقول الأمم : لا خوف من هؤلاء المسلمين لانهم متفرقين و متحاربين فيما بينهم ، فهم في حاله ضعف و اقتتال منذ القدم ، و لا خوف حقيقي الا من الامه الواحده ظاهرا و باطنا. و هذا ما وقع فعلا ، و لا يزال. فالمسلمين في كل مكان تقريبا على الارض. و كتاب الله انتشر في كل مكان تقريبا. و لكن الفرقه لا تزال هي الظاهره بينهم.

و لهذا وجد توجهات تميل الى العقلانيه ، و اخرى تميل الى الروحانيه الوجدانيه ، و اخرى تميل الى العنف الجسماني ، و اخرى تميل الى التقليد المحض و الانعاميه ، و اخرى تميل الى السريه و الغموض ، و أخرى تميل الى الاعتزال المحض ، و اخرى تميل الى الاجتماع و الاندماج المحض باي امه يكونوا فيها ، و اخرى تميل الى البكاء و الحزن ، و اخرى تميل الى الفرحه و الاستبشار، و هكذا يوجد بيننا منذ القدم – و كل ذلك يجد تأسيسه في روايات الفرق و احاديثهم على الخصوص، يوجد بيننا شتى التوجهات و ما يناسب شتى الطبائع و الغرائز و المشاعر و العقول ، و السر في كل ذلك هو ان الغايه الكبرى ليست الا توصيل كتاب الله لكل اهل الارض ، و ما سوى ذلك فثانوي في التدبير الالهي. و اصل نشوء المرويات و كثرتها و اختلاق اصول اخرى غير كتاب الله فقط، هو حتى يكون ذلك كسور يفصل بين أهل القرءآن الحق في كل زمن و هم الباطن الذي فيه الرحمه على التحقيق، و بين أهل غير القرءآن – و ان كانوا من اهل القرءآن من حيث انهم من حفظته و ناشريه في بقاع الارض من حيث يشعرون او لا يشعرون– و هم الظهر الذي من قبله العذاب و التفريق و التشتيت ، و كل هذا ضروري لتتميم الغايه الحقيقيه " و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون ".

فالفتنه المقصوده هي هذا التفريق و التشتيت الذي سيتم في هذه الأمه . و لهذا لا يوجد في الروايه ذكر لسبب هذه الفتنه – و هو الغايه التي ذكرناها – لان هذا السبب لم يكن ينبغي ان يظهر في تلك الازمان الا بعد ان ياتي وقت مناسب لظهوره بحيث لا يمكن ان يمحق كتاب الله من وجه الارض لسعه انتشاره و انتشار المسلمين في كل بقاع الارض و قوتهم النسبيه سواء من حيث العدد او من حيث كثره الدول و التغلغل في كل الدول و امكانيه حصول مثل هذا التغلغل و الانتشار كما هو الحال في العصر الحاضر. و مثلا، في ايام الامبراطوريه العثمانيه خصوصا في اوج قوتها ، كانت كلمه "مسلم" و "تركي" تعتبر كانها من المترادفات في عرف الشعوب الاوروبيه (اميركا لم

تكن على خارطه وعي معظم الناس بعد) و العداوه بين الاوروبيين و العثمانيين كانت قائمه على قدم و ساق. و من الطرف الاخر، كانت الدوله الصفويه الشيعيه ممن له علاقات افضل مع الاوروبيين ، و كانت معاديه للعثمانيين ، و من هنا رغب في التحالف معها بعض الاوروبيين . و هكذا كان تعامل الفرس الصفويين احسن مع الاوروبيين و حالهم ايسر. و لكن مع كل ذلك فان الوعي العام لم يكن يفرق بين مسلم و تركي او فارسي، فلم يكن يوجد شئ اسمه جوازات سفر و حقوق انسان و نحو ذلك. فالدين تقريبا هو جنسيه الفرد . فمحاربه العثمانيين كان يعني محاربه المسلمين. و هكذا كان المنطق في ذلك الايام على العموم. فلم يحن الوقت بعد للانتشار المطلق لكتاب الله في كل الارض. ثم مرت القرون و زالت الامبراطوريه العثمانيه و الصفويه و نشأت الدول القوميه ، و قام ما نحن فيه اليوم ، و أصبح المسلمين في كل مكان على نحو لا يستطيع احد ان ينفيهم منه ، و لا ان يجليهم عنه ، و لا ان يبيدهم اباده جماعيه ، و لا ان يشكل ضدهم تحالفا كليا ، اذ هم في كل الدول الغربيه و الشرقيه ، و مساجدهم و مصاحفهم و دعاتهم في كل مكان . و مئات الملايين من المصاحف الشريفه منشوره في الارض كلها. فضلا عن وسائل الحفظ الاخرى، مما يجعلنا نقطع بكل ما في القطع من معنى ان كتاب الله لن يزول من صفحه الارض ، و لن يستطيع احد ان يطمسه او يغير فيه فتحه او ضمه فضلا عن غير ذلك. و هذا التمكين المطلق – من هذه الحيثيه – لكتاب الله و للمسلمين يعني ان وقت ازاله ستار الفرقه الاحزابيه عن وجه الأمه قد حان.

" فما المخرج منها يا رسول الله ؟ " قال : كتاب الله تعالى.

و هذا يعني انه يجب ان يزول كل ما سوى كتاب الله من وعي الأمه جمله و تفصيلا من حيث تثبيت العلوم الدينيه و الاسس و المعاملات كلها. و يجب ان يوضع ما سوى ذلك من مرويات و اجماعات و قياسات و اجتهادات و تواريخ و قال و قيل ، كل هذا يجب ان يوضع في مرتبه المناسبه. و هذه المرتبه المناسبه هي في أمرين :

أولا ، ان تجمع كلها في مجمع واحد و تعطى لها قيمه واحده من حيث الاصل، و هي التي اقترحنا تسميتها ب " جامع الميراث ". و للدقه : جامع ميراث الحجاب. لانه لم يكن الا حجابا مؤقتا .

ثانيا ، ان يتم تخل و غربله كل هذا الميراث و اعطاء كل مفرده مفرده فيه وزنها المناسب بحسب مرتبتها في ما يقرره كتاب الله تعالى.

كل هذه الكتب يجب ان تزول من حيث الوعي التأسيسي، و بعثه جديده للقرءآن يجب ان تقوم. بل ستقوم في هذا الزمن او غيره. و على العلماء كلهم بل المسلمين كلهم ان يقوموا بالانحصار في كتاب الله تعالى بعد تزكيه القلب من كل العلائق الأخرى المتعلقه بالنظر فيه و ما سمى ايام الحجاب ب "تفسير القرءآن" و "اسباب النزول" و غير ذلك. ثم كل ما ينتج من مثل هذه الدراسه الطاهره ، سيكون في الاغلب الاعم بل يكاد يكون كله مما يرضاه الله تعالى و يحتمله القرءآن في ذاته. و كل ما يحتمله القرءآن في ذاته بحيث لا مجال لدفع احتماليه احتمال القرءآن له، فانه من القرءآن و "لا يكلف الله نفسا الا وسعها ".

...

قبل أن نكمل في تفاصيل الروايه ، نذكر بأمر و نفسره . و هو ما ظهر من الاختلاف في بعد وفاه النبي عليه السلام ، بل و ما ظهر في ايام حياته . فإن من يفهم ما ذكرناه قبل قليل يستطيع أن يفهم لماذا كانت رده فعل الامام علي بالطريقه التي كانت . و مثلا ، حين قال – كما في نهج البلاغه ٥ – مفسرا سبب عدم قيامه بغير ما قام به في مسأله ولايه الأمر المعاشي ، قال " بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم ، اضطراب الأرشيه في الطوي البعيده " . الارشيه : الحبل . الطوي البعيده : البئر العميقه . و ليس من الغريب بعد ذلك أن تكون روايه "ستكون فتنه" منقوله عن علي و هو الذي كان يكلم الرسول فيها. فتلك الروايه لم تذكر الفتنه لأن موضوع الفتنه يجب أن يكون سريا. و تلك هي الطريقه الوحيده لاستمراريته و بلوغه أمره . و هذا يشبه ما فعله الله بيوسف ليبلغ أمره بتمامه. فالإخره كانوا أعداء شياطين ، و فعلوا ما فعلوا بدافع الحسد و الكره و عدم الايمان بمقام يوسف فأرادوا قتله ، ثم اختاروا ما اختاروا مما قصه القرءآن . و لكن من أعماق "غيبت الجب" خرج يوسف ليصبح عزيز مصر و ملك خزائن آرضها . فإخوه يوسف لم يكونوا يعلمون بما ستؤول اليه الأمور ، و لكن " الله بالغ أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون ". و لاحظ قول القرءآن "غيبت الجب" وقول علي " الطوي البعيده " ، و لاحظ كون القرءآن "حبل الله" و قول علي "الارشيه". ثم لاحظ قول القرءآن في نفسيه إخوه يوسف و جهلهم به و علم يوسف بالمآل " لتنبأنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون" ، ثم لاحظ قول علي " بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم" . و مكنون العلم هذا هو الأمر المتعلق بالفتنه الضروريه لايصال كتاب الله و المسلمين ليستقروا في مشارق الارض و مغاربها . و ليس بعجب أن ينصر الله هذا الدين بالرجال الفجار ، و هذا هو السر الحقيقي لكل القوه التي اوتيها الرجال في كل ذلك الزمان الى يومنا هذا ، و ما يشبه "المعجزات" كأن يخرج مجموعه من الاعراب و المفتونين المتقاتلين فيما بينهم ، فيبلغ ملكهم من الصين الى المغرب . و من يقرأ تفاصيل الحياه الداخليه في المجتمعات الاسلاميه من بعد وفاه النبي إلى أن بلغ الاسلام و كتاب الله اليوم حيث بلغ ، تجد عجبا عجابا لا يكاد يوجد له تفسير مفهوم او معقول . فكيف يمكن لبيت مقسم إلى أجزاء متحاربه يكفر بعضها بعضا و يقتل بعضها بعضا و يتنافس بعضها للعلو على بعضها الاخر أن يبلغ من القوه و النظام في التوسع في الملك و تبليغ الأمر كل هذا المبلغ في هذه الفتره الزمنيه القصيره جدا من حيث العدد . فهم كانوا أولياء الله المؤيدين بروح القدس مثلا !؟ يكفي أن تنظر مثلا إلى حال "خلفاء" الدوله الامويه لترى كيف أن معظمهم كان من الممكن أن ينافس الشيطان في الشيطنه ، بل لهزموا الشيطان بلا منافسه . و ليس من جاء بعدهم في شتى اطراف الأمه عن هؤلاء ببعيد اللهم إلا استثناءات هنا و هناك لا تعتبر شيئا مميزا بالمعايير البشريه العاديه للملوك و السلاطين و ما اشبه اللهم إلا قليلا يعدون على أطراف الاصابع و هذا طبيعي و يوجد تقريبا في كل مكان فأين يوجد في أمه مدعومه بالاسلام أولى و أسهل و أقرب للتوقع و التعقل . فهل كان السر هو في المجتمعات الاسلاميه ؟ يكفي أن تنظر إلى تعليقات "كبار الصحابه" على أحوال عصرهم ، فضلا عن غيرهم ، لترى كيف أن الاوضاع أصبحت مزريه و جاهليه او شبه جاهليه من جديد ، خصوصا في زمن عثمان فما بعد . و لا تكاد تجد عالما إلا و يصف حال عموم الشعب بكل أوصاف القبح و الجهل و الكسل و اتباع الشهوات و ما اشبه . فما الذي جعل مجتمعات حكامها على الاغلب فساق طغاه ، و شعوبها على الاغلب جهال سفهاء ، تصل الى كل هذه القوه و هذا الاتساع و هذه الغلبه على الغير مسلمين ؟ الجواب الشامل الوحيد الذي يفسر كل هذا هو : الله بالغ أمره ، و هو يخرج الحي من الميت . و مع كل ما كان فيهم ، فإن حالهم كان فوق حال الهمج الاوروبيين مثلا ، فوقهم بسنوات ضوئيه ، و هذا سبب اخر لعلوهم عليهم ، و لهذا ما إن تغير هذا الحال حتى ظهر الاوروبيون و الغرب على البلاد الاسلاميه و شعوبها و حكامها في الغالب الأعم كما هو الحال اليوم . فالعامل الظاهري لعلو الدول الاسلاميه في السابق كان كونهم أعلى

من الدول الغير اسلاميه في التنظيم و الاجتهاد بالاضافه الى شئ من الاسلام ، فلما تغير الحال زالت الدوله و صارت للغربيين . و أما العامل الباطني الحقيقي – و العامل الظاهري لا يفسر التوسع و القوه العظيمه التي برزت ممن لا يتأتى لهم ذلك بأنفسهم ، هو عامل كتاب الله . فهم كانوا – مع ما فيهم – يحملون كتاب الله و يوصلونه الى البقاع التي يصلون اليها و يستقرون عليها . و الله قد بلغ أمره فعلا و ها هو متكشف أمامكم اليوم إلى حد كبير ، و هذا لا يعني أن الأمر قد تم كله ، و لكن آيات تمامه لائحه في الافق بنحو غير مسبوق . و الحمد لله .

...

فاذا نظرنا في تفاصيل الروايه ، سنجد انها كلها تصب في هذا المفهوم و تؤكد عليه. نأخذها واحده واحده و نعلق عليها تعليقا مختصرا اذ قد ظهر الامر لمن كان له بصر.

" فيه نبأ ما قبلكم " و هذا لمن يريد ما يسمى في ميراث الحجاب بتاريخ و امثله تطبيقيه عمليه للدين و الذي تمثل في حكايات ابطال السنه و الشيعه و غيرهم. و في القرءآن النبأ الحقيقي و القصص العظمى و الامثال الذين هم الأنبياء و الأولياء و ليس وراء ذلك مطلب للمؤمن الحق.

" و خبر ما بعدكم " و هذا لمن يريد ما يسمى في ميراث الحجاب بعلوم الاخره و اخر الزمان و المهدي و الدجال و نحو ذلك، و في القرءان العظيم ذكر مفصل لشؤون الاخره من رب الاخره ليس وراءه مطلب للمؤمن الحق.

" و حكم ما بينكم " و هذا لمن يريد ما يسمى في ميراث الحجاب بعلوم الفقه و الشريعه و القضاء و فلسفه المقاصد الشرعيه و اصول الفقه و القواعد الشرعيه و كل ما يتعلق بالحكم فيما بين المسلمين. بل حتى الحكم من حيث الاختلاف في شؤون الفكر و العقل و المقولات الروحيه ، مما يسمى بعلم المنطق و اصول الدين و العقيده و تفسير شطحات و مقولات الصوفيه و كل ما يتعلق بالحكم في هذه الامور التي ينشأ فيها الخلاف بين المسلمين. ففي كتاب الله الحكم بيننا في كل ما يمكن ان يحتاج الى حكم بيننا.

" هو الفصل ليس بالهزل " وهذا يعني ما تدل عليه الفاظه ، فكتاب الله ليس لمجرد التلاوه اللسانيه و التبرك و شئ من الوعظيات و السخف الذي كان قائما ايام الحجاب. بل هو الفصل حقا و كلامه دقيق و جدي.

" من تركه من جبار قصمه الله تعالى " هذا وعيد لكل دوله تقوم بغير كتاب الله و لا تجعله محور فكرها، و لا تجعل اسسه في شتى المجالات العمليه و الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه هي عين الاسس التي اقامها الحق تعالى في كتابه. و ليذكر الجبار كل الامبراطوريات و الدول التي كانت اعظم من كل دول اليوم ، و التي قامت في ايام الحجاب (من حيث تشعر او لا تشعر، و لا تشعر غالبا) بترك كتاب الله فزالت دولتهم و هلكت امبراطوريتهم التي وسع بعضها ثلاث قارات. فمن ظن انه في يومنا هذا انه سينال فوزا او بقاءا بالاعراض عن كتاب الله او الابقاء على الحجاب، فان مصيره لن يكون الا كمصير تلك الدول، و " هل تسمع لهم ركزا ".

" و من ابتغى الهدى في غيره أضله الله " هذا لكل من يريد غير كتاب الله تعالى ليبتغي الهدى منه، اي يجعله اساسا و مرجعا يستمد منه و ينحصر فيه. و هذه العباره الرسوليه مطلقه ، و هي كافيه بذاتها لاثبات المطلب الاساسي من هذا البسط لنظريه حسبنا كتاب الله. فلتتأمل.

" و هو حبل الله المتين " و هذا يعني ان الموصول بكتاب الله موصول بالله تعالى، و اصل الخوف من الاخلاص لكتاب الله هو الخوف من الانقطاع عن الله و رسوله في الدنيا و الاخره. و هنا يثبت ان هذا هو حبل الله، فمن اعتصم به فهو معتصهم بالله و رسوله معه حتما بمشيئه الله.

" و هو الذكر الحكيم " و هذا لكل من يريد غيره لما فيه من اذكار الهيه و اوراد عرفانيه، و ليس في التصوف كله و لا العرفان كله ما يزيد بل يداني ما في كتاب الله تعالى من أذكار، بل تكاد تتفق كلمه المحققين منهم على ان قراءه القرءآن و الاذكار الوارده في القرءآن هي الذكر الاعظم و المدد الاكبر. بل ان ذكر " هو الله لا اله الا هو " و ذكر " الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى " و " الرحمن على العرش استوى " يكفي لمن كان له قلب ، فما ظنك بكل الاوراد و الادعيه و الاذكار المنصوص عليها في كتاب الله و التي يمكن تأليفها منه. بالاضافه الى مجرد الذكر ، فان ايضا " الحكيم " و لا خير في عباده لا فقه فيها - كما يروى عن علي- و اذكار كتاب الله هي اذكار للقلب و هي ايضا حكمه للعقل. و بالاضافه الى القوه المعنويه الروحيه التي يملكها كتاب الروح العظيم من حيث انه " اوحينا اليك روحا من أمرنا " ، و معلوم عند اهل التحقيق ان كل ذكر له قوه و درجه قلب الذي خرج منه، و مهما علا العارف و الشيخ الروحاني، فان الاذكار التي تفاض على قلبه من الملكوت لا يمكن ان تكون اعلا من الاذكار التي قالها الله تعالى رب الملك و الملكوت و ما فوق الملكوت.

" و هو الصراط المستقيم " و هذا بين بذاته لمن يريد ان يهتدي الى كل صراط مستقيم في كل أمر من الأمور. و من خشيه زمن الحجاب ان يتركوا ما هم فيه فيضلوا عن الصراط المستقيم الموصل الى حضره الحق تعالى، و هنا الرسول الاول سلام الله عليه يثبت ان كتاب الله هو بحد ذاته الصراط المستقيم، بالاضافه لكونه يحوي تفاصيل الصراط المستقيم. فادرسوه لتعرفوه.

" و هو الذي لا تزيغ به الأهواء " و هذه ضمانه لكل من يخلص لكتاب الله و لا يشرك معه غيره من حجب يتم اسقاطها عليه من خارج و تفرض عليه فرضا ، انه لن يزيغ بتوفيق الله و بشورى المؤمنين و التعارن على الفهم و الدرس و التفكر و الحوار الحي بينهم.

" و لا تلتبس به الألسنه " و هذا لكل من يزعم بأن كلام الله يمكن ان يختلط بكلام غيره ، عند من عرف كلام الله. فكلام الله في مرتبه لا تدانيها مرتبه مخلوق من السموات و الارض. و كما في روايه اخرى عن الرسول الاول عليه السلام " فضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه". كل خلقه بما فيهم الرسل و الملائكه.

" و لا يشبع منه العلماء " و هذا ضمانه لكل عالم ممن يظن بانه ان تخلى عن كتب الحجاب الكثيره و المتكاثره يوميا ، و انه ان انحصر في كتاب الله تعالى ، الذي هو انحصار في المظهر و بسط مطلق في الجوهر ، سيشبع من العلم الذي في كتاب الله و سيفرغ منه لانه كتاب لا يجاوز ستمائه صفحه، و لعل كتاب واحد في مسأله الطهاره الشرعيه لاحد عامه العلماء قد يبلغ اكثر من ستمائه صفحه ! و هذا لانهم ينظرون الى الكتب من خارجها و ليس

بقوتها و مستواها و مدى مشحونيتها بالمعاني و المدارك و المسائل و الاسرار و الطبقات و المستويات. فالرسول هنا يضمن انه لا يمكن للعلماء ان يشبعوا من كتاب الله.

" و لا يخلق على كثره الرد " ضمانه اخرى، فقد يظن البعض ان الانحصار على كتاب الله يعني ترديده دائما ، و هذا سيجلب الملل منه او انه سيجعله ينفد من حيث المعاني و القوه و الهيبه . و الواقع ان كثره ترديد كتاب الله تزيد من عظمته و تكبره في نفس و قلب القارئ المؤمن، و هو من سمات اسم الله " المتكبر " فهو يتكبر في قلب المؤمن كلما عرفه ، و يزداد بهاؤه كلما اغترف منه.

" و لا تنقضي عجائبه " ضمانه اخرى، فان لدراسه كتب ميراث الحجاب متعه معينه من حيث انك تمر على افكار جديده كل فتره و فتره، و تحقيقات عجيبه ، و اشارات لطيفه ، و تدقيقات عميقه. فهل اذا اخلصنا لكتاب الله سنرى مثل ذلك ، ام ان طول الاعتكاف على كتاب واحد سيؤدي الى كشف كل عجائبه و الفراغ منها ؟ الرسول هنا يضمن بان المحتويات العجيبه للكتاب لن تنقضي ابدا.

" هو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا: انا سمعنا قرءآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به " و هذه هي اعظم ايه في هذا المضمون، اي السبب الذي يدعوا الناس الى الايمان بالقرءآن، هو ليس الا امرين: العجب و الهدايه الى الرشد. و هو الغايه في ذلك لمن تزكى و درسه و انفتح له. و هذا ايضا لمن يعتقد بان ايمان الناس بالقرءآن يرجع الى سيره فلان او مسند علان او تاريخ كذا او طريقه الشيخ كذا و كذا، بل الايمان بالقرءآن يرجع الى نفس القرءآن . و ان كان الجن الفسقه ءامنوا بذلك، فمن علا عليهم في الدرجه كان اولى به ان يؤمن بذلك. فقد يقول بعض اهل الحجاب انه ان اخلصنا لكتاب الله و تركنا كل ما عداه (بالمعنى الذي ذكرناه للترك مثلا) فان قيمه هذه الأمه و قواعد قيامها ستزول. و الواقع ان قيمه هذه الامه هي بهذا الكتاب اساسا ، و بدونه لا قيمه لها اللهم الا ان تكون امه من عرض الامم، و بهذا الكتاب العزيز خرجنا من الظلمات الى النور، و من السفل الى العلو. و ليس ما سوى ذلك مما قد يتعلق به بعض اهل الحجاب الا بعض ثمرات التعلق بالقرءآن بنحو او باخر، او الاستمداد منه بنحو او باخر.

" من قال به صدق " و أفرد "به" ، فهو الصدق في ذاته و الصدق في دعاواه و تطبيقاته في شتى مستويات الوجود.

" و من عمل به أجر" و أفرد "به" ، فمن عمل به وحده اجره الله و لم يطالبه بغيره لا من حيث الصوره و لا من حيث المضمون. لا من حيث الاجمال و لا من حيث التفصيل. " من عمل به اجر" و كفى.

" و من حكم به عدل " و أفرد "به" ، فمن حكم به وحده عدل. ان فقه القضيه و حكم بموازين الكتاب.

" و من دعا اليه هدي الى صراط مستقيم " و هي دعوى اهل زمن اشراق الارض بنور ربها ، و هي الدعوه اليه وحده. و لم يقل انه دعا الى غيره و لا بغيره. بل دعا اليه وحده.

فتأمل في هذا يرحمك الله.

.....

(أعمال الرسول في الكتاب العزيز)

في دعوه ابرهيم و اسمعيل " ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم : يتلوا عليهم ءايتك و يعلمهم الكتب و الحكمه و يزكيهم " ، ثم بعد هذه بايات يقول الله " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم : يتلوا عليكم ءايتنا و يزكيكم و يعلمكم الكتب و الحكمه و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون " و في ايه اخرى " و أمرت لأعدل بينكم " و "انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله " ، و في أخرى " و جهدهم به جهادا كبيرا " (به اي بالقرءآن).

فهذه الايات تظهر أن للرسول أعمال متعدده ، فالرسول من حيث انه مرسول ليس فقط مبلغ للكتاب بمعنى انه يتلوه على الناس ثم ينتهي عمله ، و ان كانت هذه هي الحيثيه الرساليه فيه. و لكن الايات تبين ان للرسول اعمال غير مجرد تلاوه الايات ، بل فيها تعليم الكتب و الحكمه ، و التزكيه القبليه و البعديه (ففي دعوه ابرهيم التزكيه قبل تعليم الكتا ب و الحكمه ، و في الايه الثانيه التزكيه بعد تعليم الكتاب و الحكمه ، و هذا يدل على وجود تزكيه تمكن الانسان من قبول و فهمه التعليم النبوي ، و تزكيه تمكن الانسان من العمل بالتعليم النبوي و الدعوه اليه و نشره - و كلاهما من عمل الرسول المبعوث) ، و يوجد كذلك التعليم العام " يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون " ، و يوجد الحكم بمعنى فصل الخصومات و الشجارات التي قد تقوم بين الناس و العدل في ذلك ، و يوجد تبليغ القرءآن لغير المؤمنين . و هذه كلها مربوطه بالرسول . فاذا نظرنا الى كون تلاوه القرءآن و تبليغ الكتاب للناس بالمعنى الخاص، فان هذا عمل من اعمال الرسول . و بالتالي اعماله الاخرى، و ان كانت مرتبطه بكتاب الله و شخصيته الرساليه ، الا انها ليست نصوصا في كتاب الله بمعنى التلاوه ، اي فالرسول حين يزكي هذا الشخص او يعلم ذاك الشخص مسأله قرءآنيه معينه ، فانه حتما يراعي حاله هذا الشخص و مستوى فهمه ثم يوصل له المطلوب بلسان يفقهه هذا الشخص، و الا فان وجود الكتاب مجردا بالنسبه لشخص ليست له القابليه الاوليه لفهمه ، يعتبر كعدمه . لا اقل ان عقل الايات مع بعضها البعض لتبيينها للسائل سيتم بلسان السائل الذي يفهمه و اسلوب الشرح الذي يألفه . فبهذا الاعتبار يكون لما سمي بالسنه مكانا ، فما الجواب عن هذا ؟

الجواب : ان الجواب عنه كامن فيه . فالافتراض الكامن فيه هو أن الرسول سيشرح و يزكي "بحسب حاله الشخص " ، و "بلسان هذا الشخص ". و بالتالي خرجنا من اطلاقيه القرءآن ، الى نسبيه هذا الشخص. و هذا ليس فيه اشكال اصلا ، فلا اقل ان يكون كما يقوم به أهل الذكر و الفكر في كل زمن حين يكتبون دراستهم و فكرهم في

مسائل الدين و القرءآن. و كمثل ما نكتبه نحن هنا الان . فهذا كلام "غير قرءاني " بالمعنى النصي . فليس المقصود ب "حسبنا كتاب الله " ان يصبح الناس خرسا لا ينطقون الا بحروف هذا القرءآن . هذا فهم سخيف لا يقول به لا القرءآن ولا الشيطان. فأين في القرءان: لا تتكلموا الا باستعمال كتابي هذا الذي انزلته عليكم ؟ او شئ من هذا القبيل. فضلا عن ان هذا مستحيل اذ هو قتل لجانب في الانسان يعتبر من صميم المقدمات التي تمكنه من التعاطي مع الرسول و فهم كتابه اولا. ليس هذا هو المقصود . انما المقصود بالاساس ثلاث امور :

أولا ، القرءآن هو الأعلى ، و لا شئ يحكم عليه . و يدرس بنفسه و هو بيان في نفسه لمن فقه و عقل. و لا بيان اعلى من بيانه بالنسبه لمن فقه و عقل .

ثانيا ، ما يروى او يكتبه فلان و علان لا يحد القرءآن و يحتكر معناه الا لو كان القرءآن في ذاته محدود في هذه المسأله بنفس الحد الذي رواه او كتبه فلان و علان . و هذا يحتاج الى برهان لاثباته تفصيليا باستقراء ظاهري و باطني لكل القرءآن ، و هذا في حكم المستحيل في الغالب الاعم.

ثالثا ، ما ينسب الى الرسول من شرح معنى كذا او تفصيل كذا ، بالمعنى التاريخي للرسول ، لا يثبت في وجه ما يستنبطه الانسان من كتاب الله باستنباط حي و مفصل و مبرهن بحسب المسأله المعروضه. اي و ان ثبت بالمعايير الروائيه (ايا كانت) ان هذه الروايه او الحادثه قد صدرت من الرسول الاول عليه السلام ، فان غياب السياق و تعارض الروايات و اختلاف الأمه و الاهم من كل ذلك ، نسبيه هذا الصدور ان كان قولا بحسب الذي قيل له ، و ان كان فعلا بحسب ظروف الرسول و قومه ، و ان كان تقريرا ايضا بحسب الظروف التي قد نعلمها و قد لا نعلمها ، كل هذا لا يجعل هذه الجزئيات حاكمه على ما يقرره كتاب الله في مبادئه و اصوله و تفاصيله التي يستنبطها أهل الذكر و الفكر من المسلمين في كل زمان و في مختلف الظروف و الحالات النسبيه. و لا يوجد فكره او مبدأ واحد (فوق نسبي) الا و هو مشروح و مفصل تفصيلا كاملا في كتاب الله تعالى بما لا مزيد عليه لمن فقه و عقل و تفكر و تدبر . فمثلا ، حقيقه الأسماء الحسنى و فاعليتها في الوجود ، فهذه الحقيقه يطفح بها كتاب الله من اوله الى اخره . و حقيقه وجود وسائط بين نفس الله و خلق الله، ايضا حقيقه يطفح بها كتاب الله من اوله الى اخره ، بل ان وجود كتاب الله هذا و وجود رسول بلغه للناس لدليل كاف لاثبات هذه الحقيقه . و هكذا في كل الحقائق التي تعتبر كرواسي لارض القرءآن ، فاذا اعتبرنا زوال احدها اختل نظام القرءآن و منظومه قيمه و افكاره كلها. فعلى هذا المستوى الكل حاضر في الكتاب العزيز. و أما ما كان من قبيل ان رجلا يسأل في حاله خاصه له ، فالجواب لا بد ان يكون بحسب حالته ، و ان كان الحكم " بما اراك الله " في كتابه ، و لكن تنزيل الحكم على هذه الحاله الخاصه لا يمكن ان يأخذ نفس مستوى الاحكام الوارده في كتاب الله، و هكذا في الباقي. فاذا قسمنا الكتاب العزيز الى قسمه " حكم " و " علم ". فان تفاصيل كل ذلك الحكم و العلم وارده في الكتاب الذي في تفصيل كل شئ ، و لكن توصيل هذا الحكم و العلم لفلان و علان يكون بلسانهم و حالتهم و ظروفهم. و هذا كله ان صح و ثبت صدور الامر عن الرسول . و أما فيما يقع فيه الاختلاف و تنشق الامه بسببه ، و لا يكون عليه شواهد من كتاب الله الجامع ، فمثل هذا لا نقبله و لو كان ما كان . و هنا اصل اشكاليتنا . و لهذا قلت : علينا ان نجمع كل ما ينسب الى الرسول من اقوال و افعال و تقريرات. لان هذا الجمع يجعل احتماليه وجود الحق الذي وقع ، اكبر من لو استعملنا هذه المعايير الشخصيه لهذا المحدث او ذاك الراوي او هذه الفرقه او تلك الطائفه .

فنحن و هذا الميراث الضخم نشبه رجلا ذهب الى بلده ، و سأل عن رئيسها و احواله و افكاره و اسلوبه في الرئاسه و التعاطي مع اهله و اصحابه و الناس عموما. فوجد ان في البلده مئات او الاف الناس ممن يحكون هذه السيره . فوجد انهم في كثير من الاحيان يختلفون اختلافا شديدا ، و هذا يروي جزء من قصه و ذاك يروي جزء اخر ، و هذا يروي كلمه على سيماء الاطلاق و ذاك يروي اخر (كما سأل: ما خير الاعمال؟ فاجابه كذا ، و اجاب غيره على نفس السؤال بغير ذلك) و على هذا النحو. فخير ما يقوم به هذا الرجل هو ان يجمع "كل" ما يقوله كل فرد فرد من اهل البلده او من رأي الرئيس و جلس معه او شاهده و لو من بعيد في كتاب واحد جامع بلا اي تفريق بين الناس و لا ما سوى ذلك، هذا من حيث الاصل. ثم ينظر ان كان لهذا الرئيس مؤلفا هو ألفه (هذا تشبيه و ليس تمثيل فدقق) و جمع فيه كل افكاره الاساسيه و مبادئه الكليه و تفاصيل تعاطيه مع الامور التي تعاطى معها و كتبها في هذا الكتاب . فندرس هذا المؤلف للرئيس ، و نجعله هو الحاكم على كل ما وصلنا من روايات و حكايات عن هذا الرئيس. فما قاله عن نفسه أولى مما قيل عنه. و ما دونه بنفسه أولى مما روي عنه. فنخرج بكتابين : الكتاب الاول هو كتاب الرئيس ، و الكتاب الثاني هو كتاب من حول الرئيس. و يكون الأول حاكما على الثاني ، و مرجعا في الفصل في اختلافاته . و لا نستطيع ان نعطي الكتاب الثاني مرتبه مساويه للاول و لا حتى تدانيها ، فلعل بعض الرواه ممن تمكن من ان يكون متسلطا و ذا نفوذ في البلده بعد وفاه الرئيس ، ممن يكرهه في الباطن و يريد افساد سيرته و فكره، فاخترع و اختلق ما اختلق عليه ، و لعل البعض نسي ، و لعل البعض من المنافقين الفساق ، و لعل البعض ممن له نيه حسنه الا انه اختلط عليه الامر او اختلط على من روى عنه (و ليس احد منهم بمعصوم عن النسيان و الزلل و الخطأ العمد او شبه العمد او العمد اللاشعوري). خصوصا ان الرئيس في مؤلفه حدث عن وجود امثال هؤلاء المغرضين و المنافقين و الكذابين و طلاب الدنيا في كتابه ، كما حدث عن وجود المخلصين و الاتقياء و المحبين و العاشقين في كتابه . الا انه لم يعين لا أسماء هؤلاء و لا أسماء هؤلاء ، فلا مجال للقطع و لا شبه القطع في مثل هذه الموارد بناء على المؤلف الحاكم للرئيس . فان كنا سنميز المتابع للرئيس من المنافق ، فان روايات هؤلاء عنه ستظهر ذلك بعد ان يتم عرضها على كتاب الرئيس الاصلي و الثقل الاكبر و المرجع الاقدس الاكرم. و في كل الاحوال ، من يستمسك بكتاب الرئيس ، و لا يبالي حتى بكل اللغط الذي اثير في الكتاب الثاني ، فانه ان صدق الطلب و دقق في البحث و التزم بكتاب الرئيس، فانه يكون بحق تابعا كاملا له.

فماذا لو كان الكتاب الاول هو كتاب الله ، و الكتاب الثاني هو مئات الالاف من الروايات و قال و قيل و سياسه و وضع و اختلاق بلا ورع و كذب بلا حرج ، و الكذب كان منشورا بين المحدثين و الوضع منشورا بين الصالحين ، و الاختلاق قائما بين المغرضين من كل الفرق و الطوائف و الحكام و السلاطين . فان هذا التورع عن الخوض في هذا الكتاب الثاني يكون أولى و أكبر. و لكن ان كان و لابد ، ان كان و لا بد ، ان كان و لابد ، فجمع كل هذه المرويات و اعطائها نفس القيمه الاساسيه ، ثم عرضها على كتاب الله تعالى الذي هو الحاكم فيما يتم الاختلاف فيه ، سواء كان الاختلاف بحسن نيه او سوء نيه ، هذا العرض هو الوسيله الاقوم لذلك .

و مثل ذلك في القرءآن كمثل الهدهد الذي جاء بالنبأ عن قوم سبأ لسليمان . فقص على سليمان ما شاهده و علق عليه بتعليقاته الخاصه . ثم ماذا فعل سليمان ؟ هل قبل منه ذلك كما هو اعتمادا على حسن نيه الطير و صدقه و اخلاصه . أم قال له " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين " ؟ و هذا و ليس للطير مصالح سياسيه و لا شهوات جسمانيه و لا اغراض دنيويه ولا شئ من كل ما يعترض الناس . " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين " . في حاله سليمان ، كان محل الخبر قائما فاستطاع ان يحقق في الخبر بالوسيله التي تحقق بها .

و أما بالنسبه للخبر الذي زال محله ، فلا يوجد امامنا الا احد ثلاثه امور :

الاول ، ان نرد الخبر جمله و تفصيلا بناءا على ان في كتاب الله تفصيل كل شئ يريد الله تعالى ان يفصله للانسان (و هذا التوجه الاعلى المخلص المحض).

والثاني، ان نعرض الخبر و محتوياته المنسوبه للرسول الاول عليه السلام على كتاب الله الذي هو مرجع الرسول الاول و المتبع الاول له (و هذا توجه وجد منذ القدم و لكنه مستضعف و بدأ يقوى في هذا الزمن و لله الحمد و هو ما ندعوا اليه هنا بالنسبه لمن لا يحتمل الطريق الاول) ،

و الثالث، ان نعتمد على بعض المعايير الروائيه من قبيل ما وجد في ما يسمى بالجرح و التعديل و علل الروايات و نحو ذلك ، و هو التوجه الذي كانت له اليد العليا ، و تفرقت الأمه بسببه تفرقا شديدا على المستوى الكلي و المستوى الجزئي . و قد نظرنا في هذا نظره مختصره في هذا الكتاب. و هذا أدنى الطرق و المسالك التي يمكن ان يتخذها المؤمن بالله و رسوله. و هو التوجه الذي اردنا نقده بل و نقضه في هذا الكتاب . و لكن ان كان و لابد من ان يتم اتخاذ هذا المسلك ، فلعل النظر في روايات الفرد سواء كان من الطبقه الاولى او ما بعدها ، ثم النظر في محتويات هذه الروايات و عرضها على كتاب الله ، فالذي يروي روايات تتناقض مع الكتاب العزيز يتم التأشير عليه باشاره حمراء ، اي يحتمل انه من المنافقين و الكذابين ، و الذي يروي روايات تدل على كتاب الله و تكشف بعض ما فيه و تبينه للناس ، فهذا يؤشر عليه باشارات خضراء ، اي يحتمل انه من المؤمنين المخلصين ، و هكذا لا ننظر فقط الى ما قيل عن هذا الشخص او ذاك ، و لكن ننظر في مضمون رواياته ، و على أساس هذا المضممون يتم تقييم الشخص ، اي بحسب علاقه هذا المضمون بكتاب الله . و هذا معيار خير من كل المعايير التي اصطنعها اهل الجرح و التعديل و علل الروايات و ما سوى ذلك من معايير شخصيه عرفنا بعض اهم ما فيها فيما سبق فلا نعيد. و أما معيار النظر في متن رواياته و عرضها على كتاب الله، فان هذا يجعل حجيه الروايه و قيمه الراوي تابعه لأمر موضوعي (الهي نبوي) يملك ان يتأكد منه و يفهم منه كل من ينظر في تفاصيل البحث القائم في القرءآن . فهذا يكون وسيله لدراسه القرءآن و النظر فيه، من خلال النظر في بحوث عرض متون الروايات عليه . و هذا احسن ما استطيع تصوره في هذا المجال.

فاذن مستويات النظر في كل فكره او حادثه او مقوله او خبر ، ايا كان المصدر و ايا كان القوم و ايا كانت الامه و ايا كانت الديانه و ايا كانت الفرقه و الطائفه ، باختصار ، كل ما هو غير القرءآن ، يكون بتجريد المقوله من ثوبها النسبي الخاص و عرض الخلاصه المستفاده سواء كانت حكم او علم او تصور او قيمه ، على كتاب الله ، و بهذا تتبين الامور ، و يتم وزنها بالقسطاس المستقيم . و هذه هي الرحمه المبسوطه على الجميع ، " و ما ارسلناك الا رحمه للعالمين ".

(إفك عدم تدوين القرءان على عهد الرسول الاول سلام الله عليه)

أولا ، النبي يتلو الكتاب و يخطه بيمينه من بعد نزول الوحي عليه ،يقول الله "و ما كنت تتلوا من قبله من كتب و لا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون" ، في ايات اخر يقول " و ما كنت تدري ما الكتب و الايمن " و قد اصبح بعد نزول الوحي عليه يدري الكتاب و الايمان. و يقول في يوسف " و ان كنت من قبله لمن الغافلين " و هنا يذكر " من قبله " كما في قوله "و ما كنت تتلوا من قبله " ، هي هي ، و قد اصبح – من بعده – من الذاكرين الغير غافلين، و بالتالي اصبح من بعده من الذين يتلون الكتاب و يخطه بيمينه . فالايه في صدر الباب تنفي وجود امرين قبل نزول الوحي عليه : تلاوه الكتاب و الخط باليمين. و معلوم بالنصوص الكثيره انه اصبح يتلو الكتاب و يتلو من الكتاب و يتلو الصحف المطهره. "اتل ما اوحي اليك من كتاب ربك " ، " رسول من الله يتلو صحفا مطهره " . فبالاضافه الى كون التلاوه و الخط في ايه واحده ، فانقلاب عدم تلاوته من الكتب الى تلاوه ، يؤدي كذلك الى ضروره انه من بعد عدم الخط اصبح يخط الكتب بيمينه. فان قوله في الايه " من قبله " يعني انه من بعده اصبح يتلو و يخط. بل في الايه التي ليس فيها "من قبله" و هي الايه القائله "و ما كنت تدري ما الكتب و لا الايمن " تثبت بنفسها انه اصبح يدري ما الكتب و ما الايمان. و اقول بنفسها ، لان كلمه "كنت" فيها تدل على الماضي الذي تغير ، خصوصا اذا نظر اليها في سياقها بالاضافه الى السياق العام للقرءآن كله ، و من البديهي ان النبي يعلم الكتاب و الايمان. فالايه التي فيها قيد " من قبله " تدل بدلاله أقوى على تغير الحال من بعده.

ثانيا ، قد ذكر الله كلمه " الكتاب " و تصريفاتها في القرءآن اكثر من ٢٨٠ مره ، في كثير منها الدلاله مباشره على كتاب الله هذا ، فهو كتاب مكتوب . في صحف مطهره ، الرسول يتلوها على الناس- مسلمهم و كافرهم.

ثالثا ، الله يأمر في آيه الدين " يأيها الذين ءامنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، فليكتب بينكم كاتب بالعدل ، و لا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب و ليملل الذي عليه الحق و ليتق الله ربه و لا يبخس منه شيئا ، فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، و استشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل و امرأتان ممن ترضون من الشهدآء ، أن تضل احدىهما فتذكر احدىهما الاخرى، و لا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، و لا تسئموا أن تكتبوه صغيرا او كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله و أقوم للشهده و أدنى أن لا ترتابوا ، إلا أن تكون تجره حاضره تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، و إشهدوا اذا تبايعتم ، و لا يضار كاتب و لا شهيد ، و ان تفعلوا فانه فسوق بكم ، و اتقوا الله و يعلمكم الله و الله بكل شئ عليم ". تسعه مرات ذكرت الكتابه بتصريفاتها ، و الاملاء ذكر نحو ثلاث مرات ، و التشديد في الامر بالكتابه في دين صغير او كبير ظاهر في الايه ، و الاستثناء الوحيد في في مسأله التجره الحاضره التي يديرها التجار بينهم ، و يذكر فوق الكتابه الشهاده ، و يحدد عدد الشهداء و تفاصيل ذلك . ثم ان لم يكف كل هذا فان الله تعالى قد اظهر من حكمه كتابه الدين الصغير او الكبير ، فحدد ثلاث حكم : الاولى " أقسط عند الله " و الثانيه " أقوم للشهده " و الثالثه " أدنى ألا ترتابوا " . ثم يحدد حكمه الاشهاد ، و خصوصا في المرأتين فيقول " ان تضل احديهما فتذكر احديهما الاخرى". و هذا كله نعيد و نذكر بانه في مسأله دين "صغيرا

او كبيرا" ، و يجب كتابه تفاصيل الدين ، اي قدره درهم او خمسه الاف دينار مثلا ، و يحدد اجله اي الى اسبوع او ثلاث سنوات مثلا ، ثم يحدد في ان يكون المستدين الذي عليه الحق هو الذي يملي على الكاتب بالعدل ، ليكون ذكرى و مزيد من الحجه عليه فيما يبدو . و نعود و نذكر للمره الالف ان هذا هو تعليم الله فيما يخص دريهمات من تراب الدنيا . ثم يأتي من لعنهم الله فأصمهم و أعمى ابصارهم و يزعموا أن الله تعالى لم يأمر نبيه بأن يكتب أعظم كنز في هذا الوجود !! يزعموا ان الكتابه التي فرضها الله في الدين و شدد فيها - مما يعني وجود الكتبه و وجود الات الكتابه و موادها اذ لا يكلف الله نفسا الا وسعها و الله اعلم بما يأمر و من يأمر و قدرات من يأمر - اي ان هذه الديون الماليه التافهه بالنسبه للمال الاعظم و زاد الاخره و المعاد و نور العالمين و الحجه الكبرى على الثقلين - هذه الديون اهتم الله بها كل هذا الاهتمام و جعل لها اطول ايه في كتابه العزيز و لكن القرءآن العظيم فما مدى اهتمام الله و رسوله به؟ لا فهذا الكتاب تركه رسول الله مفرقا على جلود التيوس و العظام ثم جمعه فلان و علان من بعده . و لا يرتاب تسعه اعشار الناس في هذه الامه من أن هذا الافك و الزور - الذي نعلم اسبابه جيدا- هو من الامور اليقينيه الصحيحه ، بل لعلهم لم يسمعوا اصلا بغير ذلك. أرأيتم كرهنا و بغضنا و عداوتنا لهؤلاء السحره من أين تنشأ . انها تنشأ من أمثال هذا الافك الغبي الذي روجوه في الامه منذ القدم ليمرروا عقائدهم الخاصه .

و كدلاله اضافيه ، تدبر في قوله تعالى في سوره النساء ، ايه ٢٩ " يأيها الذين ءامنوا : لا تأكلوا أمولكم بينكم بالباطل إلا أن تكون عن تجاره عن تراض منكم " ما معنى هذا الاستثناء؟ أي استثناء أكل الاموال بالباطل ، "إلا أن تكون عن تجاره عن تراض منكم " ، فهل يعقل أن يجوز أكل الاموال بالباطل في حال من الاحوال ! الجواب يعتمد على فهم معنى كلمه "الباطل" هنا . و يتبين ذلك اذا تذكرنا أن هذا الاستثناء مذكور في سوره البقره في ايه الدين حين ذكر الأمر بالكتابه ، ثم استثنى و قال " إلا أن تكون عن تجاره حاضره تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها " . فالباطل هو عدم الكتابه ! فهو بمعنى الزوال و عدم الثبوت ، بعكس معنى الحق الذي هو الثابت . و حيث ان الدين الغير مكتوب بالشروط التي ذكرها الله ، اي الكتابه و الاشهاد عليها و بقيه التفاصيل المذكوره في الآيه ، لا يمكن اثباته ، فهذا الاكل للاموال يكون "بالباطل" ، لانه لا يمكن اثباته فهو في حكم الزائل و المعدوم فيما بيننا. و الدعاوى بلا بينات أصحابها أدعياء . فإن كان هذا هو الحال ، فكيف يكون كتاب الله و كلام الله مما يمكن أن يأتيه مثل هذا الباطل الذي هو الأساس الأكبر لكل باطل بعد ذلك . فكون كلام الله لا يأتيه مطلق الباطل ، يعني بالضروره أن يكون مكتوبا مشهودا عليه ، ليس مكتوبا فقط و لا مشهود عليه فقط ، و إن كان الأساس الأكبر هو الكتابه ، و الأساس الاصغر هو الشهاده ، اذ قد يكذب بعض الشهداء ، فيبقى الاساس الذي هو الكتابه . و هو ما وقع و هو الواقع و لله الحمد.

..

ما هي هذه العقائد الخاصه التي من أجلها اخترعوا فكره ان الرسول كان "اميا" لا يقرأ و لا يخط ، على زعم أن هذا معنى كلمه "أمي" في القرءآن(و قد كتبنا في هذا الأمر في كتب أخرى لنا فلا نعيد ، و قد كتب غيرنا فيها فابحث ترى الحق ان شاء الله) ، بل و اضافوا ان الرسول لم يشرف بنفسه على كتاب القرءآن كله و جمعه في كتاب واحد و نشره بين الناس ، و انما الذي تولى ذلك هو ابوبكر و عمر و عثمان و بضعه انفار معهم في روايات تنفع ان تكون ماده للسخريه و ليس للمعرفه ؟ هذه العقائد ترجع الى أمرين أساسيين:

الأمر الأول هو ربط افراد بالقرءآن ، بحيث ان تصبح عصمه القرءآن ملازمه لعصمه هؤلاء الافراد ، فيصبح من يطعن في هذه الشرذمه من الافراد يطعن في كتاب الله ايضا . و هذا واضح جدا في تعاملهم في القديم و الحديث. فابي بكر و عمر و عثمان بالاخص ، هؤلاء هم الذين جمعوا القرءآن و كتبوه مرتبا و اشرفوا على هذا التدوين كما جاء في قصص الافك التي يروونها . و بالتالي اذا طعن احد في ابي بكر او عمر او عثمان قيل له : ان هذا يطعن في النبي و كتاب الله ، و يريد ان يهدم الدين بطريقه غير مباشره ، فان هذا الزنديق حين لم يجد مطعنا في النبي و كتاب الله اراد ان يطعن في "واسطه" نقل كتاب الله لنا و دينه ، و التالي يسقط الدين بسقوط واسطته . هذه هي خلاصه الحجه التي زخرفها لهم أحد ابائهم و اعجبتهم كثيرا و هم عليها الى يومنا هذا .

الأمر الثاني هو رفع مرتبه مروياتهم لمنزله القرءآن ، عن طريق انزال القرءآن من حيث النقل الى مرتبه مروياتهم. فان كان الذي "نقل" لنا القرءآن و كتبه و جمعه هم افراد قلائل من "الصحابه" (و اظن سحر هذه الكلمه قد بطل) فان هذه الروايات ايضا قد وردت عن نفس هذه القله من الصحابه ، و بالتالي الطعن في المرويات بحجه عدم الثقه في رواتها و نقلتها ، يساوي الطعن في كتاب الله لان الذي نقل الروايات نقل كتاب الله . و أيضا هذه من الحجج التي زخرفها لهم الاباء فالتزموها . و باستعمال هذه الروايات ، و خصوصا السحره من قبيل الكتيب المسمى "صحيح البخاري" مثلا ، قد مسخوا دين كتاب الله و قلبوا منظومه قيمه رآسها على عقب ، فما عظمه القرءآن صغروه ، و ما صغره القرءآن كبروه و عظموه ، و ما لم يلتفت له القرءآن باشاره جعلوه عمودا ، و ما اطنب القرءآن في ذكره و تفصيله جعلوه فرعا من فروع الدين لا بأس باسقاطه في معظم الظروف . فكيف يمكن تمرير كل هذا بالروايات و الاقوال المنسوبه الى فلان و علان و كتاب الله حاضر بين الناس ؟ الجواب : انزلوا كتاب الله الى مرتبه هذه المرويات من حيث النقل و الموثوقيه فيه ، فيصبح من ينكر احداهما مضطر الى انكار الاخر.

و مع الاسف ، بل مع الاعجاب و التقدير ، فان ما فعلوه قد افلح لمده اربعه عشر قرنا تقريبا. و نحترمهم لنجاحهم ، و ان كنا نلعنهم لمكرهم و كذبهم و الفساد الذي احاطوا به الامه حتى بلغت الى ما بلغت اليه اليوم . ..

و من تتبع كتب تفاسيرهم يجد أن من علمائهم من كان يعتقد بان القرءآن كان مجموعا على عهد رسول الله و مكتوبا في صحف محترمه تليق بكتاب الله ، و ان الرسول كان يكتب و يقرأ ، بل في مروياتهم ما يثبت هذا . و لكن حتى مضامين هذه الروايات قد تعاموا عنها لغرض العقيده التي ذكرناها او تغافلا و تقليدا ممن تكاسل عن النظر و الاختلاف عن القطيع. و أذكر في هذا المجال بضعه من تفاسير السنه و الشيعه في هذا المجال فيما يخص مسأله الخط و الكتابه و لا نفصل كثيرا و انما نذكر الشواهد ، و هي الايه 48 من سوره العنكبوت لمن اراد ان يراجع. و التعليقات بين القوسين تعليقاتي .

1 روح المعاني للآلوسي . "هذا واختلف في أنه صلى الله عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ (فاذن الامر ليس مجمعا عليه بحسب مقاييسهم)

فقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوي في »التهذيب« وقال: إنه الأصح. وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية (لاحظ ان الحجه هنا ايه قرءانيه، و أما حجه الفريق الثاني فليست قرءآنيه)

. فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ، وروي ابن أبي شيبة. وغيره / " ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ "(و هذه حجه روائيه من كتبهم ، و رواها ابن ابي شيبه و غيره و ليس فقط روايه فرديه)

ونقل هذا للشعبي فصدقه (و الشعبي هذا معروف عندهم و له مقام) وقال: سمعت أقواماً يقولونه وليس في الآية ما ينافيه(دقق في قوله " ليس في الايه ما ينافيه ")

وروي ابن ماجه عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم: " رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر" (و هذه روايه اخرى مؤيده)

والقدرة على القراءة فرع الكتابة (و هذه قاعده مهمه ، و قد ثبتت قراءته بنص القرءآن كقوله "اقرأ باسم ربك" و قوله " اتل ما اوحي اليك من كتاب ربك" فضلا عن البداهه ، اذ كيف ينزل عليه كتابا يقرأه الثقلين و هو نفسه لا يحسن قراءته ! و كيف يدعوا الناس الى تعلم القراءه و الكتابه و هو نفسه لا يعلمها " لم تقولون ما لا تفعلون ")

ورد باحتمال إقدار الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام عليها بدونها معجزة أو فيه مقدر وهو فسألت عن المكتوب ففقيل ..الخ (و هذه تأويلات بسبب العقيده المسبقه لا تدل عليها النصوص)

ويشهد للكتابة أحاديث في »صحيح البخاري« وغيره (و هذه شهاده كتب روائيه عظيمه ايضا) كما ورد في صلح الحديبية »فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله« الحديث (تعليق "و ليس يحسن يكتب" هو من الرواي ، و ليس من مشاهده الرسول يفعل ، فيا سبحان الله، ماذا تريدون اكثر من شهاده قرءآنيه و منطقيه طبيعيه و حتى مشاهده حسيه ! فيظهر ان هذا الرواي المعلق او من روى عنه ممن سوق لفكره جهل الرسول بالقراءه و الكتابه)،

وممن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي وأبو الفتح النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة، وحكاه عن السمناني، وصنف فيه كتاباً (لاحظ تصنيف كتاب كامل في هذه المسأله منذ ذلك الزمان)

وسبقه إليه ابن منية (و يوجد سابق كذلك)،

ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمي بالزندقة وسب على المنابر (هذه سياستهم فتأمل. و قد نبأناك بسبب هذا الطعن و الرمي بالزندقه و السب على المنابر التي يحضرها عموم الناس)

ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف فأجابوا بما يوافقه (فانتصر للحق و اجابه العلماء بصحه ما ذهب اليه فتأمل)

ومعرفة الكتابة بعد أميته صلى الله عليه وسلم لا تنافي المعجزة بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم، (و هذا قول عظيم فدقق فيه . فمدار ما يزعمه اصحاب مقوله جهل النبي بمبادئ الانسانيه ، اي في الظاهر و الا فقد اخبرناك ما هو الباطن ، هو ان جهل النبي بالقراءه و الكتابه حجه على ان ما جاء به هو من عند الله . و هيهات ان يثبت شئ من ذلك اصلا بهذا النحو . و كأن النبي لو كان يعلم القراءه و الكتابه و نظر في كتب السابقين سيستطيع ان يأتي بمثل هذا القرءان !! أترى خطوره و سخف مقولتهم . و كأن الله لم يقل "قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا " . فكأن الحجه تقوم لهذا القرءآن بشرط ان يكون النبي غير قارئ او كاتب من قبل او من بعد نزوله ، و هذا يعني ان العكس صحيح ، اي ان حجيه القرءآن تزول ان تضعف ان ثبت ان النبي كان يقرأ و يكتب من قبل نزوله عليه او من بعده ، و هذا مناقض للقرءآن و ما اثبت به نفسه ، و من يعلم حقيقه القرءآن يعلم بالاضافه الى كل ذلك سفاهه هذا القول. مع ملاحظه ان قوله في ايه الخط " ما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك" تدل على انه لم يكن يتلو و يخط من

قبله ، و لكن من بعده اصبح يتلو و يخط ، و تدل كذلك دلاله شواهديه على ان القرءآن نزل كله مره واحده كما تقرر ذلك ايات اخرى ، و انما النبي كان يقرأه على الناس على مكث ، و لكن حضوره عند النبي كان كاملا في يوم واحد بل في لمح البصر ، و الا لما كان لقوله " من قبله " معنى تام ، اذ بحسب نظريه أخرى اختلقها القوم ، و هي نزول القرءان مجزأ على حوادث تاريخيه معينه كانت هي "سبب" نزوله - و هو افك اقوى من هذا الافك و اخطر منه و هو يساوي محق القرءآن - فانه لا معنى لقول "من قبله" اذ هو ظل ينزل و ينزل ما دام الرسول حيا حتى انقطع قبل وفاته بفتره قليله . فتأمل هذا فانه عزيز. فالحاصل ان الآلوسي لا يجد تعارضا بين الأميه السابقه و المعرفه اللاحقه من حيث اثبات المعجزه ، بل هو يراها معجزه اضافيه ، و هذا يؤيد ما اثبته القرءآن من حيثيات معينه)

ورد بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح ـ إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ـ، وقال: كل ما ورد في الحديث من قوله: كتب فمعناه أمر بالكتابة« كما يقال: كتب السلطان بكذا لفلان، (لاحظ الرد على علم النبي بالتلاوه و الخط: ، روايه و بتمثيل سلطاني فيه ما فيه. و أما اثبات التلاوه و الخط من بعد فقائم على كتاب الله و روايات أيضا و شواهد من المنطق الطبيعي الذي يمارسه اي مفكر ساذج يريد ان يحفظ افكاره الخاصه من الضياع، فضلا عن كتاب رب العالمين من أمه فيها من المنافقين و المغرضين ما الله به عليم) .

وتقديم قوله تعالى: { مِن قَبْلِهِ } على قوله سبحانه: { وَلاَ تَخُطُّهُ } كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطرد، وظن بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده فقال: يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلواً عن الفائدة، وأنت تعلم أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع لا يتم أمر الإفادة إلا إذ قيل بحجية المفهوم والظان ممن لا يقول بحجيته، ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام: " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام، ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وكذا أكثر من بعث إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون لا يكتبون ولا يحسبون فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد، وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة فخلاف الظاهر، وفي »شرح صحيح مسلم« للنواوي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض »أن قوله في الرواية التي ذكرناها: »ولا يحسن يكتب فكتب« كالنص في أنه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ثم قال: وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة وشنعت كل فرقة على الأخرى في هذا فالله تعالى أعلم« . ورأيت في بعض الكتب ولا أدري الآن أي كتاب هو، أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ ما يكتب لكن إذا نظر إلى المكتوب عرف ما فيه بإخبار الحروف إياه عليه الصلاة والسلام عن أسمائها فكل حرف يخبره عن نفسه أنه حرف كذا وذلك نظير إخبار الذراع إياه صلى الله عليه وسلم بأنها مسمومة. وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل بدون خبر صحيح ولم أظفر به " (و لا نحتاج الى هذه التكلفات و عندنا ما هو أقوى منها . و أما قول الظان أن قول الله " من قبله " و ذكره قبل الخط، مما يدل على أن الخط مما هو غير مشمول بالموضوع ، فمرفوض ، و هو فهم فرضه المعتقد المسبق ، و الا فان الايه كامله ، بالاضافه الى وجود شواهد من خط القرءآن نفسه تنفي ان يكون النبي قد قاله بلسانه و خط غيره بحسب فقههم الخاص للخط العربي ، فمن العجائب ان يكون الرسول لا يتأكد حتى مما يكتبه من تحته من كتاب ربه و وحيه و هو لا يحسن ذلك. أي عقول هذه ! ففي ايه يوجد " نعمت الله " و في ايه اخرى " نعمه الله " النطق واحد ، و لو تلونا كلا الايتين على اي فرد - و هذه تجربه جميله قم بها مع انصار جهل النبي - فانه اما سيكتب كلا الايتين بالتاء المفتوحه او بالتاء المربوطه ، لان النطق واحد ، و لكن اختلف الخط. و كذلك في نطق كلمه " علماء " و نطق

كلمه " خلفاء " ، فان الوزن واحد و النطق واحد ، و لكن اذا نظرت الى خط الايه المشهوره " انما يخشى الله من عباده العلماء " فسوف لن تجدها مخطوطه " علماء " و انما ستجدها " العلموا " . و لكن اذا ذهبت الى سوره النمل و نظرت الى خط قوله " و يجعلكم خلفاء الارض " فستجد انها "خلفاء" و ليس " الخلفوا " ، بل في كلمه "كلمه " احيانا نراها مخطوطه " كلمت" و احيانا " كلمه ". و كذلك اسم " الرحمن" لا يكتب بالالف ، مع ان الالف منطوقه. و كذلك كلمه " الكتاب" فاحيانا تكتب " الكتب" و احيانا تكتب" الكتاب" و النطق واحد ، و السياق احيانا يعطي ان " الكتب " تنطق " الكتاب" كقوله في البقره " ذلك الكتب لا ريب فيه " فان ضمير " فيه" المفرد يجعل "الكتب" تصبح "الكتاب" و هكذا ينطقها الناس، و لكن الخط غير النطق. و هذا كثير. فلو كان النبي ينطق و الناس يخطون، لما وجد الخط على ما هو عليه. و هذه مجرد اشارات للتنبه لهذا الامر.)
و يذكر قبل ذلك " غاية ما يلزم من عدم أميته صلى الله عليه وسلم انتفاء أحد وجوه الاعجاز، ويكفي الباقي في الغرض فيكون المرتاب مبطلاً كالمرتاب في نبوة الأنبياء الذين لم يكونوا أميين وصحة ما جاؤوا به " (و ثبوت النبوه يثبت بذات القرءان هذا هو الأساس ، و ان كان الجهل بالتلاوه و الخط السابق قد يكون قرينه بمستوى ما ، و لكن يمكن للمرتاب ان يقول: لعله تعلم القراءه و الكتابه و ما ادراني انا ، و هل انا الله حتى اعلم كل شؤونه الداخليه و الخارجيه، و ما ادراني انه لم يتعلم في بيته او حين كان مسافرا او نحو ذلك. و هذا كلام معقول مقبول، و لما ثبت شئ من هذه الحجه به ، او لا اقل لوقع الارتياب . و لذلك نقول انها قرينه و لكنها ضعيفه و لا يمكن العلم بصحتها في نفسها فضلا عن افادتها المعنى الذي يراد منها ان تفيده. و لذلك قال الحق " لارتاب المبطلون " فهم مبطلون اصلا و يريدون الابطال . و قد قالوا اصلا " اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكره و اصيلا ". و انما احتج الله تعالى بأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرءآن ، و لا بسوره من مثله ، سواء كان ما ادعوه في النبي صحيحا او كاذبا. و الانس و الجن العلماء منهم و الجهلاء لا يستطيعون ان يأتوا بمثل هذا القرءآن ، للخصائص الذاتيه للقرءآن التي يعرفها أهل الحق أي أهل الله و المعارف العاليه، " و يعلم الذين أوتوا العلم " أن ما انزل على النبي من ربه هو الحق . الذين أوتوا العلم و ليس من يريد الابطال و لو انزل عليهم كتاب في قرطاس فلمسوه بايديهم لقالوا هذا سحر مبين. و الله الهادي).
فهذا الآلوسي، و نذكر مفسير شيعي امامي ، و هو الطبرسي صاحب مجمع البيان :
" قال الشريف الأجل المرتضى علم الهدى قدّس الله روحه: هذه الآية تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة فأما بعد النبوة فالذي نعتقده في ذلك التجويز لكونه عالماً بالكتابة والقراءة والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين وظاهر الآية يقتضي أن النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها ولأن التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة لأن المبطلين إنما يرتابون في نبوته صلى الله عليه وسلم لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة فأما بعد النبوة فلا تعلق له بالريبة والتهمة فيجوز أن يكون قد تعلمها من جبرائيل (ع) بعد النبوة " (فليأخذ بهذا من يرى حجيه رأي هؤلاء الاعلام- رحمهم الله).

...

فلا حجيه مثل حجيه كتاب الله ، و هو كتاب وصل من الله الى الرسول ثم انتشر في الأمه، و لا يوجد فرد او جماعه صغيره لها سلطه او لها اعتباريه خاصه في "نقل" هذا القرءآن العظيم لنا ، بل هو كتاب بلغه الينا رسول

الله ، و كل جيل بالنسبه لمن بعده متساو في هذه الحيثيه. و لا اعتباريه لا لما يسمى صحابي و لا لتابعي و لا لامام مذهب و لا لرب فرقه و لا لغير من اعتبارات ظاهريه .

بل حتى في مثل بعض الروايات التي تزعم أن ابن مسعود الصحابي مثلا ، كان يرفض اعتبار سوره الفلق و الناس من سور القرءآن ، فإن الروايه تقول أنه كان " يحكهما " من المصحف . فلولا أن كل مصحف كان يكتب في البدء بإشراف النبي المباشر ، أي لو كان كل صحابي يكتب نسخته كيفما اتفق ، لما اضطر ابن مسعود أن " يحك " هذه السور التي لا يراها من القرآءن - على ما تزعم روايات صحيحه عند بعض القوم - بل لما كتبها أصلا . فكونها كانت مكتوبه في مصحفه ، بالرغم من عدم موافقته على كونها من القرءآن ، يعني أن أصل كتابتها في المصحف لم يكن قرارا بيده . كمثل هذه المصاحف التي بأيدي الناس اليوم ، فإنها تأتي على هيئه معينه ، ثم من أراد أن يعبث بالمصحف ، فهو و ما اقترفت يداه .

شاهد آخر : لا يشك أحد مؤمن أو كافر ، عالم أو جاهل ، بأن الإمام علي عليه السلام كان يتلوا من الكتب و يخط بيمينه ، أي لم يكن " أميا " بالمعنى السائد للأميه التي نسبت للنبي عليه السلام . فمن أين تعلم علي القراءه و الكتابه ، بل كان سيدا في ذلك ، إذ من المعلوم أنه تربى في حجر النبي عليه السلام منذ صغره ، و منذ صباه بعث النبي عليه السلام ، فأسلم و بقي معه يتربى تحته حتى بلغ ما بلغ . و ظاهر أنه تعلم ذلك من النبي عليه السلام الذي رباه على الكمالات كلها .

شاهد عظيم آخر : في سوره الفرقان الآيه الخامسه يقول " و قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكره و أصيلا " . لا أدرى كيف أصبحت هذه الآيه في ذهن عموم الناس و كأنها هكذا : و قالوا أساطير الأولين أمر غيره بأن يكتبها فهو يمليها عليهم بكره و أصيلا ! لأن فهم الناس من هذه الآيه كان و كأنها هكذا . لا أقل أن منهم من يفهم " اكتتبها " بأنه لم يكتبها هو ، بل أمر غيره بكتابتها ، و هذا فهم باطل جزما . و لو كان كذلك لما قال " فهي تملى عليه " ، و لكن لقال : فهو يمليها ، كما قال في آيه الدين " فليمل الذي عليه الحق " للكاتب بالعدل . فالذي يملي الكلام غير الذي يكتبه .و دعواهم هنا أن الذي يملي الأساطير هو مقتضى " يعلمه بشر " أو غير ذلك من دعواى ، و أن الذي يكتبها بعد سماعها من هذا الذي يملي عليه هو النبي ، " فهي تملى عليه " . فمعنى " اكتتبها " أنه لم يؤلفها من عنده هو ، إذ يعبر عن الذي يكتب من عنده بأنه " كتبها " ، و لكن حيث ادعوا أن الذي يملي عليه غيره ، قالوا " اكتببها " . و هذا واضح من سياق الآيه المباركه . و كلامهم حق من حيث أن الذي يملي عليه هو جبرائيل ، و هو الكاتب ، فدعواهم صحيحه من حيث الأصل باطله من حيث تعيين المصداق - كالعاده . و ما دعوى أنه عليه السلام لم يكن كاتبا للقرءآن بنفسه ، إلا من أجل أن يتم نسبه هذه الكتابه لغيره - كما فعلوا فعلا - ثم تحصين هؤلاء بربطهم بالقرءآن ، فإن رفضهم أحد قالوا في حق الرافض أو الشانئ لهم " إن هذا الخبيث يريد أن يطعن في القرءآن بطعنه في الذين كتبوه و جمعوه " . و من هنا العتو و العناد الشديد في تثبيت هذا الزعم . و ما الآيات القرءآنيه التي تثبت أنه عليه السلام كان كاتبا و قد خط الكتاب بيمينه بعد نزول الكتاب عليه ، إلا شاهدا إضافيا من بين عشرات الشواهد أنه لم يستطيع و لا أخبث و أعتى البشر أن يزيد أو ينقض في هذا القرءآن قيد أنمله . و الحمد لله الذي حفظ كتابه له و لنا لا إله إلا هو . و لاحظ مثلا قول الزمخشري رحمه الله في كشافه ، في هذه الآيه المباركه ، إذ يثبت أولا أن معنى " اكتتبها " هو (كتبها لنفسه و أخذها . كما تقول :

استكب الماء و اصطبه : إذا سكبه و صبه لنفسه و أخذه) و لكن بعد ذلك يدعي وجود قراءه لكلمه " اكتتبها " على غير القراءه المشهوره المثبته في هذه المصاحف ، و هي قراءه "اكتتبها" على البناء للمفعول ، فيكون المعنى (اكتتبها كاتب له ، لأنه كان أميا لا يكتب بيده) لاحظ كيف أن عقيده الأميه هذه هي التي دفعت هذا القول . ثم لاحظ كيف أنه يعبر – وهو صاحب اللسان العربي الفصيح و المعتزلي الدقيق – (لا يكتب بيده) بدل أن يقول (لا يخط بيده) إذ سيقع عندها في حرج إذ القرءآن استعمل عباره الخط و هي أوضح من عباره الكتابه ، " و ما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك " . و لا يخفى ما في بقيه كلام الزمخشري و توجيهاته لمقوله أصحاب ذلك الاعتقاد الفاسد في الأميه ، من لجلجه و تعنت فليراجعه من أحب أن يزعج ذهنه بالشقشقات الفارغه الغريبه عن منطق القرءآن و بيانه . و الطبري لم يذكر شيئا يستحق الذكر ، و الرازي ذكر كلام الزمخشري ، و القرطبي ذكر أن " اكتتبها " يعني محمدا " فهي تملى عليه " أي تلقى عليه و تقرأ ، و هنا عدم دقه إذ إن التلاوه عليه و القراءه شئ ، و الإملاء شئ آخر ، الإملاء يعني أن الذي المملى عليه يكتب ما يتم إملائه كما في آيه الدين ، و أما مجرد التلاوه و القراءه عليه فليس فيها هذا المعنى و إن كانت متضمنه في معنى الإملاء فتأمل ، و ابن كثير زعم تواتر و ضروره عدم تعاطي النبي لشئ من الكتابه ، مما يعني أنه كان يرى أن قولهم " اكتتبها " يدل على أنه هو عليه السلام الكاتب لها ، ثم ادعى ابن كثير كذب هذه الدعوى فلاحظ هذا الاقرار منه ، و ارتكب ابن كثير نفس خطأ اختزال معنى " تملى عليه " بالقراءه عليه . البيضاوي ذكر نفس ما قاله الزمخشري . الشوكاني يقول أن " اكتتبها " تعني استكتبها ! فسبحان الله ! و ذكر احتمالات غير ذلك . و حسبنا هذا . و خلاصه القول : " اكتتبها فهي تملى عليه " تعني أنهم هم كانوا يملون عليه و هو يكتب ما يمليه هؤلاء عليه . و أربعه كلمات قرءآنيه أفصح من عشره كلمات سلطانيه ! ولولا الشقاق لاكتفينا بالقرءآن .

و ما ذكرته في هذا الباب من شواهد و أمثله ، إنما هو البعض و ليس الكل . و تتبع كل روايه و كل قصه بل و كل آيه من قبل ذلك فيها دليل و شاهد و مثال على توفر مواد الكتابه و قيام النبي و من معه بكتابه أمور هي دون القرءآن في المرتبه بمراحل ، لطال الباب و اتسع الكتاب . إلا أن هذه الشواهد كافيه لمن عقل ، و هي بدايه و توطئه لبحوث أخرى يمكن أن يقوم بها من يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلا و يهئ لنفسه قدم صدق عند إلهه بالقيام بدينه و الانتصار لكتابه. فإن كان من ينتصر لبشر من عرض الناس في حق له أجر عظيم يوم يقوم الحساب ، فما ظنك بمن ينتصر لكلام الله و أعظم كتاب . " إن في ذلك لذكرى لأولي الأباب " .

...

يقول الحق تعالى " ثم جعلنك على شريعه من الأمر فاتبعها ، و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون " .

من أهم الآثار التي ترتبت على عدم الأخذ بمبدأ حسبنا كتاب الله أخذا فعليا حقيقيا شموليا ، هو أنه إلى يوم الناس هذا لا يوجد في المسلمين كتابا او كتبا في الشريعه تؤسس و تفصل مسائل الشريعه باستقراء كتاب الله تعالى و تنظيم ما ورد فيه في شتى المسائل في مواضع متعدده . و هذا من العار الذي لن يمحوه الدهر ، و من الإثم الذي ستبوء باثمه الأمه بأكملها إلى يوم يبعثون ، بل إلى ما بعد يوم يبعثون . فبعد أربعه عشر قرنا من وجود كتاب الله بيننا ، لم يستطيع جماعه او مذهب او حزب او طائفه او فرقه أن تخلص تماما لكتاب الله و تسعى للتفقه فيه تفقها شموليا استقرائيا كاملا بقدر الوسع ثم يأتي من بعدهم لينقحوا هذه الكتب و يزيدوها تفصيلا بمزيد تعمق في كتاب الله . في حين أن فقه فلان و علان قد نال أوفر من حظه على مر العصور . و ليس الاستدلال بآيه من هنا و آيه من هناك يعني أن الفقه الشرعي المعين مبني على كتاب الله . الكلام كل الكلام في أن يكون الفقه الشرعي مبني من الألف إلى الياء على كتاب الله . و بعد الاستقراء الشامل لكل مسأله ، و النظر في القصص القرءآني الذي يعين على مزيد تبصر في تفصيل الايات و شئ من تطبيقاتها المختلفه ، يتم وضع المسأله بآياتها بالتدرج المناسب في التفقه فيها و سلسله التفكير التي على أساسها توصل إلى النتيجه المعينه من توصل. ثم بعد أن توضع كتب الشريعه القرءآنيه ، يستطيع من لم تعجبه او وجد فيها نقصا أن يأتي بشركائه بعد ذلك ليعدلوا في أحكام الله و يضيفوا اليها ما يشاؤون ، و لكن على الأقل تكون الأمه على بصيره فيما يتعلق بالمدى الذي فصل الله فيه الأحكام الشرعيه و الوصايا الربانيه . ثم بعد ذلك يستطيع أن يحيا من حيي عن بينه و يهلك من هلك عن بينه . و إلى يوم الناس هذا لا يوجد كتاب واحد في هذا المجال ، و نرجوا من كان يعرف مثل هذا الكتاب أن يدلنا عليه . و لا يقال : ان كان "حسبنا كتاب الله" فما بالك تطالب بوجود كتب اخرى . لانه فرق كبير بين كتب تدرس كتاب الله ، وكتب تخترع ما تشاء و تنسبه الى الله . و كتاب الله نفسه يدعونا بذاته الى القيام بمثل هذا البحث و الدراسه فيه و التدبر و الترتيل و تنظيم الايات الوارده في مواضع متعدده للتبين من أموره . و "كتابه" هذه الدراسه في صفحات من ورق ، او "كتابه" هذه الدراسه في صفحات الذاكره البشريه هو "كتابه" في نهايه المطاف، إلا أن الفرق بينهما من حيث الكمال و الحسن واضح . و مثل ذلك أن يأتي شخص بكل الايت التي تتحدث عن اليتامى ، فالكتاب العزيز لم يجمع كل ما يتعلق باليتامى في موضع واحد، و لكنه فرقه في مواضع شتى و هذا التفريق متعلق بالحكم و العلم و القوى التي يريد القرءآن أن ينميها في الانسان. فالجمع بين هذه المواضع في كتاب واحد ، ثم دراسه هذه الأمور في وحده موضوعيه هو أمر لا يمكن لمتفقه في القرءآن إلا أن يقوم به ، إلا في صفحات عقله و ذاكرته ، أو في صفحات عقله و ذاكرته بالاضافه الى صحفات الورق و بحبر القلم بدل حبر الذاكره الذي اثبت القرءآن نفسه أنه يمكن أن يضل الانسان فيه و يمكن أن يكون من الباطل الذي لا يثبت إن لم يكتب . بالاضافه الى التعاون بين الناس على البر و التقوى و المراجعه العلميه و التنقيح الفكري الذي يمكن أن يجمع بين عقل في الشرق و عقل في الغرب فيزداد علم الأمه عموما بكتاب ربها . فالذي ينظر إلى آيه متعلقه بمسأله ما في سوره البقره ، فيحكم بحكم ، لا يمكن أن يساوي حكمه حكم من ينظر في نفس هذه المسأله و لكن يستقرئ سبعين سوره قرءانيه ، و هكذا . ففريق كبير بين كتب تدرس القرءآن، و كتب تنسب نفسها الى القرءآن و رب القرءآن بحق او باطل و لا تظهر دراسه و لا سلسله تفكير و لا روح كشف. فلا يفهمن أحد أن "حسبنا كتاب الله" تعني أن لا يكون في الأمه إلا كتاب واحد و نقوم بحرق بقيه الكتب ، فهذا سخف ، لا أقل أن كتب اللسان العربي ضروره ،

فضلا عن ما سوى ذلك ، و الموجبه الكليه تسقط بالسالبه الفرديه . المقصود هو أن يكون مصدر التفقه الأساسي و المحوري هو كتاب الله ، و تشكيل الوعي مبني على آيات الله و علمه و حكمته التي انزلها علينا ، و يكون السعي للاستزاده من التفاصيل في شتى الأمور التي تعرض لها القرءآن العظيم مبني عليه وحده كأصل و مرجع و حكم فصل في أي أمر إن عرفنا حكمه في هذه القضيه او تلك .

فالأحكام التي يصدرها شخص بحق كتاب الله ، في أي مسأله من مسائله ، إن لم يكن قد قام ببحث استقرائي تام او شبه تام ، او اقام حجج معينه تفصيليه منه ، فإن حكمه لا وزن له . و من أمثله ذلك ما نقلناه من قبل عن ابن حزم - رحمه الله - و هو عين ما يقوله علماء الاحزاب على اختلافهم إلى يومنا هذا ، أي أن كتاب الله لم يفصل الشريعه . مثل هذا الحكم لا وزن له ، بل إنه كذب بل كذب محض . و ذلك على الأقل لثلاثه أسباب :

السبب الأول هو أن كتاب الله يذكر أنه قد فصل كل شئ تفصيلا ، و فصل اياته تفصيلا و بينها للناس تبيينا . فهذا هو الأصل الأكبر الذي نعتمد عليه في كل تعاطينا مع كتاب الله . و ادعاء غير ذلك و مخالفه هذا الأصل هي تكذيب مباشر لكلام الله . و نسأل الله أن يكون من يدعي مثل ذلك من اخواننا يقوله بجهاله و غفله ، و ليس عن عمد و غرض .

السبب الثاني هو أن الذي يدعون أن " كتاب الله لم يفصل الشريعه " لم يقوموا بدراسه تفصيليه للشريعه من كتاب الله . فمثلا ، هم لم يدرسوا كل ايات الصلاه او اليتامى او الوصيه او الحكم بين الناس ، ثم ينظروا في كل ما ورد في ذلك ، ثم يبذلوا فيه الشهور و السنين - كما بذلوا في فقه أئمتهم القرون بعد القرون - بل ياليتهم يبذلون الأيام في سبيل التفقه في الشريعه القرءآنيه ، يا ليتهم يبذلون عشر معشار وقتهم في دراسه و استخراج الشريعه القرءانيه . فدعواهم لا بينه عليها ، بل البينات ضدها . فليخرجوا لنا كتابا فيه مثلا دراسه تفصيليه لحرمه " و لا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق" أو حرمه " و أقيموا الوزن بالقسط " أو ما معنى اصلاح اليتامى و حفظ أموالهم ، او غير ذلك من مسائل الوصايا الشرعيه ، ثم يسردوا الايات ، ثم يدرسوها و يدققوا فيها و يقارنوا بينها ، باختصار كل ما يتعلق بالتفقه فيها ، ثم يخرجوا علينا بالنتائج ، ثم بعد ذلك يقولوا : ان هذه الشريعه ناقصه قاصره ، و لاكمالها نحتاج إلى كذا و كذا ، فعندها سنحترمهم لدعواهم المبينه و إن كنا قد نخالفهم في نتائجهم المعينه . و لكن هل يوجد شئ من هذا القبيل ؟ الجواب لا . و نرجوا أن نكون على خطأ في حكمنا هذا . و لسنا على خطأ ، مع الأسف .

السبب الثالث هو أن الذين يدعون أن "كتاب الله لم يفصل الشريعه" عندهم شريعه معينه في بالهم أثناء ترويجهم لدعواهم هذه . و حينما يقولون "كتاب الله لم يفصل الشريعه" إنما مقصدهم بالشريعه هو هذه الشريعه التي أشربها قلبهم ، و ارتكزت عليها عقولهم . نعم و الحق يقال ، إن كتاب الله لعله فعلا لم يفصل شريعتهم ! و لكن كتاب الله فصل الشريعه التي يريد الله تفصيلها و الشريعه التي ارادها لنا . و فريق كبير بين الأمرين . و الكلمه المشهوره المله التي يعيدونها و يكررونها هي : أين ثلاث ركعات و اربع ركعات ، أين تحريم اكل الحمر الوحشيه و ما اشبه . فالمشكله عندهم هي المنطق المعكوس و القلب المنكوس. فيزعمون أن الأعلى قاصر ، لأن الأدنى قال لهم كذا و كذا . و لا يذكرون أن الأعلى يحكم الأدنى ، و يحده و يؤطره . فمن لا يضع في استعداده أن يخرج من كتاب الله بنتائج في المسائل المعرفيه او الشرعيه مما يخالف ما يعتقده مسبقا أنه معرفه نبويه او شرعيه ، فحظه

من القرءآن كحظ ابليس في الجنه . و كيف لا يكون من اشباه ابليس من يملك آوامر في نفسه يريد فرضها على الله و يعارض اوامر الله بهذه التي في نفسه ، التي يدعي أنها خير مما أمر به الله ؟ ليس أمامهم إلا أن يقولوا: إن هذه الأوامر هي عين أوامر الله أو أنها غير أوامر الله. فإن قالوا أنها أوامر الله أو مستظله بظل أوامره تعالى ، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . و إن قلتم أنها غير أوامره تعالى ، فأنتم و ما اخترتم لأنفسكم .

فللخروج من هذه المشاكل التي فرقت الأمه و شقت سماءها الواحده ، يجب أولا أن نتفق جميعا و نقبل أن يكون الاجمال و التفصيل في دين الله مستمد من كتاب الله ، علمه هذا التفصيل من علمه و جهله من جهله. و لنذكر هنا جوابا مختصرا على ما تذكره بعض الكتب او العلماء حول أمور تفصيليه لا يظهر لنا نصها او كيف تم استنباطها من الكتاب العزيز . فعدم علمنا بالتفصيل لا يعني أن التفصيل غير موجود . انتبه لهذا الفرق . فكوننا مثلا لا نجد أن القرءآن يقول : ثلاث ركعات و اربع ركعات، لا يعني أن هذا الأمر حتما مخالف لكتاب الله . فقد يكون مستظل بالعموم الوارد في الكتاب العزيز، كمثل قوله في قصه البقره " تذبحوا بقره " و ترك الأمر مطلقا ، فمن شاء أن يحدد لنفسه و قول أنه سيذبح بقره تفصيلها كذا و كذا ، فهو و ما اختار ، و هذا لا يعني أن فرضه على نفسه و تحريمه على نفسه ما سوى هذه البقره التي اختارها يعني أنه مخالف لكتاب الله ، فالعموم و الاطلاق يصح على كل افراده إن وجدت الشروط الاساسيه للأمر في هذا المصداق المعين . بالاضافه الى ذلك ، نحن نعلم و كل من يدرس كتاب الله يعلم أن التعمق في التحليل و التأويل و عقل بعض الايات في سوره مع بعض الايات في سور اخرى يخرج لنا نتائج معرفيه و شرعيه متعدده قد لا يفهمها بل لن يفهمها على الاغلب من لا يدرك كيف قمنا باستنباط هذا الأمر الذي استنبطناه . و بالتالي ، و لعمق الاستدلال و طول سلسله التعقل و الربط ، قد يظن أن حكمنا مخالف لحكم الكتاب العزيز أو أنه مستمد من غيره، و هذا حكم غير سليم و مبني على جهاله . الوقوف في هذا المجال أحسن . و القاعده هي " لا تقف ما ليس لك به علم " . و في اعتقادي الخاص ، أن عدد لا بأس به من الافكار التي وردت في المرويات و كتب العلماء و الفقهاء من شتى الفرق مما يقع تحت أحد هذين الأمرين : عموم قرءاني أو عمق استدلالي . فليتمهل من يحكم في مثل هذه الأمور . و حسبك أن تدرس القرءان و تستخرج الأصول و المبادئ منه ، حتى تستطيع أن تحاكم ما يأتي بعد ذلك من أي جهه كانت إلى هذه الأصول ، ثم تتعمق في التفاصيل بعد ذلك فيه .

و ثانيا ، يجب أن تقوم طوائف أهل الذكر و الفكر في الأمه بدراسه المسائل مسأله مسأله من الكتاب العزيز ، من تعريف الأمور إلى تأسيس الأصول إلى تفصيل الفروع . و مثال ذلك مسأله حرمات الله. فهذا الكتاب - أي كتاب حرمات الله - يحتاج على الأقل إلى أربعه أبواب : باب تعريف الحرمه . باب الأصول الكليه للتحريم و التحليل. باب جمع كليات المحرمات التي وردت في كل كتاب الله . باب تفصيل حرمه حرمه من هذه المحرمات من كتاب الله . فمثلا من الايات التي تعرف التحريم قوله في موسى " و حرمنا عليه المراضع من قبل " . و من الايات التي تضع أصلا من أصول التحريم قوله في النبي " يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك " . و من الايات التي تبين كليات المحرمات هي الايه ١٥١ إلى ١٥٣ من سوره الانعام ، و ايه " انما حرم ربي الفوحش ما ظهر منها و ما بطن و الاثم و البغي بغير الحق " الايه . و مع استقراء كل ما ورد في التحريم نجد حدود العشرين بندا : الطعام و الربا ، الشرك ، بالوالدين احسانا ، لا تقتلوا أولادكم ، لا تقربوا الفواحش ، لا تقتلوا النفس ، لا تقربوا مال اليتيم ، اوفوا الكيل و الميزان ، اذا قلتم فاعدلوا ، بعهد الله اوفوا ، اتباع الصراط المستقيم ، عدم اتباع السبل ، الاثم و البغي بغير الحق ، ان تقولوا على الله ما لا تعلمون ، مسائل الحج للبيت ، الخبائث ، محرمات النكاح ، اخراج

الناس من ديارهم . ثم كل واحده من هذه الكليه تحتها تفاصيل و حولها حواشي و قبلها اصول و مبادئ . و هذا ما يقوم به الباب الرابع ، فمثلا مسأله اليتامي فصلتها الايات الفاتحه في سوره النساء بالاضافه الى ايات اخرى في سور متعدده . و قس على ذلك . و يوجد كلمات أساسيه في مسأله الشريعه هي : الأمر ، الاراده أي اراده الله ، النهي ، المعروف ، المنكر ، الخير . فمثلا قوله تعالى " أمر ربي بالقسط " و قوله " إن الله لا يأمر بالفحشاء " ، و قوله "يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر " ، و يقوله "يريد الله أن يخفف عنكم " ، و نحو ذلك ، كلها أصول و مبادئ أساسيه في التعاطي مع بقيه المسائل الشرعيه التفصيليه . و كذلك مثلا " يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث " أيضا أصل مهم . ثم التعمق في كل ذلك يعطي ما يعطيه . و في كل باب من أبواب الشريعه القرءآنيه يوجد أصولو وقواعد يثبتها الله ثم يضع عليها التفاصيل و الامثله . و نسأل الله أن نرى قريبا كتابا ضخما يسمى : الشريعه القرءآنيه . مقسم على أبواب الشريعه كلها ، و مرتبا على هذا النسق الراقي و التنظيم العالي و الفقه الرباني . يقوم به جهابذه هذه الأمه ، و ربانيوها في الشرق و الغرب . و ما ذلك على الله بعزيز .

و ثالثا ، لمن شاء بعد ذلك أن يطهر بيت مذهبه و طائفته ، و ينقح ما ورد عندهم على أساس الشريعه القرءآنيه بقواعدها و فروعها ، فهذا شأن كل أهل بيت معين . فمثلا ، ينظروا في حكم الكتاب العزيز في مسأله الوصيه الماليه ، و التي منها وصيه يوصي بها الانسان ، و وصيه اوصى بها الله ، فيرى ما قرره الكتاب في ذلك ، ثم يجد النتيجه (أ) . ثم ينظر في مذهبه و فقهه الخاص ، و يرى أنهم قد حكموا بالنتيجه (ب) . فيقارن بينهما ثم يرجح لنفسه واحد منهما بناء على أدله معينه ، ثم يقول للناس : فقهنا يقول (ب) ، و فقه القرءآن يقول (أ) ، و نحن سنأخذ ب (ب) للاسباب التاليه : كذا و كذا . ثم ينتقل الى المسأله الثانيه و على هذا النمط . هكذا يكون الكل على بينه و ضياء ساطع .

و رابعا ، و هذه الرابعه لا رحمه فيها عندنا البته ، كنفس عدم الرحمه في زعم أن كتاب الله لم يكن مكتوبا من قبل النبي نفسه و في عهده . و هي المسأله التي يسمونها "النسخ" . عندنا أن من يزعم أن في كتاب الله منسوخ ، بمعنى ملغى و مبطل ، فهو من المنافقين ، و هذا حكمه المخفف عندنا ، و أما حكمه الذي تعتقده قلوبنا فهو أنه كافر ، و ليقل بالتأويل الذي يحب بعد ذلك ، فنحن نشهد أمام الله أنه كافر . و إن أصر على الترويج لهذا الافك ، فإننا لن نحاكمه إلى سلطه دنيويه او نحرض عليه العوام أو ما اشبه مما يفعله الهمج ، و إنما سنكل أمره إلى الله. و لا رحمه فكريه عندنا في من يزعم أن كتاب الله محرف نصا او تناقلته شفاه بعض الاعراب ، او ما هو أسوأ من ذلك من حيثيه اخرى و هو أن في كلام الله ما هو باطل لا قيمه له . فيما وراء هذين الأمرين فنحن كلنا رحمه للناس . فهذه هي الخطوط الحمراء التي من تعداها فقد اعلن عداوته لرؤيتنا القرءآنيه. ما وراء ذلك فليقل من شاء كما يشاء ، و إلى الله المصير . فهذا هو كتاب الله الذي بلغه نفس رسول الله و كله كلام الله الحق . هذه قاعده القواعد . ما وراء ذلك من فهم و تعقل فالله يقسم الارزاق و هو ميسر الكل لما خلق له " أعطى كل شئ خلقه ثم هدى " .

و بخصوص مسأله النسخ المبطل هذه نعلق بأمرين او ثلاث على عجاله :

التعليق الأول ، هو أنه لا يمكن أن نحكم بكتاب الله أن الآيه (أ) قد أبطلتها الآيه (ب) ، أو أن الآيه (ب) هي التي أبطلت الآيه (أ) . و أما مزاعم "نزلت قبل" و "نزلت بعد" فنتركها لأرباب الافك و مزاعمهم. و لا حجه من كتاب الله على "نزلت قبل" و "نزلت بعد" التي يزعمونها . هذا أقل ما يقال.

التعليق الثاني ، هو أن أصل دعوى التناسخ هذه مبنيه على قاعده ، و هذه القاعده دعوى ، ثم للتخلص من مصيبه هذه الدعوى زعموا وجود النسخ كحل . ما هي هذه القاعده و الدعوى ؟ هي أن كتاب الله متناقض متعارض يضرب بعضه بعضا ! فهذه الايه تأمر بالسلم ، و تلك الآيه تأمر بالقتال ، و هذا تناقض ، إذن ايات القتال "نسخت" ايات السلم . و هذا المنطق هو الذي أسس للكثير جدا من الحروب الماضيه و الدول التي قامت على أساسها ثم محقها الله من صفحه الارض ، بالاضافه إلى همج هذا العصر من أمثال داعش و ما أشبه مما يعلمه الجميع ، بالاضافه الى تفاصيل اخرى أقل اهميه و تتفرع عن أصل دعوى نسخ ايات السلم. ما فات الهمج هو التالي : إن الله يقول " و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " ، فلو سلمنا بدعواهم أن كتاب الله متناقض متعارض ، فالحل ليس أن نقول بالنسخ ، بل الحل القرءآني هو أن نأخذ هذا الكتاب و نلقيه في البحرو نلعن هذا الذي ادعى أنه رسول الله ! و العياذ بالله . هل تفهمون هذا الكلام أم لا ؟ هل تفهمون أننا لو سلمنا بأصل دعوى النسخ ، الكفر بالقرءان كله هو الجواب . و لا تكون دعوى ابطال البعض للبعض الاخر إلا حيله حاخاميه للتخلص من هذا التناقض . و على هذا الأساس يخرج "دعاه الاسلام" في الغرب الذين يتجادلون مع عبيد الصليب و اليهوذيين و نحو ذلك ، فيستخرجون تناقضات في كتبهم التي يدعون أنها الهيه المصدر ، و يطبقون عليها معيار " و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " ثم يصولون و يجولون في كتبهم ، نصا و معنى ، و يستخرجون هذه المتناقضات ، و التناقض احد صور الاختلاف ، ثم يقولون : هذه ليست من عند الله . و لو كنت صليبيا او ملحدا او حاخاما يجادل في الطرف الاخر لقلت لهذا الداعيه : تقريبا اجمع علماؤكم بوجود النسخ في قرءانكم ، لوجود ايات متعارضه متناقضه ، فكما أن كتبنا باطله لتناقضها فكتابكم باطل لتناقضه ، و أما اذا تخلصت من هذا التناقض باللف و الدوران ، فصدقني يا عزيزي اللف و الدوران عندنا أتم و أدق مما هو عندكم أو لا أقل يساويه . و أذكر مره أني شاهدت الشيخ أحمد ديدات - رحمه الله - "يفحم" خصمه ، و يقول له ما معناه، أن أحد ملوكهم ذكر في موضع أنه كان يملك " أربعه آلاف حصان " و في موضع اخر أنه كان يملك " أربعون ألف حصان " و هذا تناقض لا حل له ، فإذن كتابكم باطل ! و لا أذكر ما أجاب به الخصم ، و لكن جوابي لديدات كان سيكون : كان عنده اربعه ثم صار عنده اربعون ، فلا تناقض! كما أن بعض آياتكم و مروياتكم تذكر جزء من القصه او الموضوع و بعض الاخر يذكر جزءا آخر منها ، كالايه التي تقول ان العزه لله جميعا فتحصر العزه فيه ، و ايه أخرى تقول أن العزه لله و لرسوله و المؤمنين ، فتناقض هذا الحصر ، فهل هذا تناقض و اختلاف ! و أكبر من ذلك ايات تقول أن الاصل في التعامل مع الناس هو السلم ، و ايات اخرى تقول آن الاصل هو القتال ، أليس هذا تناقض ؟ فإن تخلصت من هذا بالحيل ، او الاجوبه العلميه ، فنحن أيضا نملك حيلا و أجوبه علميه. و لات حين مناص . و مما يقال لمن يبطل مئات ايات السلم ببضع ايات تذكر القتال هو إن كان و لابد من الابطال ، بأي حجه من كتاب الله أبطلتم هذه بتلك و ليس تلك بهذه ؟ و لا جواب . إلا بمزاعم من خارجه ، و المزاعم التي تفتري على الله الكذب و تخالف محرمه " و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون" لها موضع خاص في جهنم لا يحسد أهلها عليه . بالاضافه إلى أن هؤلاء و أشباههم ممن يزعمون النسخ في مسائل شرعيه معينه لم يقوموا بدراسه شامله قرءانيه لمسأله السلم و القتال . و لو قاموا بها لعلموا ، و لو علموا لعصموا بتوفيق الله . و

لكن هكذا يؤفك من يخالف محرمه " و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون " . و كيف يكون لأمثال هؤلاء حظ من العلم بكتاب الله إن كانت أصولهم و قواعدهم كلها مبنيه على تسخيف الكتاب و تهميشه و جعل حظ الاسد هو لمروياتهم و اقاويلهم هم و آباءهم . هذا غير معقول ، و غير واقع و لا يمكن أن يقع . عندما تكون قاعدتهم أن هذا هو كتاب الله الذي فيه القواعد و التفاصيل التي ارادها الله ، و هو المرجع الوحيد ، و كل ما سواه فمحكوم به أيا كان هذا الغير و السوى ، سواء كان موسى جبريل ، محمد او المسيح ، زيد او لقمان لا يهم . كل ما سوى الله فمحكوم بأمر الله . هذا إن ثبتت نسبه هذه المقولات للغير ، و أما و فيها ما فيها ، فلا يرى لها وزن في قبال كتاب الحق إلا من لا وزن له يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامه .

التعليق الثالث هوعن النسخ في كلام علماء الفرق. و لفت نظري خصوصا فيه مدى اختلاف أهل الفكر من الاحزاب فيما يتعلق بالنسخ و عدد الايات المبطله. فمنهم من لا يرى النسخ أصلا . و منهم من يرى أن النسخ له معاني غير معاني الابطال ، أي كتقييد المطلق مثلا . ومنهم من يرى أن عدد الايات المنسوخه يصل الى نحو ٣٠٠ آيه . و منهم من يرى أنها ٦ ايات ! . فمن قائل بالمئات إلى قائل بالصفر . فأقل ما نأخذه من هنا أنه لا حرج على مباني هذه الفرق أن لا يقال بوجود مثل هذا الابطال في كتاب الله ، و نقول ذلك لمن لا تزال رقبته غير مفكوكه من اقوال الذين يجرحون و يطعنون في الكتاب العزيز .

و مما يقوله البعض (دراسات في علوم القرآن الكريم ، فهد الرومي استاذ الدراسات القرءانيه في كليه المعلمين بالرياض ص ٤٠٨) أن لمعرفه الناسخ و المنسوخ ثلاث طرق . أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما ، أو أن ينعقد الاجماع من الأمه في أي عصر من العصور على أن هذا ناسخ و هذا منسوخ ، أو معرفه المتقدم من المتأخر في النزول . و جوابنا عن الأول : لكل ايه موضوعها و أهلها و شروطها فلا ابطال . و عن الثاني : هيهات . و عن الثالث : أصل الكفر.

ثم يقول (ص ٤٠٩) " لا يعتمد في معرفه الناسخ من المنسوخ على " و يذكر أربعه أمور: الاجتهاد من غير سند ، و قول المفسر هذا ناسخ و هذا منسوخ ، و التعارض بين الادله ظاهرا ، و تأخر اسلام أحد الراويين . و جوابنا عن الأول : سندنا هو كتاب الله و الله لا يبطل نفسه بنفسه بل لكل أمر مقامه و شروطه و عدم توفر هذه الشروط ليس ابطال للمشروط. و عن الثاني : بديهي ، و من الصحابه الذين يدعون هذا منسوخ او ذلك ممن يقع عندنا تحت هذا البند و إن كان الظاهر أن " المفسر " هو من سوى الصحابه . و عن الثالث : هو أصل دعوى النسخ كما ينقل الدكتور نفسه في الفقره التاليه عن ابن الحصار الذي رواه السيوطي في الاتقان " و قد يحكم به (اي النسخ) عند وجود التعارض المقطوع به ، مع علم التاريخ ليعرف المتقدم من المتأخر " و إن كان ابن الحصار يجعل الاصل في النسخ هو " نقل صريح عن رسول الله- صلى الله عليه و سلم- أو صحابي ، يقول :ايه كذا نسخت كذا". فأما النقل عن بعضه افراد يسميهم صحابه فلا وزن له عندنا إن كان مخالفا لكلام الله و كان دعوى مجرده . و أما النقل عن رسول الله ، فليأتونا بروايه فيها ان الرسول قال " آيه كذا نسخت آيه كذا " ثم ليثبتوا أن الرسول كان يقصد بكلمه "نسخت" ابطلت ، و ليس غير ذلك من معاني النسخ التي كانت تستعمل في ذلك الزمن . ثم لننظر في الأمر. و ابن الحصار نفسه يقول " و الناس في هذا بين طرفي نقيض : فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول ، و من متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهده ، و الصواب خلاف قولهما ". لاحظ أن اليمين المتشدد إن صح التعبير هو الذي يجيز نسخ كلام الله - الذي عندهم حتى يسمى متواترا - بخبر آحادي ، ثم

اليسار المتشدد يجيز ابطال كلام الله يقول مفسر او مجتهد ، و يظهر لك قيمه كتاب الله عند هؤلاء القوم في مثل هذه الاقوال الفاسده . فدعوى التعارض في كلام الله هي التي يقوم عليها النسخ ، ثم بعضهم يجيز ان يتم ابطال كلام الله بقول فلان و علان من الرواه او الافاكين ، و ليس بعد هذا سقوط في هذا المجال . و أما عن الرابع: فكلام لا قيمه له أصلا و فصلا .

و اشاره اخيره قبل أن نختم هذا المبحث هو فيما يقال أنه من "حكمه النسخ" . و منها هو "الرحمه بالتدرج في الأحكام " . و المثال المشهور الذي يضربونه هو شرب الخمر . فأول الأمر أن الخمر كانت حلالا ثم صارت محرمه في اوقات معينه ، ثم صارت منهي عنها ، ثم صارت محرمه . و بدون دخول في تفاصيل هذه الدعاوى ، نكتفي بالاشاره إلى أمر واحد : إن كانت رحمه الله بالخمرجيه في ذلك العصر تقتضي أن يتدرج معهم أربع درجات في أحكامه الشرعيه ، فما بال هذه الرحمه محقت و امتنعت لخمرجيه هذا العصر ؟ أم يا ترى أن خمرجيه ذلك العصر خير من خمرجيه هذا العصر و ما بعده ؟ فلو صدقت دعوى نزول أربعه ايات تتدرج في تحريم الخمر ، و لنفرض أنها الآيت (أ) و (ب) و (ج) و (د) . فإن مقتضى استمرار هذه المصلحه و هذه الرحمه ، هو أن تبقى كل الايات الأربعه على مر العصور صالحه لكل زمان و مكان ، بحيث يتم التعاطي مع كل خمرجي بحسب هذه الايات الاربعه . فأولا نقدم له (أ) كما تدعون أن الله قدم لأهل ذلك العصر، ثم (ب) ، ثم (ج) ثم (د) . ف(د) لم تبطل (ج) ،و لا (ج) أبطلت (ب) . الكل صالح ، كل بشروطه و في حدوده و لكل مقام مقال ، و لكل حاله حال . فإذن مقتضى النسخ أي ابطال اللاحق بالسابق يعني أنكم حجبتم رحمت الله عن الناس و افسدتم تدرجه في ترقيتهم و علاجهم . و أذكر أني قرأت قصه في هذا المجال . و هو أن ملك او رئيس روسيا في زمن ما ، لا أذكر التفاصيل و لكن الاجمال ، استمع لدعوى الدعاه المسلمين فاستحسن ما عندهم ، ثم استمع الى وجوب تحريم الخمر دفعه واحده ، فقال ما معناه : إن قومي اعتادوا على شرب الخمر كشرب الماء و لو عرضت عليهم دينا يحرم ذلك دفعه واحده لكفروا به. او شئ من هذا القبيل . و إن صحت هذه القصه ، و مضمونها المجرد صحيح ، فإن وجود التدرج في تحريم الخمر في القرءآن يدل على وجوب ابقاء هذا التدرج كما ورد . و قل مثل ذلك في كل ما يقال في هذا المجال . و تدبر تفقه ان شاء الله .

...

فالحاصل هو التالي : على الأمه أن تعمل على اخراج الشريعه القرءآنيه ، مجرده مطهره عن السوى و الاغيار ، سواء من حيث القواعد و التفاصيل . ثم بعد ذلك ليفعل كل واحد ما يشاء ، و الله يحكم لا معقب لحكمه و إليه ترجعون .

(أصول أكبريه)

إن المعارف الإلهيه و الأحكام الربانيه و الحكم النبويه تنزلت في القرءآن العظيم . و بعد النبي عليه السلام انتقلت هذه المعارف في الورثه بالحق ، و لكنها لم تدون و تكتب و تكشف كشفا عظيما و بسطا مديدا إلا على يد حضره الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي – سلام الله عليه . فحتى حضره علي عليه السلام ، الذي هو الولي المطلق و

من بركته و مدده استمد من بعده - شعوريا أو لا شعوريا - إلا أن الإمام عليه السلام لم يدون شيئا يذكر من معارفه ، و ما بقي منها ظاهر في أيدي الناس إنما هو النقل و الروايه ، صح أو لم يصح ليس موضوعنا ، و إنما نذكر الكتابه من نفس من تنزلت عليه المعرفه و استمدها بالكشف و الوراثه من النبي الخاتم عليه الصلاه و السلام . و هذا لم يصح لأحد إلا للشيخ الأكبر سلام الله عليه ، فهو الذي كوشف و هو الذي كتب بنفسه ثم نشر ، كما أن النبي عليه الصلاه و السلام هو الذي تنزل عليه الوحي و كتب بنفسه و نشر كتابه في عهده و بقي إلى يومنا هذا بسر " إنا له لحافظون " . و كذلك بقي علم الشيخ الأكبر بنفس السر ، إذ " من تبعني فإنه مني " ، فحفظت علوم الشيخ الأكبر بسر حفظ القرءآن العظيم و الحمد لله . في هذا الباب نريد أن نذكر أصولا و كلمات من حضره ابن عربي ، نستنير بها في موضوع كتابنا هذا ، و إن كان ما لدينا من خير يجد طريقه مباشره أو غير مباشره عند الشيخ الذي أنفاسه كانت خير جنه لنا في هذا الطريق حتى من قبل أن نعقل حرفا واحدا من كلماته العاليه . بل حضوره كان كافيا . و في كل الأحوال ، إن حالنا مع الشيخ لم نذكره إلا لنبين لمن يستفيد ببياننا ، و لكنه لا يؤثر في كا سننقله عنه هنا و نبحث فيه ، إذ للفكره قيمه في حد ذاتها كما أن لها قيمه بالنسبه لمن خرجت عنه ، و الواقع أن الفكره الواحده بل العباره الواحده إذا قالها مؤمن و فاسق ، فإن لها طعما و رائحه و مستوى تختلف فيه من هذا لذاك ، و لا يعلم هذا إلا أهل الذوق الراقي . و من هنا يروي أهل المعرفه أن ابليس - لعنه الله - جاء إلى عيسى روح الله - عليه السلام - و قال له : يا روح الله ، اسجد لله ! فقال عيسى الذوق و الحس العميق : نعم سأسجد لله و لكن لا عن قولك بل لأمر الله . فتأمل هذا الذوق ، فإن السجود لله لأمر ابليس يعطي السجود صبغه ابليسيه ، و يحدها بحد ذاك الناري الغافل ، و إن كان السجود لله نورانيه و روحانيه و قربه من تلك الساحه الشريفه ، إلا أن مجرد اختلاطها حين حلت في القلب بقول ذاك الملعون الناري يجعلها في نفسها مختلطه و مشوبه بشوب من حميم . و هنا ندخل إلى الأصل الأول و هو قول الشيخ في الفصوص و الفتوحات :

(الحكيم هو العليم بالترتيب ، و من الحكمه التمييز بين المراتب) و غير ذلك مما يصب في هذا المضمون . و الذي تشهد عليه كتب الشيخ كلها . و محل الشاهد من هذا الأصل هو مسأله السند في الروايه عن النبي عليه السلام . فقد تقدم ذكرنا لمسأله السند و نقدها بشده ، و أن الفكره لها قيام ذاتي. و لكن هذا ليس كل الحقيقه . بل الفكره لها تقوم أيضا بالسند الذي رويت به . فمرتبه الروايه التي رويت بسلسله ذهبيه ، ليست كمرتبه نفس الروايه إن رويت بسلسله نحاسيه . و مثال ذلك ما روايه ابن رسول الروايات ابن ماجه - رحمه الله تعالى - عن أبي الصلت الهروي قال : عن علي بن موسى الرضا عن أبيه ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم " الإيمان معرفه بالقلب .." ثم يعقب الهروي- رحمه الله : لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق . فهذه الروايه لعلها أبرز الأمثله عن " السلسله الذهبيه" التي ذكرناها . فأين هذه من روايه فيها ناصبي و خارجي و فاسق أموي ، حتى لو كانت بنفس المضمون . " لا يستوون " . و هذا يدور في كل شؤون الحياه المعنويه ، عند من كان يملك حياه معنويه . فإن التعلم بحد ذاته ينصبغ بصبغه المعلم ، و في شؤؤن الدين بالمعنى الأخص ، أي باستثناء ما له تعلق مباشر بكسب المعيشه الدنيويه ، و حتى هذه لها صبغه دينيه في واقعنا و لكن تم حجب هذه الصبغه مع هجوم الحداثه الخبيثه على عالمنا ، فإن بقيه شؤؤن العلم و الذي هو العلم الأعلى المتعلق بالنفس و الوجود عموما و الحقائق و بالأخص الله تعالى الذي هو حقيقه الحقائق كلها و المبدأ و المعاد ، فإن هذا لا يأخذه من كان له عقل و ذوق إلا عن أهل الله و من كان له صله حيه بهم بدرجه أو بأخرى . و قد يتم النظر إلى أصل الإسلام في الراوي ، و يكتفى بهذا في الحد الأدنى من القبول ، مع وجود

معايير أعلى في نخل الروايه - كما سنذكره بعد قليل إن شاء الله عن الشيخ الأكبر . فالحاصل أنه يوجد ثلاث مراتب في مسأله السند :

المرتبه الأدنى هي : قبول السند الذي فيه أهل الإسلام ، و عدم الالتفات إلى أي شئ آخر .

المرتبه الأعلى بدرجه هي : قبول السند الذي فيه أهل الإسلام ، مع اعمال وسائل نخل و غربله للمتن.

المرتبه الأعلى بدرجه هي : عدم النظر إلى السند ، بل أخذ المتن وحده و تجريده عن كل ما سوى الحقيقه الوجوديه الذي يدل عليها ثم قبول هذه الحقيقه .

و المرتبه الأعلى بدرجه - و هي الكمال : أن يكون في السند عرفاء مخلصون ، و أن يكون المتن مشحونا بالحقيقه في أعلى تجلياتها . و هي السند الذهبي و المتن الذهبي .

طبعا يوجد مراتب كثيره و اعتبارات كثيره ، و لكن نكتفي بهذه في هذا المجال . و بالنسبه لأهل الكمال لا يمكن الاكتفاء بمرتبه واحده فقط ، إذ إن هذا ينفي جوانب من الحقيقه و من الميراث النبوي بقدر ما رفض الرافض من مراتب . و لكن الذي عليه كمل الورثه - كالشيخ الأكبر - هو الأخذ بها جميعا في مواضع متعدده ، و لكل مرتبه حدها و حدودها و شروطها . مع إعمال الأصول و المبادئ الأخرى كذلك . و أول هذه الأصول الكبرى ، هي ما عبر عنه الشيخ الأكبر في هذا النص الذي سننقله عنه من الفتوحات المكيه الشريف في وصفه لبعض الفقهاء في زمانه - و أنا أقول في كل زمان تقريبا:

(الفقهاء : الذي يقلدون أهل الاجتهاد - كفقهاء زماننا - و لا علم لهم بالقران و لا بالسنه ، و إن حفظوا القران و رأو فيه ما يخالف مذهب شيخهم لم يلتفتوا إليه و لا عملوا به و لا قرؤوا على جهه اقتباس العلم ، و اعتمدوا على مذهب إمامهم المخالف لهذه الآيه و الخبر ، و لا عذر لهم عند الله في ذلك ، فأول من يتبرأ منهم يوم القيامه إمامهم ، فإنهم لا يقدرون أن يثبتوا عنه أنه قال للناس " قلدوني و اتبعوني " ، فإن ذلك من خصائص الرسول صلى الله عليه و سلم . فإن قالوا : فالله أمرنا باتباعهم فقال "فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " و قد سألناهم فأفتونا . قلنا لهم : إنما نسألهم لينقلوا لنا حكم الله في الأمور و لا رأيهم ، فإنه قال " أهل الذكر " و هم أهل القرآن ، فإن الذكر هو القرآن ، فإذا وجدنا الحكم عند قراءتنا القرآن مخالفا لفتواه تعين علينا الأخذ بكتاب الله أو بالحديث ، و تركنا قول ذلك الإمام إلا أن ينقل إلينا ذلك الإمام الآيه أو الخبر فيكون عملنا بالآيه أو الخبر لا بقوله ، فحينئذ ليس لنا أن نعارضه بآيه أخرى و لا خبر ، لعدم معرفتنا باللسان و ما يقتضيه الحكم ، فإن كان لنا علم بذلك فنحن و إياهم سواء)

مدار هذه الفقره الشريفه هو على أمر يتفرع عنه أمر يتفرع عنه ثلاث أمور .

الأمر الأول هو أن القرءآن مدار هذا الدين كله . فإن (أهل الذكر هم أهل القرآن) و هم الذين أمرنا الله تعالى بسؤالهم إن لم نعلم و لم يكن عندنا علم باللسان و ما يقتضيه الحكم . و هذا ليس إلا تذكير بالحقيقه الكبرى لهذا الدين ، و الذي على العموم يقر به لسانيا الخاص و العام ، إلا أنه لا يعمل بمقتضاه إلا أقل القله ، و لا يوفيه حقه إلا من اختصهم الله برحمته و أخلصهم له .

الأمر الثاني هو قرن الشيخ للحديث و الخبر بالقرءآن و في مرتبه تاليه له . و هذا مبني على أن الحديث النبوي و الخبر المحمدي الصحيح فعلا ليس إلا استمداد من القرءآن ، عرف ذلك من فتح الله له ، و جهله من سوى ذلك . و عمق الفتوحات التي جاءت للنبي الأول عليه السلام ، هي بمكان بحيث أنه ليس من المستطاع أن يدركها إلا من اختصهم الرسول بمدد خاص . إن كان عمق استنباطات وارث للنبي هي من الصعوبه أحيانا بمكان بحيث أن عموم الناس – أي العلماء و من سار في طريق العلم فليس للعوام الأنعام مدخل في كل هذه الأبحاث – لا يستطيعون أن يدركوا الأصول و المبادئ التي بنى عليها ما قاله ، أو بنيت عليه في نفس الأمر حين فتح عليه بها . فها هو فصوص الحكم مثلا للشيخ الأكبر ، عليه أكثر من مئه شرح إلى يومنا هذا ، و لا يزال معظم الناس يقول : لا ندرك سره و عمقه بل لا نكاد نفقه فيه شيئا يذكر . بل إن الشيخ عبد القادر الجزائري – رضوان الله عليه – يذكر أنه رأى حضره ابن عربي في ساحه الرؤيا ففهم منه أن ابن عربي يعتقد أن العلماء لم يحسنوا فهم كلامه . مع العلم أن الشيخ الجزائري توفي سنه ١٣٠٠ هجريه ، و قد وجد إلى ذلك الحين الكثير جدا من هذه الشروحات على الفصوص ، في شرق العالم الإسلامي و غربه . فإن كان هذا كلام وارث للنبي ، و الحق أنني لم أرى إلى الآن شرحا للفصوص يبين الأصول القرءآنيه كلها التي بنى عليها الشيخ ما بنى و التي هي روح ما قاله و سنده العقلي ، فإن كان هذا هو الحال هنا فكم بالأولى أن يكون في كلام صاحب مقام " قاب قوسين أو أدنى " و مشاهد حضره " سدره المنتهى " . فمن الجرأه فضلا عن أنه من الجهاله أن يمعن "المفكر الإسلامي" – بزعمه ، في روايه ، أو في سطح روايه للدقه ، ثم يأتي بآيه – نظر فيها بأسطح السطوح – و يعارض بها الروايه ، أو يأتي بروايه أخرى و نحو ذلك من " النقد العلمي " – أيضا بزعمه . إن الظواهر متناقضه ، هذا مفروغ منه . و لكن حل هذا التناقض الظاهري ، لا يكون بقتل بعضها ببعض ، و لكن بالجمع بينها ، و ليس الجمع هو التلفيق السطحي الذي يقوم به عامه الناس . إنما هو بما نسميه : الجمع الاعتباري الباطني . و سنذكره في الأصول القادمه إن شاء الله فنكتفي هنا بالإشاره إلى أن النظر في الروايات الدينيه بنفس المنطق السخيف لسجناء أسفل سافلين لا يساوي فلسا في أوقات الغلاء . و ليس بأوهن من هذا إلا من يزعم بأنه يوجد أفكار نبويه مبتوره عن حضره القرءآن و فلكه المحيط . و هذا باطل قطعا و جزما و بيقين لا ترديد فيه . بل إنه على حد الشرك لمن عقل . أما قولنا " قطعا " فلأن الشهود قد أعطى أن القرءان في مبدأه الأعلى و في تنزله في هذا القرءآني العربي هو الجامع للدين في علمه و حكمه ، و إنما تتفرق العلوم و الأحكام بعد ذلك في المستويات المتدنيه من الخلق ، و النور كله في القرءآن ، و النبي لا يتبع إلا النور و هو بالنور و هو النور ، فيكون كل ما يصدر من النبي و من كل وارث بالحق له نابع من القرءآن بصوره أو بأخرى . أما قولنا " جزما " فلأن الكتاب العزيز قد نص على أنه تفصيل كل شئ و تبيان لكل شئ ، و أن النبي مأمور بتلاوته و الاستمداد منه و إقامته و الحكم به و بما يريه الله فيه ، مع ملاحظه أن كون الكتاب في نفسه فيه تفصيل كل شئ لا يعني أن كل قارئ للكتاب كيفما اتفق سيكون ممن يرى هذا التفصيل ، فعدم الوجدان لا يعني عدم الوجود و لكنه قد يعني قصور في الساعي . و حكمنا بأن النبي لا يحكم إلا بما في الكتاب العزيز هو حكم بالأمر الواقعي ، و أما معرفه و اكتشاف المؤمن التابع للسند العقلي لهذا الحكم النبوي أو ذاك هو أمر آخر بالكليه . بل إن بعض النصوص الظاهره في القرءآن هي من الأمور المغفول عنها ، بل المكفور بها ، و اقرأ إن شئت "كمثل الحمار يحمل أسفارا " فليس حمل ظاهر الأسفار حجه كاشفه بالضروره عن أن كل حامل سيفقه ما فيه ، و " رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه " . أما قولنا " بيقين لا ترديد فيه " فلأنه قد تواترت خبرتنا و كلمات أهل الله من شيوخنا بأن هذا القرءآن حاصر و جامع للعلم و الحكم كله ، و أن كل من أفلح إنما أفلح بمتابعه القرءآن و الاستمداد منه جمله و تفصيلا ، و ها هو الشيخ الأكبر يقول أن كل ما عنده من علم – كالفتوحات و الفصوص و غيره – إنما

هو استمداد من حضره القرءآن ، و كذلك مولانا جلال الدين في مقدمه المثنوي بل و في ثناياه يقول بنفس الأمر ، و من قبل ذلك الإمام علي عليه السلام و الأئمه العلويين من بعده ذكروا الأمر نفسه و أن كل ما لا يوافق القرءآن مما يروى من كلامهم فإنهم لم يقولوه و ينبغي على المؤمن أن يضرب به عرض الجدار إن خالف القرءآن ، و قد ذكر حضره ابن عربي في هذه الفقره التي نقلناها عنه نفس الأمر و نفى وجود عذر عند أحد في اتباع شئ يوجد آيه قرءآنيه تخالفه و تعارضه . و الخبر و الحديث تابع للقرءآن و هو يدور في فلك أضيق من فلك القرءآن .

الأمر الثالث له ثلاث فروع . الفرع الأول هو أنه على قراء القرءآن أن يقرأوه على سبيل (اقتباس العلم) . و هذا هو العمل الصالح الأكبر . و الأوامر الإلهيه في هذا كثيره جدا ، و يكفي أن هجر القرءآن و أن يخر الناس على آياته صما و عميانا و عدم عقله و التفقه فيه ، هو آيه الكفار و الظلمه و الجهله و المطرودين من ساحه عباد الرحمن . و لكن يوجد أسباب كثيره تحول بين الإنسان و بين أن يقرأ القرءان على سبيل اقتباس العلم ، منها هو الفرع الثاني ، و هو (اعتمدوا على مذهب إمامهم) . و إن كان الشيخ محيي الدين يقصد بالنحو الأولي أتباع فرقه أهل السنه و الجماعه ، فإنه يدخل في قوله هذا كل من يعتمد على إمام معين كالشيعه على اختلافهم و غيرهم من الفرق . باختصار ، يدخل فيها كل من يتعبد بقول إمام معين بدون أن يكون على بصيره بالسند العقلي القرءآني لقول هذا الإمام. فهو اعتماد على شخص ، و ليس على فكره . هو اعتماد على رجال و ليس على الحق . نعم قد يصيب الشخص الفكره القرءانيه ، و قد يصيب الرجال الحق ، و لكن اتباع الفكره القرءآنيه و الحق لأن الشخص الفلاني قالها يشبه من يفسر القرءآن برأيه السفلي و هواه الكفري فهو مخطئ و لو أصاب . فإننا عباد الحق ، و " اعرفوا الحق تعرفوا أهله " . و هذه عباره يقولها الكثير ، و لا يعمل بها إلا القليل . (فيكون عملنا بالآيه أو الخبر ، لا بقوله) أي لا بقول الإمام بنفس قوله . و يقرر الشيخ بأن أول من سيتبرأ من هذا النوع من الأتباع هم الأئمه أنفسهم . و قد ثبت في أئمه فرقه أهل السنه و الجماعه أنهم لم يأمروا أحد بأن يقلدهم على عمى . و قد ثبت أيضا عن أئمه الشيعه الإماميه و غيرهم نفس الأمر ، و إن كان هؤلاء قد أمروا الناس باتباعهم و طاعتهم ، و لكنهم أمروهم أيضا بأن يسألوهم عن الموضع القرءآني أو الحجه العقليه لقولهم ، و أمروهم كذلك بأن يعرضوا ما يأتيهم عنهم على كتاب الله كما نقلنا عن بعضهم في ثنايا الكتاب و هو مقرر أيضا عن أهل القرءآن من تلك الفرق . و قد ثبت في حديث الثقلين أن الثقل الأكبر هو القرءآن و الأصغر هم العتره ، و الأصغر بالضروره يتبع الأكبر و هو مشمول و محاط به . فما ذكره الشيخ الأكبر هنا ينطبق على جميع الفرق الإسلاميه بمختلف مشاربها و ألوانها و ألسنتها . (فإذا وجدنا الحكم عند قراءتنا القرآن مخالفا لفتواه تعين علينا الأخذ بكتاب الله أو بالحديث) و الفتوى هنا مشموله بكونها فتوى علميه أو حكميه ، أي متعلقه بالفقه الأكبر أو بالفقه الأصغر . و واضح أن قول الشيخ (عند قراءتنا القرآن) و لم يقل " و الحديث " ، ثم قوله بعد ذلك (تعين علينا الأخذ بكتاب الله أو بالحديث) أن الحديث الذي يقصده هنا هو الحديث الموافق و المشمول بالقرآن ، فالقرآن حاو في ذاته بالقوه على كل الأحاديث النبويه و المكاشفات الولائيه ، فمن يجمع عشر آيات و يستنبط منها فكره معينه ، علميه أو شرعيه ، فإن هذه الفكره كانت موجوده في القرءآن بالقوه ، و إنما أخرجها من أخرجها إلى البيان و الفعل ببيانه ، و هذا لا يعني أن بيانه مستقل عن القرءآن ، بل هو إظهار له في منطقه وجوديه أخرى ، مناسبه للسان معين و القوم و حال الشخص المستخرج و ظرفه من قبل ذلك . فالمتابعه إنما هي للرسول بما جاء به ، و من سواه لا قيمه شخصيه في فلك هذا الدين إلا بكونه مستمد منه و مما جاء به ، و هو الفرع الثالث و هو قول الشيخ (فإن ذلك من خصائص الرسول صلى الله عليه و سلم) أي أمر الناس بالتقليد و الاتباع . فالإمامه لم تفارق الرسول عليه السلام ، فهو الإمام لم يزل . و قد ثبت ذلك بالعيان و البرهان . و هو الرسول للأولين و الآخرين ، و القرءآن هو مظهره في الأرض

و الوسيله الكبرى للتواصل معه و الاستمداد منه . و إن السر في كون كبار عرفاء الأمه هم من أهل السنه و الجماعه عموما ، هو في أنهم استمروا على الإمامه الروحيه للرسول عليه الصلاه و السلام ، و لهذا مثلا لا تجد عارفا له وزن في الشيعه الإماميه مثلا اللهم إلا لو كان قد استمد من الشيخ الأكبر ، و كذلك مثلا إذا نظرت في التأويلات التي يقوم بها الاسماعيليه للشريعه و تقارنها بما بسطه الحق تعالى على يد الشيخ الأكبر في الفتوحات مثلا أو مولانا جلال الدين في المثنوي فلا تكاد تجد وجها للمقارنه إلا كمقارنه الشموع بالشموس ، و أما الزيديه فلا نعرف لهم عارفا أصلا و كذلك الإباضيه و المعتزله و السلفيه و الوهابيه و من لف لفهم . فلن تجد ورثه بالحق لعلم النبي و حضرته إلا في عرفاء الصوفيه و علماءهم . و في الصوفيه محيي الدين ابن عربي هو الشيخ الأكبر . فالمحصله أن حضره ابن عربي هو الولي الأكبر في الأمه بعد النبي عليه السلام وعترته الخلص ورأسهم علي و فاطمه عليهم السلام إلى يوم الناس هذا ، من حيث ثبوت المعارف بالكتابه و النشر فضلا عن البسط و التفصيل . فابن عربي مظهر العلم و باسطه ، و أما خلص العتره كحضره علي و فاطمه عليهما السلام فإن هؤلاء مددهم ذاتي أكثر منه علمي ، و حضورهم الروحاني هو القيمه الكبرى و ليس تفاصيل المسائل العلميه و الشرعيه ، و إن كانت عباره واحده منهم في هذا المجال تغني عن سبعين كتابا ، و النور الذي يفيض منهم في قلب الوارث هو النور الذي به يستطيع أن يدرك أصلا شؤون العلم و الحكمه العاليه و الأسرار المتعاليه. و في كل الأحوال هم في فلك دون فلك النبي عليه السلام ، فمن استمد فعلا من الفلك الأعلى للنبي فإنه يكون قد استمد بالضروره من كل فلك دون النبي إذ من دونه إنما تفصيل ظهوري لحضرته ، فهو يشبه اسم الله " العزيز " مثلا ، فإن اسم الله هو الفلك الأقصا ، و هو يحوي فيه كل تعينات و تجليات هذا الاسم في كل طبقات الخلق من أعلى عليين إلى أسفل سافلين . و لكن حين يقول القرءآن أن العزه "لله و لرسوله و للمؤمنين " فإن ظهور العزه في الرسول إنما هو ظهور في فلك أدنى من ذلك الفلك الأقصا ، و بالتالي بالضروره يكون فيه قصور عن ذلك الكمال ، و من هنا العبوديه التي تعني القصور و الفقر ، القصور عن الكمال الأقصا لله تعالى ، و الفقر إليه في هذا الكمال النسبي للعبد فكل عزه الرسول إنما هي بعزه الله و بلحظه واحده يمكن أن تنفى كل هذه العزه و يقلب المخلوق كفيه فيجدها صفرا لو شاء الله ذلك ، ثم يأتي فلك المؤمنين الذين هم بالضروره دون فلك الرسول في ذلك ، و الأمر في المبادئ الوجوديه أي العبوديه من حيث القصور و الافتقار اللحظي للمدد العلوي مستمره كما قلناه في الرسول عليه السلام . فكل فلك أعلى يحوي في ذاته كل فلك أدنى منه مما تنزل من لدنه . و بعباره فلسفيه : العله مشتمله على معلولها . و الرسول هو الفلك الأعلى و العله بالنسبه للمؤمنين كلهم ، على درجاتهم و طبقاتهم و مستوياتهم و مراتبهم و مقاماتهم و منازلهم و مقاديرهم . و بالتالي يكون الكل تابع له و مستمد منه ، و منه قال الإمام علي عليه السلام – بعد الوفاه البدنيه للرسول الأول عليه السلام – " أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه و آله " . و الرسول نفسه في فلك أدنى من فلك القرءآن إذ هو تابع له " اتبع ما أوحى إليك من ربك " و " أن أتلوا القرءآن " و " اتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته و لن تجد من دونه ملتحدا " فربه ظهر له في الكتابه ، و تجلى له في كلامه ، فعين استغراقه في كتاب ربه هو عين فنائه في ذات ربه لمن عقل . و بالتالي القرءآن هو الفلك الأعلى ، دونه فلك النبي ، دونه فلك أولى الأمر من المؤمنين ، دونه فلك المطيعين من المؤمنين. و هذه كلها دوائر – بعباره رمزيه – بعضها داخل بعض . فليس الدين الواحد ، دين التوحيد الكامل ، بدين دوائر متفرقه . بل هي أفلاك و دوائر بعضها في بعض ، تبدأ من الفلك المطلق للهويه الأحديه تنزلا إلى ما تحت الثرى . فقول الشيخ أن الإتباع و التقليد محصور بالرسول و هو من خصائصه ، يتضمن قيدا سياقيا ، و هو أنه يتحدث عن المؤمنين ، و لهذا يتفرض أن الحديث تابع للقرءآن مع جعل الأولويه للقرءان ، و لكن إذا نظرنا إلى مرتبه الحديث و الخبر من القرءآن فإن

القرءآن هو الفلك الأكبر و الحديث و الخبر - الصحيح طبعا - هو فلك دونه و تابع له ، و تعرف الصحه بموازين ، و هنا نبدأ بتبيان بعض هذه القواعد التي يعتمد عليها الشيخ الأكبر .

القاعده الأولى : كتب الشيخ في الفتوحات عن حديث معين (الحديث غير ثابت من طريق الروايه ، صحيح المعنى) . و هنا قاعده عامه في تعاطي الشيخ مع المرويات . فقوله (غير ثابت من طريق الروايه) يقصد به السند . أي بحسب المعايير التي وضعها علماء السند ، هذا الحديث غير ثابت . فهل هذا كاف لرد الحديث ؟ الجواب عند الشيخ العاقل هو : لا . إذ يضع المبدأ الأولى بالاتباع من مجرد السند فيقول (صحيح المعنى) . و حتى يتبين بوضوح أشد ما قصده الشيخ بهذه العباره ، لننظر في الحديث الذي حكم له بما حكم . الحديث هو " إذا تجلى الله لشئ ، خشع له كل شئ " . و يعلق الشيخ (و عندنا أن التجلي لا زال دائما ، و إنما جهل الناس به أداهم إلى أن يقولوا أو يقال لهم مثل هذا ، لعدم علمهم) . فموضوع الحديث كما هو واضح متعلق بأشرف و أعلى العلوم على الإطلاق فيما يتعلق بالعوالم النسبيه الكونيه و علاقتها بالله تعالى . فصحه المعنى المقصود بها أنه مطابق للأمر الواقعي . فبغض النظر عن السند إذن ، إذ اعتباره هنا متعلق بالتجريد و ليس بعلاقه القائل بالمقوله ، و إن كانت المقوله منسوبه إلى النبي عليه الصلاه و السلام فهذا يعطيها قيمه أكبر ، و حيث أن الكلمات دوال على واقع ما ، سواء أصابت هذه الكلمات الواقع الذي يفترض أن تدل عليه أم أن السامع القارئ أخذ هذه الكلمه و عبر منها إلى المستوى الذي تدل عليه في واقع الأمر ، فإن تجريد المقوله عن قائلها إنما يتم بأحد هذين الطريقين عند أهل المعرفه في شرق العوالم و غربها . فالطريق الأول هو العبور المباشر من الكلمه إلى واقعها . و الطريق الثاني هو العبور الغير مباشر من الكلمه إلى واقعها . مع ملاحظه أن " واقعها " هنا لا تعني الحصر في مستوى واحد ، بل كل واقع ممكن لها ، و الوجود له مراتب متعدده كم لا يخفى على أهل العرفان و العيان و البرهان . فمثلا إن قيل " الشمس طالعه " . و كان القائل يقصد الشمس الجسمانيه السفليه هذه ، فإن الطريق الأول لقبول هذه الكلمه و العلم بها هو أن نخرج فنرى هل الشمس طالعه فعلا كما دلت المقوله . فإن كانت نعم فبها ، و إن كانت لا ، فيمكن أن نعبر من هذه الكلمه إلى شمس طالعه فعلا ، و مثلا شمس اسم الله التي لم تزل مشرقه و باشراقه ظهرت السموات و الأرض " الله نور السموات و الأرض " ، مع العلم بأنه حتى بالطريق الأول يمكن بل يجب على العاقل أن يعبر إلى ما هو فوق العالم السفلي إذ بالعقل ترقى النفس في منازل الجنه، " اقرأ و ارق فإن منزلتك عند آخر آيه تقرؤها " . و بهذه العين المستبصره ، و الناظره بنور الله ، فإن الأصل في كل المرويات هو الصحه ، و الاستثناء هو للبطلان . و هذه القاعده التي اعتقدها و أسير عليها ما استطعت إلى ذلك سبيلا . فحتى أشد الروايات بطلانا من سبعين حيثيه ، إن استطعنا أن نستخلص منها لبن المعنى من بين فرث و دم الباطل و الوهم ، بل حتى لو كان اللبن حين الفرث و الدم و ملاحظته و الوعي به و ادراك منزلته ، فإن الروايه عندها تصبح عندنا صحيحه المعنى في حدود ما استخلصناه من العلم بها . و على هذا سار القرءآن العظيم في تعاطيه مع مقولات أهل الكفر و الضلال ، و لذلك نقلها كلها ، و هذا ما لم يفقهه الكثير من الناس مع الأسف . و بعباره منطقيه مرتبه نقول : كل آيات القرأن نور ، مقولات الكفار هي جزء من آيات القرءآن ، فإذن في مقولات الكفار نور . و سر كون النبي الخاتم للناس كافه ، هو أنه يرى النور في الناس كافه و يستطيع استخراجه منهم كافه . فهو الخاتم لأنه الجامع ، و أمره هو الأمر الجامع ، و بسطه هو البسط التام ، و الخاتم "من ختم المراتب كلها " كما قال العرفاء . فيوجد آيه كامله في القرءآن تنقل قول فرعون " أنا ربكم الأعلى " . فهل هذه الآيه ظلمانيه ؟ هل هذه الايه القرءآنيه باطله ؟ الجواب : فيها وجه حق حتما ، و فيها معنى نوراني قطعا . و حضره ابن عربي حين استخرج هذه الأنوار من أعماق

المقولات الظلماتيه للكفار و الضلال ، قال عنه أصحاب الحوصله الصغيره بل الفانيه : إنه زنديق ! فكيف يكون لمقوله فرعون وجه حق ؟ و كيف يكون لاحتجاجات قوم نوح وجه حق ! إن هذا لا يعقله إلا من كان ذو عقل نوراني مطلق ، و الطيور على أشباهها تقع . و هنا نجد شاهد آخر لأن عدم فقه الناس في القرءآن هو الذي أضاع و لا يزال يضيع الناس و يلقيهم في التيه اليهودي بحيث أنهم لم يجدوا أرض العرفان المقدسه بعد و لم يقوا على الدخول فيها و السكن في رياض جنانها بعد . و للمره الألف نعيد و سنعيد بلا كلل و لا ملل : ادرسوا القرءآن ، تفقهوا في القرءآن ، تعمقوا في القرءآن ، دراسه القرءآن ركن الأركان ، التدبر في القرءان أعظم صلاه عند الرحمن ، قيمه الإنسان بحسب علمه بالقرءآن ، منزلتك العاجله و الآجله في الجنان هي بمدى حسن قراءتك للقرءآن ، غايه الشيطان صرفك عن القرءآن. و إن كنا نستطيع أن نجد النور في مقولات ابليس و فرعون ، فمن باب أولى أننا نستطيع أن نجده في المقولات التي تنسب إلى النبي و الصديقين و الشهداء و الصالحين من الأولين و الآخرين . و هذا ليس عشوائيه و استنباط كيفما اتفق، إنما هو علم دقيق له موازينه و معاييره و مبادئه و أصوله . و هو بعباره أخرى : ثمره عرض الحديث على أحسن الحديث ، أي عرض المرويات على كتاب الله . و كتاب الله يحول النحاس و الحديد إلى الذهب الابريز . و هو السر الأكبر في هذا الوجود السفلي، و هو الكنز الحقيقي الذي تدور حوله الأمثال و ما يعتقد الجهله أنه مجرد " أساطير و خرافات " . فالحاصل هذه هي القاعده التي ذكرها الشيخ فيما يتعلق المرويات التي سندها غير ثابت و لكنها ذات معنى صحيح ، و قد ذكر هذه القاعده فيما يتعلق بالعلميات ، أما فيما يتعلق بالشرعيات فقد ذكر نفس القاعده و لكنه أضاف ذكرا لوسيله تحصيل هذا المعنى الصحيح .

القاعده الثانيه ، ذكر في حديث " بين كل أذانين صلاه " (الخبر الذي الذي صححه الكشف عن رسول الله صلى الله عليه و سلم " بين كل آذانين صلاه ") و محل الشاهد الأصلي هو قول الشيخ (صححه الكشف) . فهذه الروايه هي صحيحه عند أهل الروايه ، فهي ثابته السند ، و مع ذلك لم يعتبر الشيخ أن هذا كاف كفايه مطلقه في اعتبار الروايه ، و لكنه ذكر كقيد (صححه الكشف) . و يحتمل أن يكون قصده بذلك التصحيح التأييدي و ليس التصحيح الأولي . بمعنى أن الكشف مؤيد لما صححه علماء الروايه . و فرق بين الاحتمال الأول و الثاني . و هو فرق معتبر . إذ على الاحتمال الأول يكون الكشف ضروري في قبول الروايه حتى لو ثبتت سندا و متنا بالمعايير الخارجيه لعلماء الروايه و نقاد الحديث . و الكشف ذاتي ، و هو شأن فردي . و بالتالي لا يعتبر العارف أي روايه إلا إن صحت له بالكشف . و لكن على الاحتمال الثاني يكون الكشف من باب " بلى و لكن ليطمئن قلبي " فالكشف يدخل في هذه ال "لكن" الابراهيميه . فكونه قد صح سندا عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يعتبر كاف للإيمان الأولي ، أي داخل في ال "بلى" الابراهيميه . و لكن الكشف يأتي تحت ال "لكن" الابراهيميه . إلا أن الاحتمال الأول الذي يجعل الكشف قيدا للقبول ، يكون أقرب لمعنى " لا تقف ما ليس لك به علم " و " على بصيره أنا و من اتبعني " . فمن نظر بهذه العين سيقول بعدم قبول أي روايه إلا بعد أن ينكشف له وجه الحق فيها ، و هو يعتبر ظهور وجه الحق هذا هو الحجه في كونها فعلا قد صدرت عن رسول الحق عليه السلام . فالمدار عنده على معنى المتن . و لكن من نظر إلى أن فتنه ابليس كانت أنه نظر بعقله الخاص إلى مضمون الأمر ، بدل أن ينظر إلى الآمر ، إذ قال الله له "ما منعك أن تسجد إذ أمرتك " فمدار الأمر على الآمر ، و السجود هو لكونه قد أمر ، بغض النظر عن المأمور به ، إذ هو الحق الأعلى و لا يحكم عليه شئ بل هو يحكم على كل شئ ، " الله يحكم لا معقب لحكمه " ، فإن كانت طاعته مقيده بقيد غير نفس أمره ، فإن هذا يعني وجود ما هو أعلى منه ، و هو هذا الذي به أطعناه ، فيكون محكوما عليه و دون هذا الحاكم عليه - و العياذ بالله . إلا أن هذا المثل لا ينطبق

على ما يروى و ينسب إلى رسول الله عليه السلام من فلان و علان . بل حتى نفس ما يأتي به الرسل و الأنبياء ، إذ هم " رسل " و " عباد " لله الحق في نهايه المطاف . و قد قيد القرءآن نفسه طاعتهم فقال " استجيبوا لله و الرسول إذا دعاكم لما يحييكم " و لم يطلق : إذا دعاكم . بل فيها قيد الإحياء . و كذلك القيد العام على الاتباع على بصيره و علم ، إذ حتى الشهاده بالحق لا تكفي عند الله ، بل يجب أن يكون العلم مقرونا بها ، إذ حكم سبحانه " إلا من شهد بالحق و هم يعلمون " . فإن قال الجاهل " لا إله إلا الله " فهذه هباء منثورحين يكون الميزان هو " الحق " و "يوم تبلى السرائر". فقد يشهد بالحق و هو من الذين يجهلون ، و قد يشهد بالحق و هو من الذين يعلمون ، و الثانيه هي التي لها القبول . و الكشف الذي هو العقل العالي قابل لولوج كل حقيقه و مشاهده كل واقع . و بهذا العقل عرف التوحيد و كل شؤون الدين ، فقال " فاعلم أنه لا إله إلا الله " و لا يوجد فوق التوحيد في سلم العلم و درجاته ، فإن كان العلم يطال التوحيد ، فما دونه من باب أولى . و هو الذي قرره الشيخ في حديثه عن روايه " إذا تجلى الله لشئ خشع له كل شئ " و هي من روايات العلم ، فقرر ادراكه لصحه معناها ، بالرغم من أنها غير ثابته السند . و في هذه الروايه " بين كل آذانين صلاه " و هي متعلقه بالشرعيات التي يظن عامه الناس أنه مما " لا يطاله العقل " ، قرر الشيخ أنه حديث (صححه الكشف) . فالكشف قادر - بإذن الله و فيضه - على أن يدرك صحه كل معنى علمي أو شرعي . و إن إداك صحه الخبر و النسبه للنبي عليه السلام من مجرد النظر في سلسله الرواه ، كما هو السائد ، لا يفيد يقينا و لا شبه يقين . و مدار الأمر على " علم اليقين " و "حق اليقين " و "عين اليقين " . و سلسله الرواه حديديه ، لا يمكن شم رائحه الورود منها و لو أدخلها الإنسان في أنفه . فهي في أحسن الأحوال تفيد ظنا راجحا . و القرءان قد حدد معايير لطاعه الإنسان ، فقال مثلا " لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا و اتبع هواه و كان أمره فرطا " . و قال " إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " . و واضح للجميع أنه لا يمكن أن نتبين كون أي رواي في حد ذاته أنه من هذه الفئه الصالحه أو تلك الطالحه ، أي نتبين بيقين كاف . فقوله مثلا " أغفلنا قلبه عن ذكرنا" هذه لا يمكن تطبيقها إلا بشهود حال قلب الشخص ، و هي داله على أن عين النبي عليه السلام كاشفه لحال قلوب الناس ، بل هي كاشفه لحال قلوب المخلوقات كلها " ألم تر أن الله يسبح له من في السموات و الأرض " ، و بديهي أننا لا نستطيع أن نعرف إن كان الرواي فلان هو من أهل الغفله هؤلاء ، أو إن كان فاسقا أو لعله صالح في نفسه و لكنه نقل باطلا ، و في هذا القول الأخير تأتي القاعده الثالثه لمحيي الدين سلام الله عليه التي يذكرها في فصوص الحكم .

القاعده الثالثه : كتب في فص حكمه وجوديه في كلمه داووديه ما يلي (الخلافه اليوم ... تزيد و تنقص على الشرع الذي تقرر بالاجتهاد ، لا على الشرع الذي شوفه به محمد صلى الله عليه و سلم. فقد يظهر من الخليفه ما يخالف حديثا ما في الحكم ، فيخيل أنه من الاجتهاد ، و ليس كذلك ، و إنما هذا الإمام لم يثبت عنده من جهه الكشف ذلك الخبر عن النبي ، و لو ثبت لحكم به ، و إن كان الطريق فيه العدل عن العدل ، فما هو معصوم من الوهم و لا من النقل على المعنى) . نقول : واضح أنه يعني بالخليفه هنا الإمام المجتهد ، أي العالم بحق ، و ليس الخليفه بالمعنى السياسي ، إذ الشيخ ينقض هذا المعنى الموضوع في الفص الآدمي و يقرر بأن الخلافه " لم تصح إلا للإنسان الكامل " و الذي هو "الجامع للحقائق كلها " . ففلان و علان ممن يسميهم صاحب الكشاف الزمخشري " اللصوص المتغلبه " ليس حظهم من الخلافه القرءانيه إلا كحظ فرعون من الإمامه الابراهيميه . هذا أولا . و ثانيا ، لاحظ تفريق الشيخ بين الشرع في نفسه و الشرع في الاجتهاد . فيثبت بوفاه النبي عليه السلام تحول النوبه من الشرع في

نفسه إلى الشرع المتقرر بالاجتهاد . و حيث إن للأئمه أي العلماء السلطه العقليه في الاجتهاد في الشرع - في شقه العلمي و الحكمي - فإن حجيه أقوالهم لا تعتمد على أشخاصهم و لكن على أمر خارج ذلك أي أمر متعلق بنفس فتاواهم العلميه و الحكميه . و ثالثا ، يقرر أن كل إمام يتبع (جهه الكشف) في الأخذ بالحديث ، و (إن كان الطريق إليه العدل عن العدل) و هنا محل الشاهد . إذ إنه بهذا ينقض نظريه أصحاب علم الرجال - و هو ظن قوي في أحسن الأحوال كما عرفنا . و سبب النقض هو (فما هو) أي العدل الراوي هذا (معصوم من الوهم و لا من النقل على المعنى) . فإذن يوجد أمرين ينقضان اليقين بوصول الخبر النبوي كما هو ، على فرض أنه نقل عن عدل عن عدل في السلسله كلها ، مع صعوبه هذا إن أخذنا بمعايير متشدده في العداله ، و لكن حتى إن سلمنا بأسهل معايير العداله و هو أن يكون مظهر للإسلام العام و غير مجاهر بالكفر البواح كأن يسب الله و رسوله و يقول بتحريف القرءآن و نقصه مثلا ، فإنه مع ذلك يوجد سببان لعدم حصول العلم بهذا النقل ، و هو أن الراوي العدل " غير معصوم من الوهم " . و يكفي أن يهم راوي واحد ، كالصحابي مثلا ، حتى تم الروايه على سبعه عشر ألف راوي بعده ، و كلهم يقول " حدثني الصحابي فلان ". و لا يوجد حجه عقليه أو قرءانيه أو حتى نبويه بل حتى عن الصحابه أنفسهم في الغالب الأعم - باستثناء أبو هريره الذي يدعي أن له حافظه عجيبه لا تغادر صغيره و لا كبيره إلا أحصتها و معلوم ما قيل في أبي هريره من قبل صحابه فضلا عن غيرهم - لا يوجد أن الصحابي معصوم من الوهم في الروايه . بل من كبار الصحابه من امتنع عن الروايه بسبب خوفه من أن يقع في هذا الوهم بالذات . فحتى إذا أغفلنا النظر في كل العوامل التي تسببت بعد عهد الصحابه - لنقل إلى نهايه القرن الهجري الأول تقريبا - لوضع الروايات أو حتى إذا فرضنا عدم وقوع الوضع بتاتا ، بل يكفي أنها كانت تنقل شفويا في الأعم (و إن كنت أحدس أن المرويات كانت مكتوبه عند خلص الصحابه و كانوا يخفون هذه الكتب حتى لا تطالها أيدي الظلمه و أن الروايه الشفويه مجرد غطاء) فإنه بناء على الفرض السائد و هو أنها كانت تنقل عموما شفويا ، و إنما دونت بعد نحو قرن من الزمان ، و في هذا القرن وقع ما وقع من الفتن و الحروب الداخليه و الخارجيه مما يكفي لأن ينسى العاقل اسمه بسببها فضلا عن أن ينسى روايه سمعها قبل عقود من الزمن ، فإنه حتى إذا افترضنا عدم وقوم شئ من كل ذلك ، بل كان الوضع رخاء و سلام و محبه و هدوء ، " عصر ذهبي " إن شئت ، فإنه مع كل هذه الافتراضات المجافيه لكل ما يقبله الجميع تقريبا ، فإنه لا يمكن إثبات وجود عصمه من الوهم أو عدم نقل بالمعنى . و هذا كاف لاسقاط اليقين عن وقوع النقل كما هو في نفس الأمر . فإذا أضفنا العوالم التي اسقطناها فرضا و جدلا ، فإن الأمر يتضاعف . و لذلك يقول الشيخ الأكبر بأولويه الكشف على السند . بل الحجيه للكشف فوق السند . (و إن كان الطريق فيه العدل عن العدل ، فما هو معصوم من الوهم و لا من النقل على المعنى) . و لكن بالكشف (لو ثبت لحكم به) . و هنا يصرح الشيخ بقاعدته في أن الحديث لا يقبل إلا إن صححه الكشف ، و هو ما أسمنياه الاحتمال الأول بالنسبه لنص الفتوحات المكيه الذي نقلناه قبل قليل . و على ذلك تكون النتيجه هي القاعده التاليه : ما لم تعقله بنفسك و ينكشف لك وجه الحق فيه فإنه ليس بحجه عليك ، و لو كانت الروايه تامه السند بحسب موازين نقاد الحديث . " و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم " فإن وقع اليقين في النفس فهو الحجه . و كلامنا هو عن مسلمين يطلبون الحق و التقرب إلى الله تعالى ، و ليس عن أناس يريدون في أعماق أنفسهم التحلل من حكم الله و رسوله ، فهؤلاء لا شأن لنا بالحديث معهم أصلا . و إنما حديثنا هو عمن ينظر الله إليهم . أي الذي يسعون لمعرفه أمره و طاعته و طاعه رسوله . فهؤلاء هم أصحاب " يأيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا " يفرقون به بين الحق و الباطل ، و الصحيح و السقيم ، و العالي و السافل و ما بين ذلك كله من درجات . و الكشف

أعلى فرقان إذ هو شهود عين المعنى و مداه و مستواه في نفس الأمر و الواقع الكلي و التفصيلي . و كتاب الله هو الفرقان ، إذ به يتم ذلك أيضا و هو وسيله لذلك .

فلنختم مبدئيا هذا الباب ، و رحمه الله على شيخنا العزيز الذي قلبه منجم للذهب الإبريز .

(الأساس العلوي لعلم السند)

لا يخفى على أهل العلم كيفيه رجوع أسانيد العلوم و الطرق في معظمها إن لم يكن كلها تقريبا إلى حضره علي عليه السلام . و باليقين ما أوتيه علي إنما هو من إفاضات النبي و فتوحات ربه له ببركه اتباعه للنبي و في مقامه الخاص كإنسان كامل كذلك . إذ كل إنسان له حيثيه إتباعيه و حيثيه كماليه . الإتباعيه تنشأ من كونه هبط من ذلك المقام العالي الذي للإنسان بالأصاله ، و هو مقام الإنسان الكامل . و الكماليه هي عين كون كل إنسان- بالقوه- مصداق للإنسان الكامل و أحد تعيناته . في هذا الباب نريد أن ننظر في روايه جامعه فيما يتعلق بعلم الروايات ، منقوله في نهج البلاغه للشريف الرضي - رضوان الله عليه . و هي الروايه الوحيده المتعلقه بنقد ما رواه " الصحابه " . و معلوم أن علم سند الحديث كما نشأ لاحقا عند أهل السنه خصوصا نظر إلى رواه طبقه الصحابه بالأخص على أنها طبقه معصومه عمليا ، إن لم يكن نظريا أيضا . فلا نقاش في روايه فيها صحابي من حيث أنه صحابي ، أي لا يمكن أن يقال : طالما أن عمرو بن العاص في الروايه فهي ضعيفه ، كما يقال مثلا حين يكون جابر الجعفي في روايه عند البعض فإنها تقتضي الضعيف لأن جابر ضعيف أو كذاب أو أي شئ من هذا القبيل . و هي نظريه " عداله الصحابه " المشهوره التي لا تحتاج إلى شرحنا . فإذ قد عرفنا أن الروايه هي سند و متن ، سند من

الرواه ، و متن هو المبنى و المعنى ، أي المبنى اللساني و المعنى الضمني ، فإذ قد فرغنا من النظر في شأن المتن فيما سبق ، لا أقل في حدود هذا الكتاب ، فلننظر أيضا نظره أخرى في جانب السند ، و لكن بعين علويه . فتعالوا ننظر .

..

" و من كلام له عليه السلام و قد سأله (سائل) عن أحاديث البدع و عما في أيدي الناس من اختلاف الخبر " . هنا نلاحظ أن " أحاديث البدع " و " اختلاف الخبر " كانت قائمه في ذلك الزمان ، و هو زمان لا يزال عدد كبير من علماء الصحابه و رجالهم حيا يرزق ، لا أقل في زمن فيه الإمام علي عليه السلام . و مع ذلك ، فإن مجرد وجود هؤلاء لم يكن كافيا لمنع ذلك ، أما لماذا فسنرى أحد أسباب ذلك بعد قليل إن شاء الله حين ننظر فيما قاله حضره المولى عليه السلام . فالذي يظن أن نشوء الاختلاف في الخبر هو بسبب " عدم كتابه الأحاديث " فقط ، أو " عدم وجود علماء الصحابه بيننا " فقط ، أو نحو ذلك ، فإنه لا يستطيع أن يفسر بنظريته هذه انتشار " أحاديث البدع " و "اختلاف الخبر " حتى في زمن علي عليه السلام ، بل إن سؤال السؤال يوحي بأن هذه الظاهره كانت قائمه من قبل ، بل كانت أيضا مشهوره إذ يقول " عما في أيدي الناس " فهو لا يقصد فئه قليله من الناس هنا أو هناك ، و لكن يبدو أنها ظاهره عامه ، " أيدي الناس " . فيأتي جواب الإمام فيقول:

(إن في أيدي الناس : حقا و باطلا ، و صدقا و كذبا ، و ناسخا و منسوخا ، و عاما و خاصا ، و محكما و متشابها ، و حفظا و وهما) . فهذه سته أقسام للحديث . و أهم ما يهمنا بالأخص هو عين ما بدأ به علي عليه السلام جوابه ، أي القسم الأول و الثاني (حقا و باطلا ، و صدقا و كذبا) . ضع في بالك أن هذا متعلق بروايات تصدر عن " الصحابه " و ليس عن من سموا بالتابعين و من سوى ذلك . فالروايات في هذا الزمن هي روايه صحابي ينسب إلى النبي مباشره ، لا أقل في الغالبيه العظمى من الأحوال . و بالتالي يجب أن يتم تفسير نشوء هذا في روايات مباشره ليس فيها عنعنه و لا حدثني و حدثنا على النمط الذي عليه ظاهر المرويات بعد ذلك . و قول الإمام (ناسخا و منسوخا) واضح أنه متعلق بالأمور الأرضيه المتغيره الظرفيه ، إذ لا نسخ في الحقائق ، فالحق حق لا يمكن إبطاله . و كذلك كل حكم شرعي ينشأ في ظروف و شروط معينه ، يعتبر حقا في حدود هذه الظروف و الشروط و لا يمكن إبطالها ، إذ الحكمه حكمه و لا تصبح فسادا كائنا ما كان الزمان أو المكان . فالعلم بالناسخ و المنسوخ يقتضي العلم بسياق الروايات و شروطها و أحيانا بزمن صدورها. و يؤيد ذلك أيضا قوله (عاما و خاصا) و العام – كما سيفسر الإمام بعد ذلك – (و قد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه و اله الكلام له وجهان : فكلام خاص و كلام عام) هو هو نفس الكلام ، له وجه عام و وجه خاص . فالعام هنا يبدو أنه يقصد به الذي لعموم الناس ، و الخاص الذي هو لخواصهم . لأن الكلمه الواحده لا يمكن أن تكون عامه و خاصه ، بمعنى أن تكون حاويه على قاعده كليه و استثناء جزئي مثلا ، مثل قوله تعالى " كل نفس ذائقه الموت " أو " لكل أجل كتاب " ، فإنه كليه عامه يندرج تحتها كل خصوصياتها و تعيناتها . فالأرجح أن العام هو الذي لعموم الناس ، و كقاعده عامه ينبغي السير عليها في حدودها ، و لكن الخاص هو للنخبه أو من لهم فهم خاص و عقل أعلى في مقاصد الله و رسوله المتعلقه بالمعارف بالأخص . فالحاصل أن بتقسيم علي للأحاديث النبويه أو المنسوبه للنبي لسته أقسام يكون قد وضع أساسا فوق مجرد معرفه صحه النسبه إلى النبي ، أي كون الروايه صدقا أو كذبا . فقد يروي الراوي

ما سمعه حرفا بحرف ، و لكن مع ذلك يكون قد أغفل أمورا أخرى متعلقه بالسياق الذي وردت فيه الروايه أو غير ذلك مما يغير معناها بالكليه .

(و لقد كذب على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على عهده ، حتى قام خطيبا فقال " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ") و هذه الروايه عن النبي عليه السلام ، أي " من كذب علي متعمدا " هي - كما ذكرنا من قبل - لعلهامن أصح أو فعلا أصح روايه في كل الكتب ، بحسب أي معيار نقدي يتخذه الإنسان . و هنا يظهر الإمام أن الدافع الذي أشعل نار هذه الروايه النبويه هي وجود الكذب عليه على عهده صلى الله عليه و آله . فحتى في ذلك العهد ، وجد كذب على النبي عليه السلام . و واضح أن الذين كانوا يكذبون على النبي عليه السلام ليسوا اليهود أو المجوس ، و لكن هم ممن إذا قال " قال رسول الله " فإن الطرف المقابل سيقبل منه قوله ، لا أقل مبدأيا ، لأن القائل من " صحابه النبي " في الظاهر على الأقل . فاختلاق الروايات و نسبتها إلى النبي ، بدأت في عهد النبي الأول عليه السلام نفسه . و هنا تساؤل : إن كان الذي يتعمد الكذب على النبي حتما من المنافقين الذي باطنهم رافض لصدق النبي في دعواه النبوه أصلا ، فهل يعقل أن يكون علاج النبي لظاهره الكذب عليه محصور في توعده للكاذب بالنار ؟ أيعقل هذا و الكاذب المتعمد قد كفر بالقرءآن الذي هو كلام الله فأنى له أن يقبل كلام نبي الله و يتخذه على أي نحو من الجديه ؟ إ ن هذا يشبه تهديد ملحد حداثي بالنار إن استمر على إلحاده ، و هو لا يصدق بالنار أصلا . الجواب : إن هذه الروايه جاءت للمؤمنين ، و مضمونها هو أن المؤمن الذي يروي روايه عن النبي لا يعلم صدقها و صحه نسبتها إليه عليه السلام ببرهان ، فهو داخل في هذا الوعيد . و التعمد في الكذب هو في تعمد روايه حديث بدون الاجتهاد في معرفه صدقه من كذبه ، و حقه من باطله . و أما الطريق إلى معرفه صحه الروايه من لا ، هو نفس المعيار الذي قام به علي ثم أهل العلم من الأئمه و هو معيار العرض على كتاب الله كأصل ، بالإضافه إلى الأمور الأخرى الثانويه ، و كل ما سوى العرض على القرءآن ثانوي له . فهو اليقين و الصراط القويم و القسطاس المستقيم الذي يزن العلماء به الأمور . فالمعنى إذن هو التالي : من لم تكن له حجه قرءانيه على صحه معنى الحديث المنسوب للنبي ، و مع ذلك حدث به ، فليتبوأ مقعده من النار . و " لا تقف ما ليس لك به علم " .

(و إنما أتاك بالحديث أربعه رجال ليس لهم خامس) و الأربعه كلهم من " الصحابه " بالبداهه . و هم : المنافق ، و المؤمن الغير حافظ ، و المؤمن الغير عالم ، و المؤمن المخلص الحافظ العالم . فالثلاثه الأوائل أحاديثهم إما مرفوضه بالكليه أو بالجزئيه . مما يعني أن ثلاثه أرباع الأحاديث ، بحسب هذه القسمه الرجاليه ، تعتبر أحاديث غير كامله و تحتاج إلى تدقيق أكبر . فإن كان أكثر الأحاديث كذلك ، فهذا يعني أن الأصاله في الحديث أنه ناقص من جهه ما ، أو مكذوب بالكليه ، و الاستثناء أن يكون صحيحا و كاملا . و قد انعكس هذا لاحقا حين قال مثل الإمام البخاري رحمه الله أنه اختار صحيحه من كم هائل من الروايات ، المكرر منها و الغير مكرر ، و كان ما اختاره لا يمثل إلا القله ، و كذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله الذي من بين مليون اختار نحو أربعين ألفا. فما ذكره الإمام علي عليه السلام هنا هو أمر ثابت بقوله و ثابت أكثر بالشواهد الفعليه التي مر بها علماء الحديث حين قاموا لعظيم مهمه تنقيه ميراث المسلمين الحديثي ، و مع ذلك بقي ما بقي من أمور كثيره تحتاج إلى مزيد تدقيق خصوصا من حيثيه الأصل الأكبر الذي هو القرءآن . ثم يفصل الإمام عن الأربعه فيقول .

(رجل منافق ، مظهر للإيمان ، متصنع بالإسلام ، لا يتأثم و لا يتحرج . يكذب على رسول الله صلى الله عليه و آله متعمدا . فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه و لم يصدقوا قوله ، و لكنهم قالوا " صاحب رسول الله صلى الله عليه و آله رأى و سمع منه و لقف عنه " فيأخذون بقوله. و قد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ، و وصفهم بما وصفهم به لك . ثم بقوا بعده عليه و آله السلام فتقربوا إلى أئمه الضلاله و الدعاه إلى النار بالزور و البهتان ، فولوهم الأعمال و جعلوهم حكاما على رقاب الناس ، و أكلوا بهم الدنيا . و إنما الناس مع الملوك و الدنيا ، إلا من عصم الله . فهو أحد الأربعه)

إن كان يوجد شئ يمكن أن نأخذه و نكتفي به من هذه الإجابه العلويه ، وما سيتلوها إن شاء الله ، هو أن نظريه " عداله الصحابه " باطله بالكليه . لا الصحابه في عهده على قدم سواء في الإيمان و العلم و صدق اللهجه و لا من بعده . و لكن في هذه الفقره الأولى يوجد أمر خطير ، و هو أيضا يكشف عن سبب مهم يفسر انتشار أحاديث البدع و الاختلافات و الكذب على الرسول . و هو استمرار ظاهره النفاق ، و علو مرتبه المنافقين بعد وفاه النبي عليه السلام . أما عن استمرار ظاهره النفاق ، فإن الحجه الكافيه عليها هي ما قال الإمام (و قد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ، و وصفهم بما وصفهم به لك) و هي الحجه القرءآنيه العادله الكافيه . فالذين يزعمون أن كل أهل النفاق الذي تحدث عنهم القرءآن ، فجأه اختفوا كلهم بعد وفاه النبي ، لا نعرف كيف أمكنهم أن يقولوا هذا القول، اللهم إلا إن كان أصحاب هذا القول هم من المنافقين أنفسهم أو من شيعتهم و أهل التنظير لهم . و العجيب أنه فعلا بعد وفاه النبي عليه السلام لا نجد كلاما عن المنافقين و شؤونهم ، و كأنهم فعلا اختفوا من الساحه فجأه . فلا نسمع إلا بمن سماهم أعداءهم " المرتدين " ، و أما " المنافقين " أو ما سوى ذلك فلا نسمعه على الإطلاق . بالرغم من أن النبي قد وضع معايير لمعرفه المنافق من غيره، كقوله عليه صلى الله عليه و اله عن علي " لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق " و لكن كيف يمكن أن يسمى كل من يبغض عليا ، و البغض موقف عملي أكثر منه موقف شعوري ، فالإيمان قول و عمل و اعتقاد ، كذلك النفاق قول و عمل و اعتقاد ، فالحب و البغض ليسا فقط " مشاعر " و "عواطف " تطوف في الهواء ، و لكنها تتمثل في أقوال و أفعال و اعتقادات . و هذا ما أسس له من نعتقد أنهم استمراريه ظاهره النفاق ، و هي تحويل هذا المعنى بالكليه ليصبح مجرد عواطف فارغه لا تقدم و لا تؤخر ، و لا يعرف في كلام الله و لا كلام رسوله أي شئ عن استعمال الحب و البغض بهذا المعنى العاطفي الفارغ و الذي لا وزن له فعلا إن أخذنا الأمور بكليه و ليس باختزاليه . و لهذا رتب النبي على البغض الحكم بالنفاق ، و معلوم أن " آيه المنافق ثلاث : إذا حدث كذب " . فإن كان الذي يبغض عليا منافق ، و المنافق إذا حدث كذب ، فهذا يعني أن كل من يبغض عليا ، قولا أو فعلا أو اعتقادا ، فهو كذاب مرفوض الحديث . مثل هذه النتيجه تعتبر كارثه ، خصوصا إذا عرفنا من علماء الروايه أنهم غالبا ما يوثقون الناصبي و يجرحون الشيعي . فعكسوا الأمر النبوي تماما . و غير ذلك من معايير . فمثلا حين يقول النبي " كتاب الله و عترتي أهل بيتي " فيأتي أحد و يقول: كتاب الله و هوى نفسي ، فعندها يعتبر هذا قد دخل في أمر آخر . و حين يقول " من كنت مولاه فعلي مولاه " و " أقضاكم علي " فيأتي أحد و يتقدم على علي ، أو يدعي معرفته بالقضاء فوق معرفه علي ، فإنه يكون قد كشف عن مقامه في هذه الأمه . فالحاصل أن النفاق مستمر . و له أسباب و آيات معروفه . فهذا جانب . و الجانب الآخر و هو علو أهل النفاق بعد وفاه النبي عليه السلام . فمن هم (أئمه الضلاله و الدعاه إلى النار) الذين كان بيدهم السلطه الكافيه لكي (فولوهم الأعمال و جعلوهم حكاما على رقاب الناس) و الذي يصدق عليهم لقب (الملوك و الدنيا) مما يعني الملوك الدنيويين بقرينه كونهم ضلال و دعاه إلى النار ؟ قد يقال : هذا معاويه ! و

الجواب عن هذا التخريج الضعيف هو التالي : أولا إن علي يتحدث عن (أئمه الضلال و الدعاه إلى النار ..فولوهم الأعمال و جعلوهم حكاما على رقاب الناس) و أحسب أنه حتى أكبر ناصبي لن يشكك في علم علي بالعربيه و دقته اللغويه و بلاغته اللسانيه و المعنويه . و كلمه " أئمه " و "الدعاه " و "فولوهم" و "جعلوهم" تدل على جمع . و ليس على فرد . ثانيا ، إن علي هنا يشرح أحد أهم أسباب انتشار الكذب و البدع و نسبتها إلى النبي عليه السلام ، و يفسر انتشار ذلك ، و ظاهر أيضا أن قبول الناس من هؤلاء المنافقين كان بسبب وجود نظريه عداله الصحابه في أذهانهم ، أو لا أقل جوهر هذه النظريه ، و معاويه لم يكن في زمن علي يملك إلا الشام ، و انتشار هذه النظريه و استحكامها في قلوب الناس و انتشار الأحاديث الكاذبه و البدعيه لابد و أنه كان من قبل ذلك بزمن . و قول علي (بقوا بعده) يدل ثم قوله (فتقربوا إلى أئمه الضلاله) و الفاء قرينه إضافيه على أن تقربهم هذا بدأ بعد وفاه النبي عليه السلام مباشره أو بفتره قصيره . و معاويه لم يكن يملك من السلطه في ذلك الحين حتى يعتبره علي أنه قادر على أن يولى من يشاء على الأعمال و يجعلهم حكاما على رقاب الناس . فأقل ما يقال هو أن هذا بدأ من عهد عثمان . و لكن من تتبع ما ذكرناه هنا ، و قارنه بما قبل عثمان فسيجد أنه يرجع حتى إلى ما قبل ذلك . و بهذا يصح الجمع و يكون دقيقا على الدقه العلويه المعهوده . و ثالثا هو أن علي عليه السلام لم يكن يكني و لا يواري في الحديث عن معاويه و عمرو و من أشبه ذلك. بل كان يذكرهم بالإسم و يصرح بأعمالهم القبيحه ، كقوله أن معاويه ليس أدهى منه و لكنه " يغدر و يفجر" . و غير ذلك . و هذا لا يعني بالضروره أن علي كان يكني و يواري في إجابته هذه ، و لكن ذكر الأسماء لم يكن في صلب الإجابه ، و لكن كان بسبيل تأسيس الأصول للنظر في علم الحديث . و لذلك لم يضرب أمثله لأحد من الرجال الأربعه ، فهو لم يقل المنافق كفلان ، و الغير حافظ كفلان، و الغير عالم كفلان ، و الكامل كفلان و فلان . فهو لم يكن بصدد تبيان مصاديق هذه الأقسام الأربعه، فضلا عن ما تم ذكره عرضا في سياق شرحها . و الذي يهمنا من القسم الأول هو التنبه لكل راوي من " الصحابه " ممن كان محببا مقربا و واليا لأعمال الأئمه من بعد النبي عليه السلام حتى عهد معاويه . أي من أبي بكر و عمر و عثمان و معاويه خصوصا . و هذا لا يعني طعنا في كل هؤلاء جمله و تفصيلا ، حاشا لله ، و لكنه يعني مزيد تدقيق في ما رووه بالأخص .

(و رجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه فوهم فيه) و هذا طبيعي جدا و كل إنسان يخبره في حياته . و هنا يظهر الوهم بسبب عدم الحفظ . مما يعني عدم الكتابه . أي هو لم يحفظه لأنه لم يكتبه كما سمعه . و هذا لم يكن شأن الجميع ، فقد كان من الصحابه من يكتب حديث النبي، و في اعتقادني الباطني هو أن الأحاديث مكتوبه و إنما أظهر أهلها أنها تتناقل شفاها حتى لا يهجم عليهم الظلمه الذين أرادوا محق الحديث النبويه و يتلفوا لهم هذه الكتب و يحرقوها ، و الأمثله معلومه . و في اعتقادنا الباطني أيضا أن كل أحاديث النبي ، لا أقل المهمه منها ، محفوظه و قد وصلت كلها في المجاميع الحديثيه عند مختلف فرق المسلمين ظاهرها . فالله حفظ لنا الميراث كله ، و كنوز نبينا و رسولنا باقيه ، تحت جدار يريد أن ينقض فأقامه أو غير ذلك . (و لم يتعمد كذبا ، فهو في يديه و يرويه و يعمل به و يقول " أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و آله " فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ، و لو علم هو أنه كذلك لرفضه) . فهنا صحابي مؤمن صادق ، عامل بما يقول ، مخلص في روايته . فهو مصادق للسند التام بحسب المعايير السائده . و مع ذلك قد وقع في وهم ، إذ إنه يروي بالرغم من أنه لم يحفظ الحديث على وجهه ، و لا ضامن لعصمته في الحفظ و الروايه . و الحل لهذا ، و هو أمر معروف ، إذ قد أمرنا الله أن نكتب الدين القليل و نشهد عليه حتى يكون أقسط عند الله و أقوم للشهاده و أدنى أن لا نرتاب في

كميه الدين و شؤونه ، و لهذا كتب من كتب أحاديث النبي التي فيها نور الحياه العاليه و التي هي أهم من بضعه دراهم فانيه ! و لكن هنا الخلل دخل من عدم الحفظ على الوجه الكامل ، و هذا مما لا يمكن أن نعرفه البته بمجرد النظر فيما قال الصحابي الصالح التقي المخلص . فضلا عن أن نعرف ذلك عن طريق تحليل و نقد سلسله الرواه من بعد هذا الصحابي الصالح المخلص . و لهذا لابد أن يكون معيار الكشف عن ذلك كأصل فوق و ما وراء مجرد التأكد من وجود سلسله رواه أتقياء برره . فالله تعالى لم يقل في الدين المالي " إن كانوا أتقياء برره فلا تكتبوه " . لأن الحفظ شئ ، و التقوى شئ آخر . فقد يكون أتقى الناس أضعفهم ذاكره . فالعداله الشخصيه لا تغني شيئا في هذا المجال ، و إن كانت مفيده من حيثيه ما .

(و رجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا يأمر به ثم نهى عنه و هو لا يعلم ، أو سمعه ينهى عن شئ ثم أمر به و هو لا يعلم . فحفظ المنسوخ و لم يحفظ الناسخ . فلو علم أنه منسوخ لرفضه ، و لو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه) و هنا وجوب أن توجد سنه النبي كامله ، أي حاويه على الناسخ و المنسوخ ، أو لا أقل فيها ذكر للناسخ و المنسوخ ، حتى يستطيع المسلم أن يعرف مرتبه كل واحد منهما و شؤئنه و حدوده . و بالتالي وجوب الحفظ الكامل للسنه النبويه . و إلا فالنقص فيها قد يؤدي إلى العمل المنهي عنه بدون علم من العامل . فلا بصيره بدون الحفظ الكامل للسنه النبويه . و هذا سبب آخر لكتابه من كتب ، و إن أخفى ما كتب ثم نشره لاحقا .

(و آخر رابع : لم يكذب على الله و لا على رسوله ، مبغض للكذب خوفا من الله و تعظيما لرسول الله صلى الله عليه و آله ، و لم يهم ، بل حفظ ما سمع على وجهه ، فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه و لم ينقص منه ، فحفظ الناسخ فعمل به ، و حفظ المنسوخ فجنب عنه ، و عرف الخاص و العام فوضع كل شئ موضعه ، و عرف المتشابه و المحكم) فهذا هو الراوي الداري ، أي الذي ملك الروايه و الدرايه . و لكن السؤال هو كيفيه معرفه هؤلاء من قبل أهل القرون التابعه . أي كيف نعرف مثلا إن كان عمر أو زيد أو سلمان من الصحابه هو بهذه الصفات الكماليه أو أنه قصر في بعضها . إما أن الرسول عليه السلام عين لنا من نأخذ الروايات منهم ، لا أقل كأصل ، و إما أنه لا سبيل بالمره إلى معرفه ذلك . فقد يروي صحابي روايه – صحابي بالمعنى العام – و يأتي صحابي آخر و يخطئه فيها ، و الأمثله كثيره و مشهوره ، و قد تكون التخطئه بتصحيح نفس الروايه أو عرضها على القرءآن أو على المنطق الذهني العام أو الخاص المؤيد بنطاق الوحي و معطياته الأساسيه . فما السبيل إلى حل ذلك إن كان " كل الصحابه " على درجه واحده في ذلك ، أو كان ينبغي على المسلم أن يقبل منهم جميعا على قدم سواء . هذا لا حل له ، إذ الروايات اختلفت عن صحابه " عدول " . و قد يقال أن " أهل البيت " فقط هم المرجع ، و لكن السؤال هو : أي أهل البيت؟ إن كان المعنى هو " كل من تولد من الحسين و الحسين على قدم سواء " ، فإن هذا أيضا لا يستقيم . إذ إن من كبار هؤلاء من اختلفوا عن بعضهم البعض ، فالأمر سيان مع اعتبار كل الصحابه على قدم سواء ، اللهم إن السؤال انتقل إلى طبقه أخرى ، و قد قال علي في وصفه لأهل البيت المقصودين بعبارات النبي بالخصوص " لا يخالفون الحق و لا يختلفون فيه " ، و من الأمثله المشهوره على وقوع هذا الاختلاف بين العلويين هو الاختلاف في تعيين المهدي في نهايات الدوله الأمويه ، إذ كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب – رحمه الله – الملقب بعبد الله المحض ، والد محمد الملقب بالنفس الزكيه – رحمه الله – كان يدعي أن ولده محمد هو المهدي ، و سعى لإتمام البيعه له ، و اجتمع معه الكثير جدا من الهاشميين (و الذي يبدو أن منهم من كان لا يزال يظن أن الدين هو مسأله قبليه ، و أن دين محمد هو دين الهاشميين و جاء لتشريفهم على النحو القبلي

- و العياذ بالله) ، فلما جاء الإمام جعفر الصادق عليه السلام رفض أن يبايع ، بل صرح بأن هذا ليس المهدي الموعود به إذ وقته لم يحن بعد ، فاتهم عبد الله المحض الإمام جعفر بأنه " يحسد" ولده ! سبحان الله ، يتهمه بأنه يكفر بالمهدي الموعود بسبب مرض خبيث يهودي أي " الحسد " . فكان ما كان من مقتل ابن المحض ، و ظهور صدق علم و حكم الإمام جعفر عليه السلام . فإن كان كل علوي ، عالم و صالح ، و عبد الله المحض كان شيخا معظما و كذلك ولده محمد ، و مع ذلك ادعيا أو ظنا و نزلا أمر المهدي على باطل ، بل إن صحت روايه صاحب مقاتل الطالبيين عن آخر بنات الإمام علي عليه السلام ، و التي قالت أن علي قال أن آخر أولاد سيشهد المهدي ، أو نحو ذلك، فنزلت ذلك على نفسها إذ كانت هي آخر أولاد علي (الجسمانيين حسب تأويلها رحمها الله) ، و كانت لذلك تعتقد بأن المهدي سيكن في عهدها و زمنها و لذلك يقال أنها أيدت ولد عبد الله المحض. و إن صحت هذه الروايه عن علي ، فإن تنزيلها بمعنى جسماني دموي ، أي فهم قول الإمام " أولادي" و " أبنائي" بنحو دموي ، و ليس الأبناء الروحيين و الذي هو مدار الأمر الحقيقي ، " يا علي أنا و أنت أبوا هذه الأمه " ، فإنه يفضي إلى إبطال قول علي و تكذيبه ، و لكن مره أخرى ليس كل "أولاد" علي و الحسن و الحسين على قدم سواء في الفقه و العلم و التقوى . فالحاصل ، لا يمكن اعتبار قول النبي " عترتي أهل بيتي " كل من تولد جسمانيا من الحسن و الحسين هكذا كيفما اتفق . بل إن كبار عرفاء الأمه و أصحاب الحقائق العاليه فيها لم يكونوا من العلويين بالمعنى الدموي في الأكثر من الأحيان . فابن عربي و جلال الدين الرومي و السكندري و الترمذي و النفري و الجنيد و البسطامي و غيرهم من الكبار ، أو حتى علماء الفقه الأصغر الكبار أو غير ذلك لم يكونوا في الغالب من العلويين دمويا ، و إن كانوا كذلك روحيا في الكثير من الأحيان إن لم يكن كلها . فقول النبي "عترتي وأهل بيتي " ليس مشاعا بين كل علوي . هذا أقل ما يقال . و إن كان - كما حققناه في موضعه - العامل الرئيسي في العتره هنا ليس " كلامهم " إذ العلم في كتاب الله ، و لكن هو "ذواتهم" و ثم "حضورهم" و ثم " مثالهم " للتأسي بهم على المستوى الظاهري في بعض الأحيان . إلا أن الأمر الأكبر في العتره هو عين ذواتهم النورانيه ، و ولايتهم هي إفاضه لهذا النور على قلب السالك حتى يستضئ فيرى القرءآن بعين النبي ، فيقرأ القرءآن بعين " أئمه يهدون بأمرنا " و ليس بأعين "أئمه يدعون إلى النار " . هذا بحسب أحد طرق الوصول إلى الله و سبله . و للسلام سبل كثيره ، و هذا هو الطريق العام ، و حتى أهل الطريق الخاص لابد في مرحله عاجله أو آجله أن يعرفوا حق أئمه العتره الطاهره ، إذ " يا علي لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق " فمنزل حب علي و ولايته هو منزل أساسي في طريق العرفان و لا بد .

(و قد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه و اله الكلام له وجهان : فكلام خاص و كلام عام) و هذا نقض من بين سبعين نقضا لنظريه " سطحيه الكلام النبوي " الباطله . أي التي تعتبر أن كلام الله من قبل و كلام رسوله عليه السلام فضلا عن كلام الأولياء من بعده عليه السلام هو كلام سطحي له بعد واحد ، و هو البعد " العامي " . و كما أن الوجود و الكون له مستويات و اعتبارات ، و من قبل ذلك كما أن لله أسماء حسنى ، فإن العلم و الكلام لابد و أن يكون له أبعاد و مستويات تتناسب مع الذي يتم الكلام عنه ، فالكلام دوال ، و المدلول هو الوجود كله ، و الدال تابع للمدلول ، شعوريا أو لا شعوريا ، و حيث أن المدلول عليه له مراتب فكذلك الدوال لها مراتب ، و أشد ما يصدق هذا في كلام أهل الله من الأنبياء و الأولياء الذين كلامهم هو النور الذي يكشف حقائق الوجود و سر الوجود و الكون . (فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله به و لا ما عنى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) لاحظ كلمه " يعرف " هنا و في روايات كثيره ، و من قبل ذلك في القرءآن ، فإنها الأصل في كلمه " العرفاء " و

" المعرفه " و " العرفان " و ليس حيث يذهب أصحاب الأباطيل إلى الصليبيين و المتفلسفين . و لاحظ كذلك أن المعرفه متعلقه هنا بما وراء السماع و فوقه . فهذا السامع قد سمع كلام رسول الله صلى الله عليه و اله فعلا . لا يوجد مشكله في نفس السماع من الرسول . و هو سمع الكلام كله من حيث حروفه و تركيبه اللساني . و لكن الخلل دخل من حيثيه أخرى ، و هي مستوى عقل السامع و مرتبته العلميه . فهو لم يعرف " ما عنى " الله و رسوله به . فمن حيث المبنى هو عارف، و لكن من حيث المعنى هو غير عارف . فضل بذلك عن التحقيق المطلوب . و لا يخفى أن هذه سمه مهمه جدا و يمكن أن نعتبرها " خفيه " من حيث التنظير ، و لكن في نفس الأمر يوجد طريق لمعرفه سطحيه الإنسان من عمقه و علوه ، و ذلك إما بالنص عليه أو بدراسه نتاجه العلمي و تحقيقه الفكري و كشفه العرفاني . فمثلا الشيخ الأكبر ، فلا يوجد نص قرءاني و لا نبوي و لا علوي عليه باسمه و وصفه الشخصي ، و لكن لا يوجد محقق يمكن أن يصف الشيخ مهما اختلف معه بأنه سطحي مثلا أو ساذج . كيف عرفنا ذلك ؟ من ميراثه العلمي . و قس على ذلك . و لكن في مجال الروايات مسأله الميراث هذه قد لا توجد إذ ليس كل راوي له ميراث علمي بسط فيه عقله و أظهره للناس حتى نستطيع أن نميز ذلك بذلك . (فيحمله السامع و يوجهه على غير معرفه بمعناه و ما قصد به و ما خرج من أجله) الحمل و التوجيه هو شأن ما بعد الروايه ، أي بعد أن يسمع الروايه النبويه يعمل بها عملا من خارجها يكون مصداقا لهذا الحمل و التوجيه ، كأن يفتي فتوى عقائديه أو شرعيه باستعمالها ، أو كأن يسأله أحد عن سؤال فيجيبه بروايه روايه معينه ، فيكون نص الروايه محمولا على الإجابه عن هذا السؤال المعين فيقيد فقه الروايه في هذا السؤال و ما يقتضيه . و هذا أيضا له أمثله كثيره . و أساس الحمل و التوجيه هو بإدراك ثلاثه مراتب معرفيه ، و هي (معناه) و (ما قصد به) و (ما خرج من أجله) . فالمعنى متعلق بالكلام في ذاته ، و القصد متعلق بوجهته التي أرادها القائل ، و الخروج هو السبب الذي دفع إلى خروج هذا القول أو الأمر أصلا . أي هي حيثيات الكلام و جوانبه المختلفه ، الذاتيه و العرضيه . فهو الإحاطه بالكلام .

(و ليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم ، من كان يسأله و يستفهمه) هنا مره أخرى نقض لنظريه " وحده الصحابه " إن صح التعبير . و " كل أصحاب رسول الله " أي كل من أسلم ممن عاصره في ذلك الزمان الأول ، يبلغ عددهم مئه ألف أو يزيدون ، و كل المرويات الموجوده و الفتاوى لا يزيد عدد أربابها عن خمسه آلاف صحابي ، مع الغلو الشديد المفرط . أي أقل من خمسه في المائه فقط . و الباقي لا حس له و لا خبر و لا أثر يذكر ، كأنه لم يكن . و إن كان مثل عمر بن الخطاب - رحمه الله - يقول أحيانا " شغلني الصفق في الأسواق " أي عن بعض أمر النبي و سنته ، بينما كان مثل أبي سعيد الخدري و هو من صغار الأنصار شاهد على ما لم يعلمه عمر من ذلك . فإن من سوى ذلك من الصحابه ممن لا اسم له و لا أثر أقل من ذلك بكثير . فعباره علي عليه السلام ملطفه جدا لواقع الحال ، و فيها من الأدب الشئ الكثير الذي لا نحسن مثله (حتى أن كانوا ليحبون أن يجئ الأعرابي و الطارئ فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا) و هذا لا يعني أن هؤلاء كانوا لا يبحون العلم ، حاشا لله ، و لكن كانوا أحيانا من هيبه رسول الله أو غير ذلك من الأحوال الروحيه و المعنويه التي لا شك أنه يمر بها من انفتح قلبه على الحقيقه المحمديه الآسره في عظمتها و التي هي كطوفان نوح من جمالها و جلالها ، بل حتى مثل أبي بكر و عمر و عثمان و من سوى ذلك من الأصحاب - رحم الله الصالحين منهم أجمعين - لم يكونوا بالسوء المطلق الذي يصورهم به من يغالي في النظر من حيثيه واحده دون الأخرى ، بل كانوا من أصحاب مقامات معينه و مشارب خاصه ، و كلها مقامات و مشارب لها خصوصيتها و حجتها ، كائنه ما كانت ، بل حتى من قال للنبي " اعدل يا محمد " فإن النبي تركه يعيش . و لولا أن النبي علم أن في هذا القول آيه إلهيه معينه ، لما تركه ، و قوله

" لا يتحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه " هو من الكلام الذي له وجهين ، فوجهه العام هو ما ينظر إليه عوام الناس ممن يظن أن النبي يتعامل بمعايير خارجيه و سياسيه ، و لكن الوجه الخاص هو أن النبي سماه من " أصحابه " و بالتالي له صله معينه به ، و هو معبر عن مقام خاص له ، علم ذلك من انفتحت بصيرته و جهله من غلا في دينه و نظر إلى غير الحق الماورائي . فالصحابه كلهم عدول من هذه الحيثيه ، و ليس حيث يذهب غلاه البكريه و الأمويه . فهؤلاء الصحابه الذين يصفهم علي عليه السلام بأنهم (يحبون أن يجئ الأعرابي و الطارئ فيسأله عليه السلام فيسمعوا) هم من المحبين للعلم ، و إلا لما أحبوا أن يسمعوه أصلا ، و لما أحبوا أن يجئ الأعرابي و الطارئ ليسأله عليه السلام . و لكن كما ذكرنا ، فإن الأحوال تختلف ، و ليس الكل قد أوتي القوه المعنويه و الاستعداد القلبي من أجل أن ينال مقام المشافهه و التكليم النبوي العالي ، لا أقل أن هؤلاء الصحابه المقصودين يبدو أنهم كانوا على حال يمنعهم من الدخول على الرسول في مسائل العلم مباشره . ثم يصف الإمام مقامه هو في هذا الشأن فيقول .

(و كان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألت عنه و حفظته) لأنه المصداق الأكبر لقوله عليه السلام "أنا مدينه العلم و علي بابها " . فولايه الإمام هي ولايه علميه في الأصل ، و ما الولايه الملكيه إلا فرع من الفروع ، تتناسب قيمتها بقدر قيمه الدنيا نفسها ، و التي هي في عباره النبي " لا تساوي جناح بعوضه " ، فلذلك قال علي عن مقام الملكيه الدنيويه هذا بأنه لا يساوي عنده " عفطه عنز " ، و إنما هذه العبارات بالنسبه لمقام الملكوت و الآخره العليا ، و أما الأرض في ذاتها أو من اعتبارات أخرى هي مزرعه الآخره و مظهر العرش الأعلى . فاحفظ الاعتبارات و الزوايا ، و لا تحمل كل الكلام على مستوى واحد فتضل و تتناقض و تتضارب المعاني في ذهنك .

(فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم ، و عللهم في رواياتهم) . لاحظ أن الإمام عليه السلام لم يذكر شيئا عن التفريق بين هذه المرويات – لا أقل في هذا الجواب – على مستوى الأخذ أو عدم الأخذ بها . فكل ما يقوم به هذا الجواب هو أنه يسقط نظريه تساوي الصحابه في العداله الشخصيه أو الدقه الروائيه ، هذا أولا . و ثانيا ، يسقط اعتباريه كل روايه من حيث هي روايه منسوبه إلى النبي عليه السلام ، أي يسقط نظريه تساوي الروايات من حيث الصحه و الدقه الظاهريه بل و المعنويه في بادئ الرأي . إلا أنه عليه السلام لم يذكر شيئا عن رد الأحاديث بلا تمييز . و كذلك لم يذكر أسماء كأمثله للأصناف الأربعه فضلا عن أن يستقصي هذه الأسماء . فكأن الإمام يقول : هذه الأحاديث التي بأيديكم فيها حق و باطل ، إلا أنه لا طريق لمعرفه الحق و الباطل بالنسبه لكم بالنظر إلى العداله الشخصيه أو الدقه الروائيه و الفقهيه للرواه فردا فردا . فكيف نحاكم هذه المرويات لنعرف حقها من باطلها ؟ يأتي الجواب من أمير المؤمنين في مواضع أخرى من كلامه . نذكر هنا موضعين فقط ، ففيهما كفايه لمن عقل .

الموضع الأول هو في وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام . حين ذكر له ما يريد أن يعلمه إياه و يقصره عليه ، قال " و أن أبتدئك بتعليم كتاب الله و تأويله ، و شرائع الإسلام و أحكامه ، و حلاله و حرامه ، لا أجاوز ذلك بك إلى غيره " . و الموضع الثاني في عهده المشهور لمالك الأشتر – رحمه الله و رضي عنه – إذ قال " و اردد إلى الله و رسوله ما يضلعك من الخطوب و يشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله و الرسول . فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ، و الرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعه غير المفرقه " .

لاحظ بدايه التعليم و الذي لا يريد الإمام أن يجاوزه إلى غيره ، هو كتاب الله . و ثم سنه الرسول ، و لكن بقيد و شرط و هو أن تكون هذه السنه جامعه غير مفرقه . فالمحوريه لكتاب الله تعالى مطلقه ، و لكن الأخذ بالسنه الرسوليه مشروط بأن يكون بعد كتاب الله – و البعديه هنا بعديه مرتبه و ليست بعديه مجاوزه و مفارقه إذ ليس بعد الحق إلا الضلال – و بأن تكون سنه جامعه غير مفرقه . فهي مقيده بقيدين . أن تأتي بعد القرءآن ، و بالتالي محكومه به و مهيمن عليها و هي مستظله تحت سلطانه و سابحه في أفلاكه ، هذا القيد الأول . و القيد الثاني ، أن تكون جامعه غير مفرقه . و لكن ما معنى " الجامعه غير المفرقه " ؟ إن عباره " الجامعه " تغني عن ذكر " غير المفرقه " إذ هذا معنى الجامعه ، هكذا هو مقتضى النظر في بادئ الرأي . و لكن الإمام أراد أن يؤكد معنى الجامعيه هنا و هي الجامعيه التي ضد التفريق . فهل هذا معناه أنه يوجد من سنه الرسول صلى الله عليه و آله ما يفرق بين المسلمين ؛ حاشا لله . و لكن المقصود هو الجامعه بين المسلمين ، الغير مفرقه بينهم . أي السنه التي تجمع بين المسلمين ، فهي خارجه عن السنه التي هي في الواقع ليست بسنه نبويه ، و لكنها من السنن التي أحدثها و ابتدعها قوم و نسوبها إلى الرسول ، و كل ما كان محدثا يكون سببا للفرقه بين علماء الأمه الصادقين . و من هنا قال من قال بأهميه كون الروايه مما أجمع عليه المسلمون حتى يكون مضمونها مقبولا و محتجا به . إلا أنه لا يخفى مقدار صعوبه احراز مثل هذا في كل روايه روايه . فالروايات موجوده بأيدي العلماء و الأمه منذ القدم ، و ليس هذا بشرط سهل احرازه فضلا عن أن مشارب العلماء و الأئمه مختلفه ، فمنهم من يصحح الروايه بناءا على مباني و منهم من ينكرها بناءا على مباني أخرى . و هذه المباني كلها قد أسست على فتوحات ربانيه منذ البدء و بناءآ على ذوق و اجتهاد العالم من بعد ذلك . فالمسلمين كالحديقه التي فيها ما لا يحصى من الأشجار ذات الألوان المختلفه ، و كلها تسقى بماء القرءآن الواحد . فالتمييز بين هذه الروايه و تلك بناءآ على ذوق العلماء و اجتهادهم ، مستحيل نظريا و عمليا ، إذ سيؤول الأمر برد العلماء إذ ذوق أحدهم ، و ليس لأحدهم بحجيه خاصه دون الآخر في ذلك ، و سيؤول بالأمر إلى أن يتم حصر المناهج في الشرب من القرءآن في مشرب واحد دون مرجح قاطع بحجه قرءآنيه أو غير ذلك . و حتى إن قيل مثلا من قبل شيعه إمام معين أو فرقه من الأئمه ، كالإثنا عشر عليهم السلام ، بأن أقوال هؤلاء هي الحجه في فهم القرءآن و السنه ، فإن فهم أقوال هؤلاء عليهم السلام هو في حد ذاته يختلف من حيث المشارب و المناهج و الأذواق التي تقتضيها الكثره الأسمائه لله تعالى و التي بسبب ذلك يستحيل أن يتم اختزالها في الظاهر إلى واحديه ما ، و أظن أن أربعه عشر قرنا من ممارسه الإسلام و التفاعل مع القرءآن و المرويات قد أثبتت ذلك بما لا مزيد عليه لمن لم يعقل حقيقه ذلك في المستويات العليا من الوجود ، فالسنه بفرقهم و الشيعه بفرقهم و كل ما سوى ذلك من فرق و طوائف ستبقى إن شاء الله ما بقي الدهر ، من حيث الظاهر على الأقل ، و إن كان الجمع المعنوي بينهم ممكن بل واقع ، و هي الوحده الباطنيه المتعاليه . فالذي يبدو لنا هو أن قول الإمام عليه السلام "الجامعه غير المفرقه " تعني السنه التي تجمع الإنسان بالقرءآن ، و لا تفرقه عنه . لأن ما سوى ذلك ليس بسنه أصلا ، و لكنه كذب على رسول الله حتما ، أو هو جهل من الناظر في الروايه بحقيقه معناها ، أدى به إلى أن يخالف بنفسه و الناس عن القرءآن . فكل ما استظل بالقرءآن فهو حق حتما. و لا يظل عرش الحق إلا حقا . فكل روايه فيها حق ، ظاهر أو خفي ، فهي روايه صحيحه من هذه الحيثيه ، و إن كانت غير صحيحه من حيثيات أخرى .

فهذا يدعوا إلى التالي : أن يتم تأسيس قواعد قرءانيه لكل موضوع من المواضيع العلميه و الحكميه . و بناءآ على هذه القواعد يتم محاكمه كل روايه ، و كل مقوله ، شرقيه أو غربيه ، قديمه زمانيا أو حديثه . و ليس فقط قواعد بالمعنى العمومي الذي يمكن أن يندرج تحته أي شئ ، و لكن قواعد بالمعنى الذي يفرق بين الحق و الباطل ، و

الصدق و الكذب ، و الأعلى و الأدنى . و في الواقع فإن كل استنباط من القرءآن ، في مسأله صغرت أو كبرت ، دقت أو جلت ، هو قاعده يمكن أن تستعمل من أجل نخل المرويات و المقولات و الأفكار و الأهواء . و لا حجه لإنسان أمام ربه أقوى من الاحتجاج بالقرءآن .

(خاتمة)

الذي حدث هو ان اغلب الذين ائتمنهم الله على هذا الكتاب العزيز و هذا الدين الخالص في فتره الحجاب اضطروا من حيث شعروا ام لم يشعروا أن يفعلوا التالي:

اولا, اعرضوا عن الايات الكثيرة جدا, المباشرة و الغير مباشرة, التي تدل على ان كتاب الله مفصل تفصيلا, فقد فصل الله كل ما يريد ان يفصله لنا, و ان وجد شئ لم يفصله فهذا يعني انه لا يهتم به او على الاقل انه ترك هذا لنا لنعرفه بانفسنا. و لكن ما يريد ان يفصله فقد فصله. فلا يحق لاحد ان يتكلم باسم الله و ينسب الى الله اي شئ جملة او تفصيلا الا من هذا الكتاب العزيز. و ما سوى ذلك فهو اجتهاده الشخصي, و لعل الله يوفقه او لا يوفقه فهذا يرجع الى كل شخص و حالته.

ثانيا, انهم ابتكروا مصدرا اخر للدين, و اختلفوا فيه اشد الاختلاف, اختلافا ليس برحمة, و لا تنوع, و لا يمكن الا ان يسبب الفرقة و يوقع العداوة و البغضاء بين اتباع هذا الدين العظيم, فهو اضر من الخمر و الميسر, و قد وقع فعلا, و تحولوا الى احزاب, و اصبح لكل منهم ارباب, و نبذوا وراء ظهورهم الكتاب, فألبسهم الله شيعا و اذاق بعضهم بأس بعض. و هذا المصدر الثاني "السنة" و هو المهترئ الاصل و القاعدة بحسب تأسيسهم , جملة و تفصيلا, فانه اصبح ذريعة لخلق مصدر ثالث اشد اهتراءا منه و اضعف قاعدة و هو

ثالثا الاجماع. هذه الاسطورة الغير جميلة, حجة من لا حجة له, زعم من لا عقل له, وسيلة اسكات المخالف الذي يأبى ان يكون خروفا في قطيع. و من هذا الاجماع الوهمي و غيره بنوا اصلهم الرابع و هو

رابعا القياس, و ان القياس هو من اساسيات العقول, و لكنهم احاطوه بكثير من التكهنات و الفذلكات, حتى تشوه اجمل ما فيه .

ثم توالت الاصول و الامور بعد ذلك.

فتأمل هذا البناء العجيب لبعض من هؤلاء الاحزاب المغالين: قاعدتهم الكذب على الله , بنوا عليها كذب على نبيه, بنوا عليه خرافة الاجماع, بنوا عليه قتل العقول الحرة. "أفمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم" و لا قوة الا بالله.

و أما الحق فهو تطهير بيت الله من هذه الاصنام كلها ، و الاخلاص لله وحده بالاستغراق الكلي في كتابه و الانطلاق منه بعد ذلك فيما تريد ان تنطلق اليه، و النظر في اي شئ تريد ان تنظر اليه و لكن بالعيون التي تصبح عندك كنتيجه للاخلاص للكتاب العزيز.

"ان الحكم الا لله. يقص الحق, و هو خير الفاصلين"

.....

الفهرس

١٢- اعمال الرسول في الكتاب العزيز

١٣- افك عدم تدوين القرءآن على عهد الرسول

١٤- الشريعه القرءآنيه

١٥- أصول أكبريه

١٦- الأساس العلوي لعلم السند

١٧- خاتمه